

ول ديورانت

مباهج الفلسفة

الكتاب الأول

ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني

تقديم: إبراهيم بيومي مذكور

تقديم هذه الطبعة: سعيد توفيق

الطبعة الثانية



ميراث الترجمة

2/1945

مباهج الفلسفة

الكتاب الأول

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1945/2

- مباحث الفلسفة: الجزء الأول

- ول ديورانت

- أحمد فؤاد الأهواني

- إبراهيم بيومي مذكور

- سعيد توفيق

- الطبعة الثانية 2016

هذه ترجمة كتاب:

Pleasures of Philosophy

(Part I)

by: Will Durant

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

مباحج الفلسفة

الكتاب الأول

تأليف: ول ديورانت

ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني

تقديم: إبراهيم بيومي مدكور

تقديم هذه الطبعة

سعيد توفيق



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

ديورانت، ول
مباحج الفلسفة: الكتاب الأول / تأليف: ول ديورانت، ترجمة:
أحمد فؤاد الأهواني، تقديم: إبراهيم بيومي منكور، تقديم هذه
الطبعة: سعيد توفيق؛
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٣٢٨ ص، ٢٤ سم
١ - التعليم - الفلسفة
(أ) الأهواني، أحمد فؤاد (مترجم)
(ب) منكور، إبراهيم بيومي (مقدم)
(ج) توفيق، سعيد (تقديم)
٢ - العنوان
٢٧٠،١

رقم الإيداع: ١٥٢٩٤ / ٢٠١١

الترقيم الدولي: 4 - 723 - 704 = 977 - 978 - I.S.B.N

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تقديم

بقلم: سعيد توفيق (*)

ليس هذا بكتاب أكاديمي متخصص في الفلسفة، بل كتاب موسوعي في الفلسفة، لا يسعى إلى البرهنة على قضية معينة من قضاياها، ولا إلى تقديم رؤية فلسفية لموضوع محدد، وإنما يسعى إلى ارتياد كل الأفاق الرحبة من مجالات المعرفة الإنسانية التي يمكن للفلسفة أن ترتادها؛ ولذلك فإنه يتسع بحيث يمكن أن يشغل اهتمام المتخصصين في الفلسفة، مثلما يشغل اهتمام غيرهم من المشتغلين بسائر مجالات المعرفة الإنسانية. كما أن مؤلف هذا الكتاب ليس فيلسوفا بالمعنى التقليدي المتعارف عليه، أعني أنه ليس صاحب مذهب أو اتجاه فلسفي معين ينسب إليه، ويشار إليه بالبنان، كما عهدنا ذلك في الفلاسفة على كثرتهم واختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم؛ ولكنه مؤرخ للفلسفة في المقام الأول، وإن كنا نعدده مؤرخا من طراز خاص رفيع؛ فهو ليس مجرد مؤرخ للفلسفة يرصد أفكارها ويحللها، ويكشف عن مصادرها وصلتها بسياق عصرها وتطورها وتأثيرها في عصور تالية، كما هو الحال - على سبيل المثال - لدى مؤرخ الفلسفة الشهير فريدريك كوبلستون F. Copleston. وإنما هو مؤرخ للفلسفة مفتون بها؛ ولذلك فهو لا يقنع بمجرد رصد الوقائع المستمدة من دراسة تاريخ الأفكار وتطورها، ومن المشاهدات الخفية للأحداث والظواهر والطبائع التي يجدها المؤرخ في حياة الشعوب والأمم والحضارات التي يدرسها ويعاينها بنفسه في رحلاته حول العالم؛ بل نراه مفتونا بما

(*) كاتب وناقد، أستاذ الفلسفة المعاصرة و علم الجمال، ورئيس قسم الفلسفة بأداب القاهرة.

درسه وشاهده وعينه؛ فراح يتأمله ليتفهم معناه، ويستبصر مغزاه، ويدلي برأيه فيه. وبعبارة أخرى يمكننا القول بأننا إزاء مؤرخ فيلسوف، وإن كانت فلسفته لا تتمثل في مذهب أو اتجاه فلسفي معين، وإنما تتمثل في رؤيته لمهمة الفلسفة ذاتها ودورها الذي يمكن أن تضطلع به في حياتنا. ذلك هو ول ديورانت الذي عرفه القارئ العربي منذ أكثر من نصف قرن، ولا يزال يذكره إلى الآن من خلال كتاباته الشهيرة المترجمة إلى العربية من قبيل: "قصة الفلسفة" و"قصة الحضارة".

إن المؤلف في هذا الكتاب مشغول بتصوير رؤية الفلسفة ذاتها للحياة؛ فالفلسفة عنده ليست مجرد تصورات ومصطلحات ومفاهيم عويصة تشغلنا عن وقائع الحياة ذاتها، وإنما هي فلسفة تحاول أن تفهم الحياة التي نعيشها، وأن تكشف عن سائر المشكلات الإنسانية، لتتبين وجه الحق فيها، وذلك من خلال لغة سهلة سلسلة متاحة لفهم القارئ العادي. والواقع أن الدافع وراء تأليف هذا الكتاب الموسوعي - كما نلمس ذلك من مقدمة المؤلف نفسه - إنما هو ذلك التغير المتسارع والمروع الذي زعزع حياة الإنسان المعاصر على نحو غير مسبوق، وهدد منظومة قيمه المستقرة، سواء في مجال المعتقدات العقلية أو الدينية أو الأخلاقية أو الفنية أو السياسية: ومن ذلك - على سبيل المثال - التغير الذي لحق بطبيعة الحياة في تحولها من القرية إلى المدينة الصناعية، وهو التغير الذي أدى إلى ارتفاع شأن العلم على حساب مكانة الفن ودوره في حياتنا. ومن ذلك أيضاً التغير والاضطراب الذي طرأ على منظومة الحياة الأخلاقية بوجه خاص، سواء فيما يتعلق بالمبادئ الأخلاقية ذاتها، أو فيما يتعلق بشؤون التربية الأخلاقية ومعنى الأسرة ودور المرأة ومعنى الحب والجنس والسعادة.. إلخ.

ولأن المؤلف مشغول بمشكلات الحياة العملية، فمن الطبيعي أن نجد بين ثنايا كتابه تناولاً لمسائل ليست مطروقة في البحث الفلسفي الدقيق أو المتعارف

على مسأله الكبرى، وذلك من قبيل تناول المؤلف لعلاقة القانون الزراعي والقانون الصناعي بتغير الأخلاق، والاختلاف بين الرجال والنساء، والتغير الذي طرأ على المرأة الحديثة، وانهايار منظومة الزواج.. إلخ. فتناول مثل هذه المسائل لا يمكن أن نجده إلا عند الفلاسفة غير التقليديين الخارجيين على تقاليد البحث الفلسفي، من أمثال شوبنهاور ونيثشه وأشباههما. ولكن ما يبرر البحث في هذه المسائل أن المؤلف مشغول في المقام الأول بمشكلات الحياة العملية، وربما يكون هذا نفسه هو السبب في أننا لا نجد توازنا في مساحات التناول المخصصة لفصول هذا الكتاب: فالجزء الرابع من الكتاب الأول المخصص للمشكلات الأخلاقية، ينطوي على فصول عديدة تستغرق أكثر من نصف هذا الكتاب، في حين أن الأجزاء المخصصة للمنطق أو الإستمولجيا (نظرية المعرفة) أو علم الجمال، لا تساوي في مجموعها المساحة المخصصة لمعالجة المشكلات الأخلاقية. وربما يرجع السبب في هذا إلى أن المشكلات الأخلاقية تتعلق بصميم مشكلات الحياة التي يعنى بها هذا الكتاب. وربما يكون هذا هو السبب أيضا في أن ول ديورانت لا يولي مبحث "الميتافيزيقا" المكانة التي تليق به في الفلسفة، فهو يخصص له نحو عشرين صفحة، في مقابل مبحث الأخلاق الذي يحتل نحو مائتين وخمسين صفحة، رغم أنه من المعروف أن الميتافيزيقا أو مبحث الوجود هو أول مباحث الفلسفة وأساسها الذي يمكن أن يقوم عليه أي بحث آخر فيها! ومن هنا، فإننا لا يمكن على الإطلاق أن نقارن بين ما كتبه ول ديورانت عن الميتافيزيقا، وما كتبه فيلسوف عملاق مثل هيدجر عن الميتافيزيقا أو البحث في الوجود في كتابه "الوجود والزمان" الذي صدر سنة ١٩٢٧، قبل صدور هذا الكتاب الذي بين أيدينا بعامين. فمثل هذه المقارنة سوف يكون ظالما في حق ول ديورانت؛ لأننا في هذه الحالة نعقد مقارنة بين الدور الذي يليق بالفيلسوف بالمعنى الأصيل، والدور الذي يليق بمؤرخ

الفلسفة، حتى إن كان مفتونا بالفلسفة ودورها في حياتنا! ولست أهدف من وراء هذا الكلام إلى التقليل من قيمة إسهام ول ديورانت، وإنما أهدف، فحسب، إلى توصيف دوره ومهمته الفلسفية، وهو دور لا يقوى عليه إلا الأشداء في البحث الفلسفي المضني؛ لأنه يفتش في وقائع التاريخ عما يشكل الأفكار الفلسفية، ويبحث في الفكر الفلسفي ذاته عما يمكن أن يلمم شتات الوقائع المتغيرة المضطربة في رؤية كلية واحدة. تلك هي مهمة الفلسفة الأصيلة: البحث عن الواحد في المتغير، كما قال الخالد أفلاطون.

وفي ضوء هذا يمكن أن نفهم مرامي هذا الكتاب؛ فهو يسعى إلى إدراك الكل، أي إلى الرؤية الكلية التي تلمم شتات الأفكار الجزئية المبعثرة هنا وهناك، والتي نتركنا في حيرة من أمرنا. وتلك مهمة الفلسفة التي تسعى إلى إدراك الوحدة في التغير والتعدد والاختلاف، أي إلى إدراك المعنى الذي بدوره تصبح الحياة نفسها خاوية لا قيمة لها. وتلك هي دلالة عنوان هذا الكتاب: "مباهج الفلسفة" الذي تم اختياره بديلا عن العنوان الأصلي: "قصور الفلسفة"؛ لأن هذا العنوان الأخير من شأنه أن يصور مباحث الفلسفة كما لو كانت قصورا منعزلة بعضها عن بعض، ولكن عنوان "مباهج الفلسفة" ربما يوحي بأن الفلسفة ذاتها لها دور حيوي مبهج، حينما تتأى بنا عن حالة الحيرة والفوضى والاضطراب بسبب استغراقنا في الجزئيات المتضاربة والمتعارضة والمتغيرة على الدوام، وكأنها بذلك تقدم لنا رؤية كلية للمسائل التي تؤثر تأثيرا حيويا في رؤيتنا لقيمة الحياة الإنسانية ومعناها. إن مباهج الفلسفة تسكن شتى قصورها في مملكتها الرحبة مترامية الأطراف، حتى إن كانت بعض المداخل والدهاليز المؤدية إلى هذه القصور تبدو خالية من السحر والجمال، كما هو الحال بالنسبة للمنطق من حيث هو مدخل للفلسفة، "وكان الفلسفة (بذلك المدخل) قد أخفت جمالها عن أعين الغرباء، وأوجبت على طلابها أن يمرؤا

خلال هذه المحنة أولاً، حتى يثبتوا جدارتهم بالمشاركة في مباحثها العزيزة، على حد تعبير ديورانت البليغ في معرض وصفه للفلسفة باعتبارها "ملكة العلوم". فالمنطق بذلك هو مجرد أداة تتيح لنا التعبير عن معاني الفلسفة الكلية التي تيهجنا، وتوصلها للآخرين بحيث يمكن أن يشاركونا تلك البهجة. وبذلك فإن مباحث الفلسفة هي نعمة لا يمكن أن ننالها إلا حينما نمر من خلال دروب ودهاليز، إلى أن ندلف إلى قصورها التي ترقى فيها معرفتنا، وتعم برؤية صافية للمعاني الكلية للأشياء التي لا يمكن أن تبلغها أية نفس وضيفة غارقة في تشويش اللحظي والجزني والعاير، ولا تعرف كيف تسمو عليه. وبذلك الروح في الفهم ينبغي أن نستقبل هذا الكتاب.

غير أن هذه الروح ذاتها في الفهم التي تتجلى في رؤية ديورانت، هي التي تجعلنا نأخذ عليه أنه لم يعبر دائماً عن تلك الروح بما يليق بها في كل تجل من تجلياتها؛ فإذا كانت هذه الروح الفلسفية تتجلى في حالة مبهجة من الفتنة والسحر والجمال في كل قصر من قصور الفلسفة؛ فقد كان أولى بقصر الفن والجمال ذاته أن يحتل مكانة بارزة في مملكة الفلسفة؛ لأن موضوع التأمل هنا - وهو الجمال - يمثل في الوقت ذاته غاية التأمل، وهي بلوغ معنى الجمال. كما أننا نأخذ عليه أنه وضع قصر الميتافيزيقا في غير موضعه اللائق، ولم يهتم به كثيراً، وإن وضعه في بدايات مملكة الفلسفة؛ فقصر الميتافيزيقا ينبغي أن يوضع دائماً في المركز الذي منه تبدأ الفلسفة وإليه تعود؛ فهو أشبه بالنقطة المركزية التي بناء عليها نحدد مواقع سائر قصور الفلسفة الأخرى. وربما نلتمس العذر هنا لديورانت في أن ما أهمله في البداية، قد فطن إليه في النهاية، وإن كان بطريقة لا واعية وعلى غير قصد منه: فهو حينما أراد أن يضع خاتمة لهذا الكتاب، لم يجد موضوعاً لهذه الخاتمة أفضل من موضوع "الحياة والموت"، وهو الموضوع الميتافيزيقي على الأصالة؛ وبذلك فإنه وجد نفسه - من حيث لا يقصد - يعود إلى الميتافيزيقا التي بدأ بها، ولم يعطها حقها.

وبطبيعة الحال، فإنني لم أسع في هذه المقدمة إلى مناقشة أي من تفاصيل الآراء الواردة في هذا الكتاب؛ لأنني أرى أن ما جاء في كل فصوله مكتوب بلغة سلسة بسيطة لا تستعصي على فهم القارئ العادي. ولذلك فقد رأيت أن مهمتي الأساسية هنا هي توصيف أبعاد هذا الكتاب ومراميه، وبيان قيمته وأهميته في سياق البحث الفلسفي. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد يكون شائقاً وممتعاً بالنسبة للقارئ العام أكثر مما يكون ممتعاً بالنسبة للمتخصص في الفلسفة، العارف بطبيعة دروبها ومسالكها، فإنه في الحالتين يعد مفيداً لكل منهما؛ لأنه يقدم مسحا لمجال الوقائع والتساؤلات التي يمكن أن يشتغل عليها البحث الفلسفي: فهو أشبه بحرث التربة الفلسفية، ليأتي بعد ذلك فيلسوف ما ويزرع شجرة هناك! وتلك مهمة ليست بالهينة، ولا يقوى عليها إلا مورخو الفلسفة المفتونون بها، والذين يشغلهم دائما تأمل الوقائع والحوادث التي تثير التساؤلات الفلسفية؛ وبذلك فإنهم يبذلون جهداً عظيماً يمهد الطريق لغيرهم من الفلاسفة الذين يمكن أن يعكف كل واحد منهم على موضوع ما أو واقعة من الوقائع التي لها دلالة فلسفية.

مباحح الفلسفة

الكتاب الأول

تأليف
ول ديورانت

تقديم
الدكتور إبراهيم بيومي بكور

ترجمة
الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية

١٩٥٧

المشتركون في هذا الكتاب

المؤلف

ول ديوانت : ولد عام ١٨٨٥ من أبوين كنديين في نورث أدامز بماسشوست ، حيث تلقى العلم في المدارس الكاثوليكية ، وفي كلية القديس بطرس في نيوجرسي ، وفي جامعة كولومبيا في نيويورك . ثم اشتغل مدة الصيف محرراً في جريدة نيويورك ؛ ولكنه هجر ذلك العمل المثير حين رأى أنه لا يصلح له . واشتغل بعد ذلك بتدريس اللاتينية والفرنسية والإنجليزية والهندسة في كلية سيتون هول في جنوب أورانج بنيوجرسي (١٩٠٧ - ١٩١١) . وهناك التحق بمعهد الدراسات العليا الدينية في عام ١٩٠٩ ، ثم هجره للأسباب التي ذكرها في كتابه المسمى « الانتقال Transition » . وانتقل من هذا المعهد مباشرة إلى أكثر الأساط محرراً في نيويورك ، وأصبح في مدرسة فيرر الحديثة (١٩١١ - ١٩١٣) : « الرئيس والمعلم والمتعلم » ، وكانت تلك المدرسة تجربة في التربية المتحررة . وفي ١٩١٢ طاف بأوروبا من كيلارني إلى يالطا على نفقة ألدن فريمان الذي اتخذها صاحباً وتعهد أن يوسع أفقه . وانقطع ١٩١٢ إلى الدراسة العليا بجامعة كولومبيا ، فتخصص في علم الحياة على مورجان وكالكنز ، وفي الفلسفة على وودبردج وديوى ، وحصل على الدكتوراه ١٩١٧ ، ودرس الفلسفة مدة عام بجامعة كولومبيا . وفي ١٩١٤ بدأ يلقي تلك المحاضرات في الفلسفة والأدب والتاريخ والعلم والفن التي مهدت لكتابه « قصة الفلسفة » وذلك في كنيسة برستيرية في نيويورك . ولم تكد « قصة الفلسفة » تظهر حتى كانت أحسن كتب ذلك العام انتشاراً مما أثار دهشة مؤلفها وناشريها . فتحرر عام ١٩٢٧ من العمل المدرسي عقب نجاح « قصة الفلسفة » لينقطع إلى كتابة تاريخ الحضارة ، فطاف أوروبا مرة أخرى في ١٩٢٧ ، وحول العالم في ١٩٣٠ لدراسة مصر والشرق الأدنى والهند والصين واليابان . ومرة ثانية في ١٩٣٢ لزيارة اليابان وكوريا ومنشوريا وسيبيريا وروسيا . ثم أصدر في ١٩٣٥ بعد سبع

سنوات من الرحلة والدرس - كتاب « تراثنا الشرقى » وهو المجلد الأول من كتاب « قصة الحضارة ». ومع أنه زار اليونان وإيطاليا في ١٩١٢ و ١٩٢٧ و ١٩٣٢ ، إلا أنه عاد إليهما سنة ١٩٣٦ ، فأضاف بذلك معلومات جديدة إلى الدراسة المنظمة التي تلقاها عن الجزويت في اللغات والآداب القديمة . وأصدر في ١٩٣٩ كتاب « حياة الإغريق » وفي ١٩٤٤ « قبصر والمسيح » . وأمضى في ١٩٤٨ ستة أشهر في أوربا والشرقين الأدنى والأوسط يدرس المعالم والآثار المسيحية والإسلامية من أدنبرة إلى شيراز . ونشر في ١٩٥٠ كتاب « عصر الإيمان » وهو تاريخ الحضارة في العصر الوسيط - مسيحية وإسلامية ويهودية - منذ قسطنطين حتى دانتى . ثم أمضى في إيطاليا وفرنسا سبعة أشهر درس فيها معظم المناظر والفنون الموصوفة في عصر النهضة ، وهو موضوع المجلد الخامس ، وقد صدر في ١٩٥٣ . وهو يعمل الآن في كتابة المجلد السادس من المجموعة . ويأمل أن يصدره في ١٩٥٨ بعنوان « عصر الإصلاح الدينى » . وإنه ليرجو إذا واثته الظروف وأعانتة الصحة أن يتم هذا العمل سنة ١٩٦٣ بإصدار كتاب « عصر العقل » الذى يمضى مع القصة حتى القرن التاسع عشر .

وليس ول ديورانت غريباً عن قراء العربية ، فقد ترجم من كتابه قصة الحضارة المجلد الأول في خمسة أجزاء ، والمجلد الثانى عن اليونان في ثلاثة أجزاء ، ويجرى الآن طبع المجلد الثالث ، وذلك على نفقة الجامعة العربية التى اختارت الكتاب ضمن برنامجها الثقافى ، وقد عهد بالترجمة إلى الأستاذين محمد بدران وزكى نجيب محمود .

ويسر مؤسسة فرانكلين أن تقدم له فى العربية الكتاب الأول من « مباحج الفلسفة » . ومع أن الكتاب فى طبعته الأصلية يقع فى مجلد واحد فقد دعت بعض الاعترابات إلى إصداره فى العربية فى كتابين ، وترجو أن يصدر قريباً الكتاب الثانى الذى يشتمل على فلسفة التاريخ ، والفلسفة السياسية ، وفلسفة الدين ، والحياة والموت .

صاحب القلم

الدكتور ابراهيم بيومى مذكور : أتم تعليمه فى مصر ، وأوفد فى بعثة ١٩٢٧ إلى باريس فحصل على ليسانس الفلسفة ، ودكتوراه الدولة من السوربون ١٩٣٤ ،

(ب)

وعاد إلى مصر واشتغل بتدريس الفلسفة بجامعة القاهرة ، حتى نزل ميدان السياسة فانتخب عضواً بمجلس الشيوخ ١٩٣٧ ، حيث برزت مواهبه البرلمانية . وعين وزيراً ١٩٥٢ ، ثم رئيساً لمجلس الخدمات وعضواً بمجلس الإنتاج ، إلى أن استقال من رئاسة مجلس الخدمات ليتفرغ لمجلس الإنتاج . وهو عضو بالمجمع اللغوي ، وجوائز الدولة ، وغير ذلك من اللجان العلمية .

له من المؤلفات بالفرنسية L'Organon d'Aristote dans le Monde Arabe
أى « منطق أرسطو في العالم العربي » و « منزلة الفارابي في الفلسفة الإسلامية »
La Place d'AL Farabi dans l' Ecole Philosophique Musulmane
وبالعربية « دروس في الفلسفة » مع الأستاذ يوسف كرم ، و « في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه » و « أداة الحكم » مع الأستاذ مرييت بطرس غالى . وهو رئيس لجنة تحقيق كتاب « الشفاء » لابن سينا ، وقد صدر منه حتى الآن « المدخل » ١٩٥٢ و « الخطابة » ١٩٥٤ .

وعلى الرغم من اشتغاله بالمسائل العامة لم يقطع صلته بالفلسفة ، فألقى بجامعة السوربون بباريس أثناء الصيف ١٩٥٤ وما قبله محاضرات في الفلسفة الإسلامية .

صاحب الترجمة

الدكتور احمد فؤاد الالهوانى : التحق بكلية الآداب بالجامعة المصرية منذ أول إنشائها ، فأخذ الفلسفة على أعلامها الفرنسيين : برييه ، ولالاند وريى ، وحصل على الليسانس ودبلوم مهد التربية العالى والدكتوراه . وعين بالجامعة لتدريس الفلسفة .

وله من المؤلفات خلاصة علم النفس ، والتعليم في رأى القابسى (وهى رسالة الدكتوراه) وتاريخ المنطق والمنطق الحديث ، ومعانى الفلسفة ، وفي عالم الفلسفة ، والحب والكراهية ، والخوف ، والنسيان ، وأسرار النفس . ونشر من المخطوطات : كتاب النفس لابن رشد وأربع رسائل ، وكتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى ، وإيساغوجى لفرغوريوس الصورى ، وأحزال النفس

لابن سينا ، واشترك في تحقيق « المدخل » من الشفاء لابن سينا (وهو أحد أعضاء اللجنة) . وترجم كتاب النفس لأرسطو وراجع الأب فنواى ، وطريقة ديكرولى وراجع الدكتور يوسف مراد . وآخر ما ألف كتاب « فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط » اعتمد فيه على جميع نصوص الفلاسفة التى نقلها إلى العربية .

مصمم الغلاف .

رفيق البابلى : مهندس ، حصل على بكالوريوس الهندسة قسم العمارة ١٩٥٤ .
نال جائزة فرانكلين عن تصميم غلاف كتاب « كيف تتكامل الشخصية » . قرأ « مباحث الفلسفة » فى أصله الإنجليزى ليتبين الفكرة عنه ، فأخرجها فى هذا الرسم المطبوع على ظاهر الكتاب . وخطر له أن ديوجينيس بمصباحه وهو يبحث عن الحقيقة رمز يمثل الفلسفة .

مقدمة

بقلم الدكتور إبراهيم مدكور

كانت الفلسفة لغة الخاصة وشغل فريق من الناس ، وعدت زماً بين التعاليم السرية والمضمون به على غير أهله . وقديماً احتفظ بها الأفلاطونيون في الأكاديميا ، والمشاؤون في اللوقيون ، وأتباع زينون في الرواق . وفي العصور الوسطى حوربت وصدورت كتبها وحرمت دراستها ، وإن أبيت فلنفر قليل من كبار المفكرين ورجال الدين ، وعد خرقاً أن تبسط وتصبح سهلة التناول . وفي التاريخ الحديث بقيت وقفاً على مدارس محدودة ، وسلعة ممتازة لا يمكن أن تتداول في جميع الأسواق .

ويراد بها اليوم أن تنزل من سماءها وتعيش مع عامة الناس على أرضهم ، وتنتقل من أرستقراطية الفكر إلى ديمقراطية البحث السهل الطليق : فتيسر سبلها ، وتكتب بلغة العصر وروحه ، وتذلل للقارئ العادي بحيث يجد فيها من اللذة والمتاع ما يجده في ألوان الثقافة الأخرى . ولعل من أخص خصائص الأدب المعاصر أنه وثيق الصلة بالعلم والفلسفة ، نفذ إليهما وكساهما بكسائه الوثير اللين ، وغذياه بدورهما بمادتهما الخصبه وأفكارهما المتجددة . وهناك اتجاه عام أساسه أن يفلسف الأدب وتؤدب الفلسفة . وأنصاره كثيرون ، يكفي أن نذكر منهم برتراند رسل بين الفلاسفة ، وأندرية جيد بين الأدباء .

ويعد ول ديورانت - بحق - في مقدمة من ساهموا في هذا المضمار . فبقلمه السيل وأسلوبه العذب طوع الفلسفة ، وجعل مباحثها الدقيقة ، ونظرياتها المعقدة ، بسيرة المنال ، سهلة الفهم . وكيف لا وهو أديب بقدر ما هو فيلسوف ، يجتذب

القارئ ببيانه ، ويسحره بخياله وشعره . يصف ويشبه ، ويلجأ إلى المجاز والاستعارة ، فتتحول الفكرة المجردة في يديه إلى حتمية ملموسة . وهو فوق هذا كاتب ساخر ، وسخريته لازعة أحياناً ، ينتقد هذا ويتهم من ذلك ، وفي السخرية ما فيها من عوامل التشويق وإثارة الانتباه . لهذا لم يكن غريباً أن يسمى كتابه الذى نقدم لترجمته « مباحج الفلسفة » . ولهذا التسمية قصة ، فانه كان يسمى أولاً « قصور الفلسفة » ، ويوم أن أعيد طبعه اقترح له ناشره هذا الاسم ، والناشرون أعرف ما يكون بميول القراء ورغباتهم .

وديورانت رحالة ، طوّف في الآفاق ما طوف ، ومؤرخ حضارة عاش في الماضي بقدر ما عاش في الحاضر . وهو يرى أن حضارتنا الحاضرة أضحت مادية إباحية ، استبدلت بالزهد الترف ، وأحلت الأبيقورية محل الحرمان ومجاهدة النفس . تخاطب الجسم قبل أن تخاطب الروح ، وتتكرّم ما تواضعنا عليه من مثل عليا ، وتخارب ما ألفناه من عادات وتقاليد . وتجاوز هذا إلى معتقداتنا الدينية ، فتحاول أن تنتزع منا أعزها . وأصبحنا وكأنا في بحر لحي تتقاذفنا فيه الأمواج ، ولاندري أين المقر . وأصبحت حياتنا الخلقية مهددة بالانهيار ، وحياتنا العقلية تفاجأ بالحديد كل يوم .

وما ذلك إلا لأن هذه الحضارة لاتقوم على دعائم عقلية ، ولا تعتمد على أسس كلية . وما أحوجنا إلى أن نفلسفها فلم شعنها ، ونزيل تناقضها ، ونكرّم من شئ مظاهرها كلاً منسقاً ، ونرسم لها أهدافاً أسمى وأكمل . وسيلنا إلى ذلك أن نرتاد علم الأخلاق لنكشف عن طبيعة الحياة الفاضلة ، وفي ضوئها نستطيع أن نعالج أسرنا المنحلة ، وروابط حبنا المتراخية ، ونخرج من الأثرة الضيقة الأفق إلى إثارة كريم ، يعيش الناس تحت ظله إخواناً متحابين ، ونعيد في اختصار بناء الأخلاق من جديد . وسيعيننا على ذلك ما تلميه فلسفة الدين والتاريخ من دروس ، وما نستمدّه من علم الجمال من نماذج ومثل .

وقد اضطلع ديورانت بهذا العبء ، وشاء أن يقيم فلسفة متماسكة للحياة . أو كما يسميها « أخلاقاً طبيعية » تحل محل الزواجر العلوية التي بطل أثرها في سلوك الناس . ولا أظنه يزعم أنه قدم بهذا فلسفة جديدة ، أو مذهباً مبتكراً . وإنما أراد أن يعرض الآراء السابقة ليستخلص منها أمثلها . وهو في عرضه طليق كل الطلاقة ،

ظلم يلتزم تقسيمات الفلاسفة التقليدية ، ولم يتقيد بأدلتهم المألوفة . وإنما عرض على النحو الذى بدا له ، فجاء عرضه شيقاً جذاباً ، يؤذن باطلاع واسع وإلمام تام بالفلسفة والتاريخ والعلم والأدب .

وإذا كنا نتفق معه على موطن الداء ، فإننا نتساءل إذا كان من اليسير أن يقدم له الدواء ؛ وإذا كنا نقدر البواعث التى دفعته إلى إقامة « فلسفة الحياة » ، فإننا لا ندرى إلى أى مدى وفق فى تشييد صرحها .

* * *

ومهما يكن من شىء فى كتاب «مباهج الفلسفة» جهد كبير ، وعرض شيق ، ودرس نافع . وسيجد فيه القارئ العربى لذة ومتاعاً عظيماً ، لاسيما وقد عرف معربة كيف يتقله فى صدق وأمانة ، ويترجمه فى وضوح ودقة . والمعرب الكريم فى غنى عن التعريف ، وإنتاجه متصل ، وآثاره تأليفاً وترجمة يتداولها القراء دون انقطاع . وهو فوق هذا فيلسوف متخصص ، يعرف كيف يعالج النظريات والمصطلحات الفلسفية ، ويستطيع أن يتخير أكل السبل لنقلها إلى العربية .

ويحق لى بهذا كله أن أقول إن مؤسسة فرانكلين للنشر أحسنت كل الإحسان فى تخيرها لهذا الكتاب ، وعرفت كيف تكل ترجمته إلى أيد أمينه ، فأضافت بذلك حلقة ثمينة إلى سلسلة نشاطها المتواصل ، وغذت المكتبة العربية بغذاء ممتع . وإذا كنا نقدم اليوم لترجمة الجزء الأول من كتاب «مباهج الفلسفة» ، فانا نرجو ألا يمضى زمن طويل إلا وقد وضع جزؤه الثانى فى أيدى الباحثين والقراء .

محتويات الكتاب الأول

صفحة	
١	المشركون في هذا الكتاب
٥	مقدمه بقلم الدكتور إبراهيم مذكور
١	اعتراف
٣	دعوة

الجزء الأول - مدخل

الفصل الأول : فتنة الفلسفة

١١	١ - تمهيد
١٣	٢ - أصحاب المعارف
١٦	٣ - اللاهوتيون
٢٠	٤ - العلماء
٢٥	٥ - ملكة العلوم

الجزء الثاني - المنطق والابستمولوجيا

الفصل الثاني : ما الحقيقة ؟ (٥)

٢٣	١ - الإحساس في مقابل العقل
٤١	٢ - سر المعرفة النامض
٤٩	٣ - العقل في مقابل التريزة

الجزء الثالث - الميتافيزيقا

الفصل الثالث : المادة والحياة والعقل (٥)

٦١	١ - مقدمة لأدرية
٦٢	٢ - المادية
٦٦	٣ - المثالية

(٥) الفصول المرقومة بنجمة فنية متخصصة .

٦٨	٤ - ما المادة ؟
٧٦	٥ - الحياة
٧٩	٦ - المادى يتكلم
٨٤	٧ - المثال يرد
٨٦	٨ - التركيب

الفصل الرابع : هل الإنسان آلة ؟

٩١	١ - استعراض
٩٦	٢ - الميكانيكية
١٠٣	٣ - المحتية
١١١	٤ - عصر البيولوجيا (علم الحياة)

الجزء الرابع - مشكلات الأخلاقية

الفصل الخامس : أخلاقنا المتغيرة

١١٧	١ - نسبة الأخلاق
١٢٠	٢ - القانون الزراعى
١٢٤	٣ - القانون الصناعى
١٢٩	٤ - رجالنا المتحررون
١٣١	٥ - الأسرة
١٣٣	٦ - الأسباب

الفصل السادس : الأخلاقية واللا أخلاقية

١٣٩	١ - الأخلاقية كذكاه
١٤١	٢ - الأخلاق الطبيعية
١٤٧	٣ - ميزان الأخلاق
١٥٢	٤ - الأخلاق الكبرى
١٥٤	٥ - الحياة الجنسية والأخلاق

الفصل السابع : الحب

١٥٧	١ - لماذا نحب ؟
١٥٨	٢ - من الناحية البيولوجية
١٦٧	٣ - الأساس الفسيولوجى
١٧١	٤ - النمو الروحى...

الفصل الثامن : الرجال والنساء

١٧٩	١ - حرب الحب
١٨١	٢ - اختلافات الخلق
١٩٠	٣ - الاختلافات العقلية
١٩٣	٤ - المرأة والعبقرية
١٩٦	٥ - هل الاختلافات موروثية ؟

الفصل التاسع : المرأة الحديثة

١٩٩	١ - التنوير الكبير
٢٠٢	٢ - الأسباب
٢٠٧	٣ - بناتنا
٢١٢	٤ - ربات بيوتنا

الفصل العاشر : انهيار الزواج

٢١٨	١ - تطور الزواج
٢٢٣	٢ - انحلال الزواج
٢٢٨	٣ - إعادة بناء الزواج
٢٣٦	٤ - في إنجاب الأطفال

الفصل الحادى عشر : في الأطفال - اعتراف

٢٣٩	١ - نظرة شخصية
٢٤٠	٢ - في الأمور الجنسية
٢٤٢	٣ - في الأمور الأخلاقية
٢٤٩	٤ - في الأمور الجنسية
٢٥١	٥ - في الأمور العقلية

الفصل الثانى عشر : إعادة بناء الخلق

٢٥٨	١ - عناصر الخلق
٢٦٤	٢ - الخلق السلبى
٢٦٦	٣ - صاحب الخلق الإيجابى
٢٦٩	٤ - بناء خلق جديد
٢٧٤	٥ - علاجات

الجزء الخامس — علم الجمال

الفصل الثالث عشر : ما الجمال ؟

٢٨٢	١ - حاسة الجمال عند الفلاسفة
٢٨٦	٢ - حاسة الجمال عند الحيوان
٢٨٨	٣ - الجمال الأول : الأشخاص
٢٩٢	٤ - الجمال الثانوي : الطبيعة
٢٩٦	٥ - الجمال الثالث : الفن
٣٠٠	٦ - الجمال الموضوعي

اعتراف

هذا الكتاب ، على الرغم من عنوانه الجديد المرح ، طبعة منقحة من كتاب « صروح الفلسفة Mansions of Philosophy » الذي طبع عام ١٩٢٩ ، ونفدت طبعته منذ عشر سنوات ، وتهافت الطلب عليه إلى الحد الذي يغتفر معه إصدار طبعة جديدة . وفي الكتاب صفحات تدل على أن تأليفها كان منذ ربع قرن مضى ، وسوف ينتسم القارئ عند كثير من الأفكار التي تحويها . ومع ذلك فقد رأيت من الأسلم أن أكتب عن الماضي لا عن المستقبل . وهناك بعض صفحات تفيض بالعاطفة ، ولكنها لا تزال تعبر عن ذات نفسى أصدق تعبير ؛ وصفحات أخرى ساخرة أو متشائمة بغير حق ، وبخاصة في الفصل الثامن عشر . وإذا كشفت أنى غير معصوم من الخطأ ، فقد ينبغي اليوم أن أكون أشد رفقاً بالزملاء والحكومات . وإنى لأعتقد أن في الكتاب - على الرغم من هذه الأخطاء - صفات تعين على النجاة . لهذا السبب ألقيته مرة أخرى في بحر المداد حتى يلتبس من هنا ومن هناك صحبة الأرواح الموثلفة في دولة العقل .

ول ديورانت

نيويورك في ١٥ نوفمبر ١٩٥٢

دعوة

هذا الكتاب محاولة لإقامة فلسفة ممتسكة في الحياة : فهو يسعى إلى أن يصنع بمشاكل الفلسفة ما حاول كتاب « قصة الفلسفة » أن يصنعه بالنسبة لشخصيات معظم الفلاسفة ومذاهبهم ، أى أن يقربهم إلى الأفهام بالعبارة الصافية ، وأن ينقلهم إلى الحياة بالتطبيق الحديث . وسوف نسقط من هذا الكتاب قصص العباقرة ومأثور أقوالهم التي خففت عنى حمل ذلك الكتاب . ولعلنا نلتقي الجزء الحسن حين نقرب اقرباً ألصق بمشاغل حياتنا الخاصة في هذه الأيام : ذلك أن الموضوع الذى يعنيننا هنا هو أنفسنا .

ونحن نلاحظ أن سلوك الإنسان واعتقاداته تخضع اليوم لتغيرات أشد عمقاً وأعظم اضطراباً مما كانت عليه عندما نمت الثروة وظهرت الفلسفة فوضعتنا حدأ لديانة الإغريق المتوارثة . فنحن الآن فى عصر سقراط مرة ثانية : حياتنا الخلقية مهددة بالانهيار ، وحياتنا العقلية يتضاعف سيرها وتوسع آفاقها ، وذلك كله على حساب التقاليد والمعقدات القديمة . وكل شىء ، سواء فى أفكارنا أو فى أعمالنا ، جديد وتجريبي ؛ ولم يعد هناك شىء مستقر أو موكد . وليس للتغير الحاصل فى زماننا من جهة سرعته وتعقيده وتعددته مثيل فى التاريخ حتى فى أيام بركليس ، فقد تعدلت جميع أوضاع الحياة وصورها من حولنا ، ابتداء من الآلات التى تقلب الأرض رأساً على عقب ، والعجلات التى تدور بنا دون أن نهدأ حول الأرض ، إلى هذه التجديدات فى علاقاتنا الجنسية ، والأوهام الكاذبة عن نفوسنا . وقد أدى الانتقال من الزراعة إلى الصناعة ، ومن القرية إلى المدينة ، ومن المدينة إلى الدولة ، إلى رفع شأن العلم ، والحط من منزلة الفن ، وتحرير الفكر ، وأقول أنجم الملكية والأرستقراطية ، ونشأة الديمقراطية والاشتراكية ، وتحرير المرأة ، وانحلال رابطة الزوجية ، وانهيار القوانين الأخلاقية الموروثة ؛ وبدلت بالزهد الترف ، وأحلت النزعة الأبيقورية محل نزعة التزمت ، وعظمت

الحياة المثيرة على الهدوء والرضا، وحدثت من كثرة الحروب ولكنها أصبحت أعظم رعباً ، واقتلعت من أنفسنا كثيراً من أعز معتقداتنا الدينية ، وقدمت لنا في مقابل ذلك فلسفة في الحياة ميكانيكية وجبرية . فجميع الأشياء تجري كما يتدفق الماء في النهر ، وليست لنا حيلة في التماس بر أو مستقر .

ويظهر في كل حضارة نامية عصر يتضح فيه أن الطبايع والعادات القديمة لا تتناسب مع المؤثرات التي تغيرت ، وعندئذ تهوى النظم والأخلاق العتيقة حين تدقها مطرقة الحياة السائرة في طريق النمو ، فتتمشم تحتها كما تتمشم القوقعة من الصدف . فقد انهارت أنواع النظم القائمة على الاستجابات التلقائية والطبيعية في مجال إثر آخر ، بعد أن هجرنا المزرعة والبيت إلى المصنع والديوان والعالم ، ولا يزال العقل مضطرباً في إجراء تجارب ترشده عن وعى إلى طرق جديدة بدلا من سلوك أجدادنا الطبيعي البسيط وأساليبهم القديمة . فينبغي أن نفكر اليوم في كل شيء ، ابتداء من « التركيب » الصناعي الذي تغذى به أطفالنا ، و « السعر الحرارى » و « الفيتامينات » التي يعقدها لنا علماء التغذية ، إلى الجهود المدهشة التي تبذلها الحكومات المعاصرة لتوجيه طرق التجارة التي تجري اعتباراً وتنسيقاً . لقد أصبح مثلنا الآن مثل ذلك الذي لا يستطيع أن يمشى دون أن يفكر في ساقيه ، أو لاعب الكرة الذي يجب أن يحلل كل حركة وكل ضربة وهو يلعب . لقد ذهبت عنا تلك الوحدة السعيدة المستمدة من الغريزة ، وأصبحنا نتخبط في بحر من التفكير والشك . فنحن في غمار المعرفة الجديدة والقوة الطارئة في شك من أغراضنا وقيمنا وأهدافنا .

والمهرب الوحيد الجدير بالعقل الناضج من هذا الاضطراب هو أن ترتفع عن النظر إلى الشوارد والأجزاء كى نتأمل الكل ، لأن ما فقدناه قبل كل شيء هو هذه النظرة الكلية . وتبدو الحياة من التعقيد والتحرك بحيث يصعب علينا إدراك وحدتها ومفهومها . إننا نفقد صفة المواطن فلا نصبح سوى مجرد أفراد ، وليس لنا غايات تذهب أبعد من لحظة موتنا ، فنحن بضعة من الناس ولا شيء سوى ذلك . ولا تجد اليوم أحداً يجسر على وصف الحياة في كليتها . والحل سريع والتركيب بطيء . ونحن نحشى الاخصائيين في كل ميدان ، فنقصر أنفسنا طلباً

للسلامة في حدود اختصاصنا . وكل منا يعرف دوره ، ولكنه يجهل معناه بالنسبة إلى الرواية . بل الحياة نفسها تنمو خالية من المعنى ، حتى إذا بدت أكمل ما تكون أصبحت فارغة .

فلنخلع عنا خوفنا من الأخطاء التي لا يمكن تجنبها ، ولنعالج جميع مشكلات أحوالنا محاولين رؤية كل جزء وكل معضلة في ضوء المجموع . من أجل ذلك سوف نُعرِّف الفلسفة على أنها النظرة الكلية ، والعقل الذي يبسط الحياة ويجيل الاضطراب إلى وحدة . ولما كانت الفلسفة في نظرنا ليست لعباً مدرسياً بالتصورات الميتة البعيدة عن اهتمام المجتمع والإنسان ، فسوف تشتمل في هذا الكتاب على جميع المسائل التي تؤثر تأثيراً حيوياً في قيمة الحياة الإنسانية ومعناها ، بصرف النظر عن مقدماتها التاريخية مهما تكن يسيرة . ولن نقف عند المنطق إلا ربمّا نفض أيدينا منه ؛ أما نظرية المعرفة فسنمر بها مر الكرام لتبين حدود العقل البشري ، إذ لن نجد مثل هذه النظم المفروضة إلا مكاناً متواضعاً هو الذي تحتاج إليه في صروح الفلسفة . ثم نغز بعد ذلك إلى اللب الميتافيزيقي للأشياء فتأمل المذهب المادى ونرى رأينا فيه ، أياكون الفكر وظيفة للمادة ، أم أن الاختيار خداع آلة حية سريعة الزوال . ومن هذه الزاوية نرتاد عالم الأخلاق ، ونبحث في طبيعة الحياة الفاضلة ، فتلبس أسباب أخلاقنا المتغيرة وما يترتب عليها من نتائج ، وننظر في زواجنا المنحل ، وروابط حبنا المترخية ، ونناقش أمر المرأة الحديثة التي فقدت دلالها وتحلت عن شهرتها للانتقام ؛ ونقابل بين زينون وأبيقور باحثين عن مواطن السعادة ، ثم نشق الطريق الذي يجمع بين الهداية في التربية وإعادة بناء الأخلاق . وسوف نقف عند علم الجمال لحظة لننظر في معنى الجمال ومطامع الفن . وسوف نتأمل التاريخ ونبحث عن دروسه وقوانينه ، ونسأل عن صفة التقدم ، ونزن مصير حضارتنا . فإذا استهوتنا الفلسفة السياسية رأينا أنفسنا مسوقين كما كنا نفعّل في حماسة الشباب إلى مناقشة مشكلات الفوضوية والشيوعية والاشتراكية المحافظة والديمقراطية والأرستقراطية والدكتاتورية . أما فلسفة الدين فسوف تعود بنا إلى تلك المباحث القديمة عن الخلود والله ، ثم نحاول أن ننظر إلى ماضى المسيحية ومستقبلها من خلال تاريخ الدين العام . وأخيراً سوف

نضع المتشائم والمتفائل في صعيد واحد مفاضلين بين نعيم الحياة الإنسانية وآلامها ،
ثم ننظر نظرة كلية محاولين استخلاص قيمة حياتنا ومعناها . إنها جولة في
اللانهاية (١) .

ولعل القارئ المحجد يسأل : أهناك فائدة من كل هذه الفلسفة ؟ إنه سؤال
مخجل ؛ فنحن لانسأل هذا السؤال عن الشعر الذي يعد تأليفاً خيالياً لعالم ليس
معروفاً معرفة كاملة . وإذا كان الشعر يكشف لنا عن الجمال الذي تحفظه أعيننا
الغريبة ، وكانت الفلسفة تهينا الحكمة التي بها نفهم ونغفر ، فلنا في الفلسفة غناء ،
بل أكثر مما في العالم من ثراء . ولن تجسم الفلسفة أهدافنا أو ترفعنا إلى منازل
شاهقة في دولة ديمقراطية ، بل إنها على العكس قد تجعلنا نهمل هذه الأمور
بعض الشيء . إذ ماذا يهمننا أن نضخم أهدافنا ونرتفع إلى منزلة عالية ثم نظل
مع ذلك في سداجة جاهلة ؟ لم نزد عقولنا بالمعرفة ، ولم نهذب سلوكنا الوحشي ،
ولم نستقر في أخلاقنا ، ولم نتنظم في رغباتنا ، ونظل في تعاسة عمياء ؟

وإذا كان النضج يتم في الكل ، فلعل الفلسفة ، يمكن إذا أخلصنا لها ، أن
تهينا سلامة وحدة النفس ؛ ذلك أن تفكيرنا في غاية الهويش والتناقض ، فلعلنا نجلو
أنفسنا ، ونجمع قوانا إلى التماسك ، ونخجل أن ننتهي إلى رغبات أو اعتقادات
متعارضة . وقد نخرج من هذه الوحدة في العقل إلى وحدة الهدف والحلق ، تلك
الوحدة المكونة للشخصية ، والتي تخلع على حياتنا بعض النظام والكرامة . والفلسفة
هي المعرفة المؤتلفة التي تؤدي إلى حياة مؤتلفة . إنها تنظم النفس الذي يرفعنا
إلى الصفاء والحرية . والمعرفة قوة ، ولكن الحكمة وحدها هي الحرية .

ونقاقتنا اليوم سطحية ، ومعرفتنا خطيرة ، لأننا أغنياء في الآلات فقراء
في الأغراض . وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان
الديني ، وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقنا ، ويبدو العالم كله مستغرقاً
في فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب . إننا نواجه مرة أخرى تلك

(١) يقتضى الترتيب المنطقي لسوء الحظ البدء بأصعب المواد أولاً . ويحسن بالقراء الذين
أقبلوا على الفلسفة حديثاً أن يبدأوا بالفصل الخامس ، مرجئين الفصول من الأول إلى الرابع
بعد ذلك .

المشكلة التي أقلقنا بال سقراط ، نعى : كيف نهتدى إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التي بطل أثرها في سلوك الناس ؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد الماخن من جهة ، وبهذا الجنون الثورى من جهة أخرى ، حين نفقد الفلسفة التي بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التي توحد الأغراض ، وترتب سلم الرغبات . إننا نهجر في لحظة مثاليتنا السلمية ونلقى بأنفسنا في هذا الانتحار الجماعى للحرب . وعندنا مائة ألف سياسى ولبس عندنا « رجل حكم » واحد . إننا نظوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل ، ولكننا لا نعرف إلى أين نذهب ولم نفكر في ذلك ، أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة . إننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التي أسكرتنا بنحمر القوة ، ولن ننجو منها بغير الحكمة .

ول ديورانت

السجدة الأولى

مدخل

الفصل الأول

فتنة الفلسفة

١ - تمهيد

لماذا لم تعد الفلسفة اليوم محبوبة ؟ ولماذا اقتسم أبناؤها - أى العلوم -
ميزاتها ، وألقوا بها خارج الدار ، كأنها الملك لير Lear ، فى عقوق أشد قسوة
من رياح الشتاء ؟

كان أقوى الرجال فى قديم الزمان على استعداد أن يبذلوا أرواحهم فى
سبيلها ؛ فقد آثر سقراط أن يكون شهيداً لها من أن يعيش مولياً الأديبار أمام
أعدائها ؛ وخاطر أفلاطون بنفسه مرتين ليفوز بمملكة لها ؛ وعشقها مرقص
أوريليوس أكثر من عرشه ؛ وحرق برونو حياً ولاء لها . وكانت الفلسفة يوماً ما
مصدر خوف للعروش والبابوات فألقوا المؤمنين بها فى السجن حتى لا تسقط
الأسر الحاكمة . ونفت أثينا بروتاجوراس ، وارتعشت الإسكندرية أمام هيئاتها .
وخطب أحد البابوات العظام ود إرازمس خوفاً منه . وطارد الحكام والملوك فولتير
من بلادهم ، ثم أكلت الغيرة نفوسهم عندما انحنى العالم المتحضر فى النهاية أمام
عظمة قلمه . وعرض ديونيسوس وابنه على أفلاطون حكم سراقوسة . وجعلت معونة
الإسكندر الملكية من أرسطو أعلم رجل فى التاريخ . وكاد الملك البحاثنة أن يرفع
فرانسيس بيكون إلى زعامة إنجلترا وحماه من أعدائه . ونازل فردريك الأكبر
فى منتصف الليل ، بعد نوم قواده العظام ، الشعراء والفلاسفة ، حاسداً إياهم على
اتساع ممالكهم غير المحدودة ونفوذهم الخالد .

كانت تلك الأيام عصر عظمة للفلسفة ، حين طوت فى شجاعة كل
معرفة تحت جناحها ، وتقدمت فى كل مكان صفوف التقدم العقلى . كان الناس
يمجدونها فى ذلك الزمان ، إذ لم يكن شئ يعد أشرف من محبة الحق . ووضع
الإسكندر ديوجينيس فى أول منزلة بعده هو فقط ، وأمر ديوجينيس الإسكندر

أن ينتحى جانباً حتى لا يججب جسمه الملكى الشمس . واستمع الحكام والمفكرون والفنانون فى سرور إلى أسبانيا ، وحج عشرة آلاف من الطلبة إلى باريس ليأخذوا العلم على أيلارد . لم تكن الفلسفة حينذاك العانس ذات الحياة التى تجبس نفسها داخل الأبراج بعيدة عن أعمال الدنيا . لم تحش عيون الفلسفة الصافية ضوء النهار ، بل أقدمت على العيش فى خطر ، ورحلت بعيداً إلى بحار مجهولة . أكانت تقنع أبداً فى تلك الأعوام التى تقربت فيها من الملوك أن تحذ نفسها فى هذه الحدود الضيقة التى تقيدها اليوم ؟ لقد كانت يوماً من الأيام ضوءاً متعدد الألوان يملأ أغوار الأنفس حرارة ونوراً ، ولكنها الآن تابع مظلم يدور فى فلك العلوم والمذاهب المدرسية . لقد أتى عليها حين من الدهر كانت أعظم عروس فى سائر العالم العقلى ، وشمخت على خدامها السعداء ، أما الآن وقد تجردت من جمالها وسلطانها فأنها تقف منزلة بائسة لا يبجلها أحد (١) .

ليست الفلسفة محبوبة اليوم لأنها فقدت روح المغامرة ، ذلك أن ظهور العلوم المفاجيء استلب منها واحداً بعد الآخر عوالمها القديمة الشاسعة ، فأصبحت « الكوسمولوجيا » علم الفلك والحيولوجيا ، و « الفلسفة الطبيعية » علم الحياة والطبيعة ، وتحولت « فلسفة العقل » فى هذه الأيام إلى علم النفس . لقد هربت منها جميع المشكلات الواقعية والبارزة ، ولم تعد تعنى ببحث طبيعة المادة وسر الحياة والنمو ، أما « الإرادة » التى دافعت عن « حريتها » فى مئات من المعارك الفكرية فقد تهشمت فى عجلة الحياة الحديثة الآلية ، والدولة التى كانت مشكلاتها ذات يوم من اختصاصها فهى ميدان سعيد لنفوس صغيرة وقل أن تطلب شرف نصائح الفلسفة . ولم يبق لها إلا قصب الميتافيزيقا الباردة ، والغاز الإبستمولوجيا (نظرية المعرفة) الصيبانية ، ونزاع أكاديمى حول أخلاق فقدت كل أثرها على الإنسانية . بل حتى هذه النفايات سوف تنتزع منها ، حين تنشأ علوم جديدة تغزو هذه الميادين بالبوصله والمجهر والمسطرة . ولعل العالم ينسى أن الفلسفة كانت موجودة ، وأنها حركت القلوب وأرشدت العقول .

(١) يجب أن ننوه ببعض الاستثناءات ، فقد خلب برجسون الباب المستمين بفصاحته ، وكان لبرتراند رسل شرف إخافة إحدى الحكومات .

٢ - أصحاب المعارف Epistemologists

والفلسفة على النحو الذى دونت به خلال مائتى العام الأخيرة قد تكون جديرة بهذه الاستهانة وهذا الإغفال . كيف أصبحت الفلسفة بعد موت بيكون وسبينوزا ؟ أصبحت فى الشطر الأعظم منها إبستمولوجيا^(١) ، (نظرية المعرفة) ، وهى التى كان يبحثها علماء الكلام فى العصر المدرسى ، إنها المعرفة الفنية والمستورة esoteric ، إنها النزاع الغامض وغير المفهوم حول وجود العالم الخارجى . لقد انصرف ذلك العقل الذى كان يمكن أن يصنع الملوك الفلاسفة إلى تعمق البحث فى تحليل الأدلة التى تؤيد أو تنفى إمكان وجود النجوم والمحيطات والبكتريا والحيرة فى حالة عدم إدراكها . وقد استمرت هذه المعركة التى تشبه المعركة بين الضفادع والفيران مائتين وخمسين عاماً دون أن تخرج بشرة لها قيمة فى الفلسفة أو الحياة ، وبفائدة لأى شخص اللهم إلا فائدة طابع الكتب .

ويرجع بعض اللوم فى هذا كله إلى عبارة ديكارت البسيطة التى تكاد تبلغ حد السذاجة : « أنا أفكر ، إذن أنا موجود » . ذلك أن ديكارت كان يأمل فى أن يبدأ فلسفته بأقل ما يمكن من الافتراضات ، فامتحن « بالشك المنهجي » جميع اعتقادات الناس ، بل بديهياتهم ، وحاول أن يبنى مذهباً متماسكاً للمعرفة من هذه المقدمة الوحيدة : « أنا أفكر ، إذن أنا موجود » . وقد كان من الخطر العظيم أن نجعل الوجود معتمداً هذا الاعتماد على الفكر ، وأجمعت العقول على أن هذا الأساس يجعل الوجود امتيازاً أرستقراطياً ، وقد يذهب الزهاد بفضل سلطان ذلك الأساس إلى حرمان جنس بأكمله ، لا من النفس فقط (كما أراد أن يفعل ذلك فايننجر Weininger) بل من الحقيقة .

(١) Epistemology هى نظرية المعرفة ، Theory of Knowledge ، والاصطلاح من اللفظة اليونانية Episteme أى العلم . ولم يكن القدماء من فلاسفة العرب يستعملون لفظة « المعرفة » بل « العلم » ، ولكننا آثرنا استعمال المعرفة دون العلم لأن اللفظة الأخيرة أصبحت تطلق فى مقابل Science . ونظرية المعرفة تبحث فى العقل البشرى ومبادئه ومناهجه لا من الناحية البيكولوجية بل من الناحية الميتافيزيقية . . ومن أمثلة هذه المباحث : هل المعرفة فطرية أو مكتسبة ؟ (المترجم) .

أما الحسارة الكبيرة فقد أصابت الفلسفة ، إذ أن بناء تصور للعالم على هذه الحقيقة وهي أن شخصاً واحداً يفكر ، جدير بأن يخلق مثل هذه الشبكة من الصعوبات التي ظل أصحاب المعارف عشرة أجيال يجتهدون في حلها بغير نتيجة . وأول كل شيء هذا « أنا » في عبارة ديكارت مما كانوا يتصورونه « نفسا Soul » روحية لا مادية . ثم إن الجسم ، فيما نفترض ، لا يمكن أن يتحرك إلا حين يتصل بغيره من الأجسام ؛ كيف إذن يمكن أن يؤثر هذا الروح اللاجسماني في جزئيات المخ المادية ؟ ونشأت عن هذا المأزق الطريف عجائب مذاهب المادية والثالية والتوازي النفسى . واحتج صاحب مذهب التوازي بأن العقل والمخ مختلفان اختلافاً كبيراً ، وأن أحدهما لا يمكن أن يؤثر في الآخر ، وأن سلسلتى الأحداث المادية والعقلية ، الخفية والفكرية ، يجب أن تكونا مفترقتين متميزتين بغير أن تؤثر إحداهما في الأخرى ، بل هما متوازيتان بشكل عجيب . واحتج المادى بأن « العقل » ما دام يؤثر أثراً لا ينكره أحد في الجسم ، فينبغى أن يكون شيئاً بمادة الجسم ، فالعقل جسماني ومادى كالمرارة التي تفرز الصفراء . واحتج المثالي بأنه ما دامت الحقيقة الوحيدة التي يمكن أن نتق بها هي تلك التي ابتداء ديكارت منها – حقيقة الفكر – فجميع أنواع الوجود الأخرى ليست حقيقة بالنسبة إلينا إلا باعتبار أنها مدركة بحواسنا وميينة بعقولنا ؛ فالجسم مدرك حسي ، والمادة ليست إلا حزمة من الأفكار .

ونشأت بذلك حرب بهيجية ؛ ولم تبق اليوم إلا الحرب فقط وذهبت البهيجية . وقد يظهر بين حين وآخر فيلسوف من أصحاب المعرفة تشرق البسمة على كتاباته مثل برادلى ووليم جيمس . وقد يظهر في بعض الأحيان من يفهم أن « مذهبه » ليس إلا لعبة ، فهو يلعبها بغمزة عينه مثل دافيد هيوم . أما سائر الباقين فقد بلغت رزانتهم حد الموت ، وأطال الفلاسفة – من جون لوك حتى رودلف إيكن Bucken – وجوههم ، وزادت مع كل جيل طولاً ، حتى تستقيم مع مذاهبهم الكئيبة . وأعلن الأسقف بركللى أنه لا شيء يوجد إلا حين يدركه الإنسان أو الله . ولم يتسم الأسقف بقدر ما نعرف ، ولو أننا نشك في أمر هذا الإيرلندى الماهر .

أما أنه لا شيء يوجد في « أى عقل » بل في « هذا » العقل الذى يدرك ، فلا ريب أنها حقيقة تبلغ مبلغ السذاجة والسخف والغبو . ولكن ما أبعد العالم عن هذه العبارة التى تلتبس غالباً بها ، وهى أنه لا شيء يوجد إلا إذا كان مدركاً . وقد كان ذلك اللبس لازماً وثميناً لأولئك الفلاسفة الذين ارتجفوا من المادية الحسنة ، مادية هولباخ ، ومولسكوت ، وبوخنر . ولقد كان بركلى بارعاً حين تخلص من كل مادية بضربة واحدة فى الصميم بإثبات أن المادة لا توجد ، لقد كان عمله بناء شاهقاً فريداً فى بابه من الشعوذة المنطقية ، ويذهبنا بحق إلى أن الذين يدرسون الفلسفة يجب أن يفتحوا أعينهم على الفيلسوف . ولكن غشه كان بسيطاً ، وكان ينبغى على الأسقف أن يتردد إزاء هذا الغش التتى . ومن أقوال أناتول فرانس : « إن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو الكذب والأدب » (١) والآن كم من هذه الإبستمولوجيا المثالية يندرج تحت باب الأدب ؟

ليس معنى ذلك أنه لا توجد مشكلات فى نظرية المعرفة : ويعلم الله أن فيها مشكلات كثيرة مما نسمح لنا الفرصة لبيانه . ولكن هذه الأحاجى الخاصة بالعلاقة بين الذات والموضوع ، والطريقة التى يعرف بها العارف المعروف ، والعناصر الموضوعية والذاتية فى المعرفة ، وموضوعية المكان والزمان ، والصفات التى نخلعها على الأشياء إلى أى حد تتعلق بالأشياء وإلى أى حد تتعلق بالعقل الذى يدركها - وهذه كلها بجميع تفصيلاتها أحاجى لعلم النفس ، وميادين للملاحظة والتجربة المتكررتين المضبوطتين ، ولم تعد مشكلات خاصة بالفلسفة ، كما خرجت عن نطاقها أسرار التحول الكيماى metabolism أو كيمياء قطعة مشوية من اللحم ، وكل مشكلة تتعلق بالفلسفة كهذه المشكلة التى لا تتعلق بها إلا من جهة اتصالها بسائر غيرها . ومن الخطأ أن يغتصب ممثل واحد فى هذه الدراما الكبيرة للأفكار جميع الأدوار ، وأن يلقى وحده جميع العبارات فى تمثيلية الفكر الفلسفى الحديث .

٣ - اللاهوتيون Theologians (١)

ويكاد يشبه ما سبق سواءً الزعم بأن وظيفة الفلسفة القيام بدور الناقد للمنهج العلمي . وهنا أيضاً نجد الرغبة تتسلل لتحضن الفكر ؛ ذلك أن الأساتذة المدافعين عن اللاهوت حين عجزوا عن بيان لا حقيقة unreaity المادة انجسوا إلى إظهار اللاتقنة بالعلم . وما ذهب إليه ماخ Mach ، وبيرسون Pearson ، وبوانكاريه Poincaré - من أن نتائج العلم ليست إلا صيغاً « مختصرة » لـ « عادات » عن طبيعة لا يمكن أن تلاحظ ملاحظة كاملة أبداً ، وأن هذه النتائج قد تنقص وتستبعد عقب ملاحظات أوسع - قد تلقفها قوم للدفاع عن علم اللاهوت . فهنا فرصة ذهبية لبيان نقص العقل ووقوعه في الخطأ ، وأن العلم لا يقدم لنا اليقين بل الاحتمال فقط ، وبناء على ذلك يمكن أن تستخرج جميع العقائد العزيزة علينا في طفولتنا من المتحف ، ثم تكسى بثياب جديدة من عبارات غير مفهومة ، وتباع للجيل القادم على أنها بضاعة لم يصبها إلا تلف يسير . وهب قوم من كل مكان يفحصون في جد بديهيات الرياضة ، ومفهومات المكان والزمان ، والعدد والقياس ، والكم والكيف ، وانتهوا بعد النظر إلى التعاليم القديمة abracadara (٢) إلى وجود مهدي منتظر ، أو سانناكلوز .

فلا غرابة بعد هذا الخداع المعيب أن ينبذ فضلاء الناس الفلاسفة . إذ ما جدوى كل هذا المنطق إذا لم تكن أقيسته إلا ستاراً غير أمين يخفي وراءه آمالنا الخفية ؟ وفي ذلك يقول برادلي Bradley : « الميتافيزيقا هي الكشف عن أسباب باطلة لما نعتقده بالغيرية ، ولكن الوقوع على هذه الأسباب غيرية كذلك (٣) » . وقد تكون الميتافيزيقا في بعض الأحيان هي إيجاد أسباب باطلة لما نود أن نعتقده الآخرون . وكان فولتير أميناً حقاً حين قال إنه يرغب أن يؤمن طاهيه وخدامته

(١) يسمى هذا العلم ثيولوجي Theology ، أو العلم الإلهي ، نسبة إلى ثيوس باليونانية أي إله ، ودرج الاصطلاح عند الفلسفة المسيحية على أن يقال علم اللاهوت ، وهو عند المسلمين علم الكلام . (المترجم) .

(٢) كلمة دينية تكتب في عدة أسطر يقل كل سطر منها بحرف حتى يبلغ حرف الألف ، ويتكون من الكلمة شكل مثلث الألف رأسه ، وكانوا يلبسونها تمويذة من المرض . (المترجم) .

بالمعتقدات التقليدية لزمانها ومكانها ، وقد ظن أن هذا يقلل بعض الشيء فرصة سلب مجوهراته أو تسميم طعامه . وقال لوتز Lotze : إن النظرية الفلسفية محاولة لتسويغ نظرية أساسية عن الأشياء سبق اعتناقها في فجر الحياة (١) . وكتب نيتشه الأمين يقول : « إن جميع الفلاسفة يزعمون أن آراءهم الواقعية قد كشفت بطريق جدل ينشأ في داخل أنفسهم ، وهو جدل إلهي ، نقي ، جامد ، لا صلة له بهم... على حين يدل الواقع على أن فكرة متحيزة أو قضية أو اقتراحاً هي على العموم رغبة قلوبهم قد تجردت وهذبت ، ثم أخذوا يدافعون عنها بالأدلة التي يجتهدون في الحصول عليها بعد نشأة الفكرة » (٢) .

ولعلنا نجد هنا رموس الأخطاء التي تشوه الفلسفة : فهي تسيء إلى الحقيقة في الوقت الذي تبحث عنها ، وتصبح المدافعة عن عقيدة مؤقتة ، وتقصر مع الأسف عن ذلك الضمير العقلي ، وذلك الاحترام الصابر لطلب الوضوح ، وذلك الانتباه العسير إلى الأحوال السلبية ، مما يتميز به عالم مثل همبولد Humboldt أو دارون ، أو فيلسوف « أدبي » غير محترف مثل ليوناردو أو جيته . ولما كان المدرسيون Scholastics الذين ينظّمون خطأ في سلك الفلاسفة ، لاهوتيين في ابتداء أمرهم ، فقد أحدثوا بدعة إخضاع البحث عن الحقيقة لنشر الإيمان . وكانت أعظم تأليفهم الجوامع Summas عبارة عن كتب صفراء رسمية تصدر عن مكتب الدعاية في الفاتيكان لحرب الزندقة . وكانوا يقولون بصراحة إن الفلسفة تمهيد للاهوت Philosophia ancilla theologiae فالفلسفة خادمة اللاهوت . ومع أن آباء الفلسفة الحديثة العظام — بيكون وديكارت وسبينوزا — قد احتجوا على هذه الخطيئة الفلسفية ، فقد سلم أحفادهم في هذا العصر إلى حد كبير بالتقاليد القديمة .

وأخذت أخطاء الفلسفة الأخرى تنمو من هذه الصبغة اللاهوتية كما يتزايد بشكل غامض نمو العلة الناشئة عن مرض موروث . وإذا لم يكن غموض الفلسفة راجعاً إلى نقص صدقها ، فما الشيء الآخر الذي يعزى هذا الغموض إليه ؟ ولا ريب أن بعض الظلمة التي تعشى الفكر الحديث ترجع إلى خداع الحقيقة ، ووعورة الاعتبارات الكونية ؛ على أن الغموض إذا كان من هذا الضرب وحده فلا ينبغي أن يقف حجر عثرة في سبيل اهتمام الإنسان ، فهذا شلي Shelley

In Muirhead, Contemporary British Philosophy, p. 15 (١)

Beyond Good and Evil, S 5. (٢)

غامض ، ولكن من منا لا يمجده على الأقل بلسانه ؟ . والمرأة غامضة ، ولكن أى رجل لا يفتنه هذا الجانب من النقص فيشغل نفسه على الدوام بالنفاذ إلى لب ذلك الغموض وحل ذلك اللغز؟ كلا . . في الفلسفة الحديثة غموض آخر يختلف اختلافاً بيناً . عندما يغازل الرجل يكون فهم غزله أكثر صعوبة منه حين يحكى الحقيقة ، إذ لكل واقعة أكثر من تصور ممكن ، والبارع وحده هو الذى يستطيع أن يجعل باطله متماسكاً كالحق . ولكن البارعين في التزييف لا يصبحون فلاسفة ، لأن السلك السياسى فى أمس الحاجة إليهم ، وتبقى الفلسفة الإلهية فى أيدى روائيين من طبقة دنيا تنحل عقدهم الروائية عند أول اتصال بهذا العالم الحى .

وجملة القول أن هذا الكذب الأولى هو الذى يولد المذهب الفكرى-Intellect ualism العقيم السائد فى النظر الحاضر. ومن لا يثق فى سلامة تفكيره يتجنب المشكلات الحيوية للمعيشة الإنسانية : إذ فى أى لحظة قد يكشف معمل الحياة الكبير عن أكذوبته الصغيرة ، ويتركه عارياً يرتعش فى وجه الحقيقة . ومن أجل ذلك يبنى لنفسه برجاً عاجياً من المؤلفات المستورة والمجلات الفلسفية الفنية ، التى لا يجد الراحة إلا فى صحبتها ؛ بل إنه ليخشى واقعية منزله المثيرة : إنه يهيم بعيداً ، وبعيداً جداً عن زمانه ومكانه ، وعن المشكلات التى يستغرق فيها أهل وطنه وعصره . ولا تعنيه بل تفزعهُ الأمور التى تتصل حقاً بالفلسفة ، ولا يحس بأى هوى يدفعه إلى ربط بعض الأشياء ببعضها الآخر ، ولا إلى وضع شىء من النظام والوحدة فى فوضى عصره الكثيرة . ولكنه ينزوى خائفاً فى ركن صغير ، ويعزل نفسه عن العالم بطبقة فوق طبقة من الاصطلاحات الفنية ، وعندئذ يبطل أن يكون فيلسوفاً ويصبح من أصحاب المعارف Epistemologist

ولم يكن الأمر على هذا النحو فى اليونان ، حيث كان الفلاسفة أقل اضطلاماً بالتدريس وأكثر اشتغالا بالتفكير . ولقد حوّم بارمنيدس بتفكيره حول لغز المعرفة ، ولكن الفلاسفة السابقين على سقراط ظلت أعينهم مفتوحة بمنطق معتدل على الأرض الثابتة ، وآثروا الكشف عن أسرارها بالملاحظة والتجربة على توضيحها بالجدل ، فلم يكن بين الإغريق من ينطوى على نفسه إلا القليل .

ولنتأمل صورة ديمقريطس ذلك الفيلسوف الضاحك ؛ ألا يكون رقيقاً ذا خطر على أولئك المدرسين الجامدين الذين حولوا النزاع حول واقعية العالم الخارجي إلى مقالات ذاعت في العصر الوسيط عن عدد الملائكة الذين يمكن أن تستقروا فوق رأس إبرة ؟ ولستحضر صورة طاليس الذي تحدى باحتكار السوق الذين قالوا إن الفلاسفة قوم بله ، فحقق ثروة كبيرة في عام واحد . ولننظر إلى صورة أنكساجوراس الذي صنع للإغريق ما صنعه دارون ، فأحال بركلييس من سياسى عملى إلى مفكر ورجل دولة . ولستعرض صورة سقراط الذى لم يرهب الشمس أو النجوم ، وأفسد في مرح الشباب ، وقلب الحكومات . ترى ماذا يمكن أن نعمل بهؤلاء المتفلسفة المشوهين العقيمين الذين يتسكعون الآن بأبواب تلك المملكة التي كانت عظيمة في قديم الزمان ؟ لم تكن نظرية المعرفة عند أفلاطون وعند أولئك الأبطال من السابقين عليه ، إلا مدخلاً للفلسفة شبيهاً بالغزل الذى يسبق الحب ، فقد يستمتع المرء بنظرية المعرفة ساعة ، ولكنها لا تكفى في إطفاء جوى محب الحكمة . ونحن نجد أفلاطون بين حين وآخر يغازل في محاوراته القصيرة مشكلات الإدراك الحسى ، والتفكير ، والمعرفة ، ولكنه كان يمد بصره في تأليفه الكبرى فوق ميادين أكثر سعة ، فبنى لنفسه مدناً فاضلة ، وأخذ يتفكر في طبيعة الإنسان ومصيره . وأخيراً شرفت الفلسفة عند أرسطو في سائر ميادينها غير المحدودة وعظمتها اللانهائية ، فقد كشف جميع قصورها وجملها بالنظام ، ووضع كل مشكلة في مكانها ، فقدم كل علم فروض الطاعة للحكمة . لقد عرف أولئك القوم أن وظيفة الفلسفة ليست أن تند نفسها في ظلمات الإبستمولوجيا ، بل أن تقتحم بشجاعة كل ميدان للبحث ، وأن تلم بأطراف كل معرفة حتى تنسق الأخلاق الإنسانية ، والحياة البشرية ، وتلقى الضوء عليها . لقد فهموا أن ميدان الفلسفة ليس لغزاً صغيراً يختبئ وراء السحب ، ويخلو من الاهتمام أو التأثير في أمور الناس ، ولكن ميدانها هو المشكلة الشاسعة الشاملة لعنى الإنسان وقيمه وإمكاناته في هذا العالم اللانهائى المتدفق .

٤ - العلماء

وإذ كان هذا كله يصور لنا ما ليس للفلسفة ، أو ما لا ينبغي أن يكون لها ، فقد بقي لنا أن نقول ما الفلسفة ؟ أو ماذا يمكن مثالياً أن تصبح ؟ أي يمكن أن نعبد ملكة العلوم إلى ميدانها وقوتها السابقين ؟ أي يمكن أن نتصور الفلسفة مرة أخرى على أنها المعرفة الموحدة والموحدة للحياة ؟ أنستطيع أن نضع تخطيطاً لنوع من الفلسفة قد يجعل عشاقها قادرين أولاً على حكم أنفسهم ثم الدولة ، أولئك الجديرون حقاً بأن يكونوا ملوكاً فلاسفة ؟ (١)

والفلسفة في الاصطلاح الفني ، كما عرفناها منذ زمن طويل ، هي : « دراسة التجربة ككل ، أو دراسة شطر من التجربة في علاقته بالكل (٢) » ويتضح في الحال أن أى مشكلة يمكن أن تكون مادة للفلسفة بشرط أن تدرس من زاوية شاملة في ضوء سائر التجارب والرغبات الإنسانية . ذلك أن طابع العقل الفلسفي ليس في دقة النظر بمقدار سعة النظرة ووحدة الفكر . يجب أن نستبدل الأنواع الكلية بالأنواع الأتلية Sub specie totius Sub specie eternitatis التي ذهب إليها اسينوزا . الواقع كلتا النظرتين تتركزان على النتيجة نفسها كما تلتقي العينان على الشيء المرئي ؛ غير أنه إذا كان في استطاعة الإنسان أن يجمع تجاربه في كل منظم نسبياً ، فإن رؤية الأشياء من عين الأزل ميزة الآلهة المخلدن ، ولعلمهم غير موجودين .

ولا تحتاج صلة العلم بالفلسفة إلى مزيد من الإيضاح : فالعلوم هي النوافذ التي ترى الفلسفة العالم من خلالها ، أرهى الحواس لهذه النفس ؛ وتصبح معارف العلوم بغير الفلسفة عاجزة مضطربة كالإحساسات التي ترد إلى الذهن المشوش فيوئلف منها الأبله قصة . لقد كان سبنسر على حق حين قال : الفلسفة هي أعم معرفة ؛ ولكنه كان كذلك على باطل : لأنها ليست معرفة فقط ، إذ تتضمن ذلك النظر السامى والصعب الذى ترتفع فيه مجرد المعرفة لتصبح نظرة شاملة تنظم

(١) يشير المؤلف إلى نظرية أفلاطون عن الملك الفيلسوف التي بسطها في « الجمهورية » .

(٢) المترجم .

Philosophy and the Social Problem, p.I

اضطراب الرغبة وتوضيحها . لأنها تشتمل على تلك الصفة الغريبة المتميزة التي تسمى حكمة .

والفلسفة بغير العلم عاجزة : إذ كيف تنمو الحكمة اللهم إلا على أساس المعرفة المكتسبة كسباً صحيحاً ، بالملاحظة الآمنة والبحث الصادق ، تسجلها وتوضحها عقول بعيدة عن الهوى ؟ وبغير العلم تتدهور الفلسفة وتنحط ، إذ تنزل عن تيار النمو الإنساني ، وتقع أكثر فأكثر في سخافات المدرسية الكئيبة . ولكن العلم بغير الفلسفة لا يصبح عاجزاً فقط بل مخرباً ومدمراً . والعلم وصني : إنه ينظر بالعين أو التلسكوب ، بالميكروسكوب أو الاسبيكتروسكوب ، ثم يحدنا عما يراه . ووظيفته أن يلاحظ الوقائع المعروضة بعناية ، ويصفها موضوعياً وبدقة دون نظر إلى نتائجها بالنسبة إلى الإنسان . هذا نتر وجلسرين أو غاز الكلورين ، فهمة العلم تحليلهما في هدوء ، وإخبارنا ما هذا المركب أو هذا العنصر بالضبط ، وماذا يمكن أن يعمل كل منهما ، من إهلاك مدن بأسرها ، أو تخريب أبهى صروح الفن الإنساني ، أو إفساد حضارة كاملة ومحوها بجميع ما فيها من لطائف مدخرة وحكمة مدونة - يجربنا العلم عن ذلك كله وكيف يمكن عمله علمياً ، وسريعاً ، وبأقل نفقة لدافعي الضرائب إذا قدر لهم أن يعيشوا . ولكن هل يجب أن تجرب الحضارات ؟ . . . أى علم يجربنا عن ذلك ؟ أتكون الحياة أحلى حين تتضخم بالكسب وتتعلق بالملك ، أم حين تستغرق في الإبداع والبناء ؟ هل الأفضل أن نبحث عن المعرفة ونشدد الحقيقة العارية عن الوهم ، أو نطلب النشوة العابرة للجمال ؟ وهل يجب أن نحاول التنازل عن جميع الجزاءات العلوية Supernatural في حياتنا الخلقية ؟ أيجب أن ننظر إلى المادة من وجهة نظر العقل ، أم ننظر إلى العقل من وجهة نظر المادة ؟ وما جواب العلم عن هذه المسألة ؟ وكيف نلقى الضوء على هذه الاختيارات القصوى في حياتنا ، اللهم إلا إذا كان ذلك بنور تجاربنا الشاملة ، وبتلك الحكمة التي ليست المعرفة إلا مادتها الخام ، فتجد جميع العلوم من خلال نظرة الحكمة الكلية المكان والنظام والمعنى المرشد ؟

والعلم هو الوصف التحليلي للأجزاء ، والفلسفة هي التأويل التركيبي للكل ،

أو هي تأويل جزء من الأجزاء من حيث مكانه من الكل ، وقيمته بالنسبة إليه . العلم مجلس يقرر الطرق والوسائل ، والفلسفة مجلس يصدر القرارات والمناهج ، فالوقائع والآلات لا قيمة ولا معنى لها إلا في علاقتها بالرغبة . فإذا كان لا بد للرغبات ذاتها أن تكون متماسكة ، وأن تصبح أجزاء منظمة لشخصية متولفة وحياة موحدة ، فهذا أيضاً من مهام الفلسفة ، ومن أعلى أهدافها .

والفلسفة بالضرورة أكثر اعتماداً على الفرض من العلم . حقاً العلم نفسه يجب أن يستخدم الفرض ، ولكن بشرط أن يكون مجرد بداية فقط . ويجب على العلم ليكون علماً بمعنى الكلمة ، أن يصدر في ثوب من المعرفة التي يمكن تحقيقها مستقلة موضوعياً عن المنفعة الفردية أو الهوى الشخصي . أما الفلسفة ، على العكس من ذلك ، فتتخذ من العلم والوقائع والمعرفة المحققة بدايات لها (فإذا لم تكن قد فعلت فقد حان لها أن تفعل) ؛ ثم تشرع في افتراض فروض أوسع حول المشكلات القصوى التي لم نصل فيها بعد إلى حقائق مقررّة نهائية . والفلسفة تكميل خطر وخيالي للفهم ، فهي تملأ الفجوات الموجودة عندنا عن المعرفة العلمية بالعالم بافتراضات لا يمكن إثباتها تجريبياً . ومن هذا الوجه يعد كل إنسان فيلسوفاً ، ولو بالرغم منه ؛ ذلك أن أكثر الشكاك حذراً ، أو أشد اللادريين تواضعاً ، أو أعظم السلوكيين تمسكاً بالواقع ، يتفلسف في الوقت نفسه الذي يعلن احتجاجه للعالم أجمع أن الفلسفة مستحيلة . فلو فرضنا أن أحد اللادريين كان يعيش في حيدة كاملة بحيث لا يعتقد أو لا ينكر وجود الله ، ولو فرضنا أنه قد يوزع أفكاره وأعماله بغير تحيز بين القبول والإنكار ، فقد يتوقف حكمه على الفلسفة توقفاً لا حراك فيه ولا حس ، أشبه ما يكون بالإغماء الفلسفي وحالة عدم الوعي بالكون . وهذا شيء عسير وبعيد عن الإنسانية ، لأننا في الواقع نتخذ جانبيين : إما أن نحيا في الإنكار أو نحيا في القبول ، وننصرف كما لو أننا قد اخترنا إحدى المتاهتين المفرعتين اللتين تكوّنان الفلسفة . فنحن نصنع الفروض ، ولو كما فعل نيوتن . ذلك أن سحر المطلق يجذبنا دائماً .

ألنا أن نقرر أن الفلسفة تناقض نفسها باستمرار مع تتابع مذهبها ؟
وأن الفلاسفة جميعاً خاضعون لثورة جنون قتل الإخوة فلا يهدأ لهم بال حتى

يحطموا كل منافس يطالب بارتقاء عرش الحقيقة ؟ وكيف يجد الإنسان المشغول بالحياة من فسحة الوقت ما يفسر به هذه المتناقضات العلمية أو ما يهدى به هذه الحرب ؟ ألا يهدم هؤلاء الفلاسفة بعضهم البعض ؟ انظر إلى عمر الخيام يقول في تجربته :

كنت أعشى وأنا صغير مجالس الأطباء والفقهاء

وسمعت منهم مناظرات حول الطب والفقهاء

فلم أظفر بنتيجة عن حقيقة الأمر

وكنت أخرج من الباب الذى أدخل منه .

أكبر الظن أن عمر الخيام كان ينجح للخيال ، ولعله لم يخرج حقاً من الباب نفسه الذى دخل منه ، اللهم إلا إذا كان قد ترك عقله مع نعليه عند باب المسجد كما يفعل المسلم الورع . ولست تجد أحداً يغشى صحبة عظماء الفلاسفة دون أن يغير عقله ويوسع نظره فيما يختص بالآلاف من المسائل الحيوية . فإذا بدل إيمان طفولة عمر إلى عبادة مشوبة بالشك فى الجمال والخمر ؟ أليست الفلسفة هى التى تضيف إلى رباعيات الخيام هذه العظمة ؟

فليدرس أحدنا تاريخ العلم وسوف يكشف فيه من التغيرات العجيبة ما يجعل تذبذب الفلسفة بين اليمين والشمال يتبدد فى نهار سعة وعمق إجماع العلم الأساسى واتفاق كلمته . إلى أى نجم بعيد ذهبت نظريتنا السديمية المشهورة ؟ هل يويدها علم الفلك الحديث ، أو يسخر من وجهها المغرب ؟ وأين ذهبت اليوم قوانين نيوتن العظيم حين قلب أينشتين ومينكوفسكى وغيرهما الكون رأساً على عقب بمذهب النسبية غير المفهوم ؟ وأين مكان نظرية عدم فناء المادة وبقاء الطاقة فى الفيزيكا المعاصرة وما يكتنفها من فوضى وتنازع ؟ وأين أقليدس المسكين اليوم ، وهو أعظم مؤلف للمراجع العلمية ، ليرى كيف يصوغ الرياضيون لنا أبعاداً جديدة بحسب أهوائهم ، ويتدعون لامتناهيات محتوى أحدها الآخر كجزء منه ، ويثبتون فى الفيزيكا والسياسة كذلك أن الخط المستقيم هو أطول مسافة بين نقطتين ؟ وأين علم الأجنة اليوم ليرى البيئة الناشئة تحل محل الوراثة التى كانت إله العلم ؟ وأين جريجور مندل الآن ليشهد انصراف علماء الوراثة

عن وحدة الصفات . . . ؟ وأين دارون الهدام الدقيق ليرى كيف حلت طريقة التغيرات السريعة محل الاختلافات الذاتية والمتصلة في التطور ؟ وهل هذه التغيرات هي الثمرة المشروعة لاختلاط الهجائن ؟ وهل نضطر إلى الرجوع في تفسيرنا للتطور إلى الوراء عند نظرية انتقال الصفات المكتسبة ؟ أنجد أنفسنا وقد عدنا مرة أخرى أكثر من قرن إلى الماضي نعائق رقبة زرافة لامارك ؟ وماذا نصنع اليوم بمعمل الأستاذ فونط Wundt وباختبارات ستانلي هول ، حين لا يستطيع أى عالم نفسانى من أتباع السلوكيين أن يكتب صفحة واحدة في علم النفس الحديث دون أن يلقي بمخلفات أسلافه في الهواء ؟ وأين علم التاريخ الحديث اليوم حيث يضع كل عالم في تاريخ قدماء المصريين كشفاً بالأسرات وتواريخها على هواه ، ولا يختلف عن كشف غيره إلا ببضعة آلاف السنين ؟ وحيث يسخر علماء الأجناس البشرية من تيلور ووستمارك وسبنسر ، وحيث يجهل فريزر كل شيء عن الدين البدائي لأنه قد رحل إلى العالم الآخر ؟ فإذا أصاب علومنا ؟ هل فقدت فجأة قداستها وما فيها من حقائق أزلية ؟ أيمن أن تكون « قوانين الطبيعة » ليست سوى فروض إنسانية ؟ ألم يعد هناك يقين أو استقرار في العلم ؟

لعلنا إذا شئنا التماس الاستقرار في العقل والنفس لوجدنا أنه أقل في العلم منه في الفلسفة. ذلك أن اختلاف الفلاسفة يرجع إلى تغير مدلول الاصطلاحات في عصرهم أكثر مما يرجع إلى العداوة بين أفكارهم . أو قل إن هذا الاختلاف يرجع إلى حد كبير إلى تقلب العلم نفسه ، من جهة تعلقه القوى بفرض من الفروض فترة من الزمن ، ثم تشعبه به ، ثم كراهته له ، وتحوله إلى وجه جديد لنظرية حديثة . وبعد ، فأى اتفاق عجيب يوجد في حكم عظماء المفكرين على المشكلات الحيوية للحياة الإنسانية عندما تنحل أساليب كلامهم المختلفة في تفكيرهم الأساسي ، أما سنتاينا فانه يعلن في تواضع أن ليس عنده شيء يضيفه إلى أرسطو ، وكل ما سيقدمه عبارة عن تطبيق لتلك الفلسفة القديمة على عصرنا الحديث ؟ فهل يمكن أن يتحدث أى عالم طبيعي معاصر أو بيولوجى أو رياضى مثل هذا الحديث عن أى عالم يونانى ؟ لقد نقض العلم الحديث اليوم علم أرسطو في كل ناحية ، ولكن فلسفته ستبقى مشرقة وعميقة في الوقت الذى يصبح فيه علم اليوم موضعاً للاحتقار والسخرية عندما يلقيه جانباً علم مقبل وثيق لعصر جديد .

٥ - ملكة العلوم

قد نشعر إذن أن الفلسفة لا تزال ملكة العلوم Regina Scientiarum ، ويجب أن يعترف بها كذلك في كل مكان إذا لبست ثوب عظمها القديم ، وأخضعت جميع العلوم لخدمتها ، واتخذت من سائر أنواع المعرفة آلة لها . فالعالم موضوعها ، والكون ميدان اختصاصها . ولكن كما أن الملكة الحكيمة تعين مهرة الحكام في الأقاليم المختلفة من المملكة ، ويعهد هؤلاء الحكام إلى أتباعهم بجمع الوثائق وتصريف الأمور الجزئية ، على حين يقصر الحكام وملكتهم أنفسهم على تنظيم التدبير والسياسة ، كذلك الفلسفة تقسم مملكها إلى ميادين متعددة ، وتوجد في جنبها قصور كثيرة .

وأول ميدان في مملكها ، وداهليز في دارها ، هو ذلك الذي يسمى باسم مخلو من السحر وهو « المنطق » ، وكأن الفلسفة قد أخفت جمالها بمحض إرادتها عن أعين الغرباء ، وأوجبت على طلابها أن يمرروا خلال هذه المحنة أولاً حتى يثبتوا جدارتهم بالمشاركة في مباحثها العزيزة . ذلك أن مباحث الفلسفة تشبه مراقى الحب التي لا تسمو إليها أى نفس وضيعة . وكيف نعلم الحقيقة حين ننظر إليها إذا لم نكن على أقل تقدير قد تعلمنا أن نتصور شبحها ، ولم نكن قد تدبرنا شتى الاختبارات والامتحانات التي توهم أنفسنا من « حضورها الحقيقي » ؟ كيف يمكن أن نجيب عن سؤال بيلاطس الخادع ؟ أنتبع عقلنا العاجز المغامر ، أم إلهامنا العميق الغامض ، أم الحكم الغشيم لأعيننا وأذاننا وأيدينا التي تتحسس ؟ كيف نصنف حواسنا وأفكارنا من جميع الآراء المتحيزة التي تشوهها ، ومن سائر « الأصنام » الخادعة ، محتفظين بمصاييح العقل مضاءة حتى تجمد كل حقيقة طريقها إلينا ، فترحب بها ، ونضعها في موضعها اللائق ؟ كيف ندرّب أنفسنا ، كما يفعل الرياضيون ، على طلب الحكمة ومحبتها ؟

وثمة ميدان آخر لا يزال بعيداً عن عرش المملكة وقلبها ، هو بيت ذلك التنين العظيم المسمى الإبيستمولوجيا «نظرية المعرفة» Epistemology . وإذا كانت أقدامنا قد تعثرت في مفاوز المنطق ، فأعيننا في هذا الميدان لن تبصر في الظلام .

سوف نترنح في أكثر من طريق ، وقد نهيم على مقربة شديدة من فم التنين ، فتسحرنا لفته العظيمة ، ثم نبتلع فجأة في كهفه الفارغ ، ونصبح بعد ذلك من أصحاب المعارف إلى الأبد . ولكن لا بد أن نواجه هذا الامتحان أيضاً ، وأن نجيب بطريقة مقبولة عن لغز المعرفة ، ومشكلة حقيقة العالم الذي ندرکه ومبلغ صدقه . ولعلنا بعد ذلك نخطو إلى الإمام ونقف في تواضع في بلاط الملكة العظيمة .

وهناك ميدان ملكي أيضاً هو « الميتافيزيقا » ، وهو مظلم كذلك ولا يستضيء إلا بالنور الذي نجلبه له ، ولكنه زاهر بكنوز تتغذى بها النفس . وهنا نجد أن الطبيعة تخفي ماهيتها الباطنة وتخيرنا بما تقدمه من مئآت الحلول . وهنا نجد أن الفلسفة تكشف لنا عن جانب من تلك « الأنغام السامية » التي كانت تغنيها لفيثاغورس ، ذلك أن الطبيعة تصبح بوساطتها واعية ، وتنتقد أهدافها الخاصة ، وتصبح شيئاً له معنى . وهنا قد نستطيع أن نتعمق مشكلات الحياة ، والمخ والعقل ، والمادية والروحية ، والميكانيكية والحيوية ، والجبر والحرية . وما الإنسان ؟ أهو شيء مركب من أسلاك وزنبركات وعجلات متشابكة تتحرك من خارج بقوى عمياء من الأرض والسما ؟ أم هو إله خالق بطريقته الصغيرة المضحكة ؟

وميدان آخر هو « التاريخ » حيث يقدم لنا مئآت الألوف من الدهماء وبعض العباقرة من بلاد بعيدة وأزمنة سحيقة حكمتهم ليتسنى لنا أن ننأملها موحدة ، ونتعلم دروسها . أهناك أي معنى في الماضي ؟ أهناك أي قوانين لنشأة الدول وأنهارها تيين ، وقد تحدد ، قيام الأمم والأجناس والحضارات وسقوطها ؟ وهنا نعرض لمنتسكيو وباكل Buckle يتحدثان عن أثر الجغرافيا في مصائر الشعوب . وهنا نجد كوندورسيه Condorcet وهو على فراش الموت يعزى نفسه بفكرة التقدم وقابلية الإنسان اللامحدودة للكمال . ونجد هيجل Hegel يعرض لنا أعباء الجدلية ، وكارليل أبطاله ؛ ونجد المتطرفين من الغلاة يغنون أنشودة قوة جنسهم ويلعنون ظهور المتبريرين . ونجد ماركس يخيفنا بجبال من الأرقام والحجج التي يسوقها للدلالة على نظرية الجبر الاقتصادي للتاريخ . ولعلنا نصادف في طريقنا باحثاً أو أكثر يفسر لهؤلاء المفتونين أن حقائقهم ليست إلا وجوهاً من الواقع ،

وأن التاريخ والطبيعة أكثر اختلافاً مما توهموا في فلسفاتهم . وسوف نجد في ركن بعيد نيتشه المتشائم يعنى أنشودته عن « الدورة الأزلية » ، ونجد شبنجلر يثبت بحماسة انهيار العالم الغربي .

فاذا انتقلنا بعد ذلك إلى ميدان آخر سنسمع بحثاً عن « السياسة » . سنفرع بعض الوقت خشية اكتشاف أمريكا . ولكن ليس ثمة ما يدعو إلى الفرع ، لأن رجالها يناقشون الديمقراطية بغير توقير ، والفضوى بغير خوف . إنهم يحبون الاشتراكية مع علمهم بتناقضها ، ويمجدون الأرستقراطية مع احتقارهم ظلمها المواهب غير ذات الحسب . وفي بعض الأحيان يتحدثون في حماسة الشباب عن بلاد جميلة تسمى طوبيا utopia (مدينة فاضلة) لا يحكمها إلا الحكماء ، وترزح كل مدينة بالغنى والجمال .

بهذه الكلمة الأخيرة التي لا تزال تطربنا نغمتها ننفذ إلى قلب الميدان ، ونشخص إلى الفلسفة ذاتها وهي تكشف للمغرمين بها عن الجمال والحلود والخير . ذلك أن للفلسفة غيرة مكتومة من « الفن » ، وتنفس عليها شغفها الخالق للجمال . وهنا ، لا في العلم ، نجد منافسها العظيم الذى يسعى لغزو قلوب أنبل الناس وولايتهم له . وقد تخضع الحكمة في رقة وهي تسلّم بأن عبادة الجمال أولى من البحث عن الحقيقة ، ذلك أن الحقيقة الأزلية تهرب متعاطمة حتى لا تكاد تسمح لنا بأن نلمس أطراف جلابيها ، على حين يرحب الجمال الذى يعلم أنه مقضى عليه بالفناء بإعجابنا ويكافئنا عليه . ولذلك تدرس الفلسفة الجمال في تواضع ، أما الفن فيجعله ويخلقه خلقاً ثانياً . الفن يلتمس الجمال في حرارة مودة الحب ، وفي عظمة بناء المعابد ، وجلال أشكال التماثيل ، وحرارة الألوان ، وموسيقية الألفاظ ، وتتابع الأصوات العذاب . أما الفلسفة فلا تعرف مع الأسف إلا مشكلات الجمال : ما مصدر الجمال ، وماذا يعنى ، أ يوجد في الصورة نفسها ؟ أم لا يوجد إلا في قلوبنا العطاش ؟ وهذا هو ميدان « علم الجمال » Aesthetics الذى جعلته عقول المدرسين قروناً طويلة موحشاً ، ولكنه لا يزال زاخراً بالعجب والبهجة .

وهنا أيضاً في قلب المملكة ميدان « علم الأخلاق » ، وهو ميدان قاحل

بالتجريدات الأكاديمية ، ولكنه من بعض الجهات أغنى قصور الفلسفة ، لأن فن الحياة أسمى حتى من حياة الفن ، وعلم الأخلاق هو حكمة فن الحياة . وهنا نجد الفلسفة تسمو بمعارفها المتعددة إلى حكمة حية ، وتجمع من قصورها المختلفة الهداية للإنسانية . وبعد فما هي أفضل حياة ؟ وما نفع الخير ، وأى حق يوجد في القوة ؟ أنجد أسمى الفضائل في حكمة سقراط ، أو شجاعة نيتشه ، أو سماحة المسيح ؟ أنكون رواقين مع زينون وسينوزا ، أو أبيقوريين مع أبيقور وربان ؟ أتكون اللذة غاية الحياة ؟ هل الحب ينافي الأخلاق إلا إذا وافق القانون ؟ وما العدالة ؟ وما رأى العدالة في عالمنا الصناعي ؟ وهنا نجد أكثر من أى مكان آخر مشكلات حيوية تجعل مصير حضارات بأسرها في كف القدر . هنا معضلات تمس كل دولة وكل قلب ، وهي مشكلات يبدو بجانبها العلم بتسجيلاته واختصاصاته وسائله وصلبه وغازه شيئاً بعيداً وغير إنساني ، شيئاً أذنى إلى الصلة بالوت منه إلى الاتحاد بالحياة .

غير أن الموت يتعلق أيضاً بالفلسفة ، وعندما يصمت لسان جميع المناقشات ، يتحول الفكر في خوف لينظر إلى « العذب الأكبر » وتدخل الفلسفة أبواب « الدين » . واللاهوت Theology هو البحث في الكائنات العلوية Supernatural وصلتها بالإنسان ، ولا تدلى الفلسفة برأى عن هذه الكائنات ، ولكنها تتحدث عن علاقة الإنسان بجملة الحياة ومجموع الأشياء ، وعن أصله على هذه الأرض ومصيره الأخير ، ولو أنها تتحدث حديثاً متواضعاً يتناسب مع الجهل البشرى . إنها تتعلق بمسألة الخلود تلك المسألة التي تتعلق بكل نسيج حيوى . ولعلنا يمكن أن نعرف الفلسفة بأنها مسألة حياة وموت . وأخيراً فإنها تتعلق بالله ؛ ولسنا نعى إله اللاهوتيين الذين يتصورونه خارج عالم الطبيعة ، بل إله الفلاسفة ، وهو قانون العالم وهيكله ، وحياته ومشيئته . فلو كان ثمة أى عقل يدبر هذا الكون فإن الفلسفة ترد أن تعرفه وتلدرك كنهه حتى تسايه في الفكر مع الاحترام . فإذا لم يكن ثمة عقل مدبر ، فإنها ترد أن تعرف ذلك أيضاً حتى تواجهه بغير خوف . هل النجوم ليست إلا تجمعات عابرة لسدم اعتباطاً ؟ وهل الحياة عرض غروى Colloidal مستمد من تلقاء نفسه وفائض فيضاً ذاتياً ؟ وهل

الإنسان ليس إلا مركباً كيميائياً مصيره إلى الانحلال ثم الفناء تماماً ؟ وهل نشوة الفن ، وحكمة الحكيم الهادئة ، وتشهد القديسين بإرادتهم ، كل ذلك ليس إلا لمحات بارقة في البراعم البروتوبلازمية للأرض ؟ وما الموت إلا الجواب عن كل مشكلة ومصير كل نفس . . . إذن فعلى الفلسفة أن تواجه هذا أيضاً ، وأن تسعى إلى إيجاد بصيص من الدلالة والسمو في عين الإنسان داخل هذه الدائرة الضيقة .

هل لنا أن نشرع في البداية ؟

ابجزء الثاني

المنطق والإبستمولوجيا

الفصل الثاني

ما الحقيقة ؟ (١)

١ - الإحساس في مقابل العقل

يقول السيد نيتشه المتشبه بالقديسين مهاجماً ما أمكنه إلى ذلك سبيلاً :
« لا تظهر في العهد الجديد بأسره إلا شخصية وحيدة جديرة بالتبجيل ، هي شخصية بيلاطس نائب الإمبراطور الروماني ذلك أن الاحتقار النبيل لأحد الرومانيين ممن كانت تبذل أمامه لفظة « الحقيقة » في غير خجل ، قد زود العهد الجديد بما فيه من عبارة وحيدة لها أى قيمة . . . ما الحقيقة ؟ » (٢)
وقد عدها أنا تول فرانس أعمق سؤال أثير على الإطلاق (٣) ؛ إذ أى سؤال آخر لا يتوقف عليه ؟

والمنطق صحيفة صغيرة (طبق) من المشميات في مادبة الفلسفة . وهو يغلق ألف شبيهة في مقابل شبيهة واحد يفتحها . إننا نحذر المنطق لأننا تعلمنا أن معظم الاستدلالات عبارة عن رغبة مغطاة بغلالة رقيقة من التعقل Rationality . فنحن نزعم أننا نقيم صروحاً من التفكير المحايد ، على حين أننا في الواقع لا نختار من الحقائق والأحكام إلا ما يعزز رغبة شخصية أو وطنية . إننا نحذر المنطق لأن العصر الوسيط علمنا أن الحياة أوسع وأشد ثقة وأكثر عمقاً من قياساتنا ؛ والمنطق ساكن Static قائم على أساس من « الحقائق الثابتة » ، في حين أن الحياة متدفقة ومتغيرة ، وتفاجيء جميع القوانين Formulas بما لا تتوقعه . « وإن عدد

(١) أنظر هامش الفهرست .

(٢) ضد المسيح Antichrist القسم ٤٦ ؛ يشير إلى القديس يوحنا ، XVIII ٢٨

(٣) الحياة والرسائل ، السلسلة الأولى ص ٨ .

الأشياء التي رفض العقل أول الأمر الاعتراف بها ثم قبلها في النهاية كبير جداً . ولعلنا في الشباب قد حفظنا جميع قواعد التفكير السليم ، فإذا بنا نجد أن درك المعرفة ، والتعرف على الحقيقة ، وحكمة الحياة ، كل ذلك يقع بعيداً بعدد كله عن هذه الدائرة المنظمة نظاماً أليقاً . فما أسعدنا حين نلقى إلى الأبد بهذا المنطق الذي يجعل حتى الفلسفة جافة وبغير روح ، بدلا من الاحتفاظ به سداً يقف في وجه مشكلات لعلها ليست أساسية إلا بمقدار بسيط ، ولكنها أدخلت في حياتنا وأكثر حيوية لها . ومع ذلك فلا ينبغي لنا أن نطرح المنطق ، لأننا لا نستطيع أن نمضي في بحثنا عن الحقيقة بغير أن نحدد من قبل ماذا نبحث عنه ، وما الطريق الذي نلتزم أن نساكنه له ، وكيف نعرف أننا بلغنا ما نريد بلوغه . ولن يكون أي نظام آخر منطقياً .

ونحن نجد في أطراف الدائرة مشكلة المنطق الرئيسية وقد وضع الأيدي عليها بوضوح ، وأجاب عنها بوضوح ، أولئك المعلمون الأحرار الذين لم يقدرُوا في العالم القديم حق قدرهم ، ونعني بهم السفسطائيين . فقد قالوا : (ويزعمون إن لوك بعد ألقى عام من زمانهم كشف ذلك) إن المعرفة تأتي من الحواس فقط ؛ وبناء على ذلك فإن معيار test الحقيقة هو الإحساس ؛ وفي هذا جواب سؤال بيلاطس . فالحقيقة هي ما تذوقه وتلمسه وتشمه وتسمعه وتراه . أي شيء يمكن أن يكون أبسط من ذلك ؟ وإكن أفلاطون لم يقتنع وقال : إذا كانت هذه هي الحقيقة فليس ثمة حقيقة ، لأننا جميعاً نذوق ونشم ونسمع ونلمس ونزى الأشياء بشكل مختلف ؛ وبناء على ذلك يكون القرد مقياس الحقيقة كالحكيم سواء بسواء - ومن يفصل بينهما ؟ لقد كان أفلاطون على يقين من أن العقل هو مستقر الحقيقة ، فعانى العقل بالنسبة إلى شهادة الحواس كالمسألة بالنسبة إلى الشعب من حيث تجميعهم مراكز للنظام وسط جمهور فوضوي .

ووافقه أرسطو في ذلك وجعل المنطق لأول مرة دراسة منفصلة ، وذلك بالسعي إلى وضع قوانين العقل ؛ فلا يجب أن نحكم على أمر بأنه صادق إلا إذا:

أمكن أن نجعله نتيجة لقياس مضبوط ، مثال ذلك : الإنسان حيوان عاقل (ولا تزال هذه القضية الساذجة مستعملة في كتب المناطقة) ، وسقراط إنسان ، إذن سقراط حيوان عاقل . ولقد أنكر فيرون (١) أن يكون الأمر كذلك ، فكل قياس مصادرة على المطلوب . لأن المقدمة الكبرى لا يمكن أن تكون صادقة إلا إذا كانت النتيجة صادقة مقدماً ، وليس من حقلك أن تزعم ذلك . وإذا لم تفترض أن سقراط عاقل فلا يجب أن تبدأ بهذه القضية وهي أن الإنسان (الذي يشمل سقراط) حيوان عاقل . لعله ليس إلا حيواناً يستعمل العقل . وبناء على ذلك فالعقل دائماً غير يقيني . وهنا قال أبيقور : حسناً ، فلنرجع إلى السفسطائيين ، ولنثقف في حواسنا . ولكن الشكاك Sceptics تساءلوا مرة أخرى وقالوا : كيف يمكن ذلك ؟ فالشمس في نظرنا صغيرة كالقطين ، وقد تكون النجوم كالطغح المتناثر على صفحة السماء ، فهل نصدق حواسنا ؟ وانتهى فيرون إلى القول بأنه لا شيء يقيني ، وعندما توفي لم يحزن تلاميذه عليه بالرغم من محبتهم له ، لأنهم لم يكونوا واثقين من موته .

وظلت لعبة الحواس في مقابل العقل تشغل أيام الفلاسفة ، إلى أن توارى اليونان والرومان من المسرح ، تاركين أوروبا للمسيحية والكنيسة . وعندئذ نسى الناس السفسطائيين وأبيقور ، لأن العقائد الإلهية كانت تقسرمهم على الإيمان ، فكأنوا يعتقدون عن طريق التقديس فيما تنكره الحواس . ومع أن المدرسين عرفوا الحقيقة بأنها مطابقة الفكر للأشياء ، إلا أنهم اتبعوا أفلاطون وأرسطو في تمجيدهما للعقل . وعندهم أن التفكير القياسي Deductive هو أفضل تفكير لأنه يستخلص من عقائد محدودة وثابتة نظاماً متأسكاً للعالم . والمعاني حقائق أعظم من الأصوات والمرئيات ، لأن هذه الأشياء المجسدة ظهرت إلى الوجود ثم اختفت ، أما « الكليات » Universals أو الأنواع فإنها لا تموت ، وتوجد قبل الأشياء الفانية ، ومعها وبعدها ، وتتشخص بها . فالإنسان أكثر حقيقة من هذا الإنسان أو ذاك ، وبالجمال أكثر حقيقة من هذه الوردة أو تلك . بل إن ديكارت ظل عبداً لما حرر

(١) Pyrrho - ٣٦٠ - ٢٧٠ ق. م . - (أو عاش من ٣٦٥ - ٢٧٥ ق. م . - فيلسوف

يوناني من الشكاك كان يعتقد في عدم إمكان معرفة الحقيقة) (المترجم) .

الناس منه ، فطلب من كل فيلسوف أن يطرح شهادة الحواس ، ولا يقبل شيئاً على أنه يقينى إلا الفكر الواضح .

وبدأ التجديد بإعادة الإحساس إلى عرشه ، مع جاليليو فى العلم ، ويكوف فى الفلسفة . فقد ضاعف الفلكى الحواس بالآلات ، وأدب الفيلسوف العقل بالملاحظة ، وساق أشد الاستدلالات قداسة إلى محكمة الاستقراء . ولو وجب أن يقرأ أحدنا المنطق فليبدأ قبل كل شىء بكتاب بيكون «الأورجانون» (١) الجديد *Novum Organum* « حيث يجد فيه المنطق مشرقاً كأنه مبارزة ، ويصبح التفكير مغامرة وفتحاً ، ويقرأ الفلسفة قصة بوليسية ، الحقيقة فيها هى اللص المطارد . وما أكثر ما تجد فيه من أمثلة وحكم ؟ انظر إلى استهلاك الكتاب حيث يقول : « إن الإنسان باعتباره المهيم على الطبيعة والمفسر لها يسيطر على نظام الطبيعة ويفهمه بمقدار ما تسمح له ملاحظاته ، وهو لا يعرف ولا يستطيع أن يعرف أكثر من ذلك » أرايت قط نذير حرب على كل تصوف ، وكل مذهب مظلم *Obscurantism* ، وكل حدلقة ، أكمل من هذا النذير ؟ لقد كان هذا هو : « الناقد الذى اجتمعت على ريفه العقول » ونبه الأذهان إلى خطر عصر النهضة .

ثم نشب جدال عنيف بين إنجلترا والقارة الأوربية ، ذلك أن لينتزر وكانط وهيجل غشوا الحواس بالشكوك ، وأيدوا مزاعم العقل باعتباره الحاكم فى كل شهادة للحس . وازدرى هوبس ولوك ومل كل عقل اجترأ أن يطلب الحقائق دون أن تكون فى متناول البصر واللمس والذوق والشم والسمع . ولكن كانط قال : لا ريب أن الرياضيات مستقلة عن الإحساس ، وأنها صادقة أولاً *apriori* ، أى قبل التجربة ، فان مربع ٥ هو ٢٥ بقطع النظر عما يمكن أن تقوله الحواس ، وأجابه مل بقوله : لا ، إننا لانعتقد فى أن $٢ \times ٢ = ٤$ إلا لأننا شعرنا أن رأينا أن ٤ هى نتيجة ٢×٢ مرة بعد أخرى فى تجربة الأفراد أو فى تجربة الجنس التى

(١) « أورجانون » يعنى آلة ، وكان القدماء يعرفون المنطق بأنه آلة الفكر ، فجاه يكون يمارضهم بآلة جديدة .
(الترجم)

انتقلت اجتماعياً . وقال لوك بأن كل معرفة مستمدة من الحس ، بل إن أعظم الاستنتاجات في الرياضيات العالية تظل مزعزعة غير يقينية حتى تدمغها تجربة الحواس بالتأييد .

ولم ينته أى جدال إلى نهاية أغرب مما انتهى إليه هذا الجدل : فالمذهب الأولي Apriorism الذى يدافع عن وجود الحقائق مستقلة عن التجربة ، مات في القارة ، وهاجر إلى إنجلترا . والمذهب التجريبي Empiricism الذى يرجع كل معرفة إلى الإحساس باعتباره أصله ومعياره ، مات في إنجلترا ، وبعث في أمريكا . لقد كان اتجاه إنجلترا قروناً طويلة عملياً ، وانعكست نتائج منطقتها على قواعد حياتها في الطبقة الوسطى . أما الآن فعلى الرغم من أن هذه الطبقة الوسطى ما زالت توالى تفوقها على رجال القارة ، فان المفكرين الإنجليز بعد أن أصبحوا فجأة مراوغين وغير مفهومين ، واستوردوا جميع مخلفات كانط وهيغل ، جعلوا الحواس لا تفيد شيئاً ، وأقاموا من التفكير القياسى قوانين جديدة للفكرة لا تصلح للمنطق فحسب ، بل للعالم أيضاً . وسمى برادلى Bradley التجربة المطلق Absolute ، ثم حلها بعد ذلك وبددها هباء . ورد بوزانكيه Bosanquet المنطق إلى استدلال نفسانى ، ثم عرف الاستدلال بعظمة توتونية بأنه : « هو الإشارة غير المباشرة لحقيقة الفصول الداخلة في كلى ، بوساطة عرض هذا الكلى في الفصول التى ترجع مباشرة إلى الحقيقة » . وانصرف برتراند رسل عن تعريف المنطق بأنه « علم التفكير » ، وذهب إلى أنه « علم أكمل المجردات » . واشترك هو والأستاذ هوايتهد Whitehead في بناء أساس رياضى من الحقائق القياسية اليقينية ، وفصل هذا البناء فصلاً كاملاً عن كل تجربة ، ثم أضاف إلى ذلك تعريفه للحقيقة :

« تكون الصيغة اللفظية صادقة إذا كانت لها صلة معينة بواقعة Facr معينة . . . وأى صلة بأى واقعة؟ إنى أعتقد أن الصلة الأساسية هى ما يأتى : تكون الصيغة اللفظية صادقة إذا انتهى الشخص العارف باللغة إلى هذه الصيغة حين يجد نفسه .

(١) دائرة المعارف البريطانية ، مادة « منطق » .

في بيئة تحتوي على معالم هي دلالات تلك الألفاظ ، وتحدث هذه المعالم في نفسه آثاراً من القوة بحيث يستعمل الألفاظ التي تدل عليها» (١) .

يا للأسف ؟ هل يتعلم البريطانيون إنجليزيتهم بالألمانية ؟ وهل نحن في عصر آخر من الفلسفة المدرسية . . . التي تطلب المعاني بغير صلتها في التجربة أو نفعها في الحياة ؟ كم من فكر معاصر يقوم على وضع ما يعرفه كل إنسان في معرفة لا يمكن أن يعرفها أى إنسان ؟

وقد بدا لوليم جيمس ، وهو يستند إلى أرض أمريكا الفياضة بالعمل والتي لا تصبر على التجردات ، أن الغموض ليس ضرورياً للفلسفة ، وأن معنى الحقيقة هو من البساطة بحيث يصاغ في عبارات يفهمها حتى رجل الأعمال . فالحقيقة Truth هي ما كان فعالاً Efficacy . وبدلاً من الحكم على المعنى بالرجوع إلى أصوله ، أو بالاستدلال من مبادئ أولى ثابتة ، أخضع جيمس المعنى لاختبار العمل ، وتساءل عن آثاره العملية حين يطبق ، وأعاد وجه الفكرة مرة أخرى للأشياء . أما عند جون ديوى فقد بدا له أن الفكر أداة Instrument كالمعدة والرجلين ، ومعيار الفكر هو بناء على ذلك قيام الفكر بأداء وظيفته أداء صحيحاً ، أى فهم الحياة والتحكم فيها . وهنا نجد أن التقاليد الإنجليزية الاستقرائية التجريبية قد عادت إلى الشباب . وأصبح البرجماتزم : « اسماً جديداً لطريقة غربية في التفكير » . والبرجماتزم هو الصياغة الوحيدة لوجهة نظر يكون من أن « القاعدة الأشد فعلاً في العمل هي كذلك الأصدق في النظر » ، وللفلسفة بنام الصناعية من أن المنفعة هي معيار كل شيء .

وهناك أخطاء كثيرة في البرجماتزم ، لأن مبدعها العبقري سمح لبسطاء العقول أن يفترضوا أن جميع معتقداتهم العزيزة عليهم صادقة إذا كان لها أى أثر في معانئهم ، والعمل على راحتهم ضد عدالة العالم القاسية . ولكن ما من شك في أن المنفعة الشخصية والمؤقتة لا تخلع على العقيدة رداء الحقيقة ، بل المنفعة الدائمة

(١) كتاب « الفلسفة » ص ٢٦٢ . ويجب أن نضيف أن هذا الغموض غير مهود في شخص هو أوضح الفلاسفة المعاصرين وأكثرهم إصابة للموضوع .

والكلية فقط هي التي تجعل الفكرة صادقة . ولما كان ذلك شرطاً لا يمكن تحقيقه تماماً ، فلم تصبح الحقيقة قط أكثر من احتمال . وعندما قال بعض البرجماتيين عن عقيدة إنها صدقت « مرة » لأنها كانت نافعة وقتاً ما ، فقد كانوا يتكلمون بعلم لا معنى له ، لأن تلك العقيدة كانت باطلاً نافعاً لاحقاً . ولن نكون أبداً على يقين من أن أعز حقائقنا قد لا تكون كما يقول نيتشه إلا « أنفع صور للخطأ » عرفناه . فالعالم لم يخلق للعقل .

... وبذلك نعود وراء إلى السفسطائيين ، فنجد أن النتيجة التي انتهينا إليها ليست إلا ما انتهوا إليه ، نعى أن الحواس هي معيار الحقيقة . ولكن المعيار هو الحواس « كلها » ، فقد نخدعنا حاسة واحدة ، كما نخدعنا الضوء بالنسبة للألوان ، أو المسافة بالنسبة للحجم . ولا تستطيع أن تصحح ما تخدعنا حاسة من خطأ إلا حاسة أخرى . « والحقيقة هي الإحساس الثابت » غير أن الإحساس يجب أن يشمل كل ما نتعلمه من الآلات التي نوسع بها دائرة الحواس ونجعلها دقيقة . فالمطاف (اسبكترسكوب) والمكبر (تلسكوب) ، والمجهر (ميكروسكوب) ، والأقلام الحساسة ، وأشعة إكس ، هي كلها وسائل لمضاعفة ما تبصره عيوننا . والتليفون ، وسماعة الطبيب ، بل الراديو ، هي امتداد لآذاننا العجيبة . وأخيراً يجب أن يشمل الإحساس الحاسة الباطنة ، فشورنا الداخلي بحياتنا الخاصة ونفسنا ، هو شعور مباشر وصادق بهذه الحياة وهذه النفس . كأي خبر يأتينا من أعضاء الحس التي تتصل اتصالاً مختلفاً بالعالم الخارجي . وبعد ، فعلى الرغم من براعتنا في خداع أنفسنا ، فليس هناك شيء يفضل معرفتنا بأنفسنا ذاتها .

ومن الحق أن الإحساس يخطيء في إصابة اليقين ، وكذلك الحياة . ولقد كان هيوم على صواب : فالحواس لا تكشف عن أي « سببية Causality » غامضة ، ولكنها تبين فقط التابع ، ولا يمكن أن نستيقن تماماً من أن « ب » سوف تقع بعد « ا » دائماً ، لأن « ب » كانت تتبع « ا » دائماً . فالإحساس لا يمكن أبداً أن يضمن أي لحظة في المستقبل . ويجب أن نحاطر بروسنا اعتماداً على هذا الاحتمال ، وهو أن النظم الملاحظة في الماضي ستستمر في المستقبل .

وهذا هو كل ما نحتاج إليه ؛ غير أن المنطقي يطلب أكثر من ذلك . فالعالم فيه من الاختلاف والتغير ما يجعل «حقائقنا» على الدوام ذات جانب واحد وناقصة . وليس ثمة أمور مطلقة ، بل أمور نسبية فقط ، وعلينا أن نتعلم كيف نساير الأمور النسبية .

وهناك غيرنا من الناس في هذا العالم ، ولن نتفق حواسهم دائماً ، وبالتالي حقائقهم ، مع حواسنا . فعندما تقول السنيورا شيني Cini في رواية بيرانديللو ، إنها سوف تصدق ما تراه بعينها وتحسه بأصابعها ، يقول لها لوديزي Laudisi : «يجب عليك أن تظهرى بعض الاحترام لسا يراه غيرك من الناس بأعينهم ويحسونه بأصابعهم ، حتى لو كان ذلك هو الضد لسا ترين وتشعرين» (١) . نعم ، عندما تختص الحقيقة بأكثر من واحد منا ، فيجب أن تكون إحساساً مناسكاً اجتماعياً ؛ وعندما تختص بأكثر من لحظة من الزمان ، فيجب أن تكون إحساساً مناسكاً على الدوام . فالحقيقة عبارة عن قبة من البلور المتعدد الألوان ، ويرى كل واحد منا من ركنه الصغير تأليفاً من الألوان خلال نظارته اللونية . ولعل الحق ليس إلا الدليل المشترك لأوهامنا ، ولعل اليقين خطأ يتفق عليه جميع الناس . ويجب علينا أن نقنع بذلك .

أين إذن موضع العقل من منطقنا الشعبي المضحك ، ذلك المنطق الذى يؤيده آراء رجل الشارع المتحيزة؟ وظيفته هنا كما هى في كل مكان ، التنسيق... ينسق الإحساسات إلى معان ، والمعانى إلى معرفة ، والمعرفة إلى حكمة ، والغايات إلى شخصية الفرد ، والأفراد إلى جماعة ، والجماعات إلى سلام . إن عمل العقل في الظفر بالحقيقة ثانوى ولكنه حيوى : إذ يجب أن ينسج فوضى الحواس المختلفة وما بينها من تناقض في نتائج موحدة ومنسقة ، تكون عرضة للتحقيق والتأييد أو الحذف بواسطة الإحساس المتكرر . ولست تجد ما يقرب من نصف اليقين كالإحساس ، ذلك : «أنا حين نتخطى ما يعرض بواسطة الإدراك الحسى الحاضر ، فلا ريب أننا نستعمل نوعاً من الاستدلال» (٢) ، وكل خطوة استدلالية تبعد عن الإحساس المباشر تخفض من احتمال الحقيقة . ولكن هذا

(١) Right You Are If You Think You Are, p. 161

(٢) برادل : مبادئ المنطق ص ٢٢٥ .

أيضاً مقامرة يجب على الحياة أن تفعلها ، إذ يجب أن تحاول التوفيق بين الحواس المتنافرة والآراء المتحيزة إذا شئنا أن نبسط فهمنا على العالم وسيطرتنا عليه . وكما أن قرده كوهلر Röhler كانت تبالغ أفضل تفكير لها وهي في تمام الموقف الملائم ، فكذلك الحقيقة التي نستدل عليها بالعقل بالنسبة إلينا ، مثل الفلسفة والحكمة ، والأخلاق والجمال ، هي منظر كلي ، هي الوحدة المتسقة للجزء مع الكل . إننا نقف على أقدامنا ثابتين على الأرض بوساطة الإحساس . أما بوساطة العقل فإنا نرفع عين العقل إلى ما وراء دائرة الحس الحاضرة ، فنصير حقائق جديدة قد تحققها الحواس يوماً ما . فالإحساس معيار الحقيقة ، ولكن العقل هو المكتشف لها .

٢ - سر المعرفة الغامض

ها نحن نقف معرضين للخطر في كل ناحية . ذلك أن المثالي يحتقر صدق Veracity الإحساس وينكره ، ويتساءل الصوفي عن صلاحية العقل للاعتماد عليه . فإذا نحن قائلون لهما ؟

« بالعرف والعادة يوجد الحسن والقبيح ، والحلو المر . أما في الواقع فليس ثمة إلا الذرات Atoms والفراغ Void » . بهذه العبارة أقام ديمقريطس الفيلسوف المادى أساس نظرية المعرفة (الإبيستمولوجيا) ، وأساس المذهب المثالي . فمن الواضح من ذلك النص الغريب أن الفيلسوف الضاحك (١) كان يذهب إلى « ذاتية الصفات المستمدة من الحواس » ، بالألا يكون اللون ، والصوت ، والنقل ، والحرارة ، والشكل ، والطعم ، والرائحة ، والألم ، موجودة في الأشياء التي نحسها بل في الكائن الذي يشعر بها . ولقد قال هوبس بعد عشرين قرناً من رصيفه اليوناني : « جميع الصفات التي تسمى حسية موجودة في الشيء الذي تنبعث منه حركات كثيرة للمادة ، تلك الحركات التي تضغط على حواسنا بشكل مختلف » . فالصوت حركة الهواء ، والضوء حركة الأثير أو تأثير الجسيمات على العين ، والحرارة ليست إلا حركة جسيمات سريعة ، ويعتمد اللون على سرعة أمواج الضوء

(١) اشتهر ديمقريطس في الزمن القديم باسم الفيلسوف الضاحك ، لأنه كان يسخر من الناس وتهافتهم على الشهوات .
(المترجم) .

وسعة انتشارها والجزء من الحدقة الذى يتأثر بها . « فالحقيقة الموضوعية » فى ذاتها ليست حارة ولا باردة ، ولا متوهسة ولا عادلة ، بل معتمة لا لون لها وصامتة . كيف يمكن أن يوجد ثمة ضوء لولا وجود عيون أو غشاء حساس فى العالم ، وكيف يمكن أن توجد أصوات لولا وجود آذان ؟ إن أجمل قوس قزح هو فى أبصارنا لا فى السماء .

ولندع المثالى يتكلم ، ذلك الذى يعتقد أننا لا نعرف شيئاً سوى المعانى ، فيقول : « هذا العالم الذى تفترض أنه موجود وجوداً مستقلاً إلى جانبك ، هو أول كل شئ عالم من الألوان . ولكن الألوان ذاتية . . . إنها موجودة فيك لا فى الشئ الذى تراه . وهناك بعض الناس مصابون بمعنى لبعض الألوان ، فلا يبصرون مثلاً أى لون أحمر فى الطبيعة . فلو أننا كنا جميعاً مثل هؤلاء ، أكانت الوزدة حمراء ؟ ويتغير اللون كلما انتقلت من الفجر إلى الظهر إلى السحر إلى الضوء الصناعى ، فأى هذه الألوان « حقيقى Real » ؟ أهو لون النسيج الذى تشتريه حين تراه فى الدكان ، أم لونه فى ضوء الشمس فى الهواء الطلق؟ وتختلف عيون الحيوانات الدنيئة مثل القشريات Crustacea فى تركيبها عن أعيننا ، ومن المفروض أنها تسجل الأشكال والألوان بطريقة تختلف عنا ، فأى شكل أو لون هو « الحقيقى » ؟ ثم أن عيوننا لا تحس بمساحات كبيرة من الطيف ، على حين ترى بعض الحيوانات الأشكال والأطيف اللونية أكمل منا . فأينا يرى العالم « كما هو » الحيوان أم الإنسان؟ وهذه المنضدة التى تقول عنها إنها مستديرة ، أحقاً تبدو لك مستديرة حين تنظر إليها بعين بعيدة عن الهوى أم أنها تبدو بيضاوية ؟ وهل جميع الأشكال ، مثل جميع الألوان ، تتوقف على المدرك لها؟ .

« وانظر إلى الروائح والطعوم ، فانك تجد طعاماً يستفيد منه شخص ، وهو اسم لشخص آخر . وهناك آلاف من الناس يحبون الكافيار ، وملايين يزعمون أنهم لا يحبونه . ويستطيب فقراء الصينيين طعم السمك الفاسد ، وأغنياء الأوربيين طعم الجبن العفن . كذلك الحال بالنسبة للحرارة والبرودة : ضع إحدى يديك فى ماء حار ، والأخرى فى ماء بارد ، ثم ضعهما بعد ذلك فى ماء فاتر ، فيبدو هذا الماء بارداً بالنسبة لإحدى يديك ، وحاراً بالنسبة للأخرى ، فأيهما يكون « فى الحقيقة » ؟

وكذلك الأمر في اللذة والألم : إذا قطعت الأعصاب التي توصل بين الحلق والمخ ، أو أصابها برد ، لا نحس بطعم مانأكله ؛ فهل الطعم في الغذاء أو الحلق ، أو المخ ؟ هل تتألم من سنك ؟ خدر العصب الموصل بينها وبين المخ ، ولن نحس بألم السن . أهى السن التي تؤلم ، أم المخ فقط ؟ وكذلك الحال في الجمال والقبیح : أنت تقول هذه المرأة جميلة ، فهل هى بمثل هذا الجمال في نظر أخيها أو منافستها ، كما هى جميلة في نظرك ؟ أيكون جمالها في ذاتها أم في رغبتك ؟ انزع عن العالم « الموضوعى » سائر هذه الصفات التي تخلعها عليه بوجودك وإدراكك ، فماذا يبقى بعد ذلك ؟ « الذرات والخلاء » ؟ - المادة والمكان والزمان ؟

« ولكن هذه المادة كيف تعرفها ، اللهم إلا بالإحساسات التي اجتمعت في هيئة معان في عقلك ؟ وما المكان إلا أن يكون الورا والأمام ، والجانب ، والتحت ، وفي القمة ، وهنا ، وهناك ، وقريباً ، وبعيداً ، وكبيراً ، وصغيراً ، وما هذه كلها سوى مواقف للعقل المدرك ؟ أتكون الأشياء في ذاتها إلى الأمام أكثر منها إلى الخلف ، هنا لا هناك ، كبيرة لا صغيرة ، أم أنها ليست كذلك إلا بالنسبة إلى أنفسنا ؟ « ا » تبدو « ا » للعين ، و « ب » للمكروسكوب ، و « ح » للتلسكوب ، فما « ا » في الحقيقة ؟ وقال كلب مسيو برجيريه : « يصبح سيدى أكبر حين يقرب ، وأصغر حين يبتعد ؛ أما أنا فالكائن الوحيد الذي يحتفظ بحجمه كما هو أنى ذهبت . وما الحجم الحقيقي للبرتقالة . . . حجمها بالنسبة إلى الذبابة التي تطير حولها ، أو كما تبدو لى حين أمسكها بيدي ، أو كما تبدو للرجل الذي يعبر الطريق ؟ ولن تهرب من المشكلة حين تقيس الشيء بالمسطرة وتسمى هذا القياس حقيقة ، لأن البوصة في مسطرتك أو مقياسك كالبرتقالة نفسها ، أصغر بالنسبة إليك منها بالنسبة إلى الذبابة ، وأكبر في نظرك مما قد تبدو مخلوق ضخم يزورنا من المريخ . حقاً : « الإنسان مقياس الأشياء جميعاً » (١) وهو الذى يخلق معظم العالم الذى يدركه .

« ويعلن أينشتين كنتيجة أساسية لنظريته في النسبية : « أن البقية الأخيرة

(١). يشير إلى عبارة بروتا جوراس السفسائى المشهور . (المترجم)

للموضوعية الطبيعية تؤخذ من المكان والزمان» (١) ما الزمان سوى شعورك بالقبّل والبعد عن نقطة تقسم تجربتك نفسها؟ وهل يكون ثمة قبل وبعد إذا لم يوجد أى عقل؟ لعل الإحساس بالزمان أحد عند الحشرة التي تسحقها على الحائط منه في حياتك البطيئة الحركة. وأى زمان «حقيقي»؟ لقد اشتكى إنسان زحل في قصة فولتير من أن طول الحياة فوق ذلك الكوكب السريع الدوران لا يبلغ إلا خمسة آلاف سنة، فإذا استطيع المرء أن يتعمله أو يعلمه في هذه المسدة القصيرة؟ إن السنة التي تزخر بالتجارب تبدو أطول من السنة التي لا نجد فيها وقفة لذكرى. ويتضاعف الزمن دائماً فوق كرسي طبيب الأسنان. وحكى فلامادبون قصة الرجل الذي رأى حوادث الثورة الفرنسية تتتابع مقلوبة على عكس نظامها في الزمان، لأنه كان يبتعد من الأرض بسرعة تفوق سرعة الضوء. والمكان يغير الزمان كما يحدث ذلك في رحلة على سطح المحيط، أو كما حدث للمسيو باسبارتو Passepourtout في «رحلة حول العالم في ثمانين يوماً». والزمان يغير المكان: فالنجم الذي نراه في أقصى الشمال من السماء ليس هناك، لأنه تحرك منذ أن أرسل الضوء الذي يصل إلينا الآن. فالزمان (٢) أمر معقد شديد التعقيد يتركب من الوضع والحكم، إنه ضرب من الإدراك وليس شيئاً خارجياً. وعقلك عبارة عن سجين، ولا يمكن أن يعرف أبداً مقدار ما يعرفه من الشيء، أهو في الشيء أو في العقل الذي يعرف. فهذه هي الإحساسات التي تعطيك جكها «الحقيقة»؟

«كلا، لا يمكن أن يكون الإحساس معيار الحقيقة. فكل ما نعرفه هو أفكارنا، ولا يمكن أن نختبر هذه الأفكار بوساطة عالم خارجي ساهمت لإحساساتنا في صنعه مساهمة كبيرة. وكيف يمكن أن نكتشف حقيقة الشيء وقد اضطر إلى التخفي في هذه الإحساسات البصرية والسمعية واللمسية والشمية والدوقية، وهي وحدها التي نعرفه من خلالها؟ وهذه «الأمياء» التي نفترض أنها أحكام الفكر هي من بناء الفكر نفسه؛ إنها المعاني التي نكوها من الإحساسات

(١) Cassirer, E. Substance and Function, p. 356.

(٢) مركب مزجي من لفظي الزمان والمكان Space-time (المترجم).

المتعددة التي جاءت إلينا من طرق مختلفة أشد الاختلاف عبر أعصابنا ، وقد تجمعت في خليط متعسف كالفسيفساء . فنحن نجتمع بين المراثيات والأصوات والضغوط والظوم ، ونسمى التكوين الناتج هذا الشيء أو ذاك ؛ إننا نخلق «الشيء» بإدراكه . والعالم الوحيد الذي لاشك في وجوده هو عالم العقل ، عالم المعاني . وكل شيء عدا ذلك افتراض .»

أذلك كذلك ؟ قد يكون . فالفلسفة لا تختص بالأمور اليقينية ؛ ولانستطيع أن نقول في نظرية المعرفة ، كالحال في الفن ، إلا أنه لا جدال في الأذواق . وفي نظر الشخص الذي يتحيز للوضوح يظل هذا الهدم المثالي للعالم الخارجي عملاً من أعمال العبث المنطقي لا يقنعه ، وبقية من مخلفات السحر البدائي وأسرار العصر الوسيط . ولا يمكن أن تكون التجربة هي كل شيء ، إذ يجب أن نلتمس أصلها وراءها ؛ وهذا الأصل هو الذي نسميه المادة ، لولا أننا لا نستطيع أن نقول عنها أكثر مما قاله ستيوارت مل . . . إنها «الإمكان الدائم للإحساس» .

ويقوم السر في لعبة المثالي على الخلط بين المعنى وبين الوجود . فالأشياء التي لا يدركها أي كائن ليس لها معنى ، ولكنها مع ذلك قد يكون لها وجود ساذج . ويقول برادلي : « يجب أن يقع الشيء في دائرة الإحساس حتى يكون حقيقياً ، أو حتى لمجرد أن يكون موجوداً » (١) . ولكن ألم توجد النجوم البعيدة قبل أن تنكشف بواسطة تلسكوباتنا ؟ وهل يجب أن نقول إنه لا نجم يوجد الآن مما لم يدخل في نطاق آلاتنا ؟ لا ريب أن النجوم لم توجد ، ولا توجد كما نراها بالضبط . فهذه النقطة من الضوء التي نسميها الشعري اليمانية قد تكون كتلة من المادة المعتمة ينبعث عنها جسيمات فيها من السرعة الحرارية البيضاء ما يجعلها تصبح مضيفة في الطريق . ولكن أصل الجسيمات يوجد « هناك » وليس التلسكوب خالقاً لها . وقد تنبأ أحد الرياضيين بعد الحساب الدقيق بأن المرصد إذا وجهت تلسكوباتها في ساعة معينة نحو بقعة معينة في السماء ، فقد يكتشف الفلكيون كوكباً لم يعرف من قبل . ونظرت التلسكوبات ، واستولت على فريستها ؛ فهل خلق العلماء نبتيون ؟ (٢) .

(١) برادلي : الظاهر والحقيقة ، ص ١٤٤ .

(٢) أنظر دائرة المعارف البريطانية ، المجلد العاشر ، ص ٣٨٦ .

ويجب أن نسلم بأن وجود النجوم قبل رؤيتها ليس إلا استدلالاً ، ولا استدلالاً مؤكداً . ولكن الاستدلال الذي تحقق بالإحساس المباشر ليلته بعد أخرى آتياً من السنين ، فهو استدلال معقول جداً ، وكاف للحياة الإنسانية ولكل فلسفة ترجو أن تؤثر في الحياة لا أن تلعب وحيدة على الدوام . عندما نبرح حجرة الدرس ، ولا يبقى فيها كائن حي (فيما نفترض) يدركها ، هل تقف الحجرية عن الوجود ؟ الأرجح أنها لا تقف ، لأنها مع ألحظ الغريب توجد هناك دائماً عندما نعود . ومما يبعث على الراحة أن نجد السيدة ماى سنكلير ، التي تسلي نفسها إلى جانب كتابة القصص بالتأليف في الدفاع عن المثالية ، تسلم بأنها لا تلد حجرتها حين تدخلها (١) . إن علم اللاهوت يحسن خداع النساء ، ولكن الرجال ينخدعون كذلك بنظرية المعرفة .

ماذا تعني ألفاظ « الموضوعي Objective » و « الذاتي Subjective » ؟ لعل اللعبة تقوم على عدم تحديدهما ؟ سنسلم بما يقوله المثالي ، ونفصل عالم المعاني الذي يسميه وحده عالماً حقيقياً ، عن تلك الحقائق الأخرى التي توجد بالنسبة إلينا ، ولا توجد بالنسبة إليه . سيتألف العالم الذاتي من المعاني وحدها ، وكل شيء آخر سيكون « موضوعياً » . ولكن هنا تقع مشكلة ، لأن هذا العالم الموضوعي يشتمل على بدن الشخص المدرك ، بكل ما في هذا البدن من أجهزة كالعينين والأنف واللسان والأذنين وأطراف الأصابع ، وحواسه ولا شك جزء من العالم الخارجي مثل رجله ، ورجلاه ولا شك جزء من العالم مثل الأرض التي يقف عليها هذا الوقوف القرضي . فاذا تبين ذلك ، فقد وضح أن الصفات المستمدة من الحس محدودة في الأغاب بشروط موضوعية . فهل بنا نرى ذلك .

ماذا يحدد اللون ؟ أمور ثلاثة : الأول التكوين الفيزيقي والكيميائي للسبب الخارجي في إحساسنا . (إننا نفترض وجود هذا السبب الخارجي للأسباب المذكورة آنفاً ، وسوف نسميه بعد ذلك « الشيء ») . والثاني مقدار الضوء وطبيعته وسقوطه ، ويدخل في ذلك التركيب الكيميائي لأصله ، وسرعة موجاته وقوتها . والثالث العينان ، وأعصاب البصر ، ومراكز الإبصار في المخ عند

(١) المثالية الحديثة ، ص ٥ . (ماى سنكلير May Sinclair ١٨٧٠ - ١٩٤٧ قصصية إنجليزية مشهورة - المترجم) .

الشخص الذى يدرك . ولا شرط من هذه الشروط « ذاتى » . ومن الواضح أن المرء يستطيع أن يرى حدقته وأعصابه البصرية نفسها بل مراكز الإبصار فى مخه ، بواسطة آلات لا تزيد فى دقتها عن تلك الموجودة عندنا . وهذه كلها جزء من « العالم الخارجى » ، وليست جزءاً من الشعور أو المعنى المدرك .

وتكون هذه الشروط المحددة للضوء ما يمكن أن نسميه «الموقف الموضوعى» والذى يتركب من السبب والوسط والحاسة . ويختلف اللون وقد يتغير بسبب أى واحد منها . فممكننا أن نجعل الحلوى حمراء بتركيبات كيميائية ، ويمكن أن نحيل السبز (القماش) الأزرق أسود بالضوء الصناعى ، ويمكن أن نجعل الحدقة تنقل الإحساس بنجوم أرجوانية دقيقة بالضغط على العين . فاللون صفة تختلف باختلاف الموقف الموضوعى . وليس اللون صفة لا تتغير للشيء ، ولا هو من خلق العقل المدرك . ويعتقد المثالى بحق فى عدم وجود أى شجرة خضراء إذا لم تكن ثمة عين تراها . إنه يفترض افتراضاً خاطئاً أن إدراكه هو الذى يصنع اخضرار الشجرة . إذا كان الأمر كذلك فقد يجعل إدراكه جميع الأشياء خضراء . . . الشجر والسحب والورد والشعر الذهبى . والحل موجود دائماً : عندما تكون المتضادات موضع نزاع ، فالحقيقة فى الوحدة بينها .

وهذا صحيح بالنسبة للون . ومن الواضح أن الأمر لن يكون كثير الاختلاف بالنسبة للشكل ؛ وكذلك بالنسبة للصوت : فهو يتحدد بموقف موضوعى يتركب من سبب خارجى (كأن يصطدم جسمان فجأة) ، وأمواج الهواء المتوسطة وعضب السمع . والأمر كذلك فى المساء القاتر الذى يكون بارداً وحاراً . فالحرارة التى نحس بها مزيج من أعصاب الحس والشروط الفيزيقية . ولما كانت إحدى اليدين فرضاً أدفاً من الأخرى ، فان الإحساسات الحاصلة تختلف بالنسبة لكل يد . ولكن الشروط ، وهى المساء واليدان ، موضوعية جميعاً ، ولم يضع العقل المدرك أى شرط منها . ما اللون الحقيقى ، والشكل الحقيقى ، ودرجة الحرارة الحقيقية ، والصوت الحقيقى ؟ لا يستطيع أحد أن يقول قولاً جازماً (دجماًطيقياً) فحواس كل شخص تتدخل فى الموقف ، والحواس مختلفة . ويكفى لتحقيق أغراض الحياة أن نعتبر تلك الظواهر التى يدركها أفراد مختلفون إدراكاً مماثلاً

كانها « حقيقة » . وقد نعتقد أن تلك العناصر التي يتفق في ملاحظتها أفراد مختلفون هي عناصر موضوعية ، مستقلة عن ذواتهم المنفصلة . فالحقيقة هي الإحساس الدائم اجتماعياً .

ولقد أرجأنا القول في مشكلات المكان والزمان لأن الخلط بشأنها بلغ حد اليأس منها حتى سلم علماء مثل شتينمتر Steinmetz وأنيشتين لكانط . فالمكان باعتباره الإحساس بالمسافة أو مقياسها هو في شطر منه ذاتي ، مادام الوضع والمسافة نسبيين لأنفسنا . غير أن المكان باعتباره مجموع كل خطوط الحركة الممكنة هو مع الأسف مستقل عن الإنسان . وقد نتصور أن المثالية في هذا الموضوع قد رفضت بما فيه الكفاية بما بينه وبينه وليم جيمس ، متفقاً مع العقل السليم Common sense من أن العلاقات تدرك إدراكاً مباشراً كأى شيء آخر وإذا لم يكن هذا القول كافياً ، فإن تجارب كوهلر على القردة قد وضعت لهذا الأمر حداً إلى الأبد . فنحن ندرك التجاور ، والللمساواة ، والحركة . والسكون . وحين نرى حشرة تتحرك على الأرض ثابتة فاننا ندرك مباشرة الزمان والمكان معاً .

ذلك أن الزمان ابن الحركة ؛ وإذا لم توجد أى حركة فلا يوجد أى تغير ؛ وإذا لم يوجد أى تغير فلا يوجد أى زمان . والزمان باعتبار أنه إحساس بالقبل والبعـد ، وشعور بالسيلان ، ذاتي ، والعقول وحدها هي التي يمكن أن تقدمه للعالم . والزمان باعتبار أنه تغير موضوعي ، ولا ريب أنه ماض في سبيله حتى لو مات كل عقل . فالشجرة تبرعم وتزهـر ، وتزدهر وتورق ، على توالي الربيع والخريف حتى تموت ، على الرغم من عدم وجود أى عقل يدركها . والمد والجزر دائبان على مدهما وجزرهما ، ولا تزال القارات تذوب في البحار ، ولو أن أى عقل لا يشعر بها أو يقيسها . ولقد كان المحيط يـموج قبل أن يأمره بيرون ، وبعد أن عاش ليكتب آخر بيت في قصيدته . فالعالم ، وحتى الزمان والمكان ، واقع غشوم Brute ، يحسن بالحكيم أن يقبله ، ولا يقل صحة عما يعتقد الفيلسوف . ووجود العالم هو شرطنا ، وحدودنا ، وأصلنا . وما يعطيه العقل للعالم هو الدلالة . وليس الوجود . وليس لعالم الأشياء من معنى إلا ما نصبه فيه . ولعل ذلك هو السبب في أنه غير مفهوم إلى هذا الحد .

إنا نرجو أن ينتهى التجديد الإستمولوجى (المعرفى) فى حركة الفلسفة ، وأن نسمع من جديد قريباً القضايا الواضحة عن مشكلات الحياة والموت . ومع أن المثالية كانت ذات فائدة فى تتبع ما تجلبه الحواس للعالم الذى يدركه الإنسان فقد كان فيها شيء من البلاهة . ولو أن حياة المثاليين كانت مطابقة لنظريتهم ، ولو أنهم سلكوا سلوك من يعتقد حقاً فى أن العالم الخارجى غير حقيقى ، فقد يمكن أن نمجدهم كما نمجد القديسين الذين يمارسون ممارسة رواقية أو هامهم النبيلة . ولكن الغريب أن هؤلاء المنكرين للعالم عاشوا وتمتعوا كأى واقعى Realist ، وهفت نفوسهم إلى الذهب غير الموجود . بل إن فشته ، كما اقترحت مدام دى ستال ، لا بد أنه شك فى لحظاته المتواضعة أياكون قد خلق زوجته بإدراكه لها .

لقد جاءت هذه القصة الخرافية الكبيرة ، قصة العقل الذى خلق العالم ، من ألمانيا ، بلاد القصص الخرافية ، ونشأت هذه الأسطورة من الحركة الرومانتيكية كرد فعل للشعور والخيال ضد الواقعية والمادية والشككية ، وهى المذاهب التى سادت فى عصر فولتير . لقد كانت احتجاجاً ضد احتقار كوبرنيك للبشرية . ثم بدأت تضعف يوماً بعد يوم فى وجه الداروينية ، ولعلها تبطل فى القريب . فنحن نسمع قليلاً نسياً عن المثالية فى فلسفة فرنسا ، فالتناس هناك مبالون للإفصاح عن رغباتهم بغير نفاق ، وهم لا يظنون أنهم لكى يصبحو خالدين يجب أن يحطموا العالم . ذلك أن العالم كان موجوداً هنا قبل مجيئنا ، وسيظل باقياً بعد ذهابنا إلى العالم الآخر . إن العالم يضحك حين يسمع أن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً ، لأنه يعرف أن الإنسان ليس إلا بيتاً فى قصيدة أو ديسيا الطبيعية . والفلسفة محاولة لرؤية الجزء فى ضوء الكل . فلنكن متواضعين .

٣ - العقل فى مقابل الغريزة

لقد عاجلنا هجوم المثاليين على الحواس من عل . والآن يجب علينا قبل أن يقودنا المنطق إلى أبواب الحياة أن نواجه هذا الهجوم الغامض الموجه ضد العقل من أسفل . لقد لاحظ هيوم أنه حين يقف العقل ضد الإنسان ، يسارع الإنسان بالوقوف ضد العقل . وإذا لم يستطع الفكر أن يعقل الرغبة فى ثوب من

المنطق ، فان الرغبة قد تنكر في نهاية الأمر كل سلطان للنكر . ولقد كان من المتوقع في حياة تقوم على آمال تجاوز العقل نجاحاً كبيراً أن يخترع الناس منطقاً لا يقوم على العقل بل يسوغ أحلامهم .

وكما أن ديمقريطس المادى أرسى قواعد المثالية ، كذلك أعان زينون الشاك Sceptic (١) الإيلى على ظهور قضية للتصوف . ذلك أن زينون الذى ظهر قبل سقراط بقرن من الزمان سخر من العقل بمتناقضاته التى ردهته إلى الخلف . هذا أخيل يسابق السلحفاة ، ولكن السلحفاة قد سبقته ، وإذن فلن يلحقها أخيل أبداً . ذلك أن أخيل حين يقطع المسافة من نقطة بدايته إلى حيث بدأت السلحفاة ، تكون السلحفاة قد تقدمت مسافة معينة مهما تكن صغيرة . وعندما يقطع أخيل هذه المسافة تتحرك السلحفاة من جديد . . . وهكذا إلى ما لا نهاية له ، وإذا بك ترى أن العقل لا يستطيع أن يثبت أى شىء ، وبناء على ذلك لا يثبت شيئاً على الإطلاق (٢) . وكذلك السهم المنطلق لا يتحرك ، لأنه ما دام الشىء فى مكان واحد وفى المكان نفسه فهو فى سكون ، ولكن السهم المتحرك هو فى كل لحظة فى مكان واحد فقط ، فهو إذن ساكن فى هذه اللحظة ، فهو بناء على ذلك ساكن فى كل لحظة من حركته . وينتهى أناطول فرانس إلى القول بأن : « أى شىء يمكن إثباته بالاستدلال ، فقد برهن زينون الإيلى على أن السهم المنطلق لا حركة له . وقد يستطيع أحدنا أن يثبت العكس ، ولو أن ذلك فى الحقيقة أصعب » (٣) .

(١) من الغريب أن يصف المؤلف زينون بأنه من الشاكك، وهذا ولا ريب تمسف منه ، لأن حجج زينون كانت تستهدف تأييد مذهب بارمنيدس فى إثبات الوجود، لا فى الشك فيه. (المترجم) .
(٢) تقوم المشكلة على افتراض أن حركة أخيل والسلحفاة يمكن أن تقسم إلى ما لا نهاية له إلى « لحظات » - انظر الهامش اللاحق .

(٣) سيرة ورسائل ، لندن ، ١٩٢٤ ، المجلد الرابع ، ص ٦ . ويظن بترتراند رسل أن زينون على صواب فى قوله إن السهم ساكن فى كل لحظة من انطلاقه ، ولكنه ينكر الاستدلال بأن السهم يظل فى الموضع نفسه - ولو أن الاستدلال يبدو منطقياً . (مادة زينون فى دائرة المعارف البريطانية ، وفى مبادئ الرياضيات ص ٣٤٦) . ولعله من الأفضل (إذا أراد المرء أن يلعب هذه اللعبة) أن ننكر المقدمة القائلة بأن السهم الذى يكون فى أى لحظة فى مكان واحد وفى نفس المكان يجب أن يكون ساكناً . فهذا تفسير ستاتيكي للحركة يخرجها عن الحركة . فلا يوجد شىء يسمى « لحظة » بمعنى محطة أو وقفة فى الزمان . فالزمان لا يقف فى أى محطة ، وله حركة وليس له لحظات . أما اللحظات فهى تقطيماتنا العقلية للزمان المتصل غير المنقطع .

لقد كان الإغريق والرومان رواقين حتى حين كانوا أبيقوريين . فإذا وجدوا أن العقل يعارض الرغبة قبلوا تحديد العقل في هدوء ، وسعوا إلى اتباع العقل ، مع أنهم كانوا يتسمون لمزاعمه . ولكن قوى التصوف المتجددة على الدوام في أمل البشر نبتت من الشرق وتدققت إلى بلاد اليونان ، فقلبت حياة العقل التي ازدهرت هناك رأساً على عقب ، تلك الحياة الضعيفة العاجزة . وجاء الإلهام والوحي الإلهي يبعثان الراحة إلى نفوس المظلومين . وعندما تحطمت بلاد اليونان وأصبح كل يوناني فقيراً ، مات العقل ، ووضع الإيمان (الذي لا يموت أبداً) حداً للعالم القديم . وأصبح ما يثبت المنطق قليل الأهمية ، فقد تكلم الله بأمور عجيبة ، وحتى لو بدت مستحيلة فكم يكسب المرء بتصديقها . وأصبح شعار الملايين من العبيد : « إني أعتقد في المستحيل Credo quia impossibile » وظلت الحقيقة تعرف خلال خمسة عشر قرناً من الزمان ، لا بالإحساس أو العقل ، بل بالرجوع إلى الأناجيل وعقد مجمع الكرادلة .

ولقد أخطأت الكنيسة خطأ عظيماً حين سمحت بلعبة المدرسين في إثبات الوحي بالعقل ، إذ كيف أمكنها أن تعلم أن اللعبة ستمضي في طريقها ، أو أن تصدعاً غير منتظر قد يستوى ألمع العقول نحو جانب العقل ؟ وهذا هو الذي حدث . فقد وقع ديكرارت في هوى العقل ، ومات اسينوزا جوعاً في سبيله ، وأحرق برونون من أجله . ومجد الناس هذه الخليفة الحديدية وهي العقل ، وكلما زادت عشاقها عذاباً أغرموا بها . وأصبحت عبادة العقل نفسه ديناً وإيماناً ، فقد وضع عصر التنوير على أساسه اعتقاده النبيل في « كمال البشرية اللانهاي » . وأقامت الثورة الفرنسية الهياكل لربة العقل الجميلة . ولم يبق ثمة فضل لا يستطيع العقل أن يمنحه للناس .

ولم يكن روسو سعيداً في هذا الجو الخفيف الهواء . لقد كان يقاسى كثيراً وكان محتاجاً إلى اعتقاد كثير . وحين سخر العقل منه سماه مرضاً ، فقال : « إني لأجروء على التصريح بأن حالة التأمل مضادة للطبيعة ، وأن الإنسان المفكر هو حيوان فاسد » . ومثلت رواية الإغريق والشرق من جديد ، فقد سئم الناس الحياة وملوا الثورة والإرهاب والعظمة ، وعادوا جماعات إلى حظيرة الإيمان ،

وغطوا انسحابهم بالدعوة إلى الغريزة والشعور . وقال دى موسيه : « يجب أن نفكر » . وقدم هيوم الفيلسوف الشاك معونة غير بارعة للعدو برده السببية والاستقراء والعلم إلى مستوى الزعم والاحتمال . أما كانظ فهو أنفذهم جميعاً منطقاً ، فقد سار على نهج زينون ، وأعلن لأوروبا أنها تستطيع أن تعتقد كما تشاء في الله وحرية الإرادة والخلود ما دام العقل شيئاً ناقصاً لا يستحق أن يقبل من الإنسان توضيح السماء والمدينة الفاضلة . وأخضع شوبنهاور خدمات العقل اليسيرة للإرادة ، وأثبت فرويد بآلاف من الأمثلة سطحية العقل الذى يكسو أهداف البدن الأنانية بأدلة محترمة . وسمى نيتشه الغريزة : « أذكى صور العقل » . وأعلن برجسون - كأى فيلسوف مادى تكرينى - أن العقل عبارة عن سينما تفقد فى صورها الاستاتيكية اتصال الحياة وروحانية النفس . لقد كان كل ذلك العصر الطويل من « إميل » إلى « التطور الخالق » ، من روسو وكانظ إلى شوبنهاور ونيتشه ، إلى برجسون ووليم جيمس ، رد فعل رومانتيكى ضد عصر العقل . واليوم لا بد أن تنشأ المعركة من جديد ، معركة الصراع بين كوفوشوس ولاوتسى ، بين سقراط وزينون ، بين فولتير وروسو . ويجب أن تسوغ مناهج العقل مرة أخرى ضد الغريزة والحدس والتصرف والإيمان غير المفهوم .

ما الغريزة؟ إذا كان لنا أن نؤمن بآخر المذاهب فى النفس فيجب أن نستبعدا باعتبار أنها اسم لشيء ليس له وجود . غير أننا حين نرى أولئك الذين ألقوا بالغريزة من الباب يعيدونها مرة أخرى من الشباك باسم « الاستجابة التى لم تعلم » فقد نفتنح باستيقام الزجاجات القديمة للخمر المعتقة ، ونسمى بصريح العبارة غريزة ميولنا الموروثة إلى المشى والبحرى ، والأكل واللعب ، والكفاح والحرب ، والإلف والزواج ، ومحبة البنين حين يولدون .

فهذه أنواع من السلوك مختصرة نافعة تطورت لمواجهة المطالب السريعة فى حياة الجنس دون انتظار بطء الروية . ولكن هذه الأنواع لا تلائم إلا ما بيننا وبين هذه المواقف القديمة الثابتة فقط . لقد قامت لتسد حاجات معيشتنا الحيوانية وحياة الصيد . ومع أنها تحسن خدمتنا حين لا نجد وقتاً للتفكير ،

إلا أنها تلائم الأمس أكثر مما تلائم اليوم . فقد يجرى الطفل من ثعبان ويلعب ببندقية محشوة . وقد يكون الرجل فيلسوفاً عميقاً ويربط نفسه إلى آخر حياته بدمية بلهاء — وكذلك تزوج سقراط اكرانثيب ، وجوته كرستيان . إننا بالغريزة « لانخشى حملة الملاريا والحصى الصفراء ، ولكننا نخشى الرعد والظلام ؛ ولانرثى للموهوبين المحرومين من العلم ، بل للمتسولين ذوى القروح الدامية ؛ ولا يثيرنا ظلم كبير كما يثيرنا جرح بسيط ؛ ويؤلمنا ازدراء الخادم إذا لم يأخذ حلواناً (بقشيشاً) أكثر مما نتألم من كسلنا وجهلنا وحماعتنا» (١) . لعل الغريزة كانت كافية لحياة الصيد البدائية : فدوافعنا الطبيعية تلائم حالة الصيد أكثر مما تلائم حياة الزراعة ، وإلى تلك الحالة نصبو في رغباتنا الموسمية وجموح الشباب ، نحو « الرجوع إلى الطبيعة » . ولكن منذ أن قامت الحضارة أصبحت الغريزة غير ملائمة ، وطرقت الحياة أبواب العقل .

متى بدأ العقل يسير سيرته ؟ لعل ذلك حين هبطت أمواج ضخمة من الجليد في بطن من القطب ، فجعلت برودة الهواء قارسة ، وأهلكت الزرع في كل مكان تقريباً ، وأبادت كثيراً من أنواع الحيوان العاجزة القاصرة عن التكيف ، ودفعت عدداً قليلاً من الأحياء إلى الجنوب في منطقة حارة ضيقة تعلقت عدة أجيال بخط الاستواء في انتظار غضب الشمال أن يذوب . أكبر الظن أنه في تلك الأيام العصبية ، حين بطلت جميع أساليب الحياة القديمة مع غزوة البرد ، ولم تلق طرائق السلوك الموروثة أو التقليدية أى نجاح في بيئة تغير فيها كل شيء ، هلكت الحيوانات مع تزودها بسلاح كامل ، ولكنه غير مرن ، من الغريزة ، لأنها لم تستطع تغيير أنفسها من الداخل لمواجهة التغير في الخارج . أما الحيوان الذى نسميه الإنسان وقد وهب مزونة مزعزعة ، فقد تعلم فنون النار والطهى واللبس ، وقاوم العاصفة ، وارتفع إلى منزلة يمتاز فيها بلا نزاع عن سائر أنواع الغابة والسهل .

ونشأ التفكير البشرى — أكبر الظن — في مثل هذه الحال الطارئة من الحياة والموت . ونحن نرى اليوم نفس هذا النقص وهذا التكيف لردود الأفعال الطبيعية

(١) ثورندايك : طبيعة الإنسان الأصلية ص ٢٨١ .

في الطفل ، وهو تكيف يبيح له احتمال التعلم ، ولو أنه أدنى في مستواه من وليد الحيوان - نقول هذه المرونة نفسها هي التي أنقذت الإنسان والثدييات الراقية ، على حين أن كائنات هائلة وقوية مثل الماموث والماستودون ، وهي التي كانت تتجول سيدة المنطقة ، رزحت تحت عبء التغير الجليدي ، ولم تصبح إلا مريضاً لاستطلاع علم الحفائر الحيوانية . وقد ارتجفت تلك الحيوانات وزالت على حين بقي الإنسان الضئيل . وهنا بدأ الفكر والاختراع . ونشأ عن حيرة الغريزة المعقدة أول الفروض البسيطة ، وأول محاولة للجمع بين اثنين واثنين ، وأول التعليمات ، وأول الدراسات الشاقة في تشابه الصفات وانتظام التابع ، وأول ملاءمة بين الأشياء المتعامدة وبين المواقف التي بلغ من جدتها أن أخفقت الردود الغريزية والمباشرة إزاءها إخفاقاً تاماً . ونشأت عندئذ نماذج من العمل وتطورت إلى أساليب من التفكير وآلات للعقل : فأصبح ما كان ارتقاباً وتربصاً للفريسة انتباهاً ، وأضحى الخوف والهرب حذراً وروية ، وأمسى القتال والوثب استطلاعاً وتحديلاً ، وصار العبث باليد تجريباً . وانتصب الحيوان فأصبح إنساناً لا يزال عبداً لآلاف الظروف ، وشجاعاً في حين إزاء المخاطر العديدة ، ولكنه موهل بطريقته المزعزعة إلى أن يكون سيد الأرض .

ونشأ العقل من مثل هذه البدايات حتى اليوم ، كما يقول جراهام ولاس ، ولكنه لا يزال إلى حد ما غريزياً . فاذا عرض علينا موقف جديد ترددنا بالغريزة ، إلى أن تبهت أوجه المشكلة المختلفة أثرها فينا ، وتصبح استجابتنا سلوكاً معقداً ورداً كاملاً نسبياً على موقف يكاد يكون تام الإدراك . والفعل المنعكس استجابة موضعية لمؤثر موضعي ، كما يحدث عندما نحك قرحة . أما الغريزة فهي استجابة عامة لعنصر واحد في موقف من المواقف ، كالحال عندما نلح في النظر إلى وجه جميل . والعقل استجابة كلية لموقف كلي ؛ وعندئذ يحطم العقل الحب وقد يهلك الجنس . وكما تتجمع الإحساسات في ظل الرغبة فتكون نظاماً من المعاني والفكر ، كذلك الغرائز والعادات تقع مع الاستجابات البطيئة بعد آلاف من التجارب والأخطاء في هيئة من العقل . وليس بين الغريزة والعقل فرق في النوع ، بل في الدرجة . وكل واحد منهما يقدم للآخر عناصره ، فالروية بديل عن الدوافع

المتعارضة ، والتمييز أو الفطنة فصل الموقف إلى عناصره كقائمة للرد الكامل ،
والعقل تحليل المؤثر وتركيب الاستجابة .

والعلة في عجز العقل هو هذه المهلة التي تتمخض عن ظهوره . وقد
أهلكت المواقف كثيراً من الفلاسفة الناضجين قبل تحليلها بما يرضيهم . ولقد قال
جريفويلز Griffuehles النقابي : « إذا أطلنا التفكير لم نتم شيئاً » . ومن أجل
ذلك أحب نقاييو فرنسا مذهب الحدس Intuitionism البرجسوني . وقد
اقترح برجسون أن نقفل باب الفكر ، وأن نبدأ بالنتائج والدوافع أولاً ثم
بالاستدلال بعد ذلك . . . مع الفراغ الذي يعقب ذلك . هذا إلى أن العقل حين
ينسى ولاءه للإحساس قد لا يؤثر الحججة البينة Evidence ، بل المراوغة Subtlety
وعندئذ يصبح أشبه بالتاريخ المكتوب ، فيصبح المدافع الكاذب عن أى رغبة
قوية . فالعقل ، كما نخبرنا أى طالبة في المدارس ، قد لا يكون غير فن تعقيل
الرغبة . ونحن في أغلب الأحيان لا نفعل الأشياء لأن عندنا أسباباً لعدم فعلها ،
ولكننا نلتمس الأسباب لأننا نود فعلها . ومن أبسط الأمور في العالم أن نبنى
فلسفة تقوم على رغباتنا ومصالحنا . ويجب أن نحذر أن نكون شيوعيين لأننا
فقراء ، أو محافظين لأن مصالحتنا في جانبهم . وكلما أدخلت الفلسفة البهجة
على أنفسنا ازداد حذرنا منها . وقد أحسن برتراند رسل حين قال : « ليست
إرادة الاعتقاد هي ما نحتاج إليه ، بل الرغبة في البحث ، وهو شيء على
النقيض تماماً » (١) .

ومرة أخرى قد يفضى بنا التفكير إلى الشك ، والتمتة ، والسخف . فكل
تفكير ينشأ عنه تفكير مضاد ويساويه يكاد يبلغ من الحتمية مبلغ القانون الثاني
للحركة . وفي ذلك يقول أناتول فرانس لبروسون Brousson : « هذا ولا ريب حق ،
ولكن الضد حق كذلك » (٢) ثم ينقل عن باريس Barrès المتصوف قوله :
« إن ما يميز الدليل عن اللعب بالألفاظ أننا لا نستطيع ترجمة النوع الأخير » (٣)

(١) مقالات شكية ص ١٥٧ Special Essays

(٢) Anatole France en Pantouffles, p. 45

(٣) On Life and Letters, Fourth Series, p. VI

نعم ، العقل آلة ناقصة كعلم الطب ، أو عين الإنسان . ونحن نستفيد منه أفضل استفادة في نطاق ما أودعه القدر والطبيعة . ولا نشك أن بعض الأمور نحسن أداءها بالغريزة أفضل من الفكر . فلعل الأحكم في حضرة كليوباترة أن نظماً مثل أنطونيو من أن نفكر كقيصر . ولعل الأفضل أن نحب ونفقد المحبوب من أن نحسن التفكير . ولكن لماذا يكون هذا أفضل ؟ أذلك لأن الغريزة أسد ، أم لأن ضرباً من الحدس الصوفي قد كشف لنا عن هذه الحكمة ؟ كلا ، بل لأن التجربة — وهى الإحساس مع مر الزمن — قد علمتنا أن ساعة من النعم تساوى سنة من التفكير .

وإذا كنا نفكر فليس ذلك لأننا نهوى التفكير ، بل لأننا يجب أن نفكر ؛ فعلمنا الحديث كثير المزالق والتغير بحيث لا يسمح بمواجهة الاستجابات الثابتة الطابع . لعله لا تزال توجد طرق قديمة في الحياة تفيدها الغريزة كالأوممة ، والزراعة ، والاستقرار في البيت . ولكن حتى في هذه الأمور يجب أن يتدخل العقل ، مثل منع الحمل لتحديد الأوممة الغريزية ؛ هذا إلى أن المرأة قد خرجت من البيت البسيط إلى الصناعة المعقدة ؛ وأصبحت المزرعة التى كانت يوماً ما منعزلة مقراً لشبكة من العلاقات مع الوسطاء والأسواق البعيدة ورجال المال المحترفين . أما نحن الذين نسكن المدن فان الاستجابة المباشرة والغريزية تصبح يوماً إثر يوم خطرة ، لأن لكل غريزة أنانيته وإيثارها الخاص لنفسها ، وتسعى إلى إرضاء ذاتها بأى ثمن على حساب مجموع الشخصية . وكل غريزة هى جزء منا يزعم السيادة على غيره ، ولن نستطيع أن نحقق الوضوح والوحدة والصحة والعقل إلا بالتأليف بين هذه الأجزاء من أنفسنا .

انظر إلى الغريزة الجنسية : إنها تسرقنا إلى التساقد ، ولعلها تسلمنا إلى الإباحية . ويضيق نظر هذه الغريزة بما فيها من شدة ، فلا تقف لتفكر في النتائج . إننا نتزوج بالغريزة ، ونطلق بالعقل . وقد تلتى الغريزة بكل فتاة في أحضان أول جندي يعترض طريقها . وقد نجعل من كل زوج فاسقاً ، ومن كل أم مجرد أم فقط لا تكاد تفطم حتى تحمل . إنها تضاعف مقدرة الفهم بالسرعة التى يضاعف بها العقل والاختراع إيجاد الأقوات ، فيصبح آخر حالة للإنسان

سينته كأول أحواله . وبالغريزة يبحث الإنسان الجائع عن الطعام ثم يذبح نفسه ويموت ؛ وبالغريزة يتعلم الطفل المشى فيمشى على قمة الدرج أو على حافة الطنف . وبالغريزة ترتعش في خوف لا فائدة منه حين تزار الأسود داخل أقفاصها في حديقة الحيوان . وبالغريزة يصبح الجندي الحديث الخائف وحشاً في المعركة ، حاد الأنياب والأظافر ، أعمى بالبغض واليأس . معرضاً لميئة قدرة ، على حين يقف القائد المثقف المفكر آمناً في المؤخرة يكتب قصة انتصاره ، ثم يعود إلى الوطن فيرث الأرض .

لذلك فنحن نترك لإخواننا الصابرين في الدير إلهامهم التي لا يمكن تحقيقها ، وإيمانهم المريح ولكنه مزعزع ، كما نترك لأبناء عمومتنا في الغابات والأحراش غرائزهم العالية في دقتها وسدادها . ولقد قال كوفوقوشويوس : « لا يختلف الإنسان عن الحيوان إلا قليلا ، ومعظم الناس يطرحون هذا الشيء القليل » . أما نحن فنلقى نصيبنا من الإحساس والعقل ، قانعين بقبول الحياة كمياري لتفكيرنا ، عاجزين بقدر الطاقة على إضافة التفكير لحياتنا . سوف نقع في أخطاء كثيرة ، وليس ثمة ضمان أننا نبلغ السعادة في النهاية . إن بهجة الفهم الممزوجة بالألم مثل نشوة الحب . وسنطرح في طريقنا الفكري كثيراً من اليقينيات ، وسنهور كثيراً من الأوهام التي كانت تهب علينا الشجاعة . ولكن : « الحياة بغير التفكير غير جديرة بالإنسان » . ونحن نؤثر أن نكون سقراط في السجن من أن نكون كاليبان Caliban^(١) على العرش . فلنمض معاً في التفكير .

(١) كاليبان شخصية ابتكرها شكسبير في رواية العاصفة ، وجعله ابن الشيطان ، مشهوراً ، وعبداً .
(المترجم) .

الجزء الثالث

المتافيزيقا

الفصل الثالث

المادة والحياة والعقل

١ - مقدمة لأدرية

ما طبيعة العالم؟ ما مادته وما صورته ، وما مكوناته وهيكله ، وما موادها الأولى وقوانينه؟ ما المسادة في كيفها الباطن ، وفي جوهر وجودها الغامض؟ ما العقل؟ أهو على الدوام متميز عن المادة وذو سلطان عليها ، أم هو أحد مشتقات المادة وعبد لها؟ أيكون كلا العالمين ، الخارجى الذى ندرکه بالحس ، والباطنى الذى نحسه فى الشعور ، عرضة لقوانين ميكانيكية أو حتمية ، كما قال الشاعر : « ما يكتبه الخالق فى مطلع الصبح نقرؤه فى آخر النهار » ، أم ثمة فى المادة أو فى العقل أو فى كليهما عنصر من الاتفاق والتلقائية والحرية؟ هذه أسئلة يسألها قلة من الناس ، ويجب عنها جميع الناس ، وهى منابع فلسفاتنا الأخيرة التى يجب أن يعتمد عليها فى نهاية الأمر كل شىء آخر فى نظام مناسك من الفكر . إننا نؤثر معرفة الإجابات عن هذه الأسئلة على امتلاك سائر خيارات الأرض .

ولنسلم أنفسنا فى الحال لإخفاق لا مناص منه ، لا لأن هذا الباب من الفلسفة يحتاج فى إتقانه إلى معرفة كاملة ومناسبة بالرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والميكانيكا وعلم الحياة وعلم النفس فقط ، بل لأنه ليس من المعقول أن نتوقع من الجزء أن يفهم الكل . فهذه النظرة الكلية وهى فتننا فى هذه المغامرات اللطيفة ستبعد عن فكرنا جميع الفخاخ والمفاتن . ويكفى أن نأخذ أنفسنا بقليل من التواضع ، وشىء من الأمانة ، لتتأكد من أن الحياة والعالم فى غاية التعقيد والدقة بحيث يصعب على عقولنا الحبيسة إدراكهما . وأكبر الظن أن أكثر

نظرياتنا. تبجيلاً قد تكون موضع السخرية والأسف عند الآلهة العليمة بكل شيء . فكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نفخر باكتشاف مهاوى جهلنا . وكلما كثر علمنا ، قلت معرفتنا ، لأن كل خطوة نتقدمها تكشف عن غوامض جديدة وشكوك جديدة . فالجزء ينكشف عن الذرة ، والذرة عن الإلكترون (الكهرب) ، والإلكترون عن الكوانتوم (الكويمة) ويتحدى الكوانتوم سائر مقولاتنا Categories وقوانيننا وينطوى عليها . والتعليم تجديد في العقائد وتقدم في فن الشك . وآلاتنا كما نرى مرتبطة بالمادة ، وحواسنا بالعقل . وفي خلال هذا الضباب يجب علينا نحن «الزغب على الماء» أن نفهم البحر .

لذلك فنحن نقبل على هذه المشكلات كما يقبل القسيس على المذبح لأول مرة ليتلو سر القديس . لن نحل هذه المشكلات . وأفضل ما نعمله أن نكشف فقط عما توثره أنفسنا . فإذا أساء الدين إلينا بعظم معتقداته فقد نرتد محتجين إلى مادية مجردة ، كما فعل شللي الطائش ، الذي كان يعتقد في الله وفي الخلود ، وسمى نفسه «ملحداً» ليقلد بتحديه في وجه الكنيسة الرجعية المغرورة بنفسها . وإذا كنا من أصحاب العقول الرقيقة فسوف نتعلق بالإيمان ، ونعتبر أن عالمنا ميكانيكياً بغير إله أمر بصعب وجوده . أو لعلنا نتقدم في السن فتبدو اليوم ثورات شبابنا غير ضرورية ومسرقة . إن الحقيقة لتشرق مرة أخرى من الأفكار القديمة التي بدت يوماً ما خادعة وباطلة . ونحن نقبل مرحبين شاكرين أي أبناء من عالم العلم أو التاريخ ، قد تعيد إلينا بعض البصيص من معتقداتنا القديمة . ولن تكون علومنا في الطبيعة والكيمياء والفلك والحياة سوى ميادين للصيد ، نقتنص فيها الكرامة لمزاعمنا ، أو الراحة لآمالنا .
ومع ذلك ..

٢ - المادية

كما أن المادية هي أول فلسفة يعتنقها ذلك الذي خلع عن نفسه رداء المعتقدات الغيبية . فهي كذلك أول تصور عن العالم يظهر في أمة أخذ دينها

الرسمي في الزوال . كان المفكرون قبل سقراط . وهم الذين رفع ليكون ونبشته من شأنهم على خلفائهم ، جميعاً من الماديين تقريباً . فقد فسر طاليس وأنكسمنديس وأنكسمانس الكون على أنه من مشتقات الماء أو النار أو الهواء . وقدم لوقيبوس وديمقريطس للمادية تلك الصورة الذرية التي أرضت سائر المراطقة الصميمين ، إلى أن تفتت الذرة تحت تأثير علمي الطبيعة والكيمياء الحديثين .

وظلت هذه الفلسفة التي تعد أبسط الفلسفات ممتاسكة عدة أجيال ضد شك زينون ، وثنائية أنكساجوراس . ثم انصرف سقراط عن البحث في العالم الخارجي ، واكتشف النفس التي بلغ من اختلافها عن المادة أنه ظن أنها محصنة عن الموت . وسمى أفلاطون المادة «العدم» ، وأعلى من شأن العقل فوق كل شيء ، وكان يرى أن العالم الخارجي خاضع للعقل في الحس ، وللمثل في التركيب والعمل . وبدا له أن العسام كله صورة متوسطة لنموذج كامل مدرك بوساطة نفس خالقة . ووجد أرسطو البيولوجي العالم شيئاً متغيراً متحركاً ، ولم يستطع أن يرده إلى الذرات والخلاء ، وجوهره هو الكمال الأول (انتلخيا Entelechy) ، ففي كل مادة قوة خفية لا تهدأ حتى تتحقق . وكل «صورة» هي «مادة» صورة أعلى ، وكل حقيقة فهي حامل بالنمو ، ولم تستطع المادية أن تصف وصفاً صالحاً هذه الحيوية المتفجرة . ونسى ديمقريطس قرناً من الزمان .

وتجسد ديمقريطس في شخص أبيقور الذي يكاد يسبق بلانك Planck وبور Bohr وكوري فرأى في الذرة مبدأ للحرية وعدم الثبات ، ومع ذلك رمزاً للهلاك والفساد . فجميع الأشياء حرة ، وجميع الأشياء إلى موت . وفرح لوكريتيوس وقد سم الحياة بأن يسمع عن هذا الموت الأكيد اللانهائي . ونحى إليه أن القول بأن الشعراء أنفسهم مركبون من ذرات هو أمر جميل ولو أنه كئيب ، وكذلك القول بأن كل كائن وكل ذرة إلى انحلال وزوال في أمن من الألم إلى الأبد .

ثم ظهرت المسيحية وبقيت المادية خمسة عشر قرناً منبوذة في الفلسفة . وكانت بعض الفرق القديمة المخالفة لتعاليم الكنيسة قد تصورت النفس غازاً

لطيفاً ، وأن الله نفسه غاز أكثر لطافة . . . وهم بذلك يقتربون من تعريف هيكمل Haeckel في شيابه الألوهية بأنها « فقريه غازية » . gaseous vertebrate . ولكن المادة في الأغلب كانت الملاك الذي غوى ، وإبليس الفلسفة ، ومحنة الروح وسجنها . ومن الغريب أن المادة وجدت مكاناً رجباً في فلسفة القديس توماس الأكويني ، فجعلها قديمة بالقوة قدم الزمان ، وأصبحت « مبدأ التشخص » فيصير الواحد كثيراً خلال صورها وتحديداتها ، وينقسم محيط الروح إلى بحيرات صغيرة تسمى الأنفس الخالدة .

مهما يكن من شيء فلم تبدأ المادة تستعيد منزلتها حتى ظهور ديكارت . ومن الحق أن الفيلسوف الفرنسي (١) الحذر لم يرتفع بالمادة حتى تصبح الحقيقة الواحدة ، وحين استهل فلسفته بالنفوس والفكر قائلا : « أنا أفكر ، إذن أنا موجود » فقد فتح الباب لتلك المثالية نفسها التي أصبحت أبحث عدو للمادة . ولكنه تصور العالم تصوراً ميكانيكياً ، وأشرف الحيوانات كآلات منومة . وكل شيء ما عدا نفس الإنسان يخضع لمبادئ الطبيعة ، بل إن الظواهر المعقدة كالهضم والتنفس والإفراز والتناسل تدل على عظمة الميكانيكا . وفي هذه الكوسمولوجيا الديكارتية الصعبة ولدت المادية في شياها الثاني .

وهناك حركتان كبيرتان في الفكر الحديث ، دعوى Thesis وتقيضها Antithesis ، كما يقول هيجل ، في انتظار دعوى تركيبية Synthesis يجب على جيلنا الحاضر أن يشرع في عملها . وتبدأ الحركة الأولى بالعالم الخارجي ، بالمادة ، والطبيعة ، والميكانيكا ، والرياضة . وهي تمثل ، وكأنها ثورة الفرد البريء عن الأوهام ، أول « فعل وأكثره تطرفاً ضد فهم الكون فهما غيبياً . وهي تصوغ قوانين الحقيقة من ملاحظة المسادة ، ثم تفسر العقل في عبارات مستمدة من هذه القوانين الموضوعية . ونتائجها بالضرورة هي المادية Materialism والميكانيكية Mechanism ، والحتمية Determinism ، والسلوكية Behaviorism التي تفخر بعجزها الطبيعي عن الانتقال من المسادة إلى الشعور . وأبطالها هم جاليليو ، وديكارت ، وهوبس ، ونيوتن ، وديدرو ، وهولباخ ، ولامترى ،

(١) في الأصل « الغال » نسبة إلى بلاد الغال ، وهي الاسم القديم لفرنسا (المترجم) .

وهيكل ، وسبنسر ، ورسل ، وواطسون . أما الحركة التي تكافئها وتضادها فتبدأ من الشعور ، وترى نفسها عاجزة عن الانتقال منه إلى المادة . وهي تقف في داخل العالم الباطني وما فيه من عقل ونفس ومعرفة وأخلاق . وهي تمثل رد فعل متطرف ضد تصور الكون تصوراً مادياً . وهي ترى جميع الأشياء كإحساسات وأفكار ، وترد من أجل ذلك المادة إلى حالة من أحوال العقل . ونتائجها بالضرورة هي الروحية Spiritualism ، والمثالية Idealism والحيوية Vitalism ، وحرية الإرادة . وأبطالها هم ديكارت (انظر ما سبق) وليبنتر ، وبركلي ، وكانط ، وفشته ، وهيغل ، وشوبنهاور ، ونيتشة ، وبرجسون ، ووليم جيمس . وهكذا تتحارب الفلسفات المتعادية كالذكر والأنثى ، ولا تصيح ثمرة إلا حين يندمج بعضها في بعضها الآخر .

وتغلبت الحركة الأولى على الفكر الفلسفي الأوربي في القرنين السابع والثامن عشر . أما سبينوزا فقد انتحى عن هذه الحركة جانباً ، وواجه المشكلة على هواه في برجه المنعزل ، وقدم للعالم مذهب وحدة النفس Panpsychism (١) حلاً للمشكلة : فالمادة والعقل هما الوجهان الخارجى والداخلى لحقيقة واحدة معقدة ، و « جميع الأشياء مهما تختلف درجتها مملوءة بالحياة » . ولم تصدق أوروبا هذه المقالة ، على العكس من ذلك زد هوبس الحقيقة إلى المادة ، وأعلن أن كل اصطلاح أو عبارة لا تدل على شروط مادية ، فهي لفظية مدرسية . وأثار جسندي Gassendi بأدب ضد ديكارت اعتراضات متعددة على تصوره الثنائى لاستقلال المادة عن الفكر ، وزعم أن الفلسفة لم تتقدم بعد عن نظريات ديمقريطس . وفي الوقت الذي كان نيوتن يمارس العبادة بتقوى عظيمة ، ويكتب شروناً غريبة على سفر الرؤيا ، حلل العالم الخارجى إلى قوانين في الحركة بلغت من البساطة والترتيب أنها حين حملت إلى فرنسا لم يستطع فلاسفتها المغرمون بالمنطق إلا التسليم بأن هذه القوانين تنطبق على كل شيء ، على سقوط التفاحة وعلى صلاة المرأة . وأخرج لامترى بشجاعة كتابه : « الإنسان الآلة » ، وبين

(١) لا ندري لم عدل المؤلف عن وصف مذهب اسبينوزا بأنه وحدة الوجود Pantheism أى إن الله والعالم شيء واحد ، كما هو معروف ومشهور ، إلى القول بوحدة النفس (المترجم) .

كيف تؤثر الأحوال الحسية المختلفة كالحاسة أو المرض على العقل ، فتكشف بذلك عن تكوينها الفيزيقي . وأخضع هولباخ الإنسان والمادة على حد سواء في كتابه : « نظام الطبيعة » لهذا النظام المنطقي الدقيق . ورد هلفتيوس الأخلاق والفضيلة للقوانين الطبيعية . ولم يكن ديدرو على يقين من أن نظرية المعرفة تستطيع تفسير الشعور ، واضطر إلى الخروج مع اسبينوزا بهذه النتيجة ، وهي أن المادة غزيرة مزوجة بالعقل ؛ إلا أنه صمم لمجرد النكابة أن يسمى نفسه مادياً « حتى يشق آخر رجل بأمعاء آخر قسيس » .

والمادية أخت الاشتراكية : فهي علم يرفعه الشباب الثائر والفضال احتجاجاً في وجه الرجعية والاستبداد . وهي راية يطويها العصر الوسيط ويخفيها في هدوء عندما يرى الفكر النامي نحو النضج والتواضع التعقيد اللاعقل في حياة العالم .

٣ - المثالية

وفي أثناء ذلك وجدت الحركة الثانية رسولها في الأسقف بركلي . وقال الأسقف إنه على الرغم من كل شيء فإن هذه المادة التي نقول بها لا نعرفها إلا خلال الإحساس والإدراك . والموجود هو المدرك *Esse est percipi* ، أي إن الموجود إذا لم يدركه عقل من العقول فلن يوجد على الإطلاق (بمقدار ما نعرف) . وأضاف كانط أن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، فهذه الإحساسات هي في ذاتها خليط لا معنى له ، بل « الوحدة الأولية الشرطية *Transcendental* للإدراك » هي التي تنسج فوضى شهادة عدة حواس في عالم من الفكر المرتب . وأكبر الظن أن الترتيب والوحدة من عمل العقل ، ويخلق نصف « الشيء » بإدراكنا له . فكيف يمكن أن يكون مثل هذا العقل التكويني نتيجة سلبية للمادة التي أبدع العقل صورتها نفسها ؟

وقال آرثر شوبنهاور - أوضح رؤسائهم على الإطلاق - : إنك على صواب ؛ فالحقيقة الوحيدة التي نستطيع ملاحظتها مباشرة وفي صلة وثيقة هي أنفسنا ذاتها التي نتأملها تأملاً باطنياً . ومن السخرية أن نرد ذلك الذي نعرفه مباشرة إلى « مادة »

لا نعرفها إلا على أنها معنى في فكرنا ، وإلا خلال التوسط المنحرف لحواسنا الناقصة . ولعلنا إذا استطعنا أن نعرف المادة من الداخل معرفتنا لها من الخارج كما نعرف أنفسنا ، فقد نجد في قلب المادة طاقة من الإرادة أكثر شهاً بقوى عقولنا الدقيقة من الميكانيكية الخارجية والحقيرة لأجسادنا . وفي مثل هذه الظروف تكون المادية في ضوء المنطق الدقيق مستحيلة . أما بنجر Buchner ومولسكوت وفويرباخ فانهم أغرار ، وفي ذلك يقول شوبنهور :

« إن المادية المتهافتة التي لا تزال حتى الآن في منتصف القرن التاسع عشر تقدم تحت ستار الوهم الجاهل على أنها أصيلة لتنكر بحمق القوة الحيوية ، وتحاول أول كل شيء تفسير ظاهرة الحياة بالقوى الطبيعية والكيميائية ، ثم تفسر هذه القوى مرة أخرى بالآثار الميكانيكية للمادة ولكني لا أعتقد أبداً أنه حتى أبسط التركيبات الكيميائية تسمح بالتفسير الميكانيكي ، فما بالك بخصائص الضوء والحرارة والكهرباء ، فهذه تحتاج دائماً إلى تفسير ديناميكي » (١) .

وورث نيتشه هذه النظرية إلى المادة إلى جانب «إرادة القوة» ، وهي طبعة مسروقة من «إرادة» شوبنهور . ولن نجد زنديقاً أشد عداوة للمادية من هذا الذي كان يحتقر المساوسة ورجال الدين . ويقوم برناجه الذي لا محل فيه للتوفيق على : « الإبعاد المطلق للميكانيكية والمادة ، فكلاهما لا يكونان إلا صوراً من التعبير عن المراحل الدنيا ، وهي أقل صورة روحية تتشكل بها إرادة القوة » . إنه يتمص الموقف المثالي كله كأى ألماني طيب ، ويرى أن المادة وهم ، وتركيب عقلي نصنعه لتفسير إحساساتنا ، ويقول : « أما فيما يختص بالمذهب الذري المادى فهو أبسر مذهب يسهل رفضه من بين جميع المذاهب التي ظهرت . وأكثر الظن أنك لا تجد في أوروبا اليوم أى شخص في الوسط المتعلم يبلغ من منافاة العلم حداً يجعله يخلع على ذلك المذهب دلالة جدية » . ثم ينتهى كما فعل شوبنهور إلى هذه النتيجة فيقول : « يجب أن نجازف بهذا الفرض ، وهو أن جميع الأعمال الميكانيكية من حيث إنها قوة تعمل من داخل ليست بالضبط قوة

(١) العالم كإرادة وفكر ، المجلد الأول ص ١٥١ ، المجلد الثالث ص ٤٣ .

الإرادة بل نتيجة لها . فاللدرة ليست إلا كمية من طاقة (كوانتوم) لإرادة القوة (١).

ومن المدهش أن نرى مبلغ ما كان للمثالية من أثر في الناشرين النزاعين إلى المادية كصلاح ضد الاعتقاد الديني . وفي ذلك يقول هربرت سبنسر : « إذا كان لنا أن نختار أحد هذين الأمرين وهما : ترجمة الظواهر العقلية إلى ظواهر طبيعية ، أو ترجمة الظواهر الطبيعية إلى ظواهر عقلية ، فالأمر الثاني أدنى إلى القبول » (٢) ويكتب برتراند رسل في أيامنا هذه - وهو الرسول الممتع للقنوط - ما نصه :

« إن الاعتقاد في أن المادة وحدها حقيقية لن يسلم من دليل الشك المستمد من ميكانيكية الإحساس الفسيولوجية وقد نعد تاريخياً المادية نظاماً من العقائد أعلن لمحاربة العقائد الأرثوذكسية وتبعاً لذلك نجد أنه كلما انحلت العقائد القديمة أفسحت المادية الطريق أكثر فأكثر لمذهب الشك . وفي الوقت الحاضر نجد أن أهم الممثلين للمادية هم جماعة من أهل العلم في أمريكا وجماعة من رجال السياسة في روسيا ، لأن الديانة التقليدية في هذين القطرين لا تزال قوية » (٣).

٤ - ما المادة ؟

بعد أن مررنا بهذه الشكوك الإستمولوجية - وقد نظرنا إليها بما فيه الكفاية في الصفحات السابقة - ومع التسليم بأن العالم الخارجي « حقيقياً موضوعياً » ، هذا العالم الذي لا ينفك يذكرنا بوجوده بما يقدمه لنا من أشد المثيرات وأبعدها عن التنازع ، فلنمض إلى الأمام ، ولنبحث في تكوين المادة .

وأول شيء نكشفه هو أن المادة القديمة غير المتحركة التي وصفها طبيعيات القرن التاسع عشر قد ذهبت . وكانت « مادة » تتدال وهكسلي غير

(1) Will to Power §§ 712 and 634 ; Joyful wisdom § 109 ; Beyond Good and Evil, §§ 12 and 36.

(2) Principles of Psychology, vol. 1, p. 159.

(3) Introduction to Lange's History of Materialism, pp. xi, xii.

فأسدة ، فهي تقعد وتنام أنى وضعها ، كذلك الصبي البدين في قصة « أوزابك بكيوك »^(١). وهي تقاوم بكل ما فيها من وقار الحجم والثقل كل جهد لتحريكها ، أو لتغيير وجهة حركتها متى أخذت في الحركة . وبين برجسون في يسر شديد أن مادة في مثل هذا الخمود لا يمكن أبداً أن تفسر الحركة ، ومن باب أولى لا تحدث الحياة والعقل . ولكن رجال الطبيعة مع ذلك ، كما كتب برجسون ، كانوا في سبيلهم إلى هجر تصور المادة خامدة ، وإلى الكشف فيها عن حيوية لا ريب فيها . فهذه مثلاً الكهرباء لا يمكن أبداً تفسيرها في صنع من الخمود والذرات ؛ فما هذه القوة الخفية التي تضاف إلى الكتلة فزيد في طاقتها ولكنها لا تضيف شيئاً إلى أبعادها وثقلها ؟ وكيف تسرى الشحنة الكهربائية في سلك أو في الهواء اللاسلكي ؟ أمى شيء يتحرك في داخل السلك والذرات ، فهناك إذن ذرات أصغر من الذرات ؟ وما الذي يتحرك في تلك الموجات الكهربائية التي تكاد تبلغ في سرعتها سرعة الضوء نفسه ؟ أمى الذرات ، أو « الأثير » ، أو لا شيء ؟ وفي أشعة إكس ، عندما تمر شرارة كهربية في فراغ باعثة أشعة تنفذ من جدران الأنبوبة وتغير من اللوح الحساس كيميائياً ، فما هذا الذي يمر خلال الفراغ أو الجدران ؟ وعندما بدت المادة نشطة لا تفرغ كما هو الحال في الراديوم ، وبدت الذرات (التي لا يمكن أن تنقسم) منقسمة إلى ما لانهاية ، وأصبحت كل ذرة نظاماً كوكبياً من الشحنات الكهربائية تدور حول شيء لا يزيد جوهره عن شحنة كهربية أخرى فأى مازق وقعت المادة فيه حين فقدت كتلتها ووزنها وطولها وعرضها وعمقها وعدم قابليتها للنفذ ، وسائر تلك الخصائص الثقيلة التي ظفرت باحترام كل مفكر قويم واقعي . أفكان الخمود أسطورة ؟ أم يمكن أن تكون المادة حية ؟

لقد كانت هناك دلائل من قبل على وجود هذه الطاقة في المادة : فالتماسك ، والتآلف ، والتنافر ، كانت توحى بها . ويبدو اليوم من المحتمل أن تكون هذه الصفات وكذلك الكهربائية والمغناطيسية صوراً من « الطاقة الذرية »

(١) Pickwick Papers قصة مشهورة لشارلز ديكنز ، وكان مستر بكيوك بطل القصة .

(الترجم)

وهي ظواهر ترجع إلى حركة الإلكترونات الدائبة في الذرة . ولكن ما الإكترون ؟
أهو جزء من « المادة » يظهر في ثوب من الطاقة ، أو هو مقدار من الطاقة
منفصل تمام الانفصال عن أى جوهر مادي ؟ ولا يمكن أن نتصور الفرض
الأخير . ويقول ليون : « قد يمكن ولا ريب لعقل أسمى من عقلنا أن يتصور
الطاقة بغير مادة ولكن مثل هذا التصور في غير مقدورنا . فنحن
لا نستطيع أن نفهم الأشياء إلا بوضعها في الإطار المشترك لأفكارنا . ولما كانت
ماهية الطاقة مجهولة فنحن مضطرون إلى صوغها صياغة مادية حتى نفكر فيها» (١)
فنحن كما يقول برجسون ماديون بالطبع ، فقد ألفنا التعامل مع المادة والأمور
الميكانيكية . وإذا لم ننصرف عنها كئى ننظر في أنفسنا فاننا نتصور كل شىء
كآلة مادية . ومع ذلك فان أوستوالد Ostwald يصف المادة على أنها صورة
من الطاقة وحسب . ويرد رذرفورد الذرة إلى وحدات من الكهرباء الموجبة
والسالبة . ويعتقد لودج أن الإلكترون لا يشتمل على نواة مادية أكثر من شحنته .
ويقول ليون ببساطة : « المادة صورة مختلفة من الطاقة » (٢) . ويقول ج.ب.س.
هالدين : « يعتبر بعض الناس من أقدر المفكرين في العالم اليوم المادة كمجرد
ضرب خاص من الاضطراب التوجي » (٣) . ويقول إدنجتون : إن المادة
مركبة من بروتونات وإلكترونات ، أى شحنات موجبة وسالبة من الكهرباء .
فالوح : « هو في الحقيقة مكان فارغ مشتمل على شحنات كهربية مبعثرة هنا
وهناك » (٤) . ويقول هوايتهد : « إن مفهوم الكتلة في طريقه إلى فقدان
امتيازته الوحيد باعتبارها المقدار الواحد الدائم في النهاية فالكتلة الآن اسم
لكمية من الطاقة في علاقتها ببعض آثارها الديناميكية » . (٥) وإلى هذه المرتبة
الوضيعة سقط الجبار ، ورجعنا إلى بوسكوفيتش Boscovich (٦) الجزويتى
القديم ، إلى تلك العبارة غير المفهومة من أن المادة التى تشغل « المكان » مركبة

The Evolution of Matter, p. 13.

(١)

(٢) المرجع السابق ص ١٠

Possible Worlds, p. 296.

(٣)

The Nature of the Physical World, p. 3.

(٤)

Science and the Modern World, p. 149.

(٥)

(٦) بوسكوفيتش (١٧١١-١٧٨٧) فيلسوف يريجو لافى من دلاشيا أداغ في بلاده فلسفة نيوتن (الترجم)

من نطق لا وجود لها . وفي ذلك يقول نيتشه : « لقد كان بوسكوفتش وكوبرنيك حتى الآن أعظم خصمين وأكثرهما نجاحاً في دحض شهادة العيان » (١) .
فلا غرابة أن يستنتج ديوى أن « مفهوم المادة الذى يوجد بالفعل في تطبيق العلم لا يمت بضلة إلى مادة الماديين » (٢) .

أيمكن أن يكون شيء أكثر غموضاً وغرابة من هذا القول الذى يقوله علماء الطبيعة من أن « المادة » بمعنى الجواهر المتحيز Spatial قد بطلت عن الوجود ؟ فهم يقولون إن الإلكترونات ليس فيها شيء من خصائص المادة : فهي ليست صلبة ، ولا سائلة ، ولا غازية ؛ وهي ليست كتلة أو صورة . وانحلالها إلى نشاط إشعاعى يلقى شكوكاً على أعز عقيدة في العلم الحديث ، أى عدم قابلية المادة للفناء . ولنسمع رأى أحد علماء الطبيعة مرة أخرى :

« إن عناصر الذرات التى تنحل تفتى تماماً ، فهي تفقد كل صفة للمادة بما في ذلك الثقل وهو أكثر صفاتها أساسية . ذلك أن الميزان يعجز عن وزنها ، ولا شيء يستطيع أن يعيدها إلى حالة المادة ، فقد اختفت في عظمة الأثير ... والحرارة ، والكهرباء ، والضوء ، إلى غير ذلك . . . تمثل آخر مراحل المادة قبل اختفائها في الأثير . . . والمادة التى تنحل تخرج عن ماديتها بمرورها في حالات متتابعة تنتزع منها تدريجياً صفاتها المادية حتى تعود في النهاية إلى الأثير الذى لا يمكن وزنه ، ذلك الأثير الذى يبدو أنها نشأت عنه » (٣) .

الأثير ؟ ... ولكن ما هو هذا الأثير ؟ لا أحد يعرف . ليس الأثير فيما يقول لورد سالسبورى إلا اسماً على الفعل « يتموج » (٤) . والأثير خرافة ابتدعت لإخفاء الجهل المثقف للعلم بالحديث . فهو غامض غموض الشبح أو الروح . وافترض أينشتين وجود الأثير حين أعاد تفسير الجاذبية ، وعزم أخيراً أن يدخره إلى حين مع تحديد سلطانه . وكلما يعجز عالم من علماء الطبيعة ويتحير يقوله :

Beyond Good and Evil, § 12. (١)

Experience and Nature, p. 74. (٢)

(٣) لبيون : المرجع السابق ، ص ٧ ، ١٢ ، ١٤ .

(٤) نقلاً عن وليم جيمس في كتابه (معنى الحقيقة) ص ٥٩ .

« الأثير » . ويقول الأستاذ إدنجتون أحدث حجة في هذا الموضوع : « ليس الأثير نوعاً من المادة ، فهو لا مادي » (١) . ومعنى ذلك أن شيئاً لا مادياً يحيل نفسه إلى مادة بوساطة بعض الالتواءات Contortions الغامضة (دوامات Vortices كما سماها لورد كيلفن) . ويصيح ذلك الذي لم يكن له بعد أو ثقل بإضافة أجزاء منه بعضها إلى بعض ، مادة متحيزة ، ويمكن أن توزن . أهو اللاهوت قد أعيد أم هو علم مسيحي جديد ؟ أم هو صورة من البحث الطبيعي ؟ وفي الوقت نفسه الذي يحاول علم النفس بكل سبيل أن يتخلص من الشعور حتى يرد العقل للمادة ، يأسف علم الطبيعة في تقريره أن المادة لا توجد . ولقد قال نيوتن متعجباً : « أيتها الطبيعة احفظيني مما بعد الطبيعة (٢) (الميتافيزيقا) (٣) » . فيا للأسف لن تقدر الطبيعة أن تفعل أكثر من ذلك .

يقول برتراند رسل : « يقترب علم الطبيعة من المرحلة التي يبلغ فيها الكمال » (٤) . وجميع الدلائل تدل على العكس من ذلك . أما هنري بوانكاريه فيرى أن علم الطبيعة الحديث في حالة من الفوضى ، فهو يعيد بناء جميع أسسه ، وفي أثناء ذلك لا يكاد يعرف أين يقف . وقد تغيرت الأفكار الأساسية عن الطبيعة تغيراً تاماً في العشرين السنة الأخيرة فيما يختص بالمادة والحركة كليهما . ولم تعد تسمح أعمال كوري ورذرفورد وسودي وأينشتين ومينكوفسكي لأي تصور قديم عن الطبيعة النيوتونية بالبقاء . وكان لابلاس يحسد نيوتن لأنه كشف النظام الوحيد للعالم ، وحزن على عدم وجود نظم أخرى تكشف . ولكن عالم نيوتن قد انتحى اليوم جانباً . ولم يعد التناقل Gravitation مسألة « جاذبية » Attraction ، وتمزقت « قوانين » الحركة في كل جهة بنظرية النسبية . وقد كانت الفلسفة تبحث ذات يوم في « الأشباح » والمجردات ، وكان العلم يبحث في المادة ،

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٢) نقل عن بروسون : أناتول فرانس بالينتوفل ، ص ٢١٨ .

(٣) ترجمة العرب قديماً لفظة الميتافيزيقا بقولهم ما بعد الطبيعة ، ولكن هذا الاصطلاح طويل وتصبب النسبة إليه ، لذلك احتفظنا بلفظة ميتافيزيقا . وهي من اليونانية ميتا أى بعد ، وفيزيقا أى طبيعة . (المترجم) .

What I Believe, p. 2. (٤)

أى «المحسوس» والحقائق «الواقعة». أما الآن فعلم الطبيعة مجمولة مستورة esoteric من القوانين المجردة ، « وفكرة المادة مفقودة بالكلية في الدوائر العلمية » (١) . وكان على الفلاسفة أن تنتحي جانباً (ولا يزال بعض الناس يتوقعون موتها خلال «خمسین عاماً») أما العلم فعليه أن يحل مشكلاتنا . والآن — في الوقت الذي يحمل رجل الشارع العلم والعلماء جميع أفكار الإلهام واليقين التي كانت متصلة ذات يوم بالإنجيل والكنيسة — يقال لنا في تواضع : إن « البحث العلمي لا يفضي إلى معرفة طبيعة الأشياء الباطنة » (٢) . وبدلاً من ذلك يقولون لنا إن الساعة الدقاقة تسير أسرع تبعاً للسرعة التي تحمل خلالها في الفضاء ، وإن المسطرة قد تطول بعملية بسيطة هي تغيير موضعها من زاوية قائمة إلى خط مستقيم في اتجاه حركة الأرض . فعلينا أن نتواضع إزاء القوانين غير المفهومة التي حلت محل وضوح علم الطبيعة القديم . ومن يدري لعلها تكون صحيحة ؟ ومع ذلك فنحن نحذر العلم الذي يزيد عمقاً يوماً بعد يوم ، ويرفض في يومه ما آمن به في أمسه . فيوماً يقدم لنا الذرات ، ثم الإلكترونات ، ثم الكوانتا (نظرية الكم) ، وأخيراً صورة مقدسة لعالم مادي مبنی بأعجوبة من الشحنات الكهربائية بغير نويات مادية . وكان اشبنجلر وحده من الشجاعة بحيث يسمى هذا الأمر باسمه الصحيح : « كل نظرية ذرية هي خرافة وليست تجربة » (٣) .

ولنكن على حذر من اللاهوت أني نجده ، حتى إذا صادفناه في العلوم « المضبوطة » . ولعل المادة تستمر في الوجود على الرغم من علمنا الواسع الكثير الحليل . ولعل الحجر الذي اصطدم باصبع الدكتور جونسون كأن حقيقياً كالألم الذي أحس به . حقاً كان الحجر في نظر الدكتور « حزمة من الإحساسات »

(١) إدنجتون ، ص ٢٧٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

(٣) انعطاط القرب ، المجلد الأول ، ص ٣٨٧ . فقدت لفظه « علمي » عند المفكرين المعاصرين الشديدي المنق والاضطراب نفحة الكمال ، وأصبحت عبثاً لا يليق . نكل علم في نظر اشبنجلر « خرافة مريحة » ، وميثولوجيا تحتل فيها « الكهرباء » و « الطاقة الموضوعية » و « القوى » و « القوانين » محل الأرواح والآلة ، ويقيد العقل المصور واقديات الحياة في صور من « الرياضة والميكانيكا » . وستكون مهمة القرن العشرين التي يتميز بها التخلص من هذا النظام القائم على السببية السطحية ؛ المجلد الثاني ، ص ١٨٠ ، ٣٠ ، ٥٦ ، ١٤٤ ، ٣١ .

فقط ، كما كان هيوم يصفه ، ولكن عندئذ تكون هذه الحزمة — هذه المقاومة الصاخبة لعضلاتنا وحواسنا — هي بالضبط ما نعيه بالمادة . وقد نلتى بأنفسنا في هذا العلم المدرسى الجديد ، ولكننا في الحياة الواقعية ننتظر أن نجد كل طاقة مرتبطة بالمادة ، بشيء متحيز ، ذى ثقل ، « شيء يختلف عن أنفسنا هو الذى يبعث الإحساسات » .

ونحن لا نعرف إلى الآن ما المادة ، ولنقل ذلك حتى لا نقع في الخطأ . ولكننا على يقين من أمر واحد ، وهو أن هذه المادة اللطيفة ليست هي المادة الخاملة التى كان العلم في القرن التاسع عشر يقول بها . إنها صورة الطاقات غير المحسوبة وسبيلها . إنها حية بما فيها من التحام وجذب ودفع ، وعمليات إلكترونية (أى قابلة للتحليل الكهربى) و اسموزية Osmotic (أى قابلة للانتشار) ، وحرارة وكهرباء وضوء ، وإلكترونات ترقص ولا تستقر . فالحركة ، والطاقة ، والحيوية في كل مكان ، ولسنا نجرؤ على تسمية أى شيء عديم الحياة . « إن جسماً صلباً في مظهره مثل كتلة من الحديد يمثل ببساطة حالة من التوازن بين طاقته الداخلية نفسها وبين الطاقات الخارجية — الحرارة ، الضغط ، الخ ... — التى تحيطه . . . وعندما نضع يدينا على مقربة من كتلة من المعدن تتعدل حركة جزيئاتها » (١) .

والمن المفيد أن نصيف إلى ذلك التشبيه القديم الذى ذكره لوكريتيوس : « عندما تنزل فرق الجيش القوية في استعراض تحاكي فيه الحرب فتملأ السهل ، ويرتفع بريقها إلى عنان السماء ، وتومض الأرض بالنحاس ، وتتصاعد جلبة وقع أقدام الجند ، وتتضارب الصيحات في الجبال فتنعكس أصواتها إلى النجوم في السماء . . . ومع ذلك فلا تزال هناك بقعة في أعلى الجبل يبدو منها جميع هؤلاء الرجال المتحركين واقفين بلا حراك ، ويلمعون فقط كنقطة ساطعة في السهول » (٢) .

وكلما ازدادت دراستنا للمادة نقصت رؤيتنا لها كشيء أساسى ، وازداد

(١) ليون : المرجع السابق ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٢) في طبيعة الأشياء ، ترجمة منور ، الكتاب الثانى سطر ٣٢٣ وما بعده .

إدراكنا لها كمنظور خارجي للطاقة فقط ، كما أن لحمنا هو العلامة الخارجية للحياة والعقل . ويقول إدينجتون : « فيما يختص « بالفعل » فقد اضطلع علم الطبيعة بهذا الأمر ، وألح في اعتبار الفعل أساس كل شيء » (١) وبين عالم طبيعي هندي هو السر وجاديس شندرا بوس وجود « التعب » في المعادن – أى عجزها عن الاستمرار. في رد الفعل بالنسبة لبعض المؤثرات فترة من الزمن – واختفاء هذا التعب بعد الراحة . وأوضح كذلك حساسية المعادن للمثيرات ، والمسكنات ، والسموم . وقد تكررت هذه التجارب وثبت صحتها في قارات ثلاث (٢) . وأصبح اصطلاح « حياة المادة » الذى كان يخلو من المعنى منذ خمسة وعشرين عاماً من الاصطلاحات الشائعة الاستعمال . « وأنا لرى الآن علماء الطبيعة والكيمياء يجرون وراء الأفكار البيولوجية . وقد يكون امتداد التصورات البيولوجية إلى الطبيعة بأسرها أقرب مما كان يبدو متصوراً بضع سنين مضت » (٣) . فنحن نسمع عن « تطور المادة » . ويظهر أن الذرة تولد ، وتنمو ، وتفقد حيويتها ، وتموت . ويدعوننا هذا العلم الحديث الطبيعي للطاقة إلى صياغة المشكلة القديمة الخاصة بالمادية في مقابل الروحية صياغة جديدة . أى مظهر للعالم الخارجى أكثر أساسية – المظهر المتحيز الممتد الذى كان علم الطبيعة يصنفه « بالمادة » أو المظهر الفعال المحرك الذى نسميه الطاقة ؟ لا بد أن تكون الطاقة هى الجواب . والطاقة هى « ما لا يمكن معرفته » Unknowable ، و« الشيء فى ذاته » و« المطلق » (٤) وهل تكون الطاقة ذاتها شيئاً متحيزاً ممتداً ، أى جوهرأ مادياً ؟ لا يمكن أن نتصورها كذلك ، كما لا يمكن أن نتصور الفكر متحيزاً ومادياً . ويوجد فى قلب المادة شيء غير مادى يهبها الصورة والقوة ، وهو شيء له تلقائيتها الخاصة وحياته . وهذه الحيوية اللطيفة ، المستترة ، والتي تتكشف مع ذلك على الدوام ، هى الجوهر الأخير لكل شيء نعرفه .

(١) ص ٢٤٠ .

(٢) ليون ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٣) هالدين : الميكانيكية والحياة والشخصية ، ص ١٠١ .

(٤) يشير المؤلف إلى سبنسر فى « ما لا يمكن معرفته » وإلى كانط فى « الشيء فى ذاته » وإلى

(الملة جم)

هيجل فى « المطلق » .

ولكن هذين اللفظين « قلب » و « في » استعارتان تميلا بنا إلى طريق أعمى ، فلا ينبغي أن نسمح لأنفسنا بالتفكير في الطاقة كشيء مستقل عن المادة ، وتسكن فيها كالزئبق الذي كان يتأرجح في تماثيل ديدالس (١) حتى يمنحها الثبات والحياة الظاهرة . وليس هذا العنصر الحيوي ، هذه الطاقة الفعالة ، كما يظن معظم أصحاب المذهب الحيوي أمراً منفصلاً يمكن أن ينعزل عن المادة ، بل هو مرتبط بها ولا يفك عنها ، كما يتصل العقل بالجسم ، ويكون مع المادة المظهرين الداخلي والخارجي لكل واحد لا يقبل الانقسام . والمادى بمعنى واسع على حق ، فهو حين يعظم المادة إنما يعنى التعبير عن إيمانه بعدم وجود انقطاع في اتصال النمو والتقدم ، وبأن الفلاسفة نشأوا من القرود ، وأن القرود قد تطورت عن البروتوزوا Protozoa (الحيوانات الأولية) ، ونشأت هذه فرضاً من المواد غير العضوية ، وهذه من أبسط الدرات . ولكننا لا نستطيع أن نعتقد هذا الأمر إلا إذا اعتقدنا كذلك في وجود مبدأ للحياة ، وقوة تقسر على التطور داخل جسم المادة الخامدة في الظاهر (لا يزال التشبيه المتحيز يتسرب) . فنحن لا نسد الثغرة بين المادة والعقل بأن نهبط بالعقل ، بل بأن نرتفع بالمادة . والعالم كما يظن المادى عالم واحد ، وكل جزئية فيه مكونة تكويناً مادياً . ولكن في داخل كل جزئية من ذلك العالم المادى تعمل طاقة من تلقاء ذاتها تماثل الحياة والعقل ويعتمدان عليهما . وقد نقول عن أحقر قطعة من الطين ما قاله هرقليطس عندما استقبل زواراً من علية القوم في مطبخه البسيط البدائى : « أقبلا ، وادخلوا ، فهنا أيضاً توجد آلهة » .

٥ - الحياة

لقد حاولنا التوفيق بين الروحية والمادية بالربط بين الوضع الأساسى لإحدهما - أن لب جميع الأشياء أقرب إلى العقل منه إلى المادة - وبين وضعين أساسيين للأخرى - أن الحياة والعقل مرتبطان بالمادة ارتباطاً لا فكاك منه ،

(١) ديدالس Daedalus أحد المثالين في كريت قديماً ، وصفه هوميروس في أشعاره ، وكان يضع الزئبق داخل التمثال ليتحرك . فلما بحث الفلاسفة النفس الإنسانية تصوروا أنها شيء يوجد في الجسم ويحركه مثل تماثيل ديدالس . وانتقد أرسطو هذه النظرية في كتاب النفس (المترجم) .

وأن جميع الكائنات الراقية (أى الأكثر تعقيداً) قد نشأت من كائنات أدنى أقل تعقيداً . وقد دافعنا عن الوضع الأول بكلام علماء الطبيعة أنفسهم ، ولكن لا يزال علينا أن نواجه الصعوبات التي تثيرها الفضية الأخرى . ولنبدأ بالمشكلة الأخيرة ، ولنبحث في الاتصال بين الصور العليا والدنيا من الحقيقة .

إذا كان هذا الاتصال يتضمن نظرية التولد الذاتي Abiogenesis — أى نشأة الحياة من الأشياء غير الحية — فأدلة علم الحياة تنقضها . فليس ثمة أى حالة معروفة لمثل هذه النشأة . ويبدو أن تجارب باستير التي أجراها في فترة تبلغ سبع سنين (١٨٦٢ — ١٨٦٩) لا تؤيد الفكرة القائلة بأن البروتوزوا يمكن أن تنشأ من المادة غير العضوية . ويردد رأى العلم الحديث في صور مختلفة شعار سير وليم هارفي : « كل بيضة تنشأ عن بيضة ، وكل خلية عن خلية ، وكل حياة من شئء حى » . ويقول ج. س. هالدين : « ليس ثمة أى احتمال بعيد لاستخلاص العضوى من غير العضوى » (١) . ويقول جوستاف بونيه متعجباً : « أن نخلق المادة الحية ؟ كيف يمكن أن نأمل في ذلك مع الأحوال الحاضرة للعلم ، حين نفكر كم من الخصائص المتجمعة ، والوراثة ، والمستقبل المعقد يوجد في قطعة من البروتوبلازم الحية ؟ » (٢) .

ولكن على الرغم من صورة هذا الشك ، فلنا أن نرتاب في أن هؤلاء الشكاك يوازنون بغير شعور تقريباً بين المادة « الميتة » وبين الكائنات المعقدة . وتقل الصعوبة حين نقصرها على الثغرة بين أبسط الكائنات وأعقد الغرويات (٣) Colloid . وتنتج الكيمياء التركيبية اليوم ١٣٠٠٠٠٠ مركب كربونى عضوى . والدجماطيقى فقط الذى لم يتعلم بعد إمكان ممارسة « المستحيل » هو الذى يقف على يقين من أن الكيمياء لن تحدث الحياة أبداً . وما تفعله الطبيعة ممكن ، وقد يتعلمه الإنسان ذات يوم . ولكن عندما يحيل النبات أشعة الشمس والمواد الكيميائية الموجودة في الأرض إلى عصاراته وأنسجته نفسها فنحن ، أمام التحول من المواد

(١) الميكانيكية والحياة والشخصية ، ص ١٠٠ .

(٢) نقل عن ليون في كتابه « تطور القوى » ، ص ٣٦٩ .

(٣) الغرويات ، أو الهلاميات ، مادة عضوية لا تنوب عادة ولا تتبلور (قاموس شرف) .

غير العضوية إلى المواد العضوية . حقاً تتدخل هنا وساطة الكائن الحي ، ولكن التحول مع ذلك حقيقى وهو المقابل الطبيعى وميزان تلك العملية التى يتغير بها العضوى إلى غير العضوى فى فساده وموته ، وهى عملية غامضة كذلك ، ولكن من الواضح أنها غير مستحيلة . ولعل العضوى وغير العضوى مظهران أقطبان فى عملية واحدة من التطور والانحلال . ومن يدرى لعل المادة كما ذهب إلى ذلك فشرليست إلا فساداً للمادة الحية ، وأن غير العضوى و « الميكانيكى » أتران وفضلتان عن الحياة الماضية ؟

ومن المفروض أن الأرض كانت ذات يوم غير صالحة للكائنات الحية ، ومن المفروض أن الحياة لم تظهر على وجهها إلا حين تهيأت البيئة الملائمة . ولن يفيدنا أن نتبع أرينيوس^(١) Arrhenius إلى النجوم البعيدة باعتبارها أصل الحياة . وتأجيل المشكلة هو الهرب من مواجهتها . ولنفرض أن كارثة قتلت سائر الحياة النباتية والحيوانية على ظهر الأرض ، ولنفرض أنه بعد فترة طويلة عاد إلى الظهور طقس يشبه فى اعتداله ورطوبته ما يسود كوننا اليوم مع سائر الشروط الطبعمكيميائية^(٢) Physico-chemical . أليس من المحتمل أن تعود الأرض فتنتج البكتريا ، والبروتوزوا ، والنباتات ، وملايين الصور من الحياة ؟ فنى سلمنا بالتطور لا نستطيع أن نحدده ، فلا موضع فى الخط من شكسبير إلى الباراميكيوم Paramecium يمكن أن نقف عنده ونهجر الاتصال لتدخل معجز . وكما احتج هكسلى بأن الثغرة بين الإنسان والشمبانزى ليست من السعة بمقدار الثغرة التى بين أدنى النسانيس وأرقى القردة ، فكذلك يمكن أن نقول إن الثغرة بين البروتينات التركيبية وبين الأميبا أضيق من الخط غير المنقطع الذى يفصل بين الأميبا والقديس ويربط بينهما .

إن التصور الجديد عن المادة بأنها « حية » يلطف من حدة التباين بين العضوى وغير العضوى ، ويخفض من صعوبة تصور التطور المتصل . والحياة

(١) أرينيوس كيمائى سويدى كان عميد جامعة ستوكهلم ، ونال جائزة نوبل عام ١٩٠٣ فى بحث عن نظرية الانحلال الالكترولى ، وأصبح مديراً لجائزة نوبل منذ عام ١٩٠٥ ، ولد ١٨٥٩ وتوفى ١٩٢٧ .
(٢) مركب مزجى من لفظى الطبيعة والكيمياء .
(المترجم) .
(المترجم) .

نتيجة لا لذلك المظهر الخارجى من الحقيقة التى تعطى لنا الثقل والصلابة والامتداد ، بل لذلك المظهر الداخلى الذى يقدم لنا طاقة الذرة ، وكهرباء « الأثير » التى لا تستقر ، وحيوية الخلية التى تتحسس بها . لقد جعلت تصورات القرن التاسع عشر فى الطبيعة والكيمياء الثغرة بين الحى وغير الحى مما لا يمكن عبورها ، حتى إن سبنسر مع أنه كان تواقاً أن يجعل التطور كاملاً إلا أنه اضطر إلى الهرب من المشكلة فكتب يقول : « نحن مضطرون إلى الاعتراف بأن الحياة فى جوهرها لا يمكن أن نتصورها فى اصطلاحات طبعكيميائية » (١) وعندما تأخذ الطبيعة والكيمياء فى التسليم بالتصور الخاص بالحياة على أنه موافق لنهاية التصور الخاص بالمادة ، يخفى تقسيم الحقيقة والنشوء إلى نصفين لا يمكن التوفيق بينهما ، وتحدد المادة التى يكون قلبها الحيوية ، مع الحياة التى تكون صورتها المادة ، حتى يهبان العالم تلك الوحدة الكاملة والائتلاف التام اللذين بغيرهما لن يهدأ للعلم أو الفلسفة بال .

٦ - المادى يتكلم

ولكن إذا كان ثمة بعض الصعوبة فى قبول فكرة تطور الحياة عن المادة غير العضوية ، فكلم يبدو الأمر أكثر صعوبة فى قبول فكرة التطور الطبيعى لما نسميه تسمية غامضة « العقل » . ولقد قال نيتشه : « إن نمو المادة (أسلوب قديم فى التعبير) إلى شخص مفكر أمر مستحيل » . وسوف نجد هنا ، كما وجدنا من قبل ، أن تصور المادة خامدة يقضى إلى مأزق من الصعوبات لا يمكن التغلب عليها إلا بتضحية نظرية اتصال التطور . وتقدم لنا الروحية والمادية مرة أخرى أدلتها التى لا يمكن دحضها ، ثم يتركاننا موزعين بين نصفين من الحقيقة لا يقنعان بأن يكونا جزأين من كل . فلتتابع هذين النصفين من الحقيقة بعض الوقت .

يبدأ المادى بأن « يضع الاتصال » . وتشير تجارب بوز Bose إلى سياسة خاصة فى المادة ، فلو وضعنا قضيباً رفيعاً من البلاتين فى مقياس

(١) مبادئ علم الحياة ، المجلد الأول ، ص ١٢٠ .

التشعع (البولومتر bolometer) (١) لاستجاب لارتفاع في درجة الحرارة يبلغ واحداً من مائة مليون درجة (٢). لا ريب أن هذه الحساسية مختلفة في نوعها عما نجد في الكائنات الحية. وهي لا تؤدي إلى رد فعل متلائم يرتفع بقوة الكائن فوق بيئته، ولكنها توحى لنا بالطريقة التي سدت بها الطبيعة الثغرة بين المادة والعقل.

وتظهر المرحلة الثانية في تطور العقل في حساسية رد فعل النباتات للوضع، والتماس، والحرارة، والرطوبة، والضوء. ويعتقد يركس Yerkes أن أهم خاصة للعقل وأقواها - القدرة على التعلم، والقدرة على الاستجابة استجابات مختلفة نتيجة التجربة - علامة تميز حتى أدنى بروتوبلازم. وقد روع «بوز» مرة أخرى (٣) اللجنة البريطانية لتقدم العلوم حين أوضح أمامها التشابه المفصل بين الجهاز الدورى في النبات والإنسان، وقابلية العصارة السائلة للتأثر بالمؤثرات والمسكنات والسموم. واكتشف إدوارد تانجل حيوطاً دقيقة من البروتوبلازم تمر في النبات من خلية إلى أخرى، ويعدها معظم النباتيين شبيهة بالألياف العصبية في الحيوانات (٤). وهناك بعض النباتات شديدة الحساسية للضوء، حتى لقد تحولت «ساعات نباتية» floral clocks. وثمة خمسمائة نوع من النباتات آكلات الحشرات، ولبعضها كما بين دارون حلقات حساسة قادرة على كشف ما مقداره $\frac{1}{78000}$ من الجرام (٥). ونحن نجد أول بدايات محدودة للعقل في هذا التكيف البدائي لرد الفعل نحو غايات تفيد الكائن الحى.

وتزيد الحساسية مع القابلية للتحرك. فليس على النباتات مع قوتها على تحويل المواد غير العضوية إلى غذاء أن تتحرك، فيما عدا الذهاب بجذورها في الأرض، أو بسوقها في السماء. ولكن النباتات تدفع ثمن هذه الحياة البسيطة بتضحية كثير من قواها الخاصة بالاستجابات الموجهة. وأصبحت النباتات التي

(١) آلة دقيقة لقياس إشعاع الحرارة.

(٢) ماكيب : تطور العقل، ص ٣٣.

(٣) جلسة ٦ أغسطس سنة ١٩٢٨.

(٤) هولت : فكرة الشعور، ص ١٧٢.

(٥) ماكيب، المرجع السابق، ص ٢١.

كانت تتحرك حيوانات ، وتقدم فيها عضو المغامرة والضببط : الجهاز العصبي ، ذلك العضو النفيس والموئم . ومع ذلك فان أدنى الحيوانات لا يوجد فيها جهاز عصبي ، إذ نعمها الحساسة - أو الاهتياج irritability كما سماها بعض علماء الحياة المختصين في الأعصاب - وتظهر دون تمييز في سائر أنسجة الكائن . ولكن حتى في تلك العوالم المنحطة يبدأ بعض التخصص ؛ ففي الفطر volvox وغيرها من البروتوزوا المتجمعة تظهر الخلايا الخارجية اهتياجاً خاصاً ، على حين تظل الخلايا الداخلية أو التناسلية غير حافلة نسبياً بالموثرات الخارجية . ويزيد التخصص في الحساسة عندما ترتفع مرحلة أخرى في السلم ؛ ففي الحيوان البحري المسمى « فرج البحر » Jelly fish ترتبط بعض الخلايا العصبية الخارجية من سطح الكائن بحلقة من « شبكة عصبية » مكونة من خلايا موصلة تدور حول حافة « ناقوس العوم » umbrella . وهنا نجد أن التخصص قد فصل الخلايا العصبية إلى نوعين : « أعضاء طرفية » end-organs حساسة ، وأنسجة عصبية موصلة . وهذا أول ظهور لجهاز عصبي ، وهو الآلة المحركة للعقل .

أما الدودة المسطحة flatworm فخليتان عصبيتان من خلاياها ذات حجم غير عادي ، وتؤديان عمل « المركز العصبي العقدي » central ganglia أو المخ للخلايا الأخرى من الجهاز . وقد خلق تحديد هذه الخلايا العقدية بالقرب من الفم الرأس . ونما الرأس لحماية الفم ، كما نما البدن حول المعدة لحماية عملية الهضم ومساعدتها . وفي دودة الأرض يعقد الخط العصبي نفسه إلى مراكز عقدية في كل فلكة أو قطعة من الجسم ، ومن هذه المرحلة إلى الإنسان « يقطع » الجهاز العصبي : أي يقسم إلى مراكز عقدية موازية في الخيوط العصبية لفقرات العمود الفقري . وهذه المراكز العقدية على الرغم من اتصالها في دودة الأرض فان كل مركز منها يكاد يكون مستقلاً عن الآخر بحيث يمكن أن يتلوى أى جزء يقطع على هواه . ولكن مع تعقد تركيب الأنواع العليا وتعقد وظائفها ، تمت الضرورة للاتصال والتنسيق . ومع أن مراكز النخاع الشوكي استمرت في أداء عملها كمراكز للأفعال المنعكسة الموضعية ، فقد ازداد عدد الألياف التي تمر من هذه المراكز إلى مراكز المخ في الدماغ ، وظهر « جهاز عصبي مركزي »

قادر على الشعور وعلى حكم الجسم ككل . وليس التكامل تاماً حتى في الإنسان ، إذ تظل وظائف كثيرة خارج رقابة المخ ، وتخضع فقط « للجهاز العصبي السمبتاوي » وهو البقية من مرحلة الشبكة العصبية . أما ما نسميه « العقل » فإنه يعمل في أظهر الأمر بطريق الجهاز « المركزي » أو « الخي الشوكي » قبل كل شيء . ووظيفة العقل الأولى والأولية هي تكامل السلوك ، وإخضاع الاستجابات الحركية للهداية المركزية ورقابتها . ومن الواضح أن الفكر بطريق الجهاز العصبي أصبح حقيقة .

ولو كان لنا أن نستدل من علم الأجنة ، فقد نشأ العقل من توسع العصب الشمي ، فقد كان عصباً متواضعاً متصلاً بالأنف ، وظل العقل يعمل عصوراً عدة بطريق خاسة الشم . ثم ارتبطت أعصاب أخرى بالمراكز الحية : أعصاب من العينين ، والوجه ، والأذنين ، والحلق ، واللسان ، والرقبة ، والأمعاء . وانتقلت الأعصاب الشوكية شيئاً فشيئاً إلى الجهاز الخي ، وأخذ الرأس يحكم البدن أكثر فأكثر ، ونمت وظائف التنسيق والتكيف والرقابة بين الفعل ورد الفعل مع نمو المخ . ويزن المخ في الأسماك $\frac{1}{8}$ من وزن الجسم ، وفي الزواحف $\frac{1}{3}$ ، وفي الطيور $\frac{1}{4}$ ، وفي الثدييات $\frac{1}{3}$ ، وفي شمبانزي عمره سنتان $\frac{1}{3}$ ، وفي طفل عمره سنتان $\frac{1}{3}$. فهذا هو السلم الذي ارتقىناه .

هناك إذن أمر واحد واضح : أعقد عقل هو تطور طبيعي من الاحتياج غير المتخصص لأبسط بروتوبلازم في أدنى درجة من الحياة . إنه يمثل فقط تخصصاً واحداً أكثر في المادة الحية ، وعضواً واحداً أكثر للتحكم في البيئة . هذا إلى أن تعقد العقل ينمو خطوة بعد أخرى في الجنين والفقرات ، وفي الفرد والجنس ، مع نمو تعقيد التركيب في الجهاز العصبي . ويصحب النمو من الحساسية العامة إلى المراكز العقديّة إلى المخ بالتقدم من الانتحاء tropism إلى الفعل المنعكس ، إلى الاستجابة عن تعلم . ولا يقضى انتزاع مخ الحيوان عليه ، كما بين جلوتز على كلبه ، ولكن ذلك الانتزاع يقضى على الإنسان دائماً لأنه لا يستطيع أن يعيش إذا نسي كل ما تعلمه منذ الولادة . ويبدو أن هذه التجارب الفردية تختزن في ألياف الترابط الموجودة في السحاء ، والتي تبين نمواً كبيراً من الطفل إلى البالغ ، ومن الحيوان إلى الإنسان .

ولم يجب أحد قط عن هذا السؤال وهو : كيف يمكن أن يؤثر الجسم والعقل أحدهما في الآخر إذا كانا من التميز التام كمادة لا عاقلة وعقل لا مادي ؟ وفي ذلك يقول لوكريتيوس : « حين نرى الروح تحرك أطراف البدن ، أو توظف الجسم من النوم ، أو تعدل المزاج ، أو تهدى المرء كله وتوجهه ؛ وعندما نرى أن شيئاً من هذه الآثار لا يتم بغير لمس ، ولا يتم اللمس بغير البدن ، أفليس لنا أن نسلم بأن العقل والروح من الطبيعة نفسها كالبدن ؟ » (١) أو فلنقفز ألني عام لنجد الفيلسوف العاثر مارك توين يقول :

« الشيخ (يتهم) : ألا يمكن للعقل ما دام روحياً أن يتأثر بالموثرات الطبيعية ؟

الشاب : كلا

الشيخ : أياظلل العقل متزناً حين يسكر الجسم ؟ » (٢) .

وقد ينشأ الجنون عن إصابة المخ ، وقد ينشأ النوم عن التعب ، وقد يغيب المرء عن الوعي بالعقابر ، أو المرض ، أو نقص الأوكسجين ، أو الدم . ويتوقف الوعي على الإحساسات . وكان صبي سترمبل strumpell وليس له من الحواس إلا البصر يستغرق في النوم دائماً حين يغمض عينيه . وعند الإحساس بالشعور ينشأ الوعي من الصراع بين الدوافع أو الأفعال المنعكسة . فاذا انعدم الصراع يؤدي العمل أداء أفضل بدون الانتباه إليه . ولعل الوعي مرحلة انتقال مضرة . فالحيوان إذا كان كامل التكيف لحاجاته بطريق دوافعه وحواسه لا يكون واعياً . وذهب نيتشه إلى أن الوعي قد يضعف ويختفي عندما تتطور عادات الإنسان التي تستلزمها البيئة إلى أوتوماتيكية ثانوية .

أما النفس فليست إلا المجموع الكلي لصفات الكائن الوراثة وتجاربه المكتسبة . فاذا تغيرت التجارب تغيرت النفس ، فالرجل ينظر إلى نفسه عندما كان صبياً كأنه يتأمل شخصاً خارجياً أجنبياً . وإذا أصيب أحدنا ببعض الاضطرابات ازدوجت شخصيته ، وذلك إذا انفصل مركز من مراكز التجربة أو

(١) الكتاب الثالث - سطر ١٦١ وما بعده .

(٢) ما الإنسان ؟ : ص ٩٧ .

عقدة من الألياف في المخ عن الباقي ، واستقل المركز أو العقدة بالعمل لحسابه .
فن الواضح أن النفس وحدة مزعزعة تتكون من الوراثة والذاكرة والغاية ، وهي
إلى الفناء أدنى منها إلى البقاء .

والتفكير فعل بدائي ؛ فالانتباه توتر ، والنفور تجنب ، والشهوة بحث ،
والانفعال حركة . والفكرة أول مراحل الاستجابة . ونحن نسمى الفكرة كذلك
لأن نزوعاً آخر إلى الفعل قد اعترض طريقها قبل تحققها الخارجي . والروية
بديل عن استيلاء بدايات الأفعال والانفعالات والرغبات المتنافسة على البدن .
والانفعالات كما بين « كانن » Cannon شروطاً للدم تحدث عن إفرازات الغدد ،
فلن نعصب دون وجود الغدة الأدرينالية (الكظران) ، ويصبح المرء أبله
بلا غدة درقية . فكل فعل ، وكل فكر ، محدود بالرغبة ، والرغبة أحد شروط
البدن ؛ فالجوع فراغ في بعض الخلايا ، والحب امتلاء في بعضها الآخر .
وتنشأ التصورات الشهوانية من النضج الفسيولوجي . ويرجع نصف الشعر في
العالم إلى اختلال الخلايا . فالعقل في جميع وظائفه جزء من الجسم ، ينمو مع
نموه ، ويفنى بفنائه . وليس العقل أكثر بعداً عن الطبيعة الجسمية من الهضم ،
والتنفس ، والإفراز ، فهو ليس إلا أرق وظائف الجسد .

٧ - المثالي يرد

يقول المثالي : هذا مخجل ؛ فلا شيء أكثر سخرية من هذه المادية
الساذجة . أيمن أن نتصور أن المادة يجب بأى نحو من أنحاء التحويل
أن تصبح قادرة على التلفت حولها لتحس وتعرف وتحكم نفسها ؟ فأحط صور العقل
غير مفهومة في العبارات المادية ، إذ كيف تستطيع المادة مثلاً أن تحس الألم ؟
قد نتصور أن المادة تتذكر ، أما مادة تبصر أو تتعرف فكيف يكون ذلك ؟
إذا كان العقل هو المخ فيجب أن نعر على آفات بالمخ لكل فجوة في الذاكرة .
ولكننا لا نجد شيئاً من ذلك ^(١) . وقد أخفق سائر الجهد الذي بذل لربط العقل
بالمخ ، اللهم إلا إذا كان ذلك على سبيل التوجيه ، والأداة ، والسيادة والآلية .
أوجد هزيمة عقلية في عصرنا الحاضر أعظم من إخفاق علم النفس الفسيولوجي ؟

(١) برجسون : المادة والذاكرة ، لندن ١٩١١ ، ص ٢١٦ .

غير أن هذه اعتبارات بسيطة : فلتتلفت حولك ، ولتأمل الفكر . حقاً لقد أخبرنا وليم جيمس وهو يستبطن نفسه أنه لم يجد شعوراً آخر سوى : « أنا أتفلسف » . ولكن الـ « أنا » هي الشيء المهم هنا ، لا « أتفلسف » . فنحن لانرى شيئاً عند الاستبطان introspection لأننا نبحث عن شيء متحيز ومادى . إننا نجد مشقة في الإخبار عما « نرى » لأننا نسعى وراء الصور المحسوسة ، بل إن « نرى » عبارة عن افتراض مادى . ولكن أحداً لم يشرع في سد الثغرة بين العلاقات المكانية التي تكوّن العالم الخارجى ، وبين عمليات العقل اللامكانية . فنحن نستطيع أن نفكر في مساحات كبيرة بمثل السهولة التي نفكر فيها في مساحات صغيرة . ولا يشغل تصورنا الميل من الحيز أو الجهد أكثر مما تشغله البوصة . وقد نفكر في دهور عظيمة من الزمان ، أو نركز انتباهنا في لحظة من الذاكرة . ونستطيع بالإرادة أن نعظم الصور الذهنية ، أو نرد بعضها إلى بعض ، أو نربط بينها ، بصرف النظر عن كيفية ارتباطها في التجربة . وليست الصورة الذهنية هي الفكر ، فكثير من الملاحظين لا يجدون في بعض الأحيان أى صور في تفكيرهم . ومهما يكن مقدار الصور الموجودة عندنا فإنها ليست أساسية ، بل أدوات نستعملها ؛ فقبعة مثلثة ، أو يد موضوعة على بطن شخص بدين ، من الصور التي تفيد في نقل فكرة idea نابليون في مئات من المظاهر والمفاهيم . وكلما كثر تفكيرنا في شيء قلت الصور التي نحتاج إلى استعمالها . ولا تكون الصورة مهمة إلا حين تكون إعادة لفعل من الأفعال ، أى صورة منطبعة في المخ لحركة ننوى أن نفعّلها . أما حيث لا يوجد أى فعل ، فالفكر يجرى في طريقه بأقل ما يمكن من الصور ، ومن الواضح أنه يصبح عملية تتخطى كل قالب مادى أو استعارة مادية .

والشعور بوجه عام بندقية يصعب على المادى كسرها . وهو يحل المشكلة بالاعتماد على الشجاعة أكثر من اعتماده على الصراحة ؛ فيزعم أن الشعور لا وجود له . فهو على قدم المساواة عقلياً وخلقياً مع المثالى المتطرف الذى ينكر إنكاراً تاماً حقيقة العالم الخارجى . فالفلاسفة هم دائماً آخر من يكتشف الحقيقة . فقد ظلوا ثلثمائة عام يبحثون حتى اكتشفوا أن العالم الخارجى موجود . وعندما نفخ

الواقعيون المحدثون Realists في أبقاهم ، ودقوا طبولهم ، فأعلنوا أن الشيء يكاد الآن يكون يقينياً ، امتلأت سماء الفلسفة بالدهشة والشك ... فأخيراً لعل ثمة عالماً خارجياً ؟ فلعل بعد ثلثمائة عام يكتشف السلوكيون والماديون العالم الداخلي كما يكتشفون حقيقة الشعور وفعله . وعندئذ ينتهي علمهم آخر الأمر إلى مقدار ما يعلم رجل الشارع .

وقد سلم هكسلي في أمانة غريبة أن المادية لا يمكن أن تفسر الشعور ، وأنها بمقتضى منطقتها ومقدماتها مضطرة إلى القول بأن الشعور « ظاهرة ثانوية » epiphenomenon ، أى زيادة لا نفع فيها تضاف إلى المخ والأعصاب ، كالحرارة في المصباح ، أو الضوء في النار . حقاً هناك أبنية structures لا نفع لها تعيش بعد التطور ، ولكن لعل ذلك لأنها لم تكن مضرة ، أو أنها بقية لأشياء كانت نافعة في وقتها . ومع ذلك فالمادى ممنوع من الاعتماد بأن الشعور كان نافعاً أبداً ، أو حتى أنه لم يكن مضراً . أو إذا كان المادى في أكبر الظن من المفكرين على استحياء ، فقد يسلم بأن الشعور بالذات يمكن أن يكون تعديلاً أو ضرراً . وبعد فن منا يستطيع أن يحسن المشى وهو يفكر في رجله ؟ وكيف يغفل المادى الدليل الواضح بأن الشعور قد نما جنباً إلى جنب مع قوة الحياة ومرونتها ، وأن تلك الحيوانات الموهوبة أعظم درجة من الشعور تتحكم في الخلق ؟

٨ - التركيب

لقد حان الوقت الذى نجمع فيه بين هذه الحيوط ، وننسج أنصاف هذه الحقائق نسيجاً واحداً . وقد اقترح ليينتز أن ينقذ السفينة الغارقة بنظرية « التناسق الأزلى preestablished harmony » : فالعقل والجسم يتوازيان ، ولكنهما مستقلان ، فيجرى أحدهما إلى جانب صاحبه رأساً برأس ولكن دون أن يتأسا أبداً أو أن يؤثر أحدهما في الآخر . أما وفاقهما الظاهر في كل لحظة فليس إلا دليلاً من جملة الأدلة على العناية الإلهية . والمزية الوحيدة لهذه النظرية أنها ليست في حماقة غيرها من النظريات . وليس مجال الاختيار بينها وبين أحدث الأزياء

الفلسفية وهي « المادة المحايدة » كبيراً . فعلم الطبيعة في نظر « الواحديين المحايدين » الذين يعد برتراند رسل أقلهم إقناعاً ، قد رد المادة إلى نظام من العلاقات والأحداث ، والإدراك هو العبور الزائل لهذه العوالم المتقاربة . فهذا أيضاً لا بد أن يكون توفيقاً إلهياً للمتناقضات القديمة . ومن هذا البحر من « المادة المحايدة » — هذا النسيج الغشائي من العلاقات والأحداث — ينشأ كلا المادة والعقل . لقد انكشفت الأنفس والأبدان إلى مثل هذا الغشاء الرقيق . .

أما نحن فسنستمر في الاعتقاد بأن « الأحداث » التي تكون معرفتنا بالعالم الخارجي تكشف عن حقيقة ملموسة ومؤثرة جدية كل الجدارة بأن تسمى مادة ، ومستقلة مع الأسف عن رغباتنا ومشاعرنا . ولما كانت المادة غير خامدة بل حية ، فان مشكلة المادة والعقل تنهى إلى مغالطة تقوم على فساد المقدمات . ولا ريب في أنه من الصعب أن تتطور المادة الخاملة التي يقول بها الماديون إلى العقل . ولكن الشخص الذي يتتبع مغامرات علم الطبيعة الحديث لن يكون على يقين من أن المادة الديناميكية التي يقول بها العلم هذه الأيام ليست حيوية وغامضة مثل حيوية العقل نفسه وعمومه . وليس من العجيب أن يكون العقل قد تطور عن مثل هذه المادة . ولكن ليس موضع السؤال أن يكون أحدهما قد تطور عن صاحبه ، بل المشكلة حين توضع من جديد هي ما يأتي :
أيمكن أن تنمو أدنى صور العقلمادة mind-matter⁽¹⁾ إلى أرقى الصور ؟

ذلك أن العقل ليس المادة ولا المادة هي العقل ، بل ثم عقلمادة . وليس العقل شيئاً متميزاً يقوم في داخل المادة ، كما أن الحياة ليست شيئاً يسكن في البدن كالرجل في البيت . « العقل » اسم مجرد ، وهو اسم جمع نطلقه على عمليات المادة الحية حين تفكر ، كما أن البصر اسم نطلقه على عمليات المادة حين تبصر ، أو كما نطلق اسم الحب على عمليات المادة حين نحس بالجووع إلى الامتلاك أو الصلة الجنسية . فهناك « تدخل بين العقل والجسم » لا على معنى وجود شيتين متميزين يؤثر أحدهما في الآخر ، بل فقط على معنى أن شيئاً واحداً هو عضو من أعضاء الجسم ووظيفة له (الأعصاب — الفكر)

(1) العقلمادة مركب مزجي من اصطلاحى العقل والمادة معاً (المترجم) .

يوثر في أعضاء الجسم ووظائفه ويتأثر بها (الرئتان - التنفس ، المعدة - الهضم ، الأطراف - النقلة ، الغدد التناسلية - التناسل ، الغدد - الإفراز) . فجزء من المادة الحية الأرقى تطوراً يتكامل بوساطة « فعل الجهاز العصبي الموحد » مع بقية الكائن ويهديه السلوك . إن أرقى صور « العقل » قريبة في طبيعتها ومنتصلة في نموها بأدنى صور الحياة والحيوية الأولية للذرة . بل إن الشعور ، مع أننا لانستطيع تفسيره (أن نرسم له رسماً بيانياً مادياً وميكانيكياً) يقف بشكل مفهوم داخل خطة التطور ، لأننا لا نستمد من مادة الماديين الحاملة الهامة ، بل من تلك الطاقة الغزيرة وهي مادة الحياة .

فإذا كنا نتحدث عن الفكر كأحد وظائف الجسم ، فليكن مفهوماً أن هذا الجسم لا نتصوره على أنه « مادة » بل على أنه حياة . والحيوية حتى في أبسط الخلايا مركزية ، والهئية المادية ليست إلا قشرة ، مع استعمال الاستعارة الخادعة مرة أخرى . وليست الحياة وظيفة للهئية ، بل الهئية أو الصورة Form من نتاج الحياة . ونقل المادة وصلابتها نتيجتان للطاقة الذرية الباطنة وتعبيران عنها (١) ، وكل عضلة أو عصب في الجسم آلة مشكلة للرجبة . ومن الخطأ افتراض أن الحياة والعقل بيدآن من الإحساسات التي تبني نفسها آلياً إلى فكر ، فالأمر على العكس من ذلك ، إذ أن الرجبة أو الطاقة المتشككة هي جوهر الكائنات العضوية بالذات . فالرجبة فيما عدا الاستدلال الخارجى هي التي تحدد الغرض والميول والحركة ، وتختار من أجل ذلك الإحساس والتجربة . وليست التجربة هي « المطلق » كما ظن برادلى ، لأنها آلة مخلوقة للرجبة . وإذا وجب أن يكون لنا « مطلق » فهو الطاقة التي ترتفع من حيوية الذرة غير الموحدة إلى النشاط الموحد الخاص بالعقل الناضج الذى يجعل أغراضه غرضاً واحداً ، ويبصر جميع الأشياء في ضوء الكل . إنها طاقة المادة الحية التي خصصت الأعضاء والأعصاب والأمنخج وشكلتها . فإذا كنا نستطيع التفكير اليوم فذلك لأن لنا أمنخجاً ؛ ولكن الحياة - وهي تحاول التفكير في قديم الزمان - كما خلقت المنخ ، فما يزال المنخ ينمو حتى اليوم عن طريق محاولة الفكر الراغب وخطئه . فالحياة هي أول كل شيء ،

(١) لبيون : تطور المادة ، ص ١٠ ، ٣٠٩ .

وفى كل شيء . والمادة القديمة قدم الحياة فى الزمان ، والتي لا تنفك عنها فى المكان ، تأتى فى المحل الثانى بعد الحياة فى الجوهر والمنطق والمفهوم . فالمادة هى صورة الحياة وما به يمكن رؤيتها .

فهذا هو المذهب الحيوى vitalism ، ولكنه مذهب واحدى Monistic يسلم بالحياة على أنها الحقيقة الأساسية ، والمادة (أى الامتداد) هى رداؤها الخارجى . ولكن المذهب لا يسلم مع برجسون بأن المادة والحياة قد ينفصلان ، فالانسان فى كل مكان شيء واحد . ولن نسمح لأحد أن يتهمنا بالغموض فى هذا الموضوع ؛ فلم تعد وحدة المادة والعقل الموجودة فى كل مكان شيئاً أغمض أو أعسر فهماً من الاتحاد بين الفكر المقصود والجسد غير المستقر فى الإنسان الحى . وكيف يكون ثمة غموض فى التسليم بأن الحياة أساسية ، حين تكون معرفتنا لها أكثر مباشرة وأوثق صلة من أى شيء آخر ، وتكون معرفتنا لسائر الأشياء الأخرى بوساطة هذه الحياة ؟

ولقد كانت الميكانيكية المادية هجوماً على الدين ، والمثالية الذاتية جملة على الإلحاد ؛ فاذا لم نرهب أفكارنا أو عصرنا فقد نرفض المذهبين معاً . ومع ذلك فى هذه الواحدة النفسطبيعية psycho-physical monism لم ترفض مذاهب المادية ، والمثالية ، والروحية ، إذ تلتقى وتتداخل ؛ فالمادية من جهة أنها ترى جميع الحقائق مرتبطة فى حقيقة واحدة من التطور والوحدة المتصلين بغير انقطاع ؛ والمثالية من حيث إنها ترجع جميع حقائق المعرفة للتجربة : والروحية من جهة أنها ترى جوهر الحقيقة لا فى الامتداد والصلابة والثقل بل فى القوة الدافعة إلى الفعل ، وهى فى وقت واحد حياة الذرة وسر العبقرية والطاقة المولدة لها - « وهى حركة وروح تدفعان جميع الأشياء المفكرة ، وموضوعات جميع الأفكار ، وتنفذان إلى باطن كل شيء » . وقد أثبت العلم صحة هذا الخيال الشعرى .

لقد حاولنا نظرة تركيبية تسمى إلى حد ما أن تلم بأطراف المنظر الكلى للعالم وما فيه من تعقيد شديد . ولا ريب فى أننا قد أخفقنا فى هذه المحاولة ، اللهم

إلا أن نكون قد جعلنا ما ندركه ونشعر به أكثر غموضاً . ومرة أخرى كيف
للقطرة أن تفهم البحر ؟

لا العقل يقنع ولا العظات تفيده
رطوبة الليل تسرى إلى أعماق نفسى
وأقلب اليوم نظرى فى الفلسفات والأديان
إنها قد ترضيني كل الرضا فى قاعة الدرس
ولكنها لا تصلح أبداً فى رحاب السحاب
والمياه المتدفقة وفى بساط الأرض

وليس ذلك إلا لأن المياه المتدفقة والأرض الواسعة ، بل السحب الشاسعة
تتزاخم فى خضم الحياة .

الفصل الرابع

هل الإنسان آلة؟

١ - استعراض

ننتقل الآن من العالم الخارجي إلى الداخل، لا لنبحث في طبيعة العقل ، بل في كيفية عمله . وليس لنا أن نفصل بين العالمين ، فقد رأينا أنهما منفصلان في الفكر فقط ، أما في الواقع فهما وحدة في المكان والزمان معاً : فكل ذرة لها نواة حية ، ولكل عقل صورة مادية . ويرتبط أرق عقل في تطوره المتصل بأدنى ذرة ، ويجب أن تكون قوانين أحدهما هي قوانين الآخر . فإذا كانت الذرة آلية mechanical ، فالإنسان آلة .

ومذهب الحتمية أقدم الفلسفات ، كما أن مذهب الأنيمزم Animism أقدم الأديان . فالإيمان الساذج يرى في كل شيء إرادة غريبة ؛ وكان أول رد فعل من أصحاب النظر العقلي على هذا الاعتقاد الظاهر هو التسليم بعجز الفرد أمام القانون في كل مكان . فقد يبلغ الدين والفلسفة هدفاً واحداً من هاتين البدايتين المختلفتين : إذ يمكن أن تجرد الإرادة الكلية من أهوائها وتصبح شيئاً واحداً مع نظام العالم الثابت . ففي الشرق القديم ، حيث كثر التناسل حتى فاق ما يتناسب مع ما تجود به الأرض ، وانكسرت نفسه بالعمل الشاق وضاعت بزحمة السكان المتزايدة ، فقد أخذ الاعتقاد البدائي في الإرادة يتجه نحو الزوال من الدين كما أخذ في الزوال من الفلسفة . وأصبح الناس يتصورون السعادة على أنها خمود الرغبة ، ونعمة الشخصية المستسلمة ، واصطنع الكاهن والحكيم مذهب القضاء والقدر . ولم يكن من الممكن أن يحصل الفرد على قيمة أساسية أو أهمية في تلك المراحل من الإنسانية التي كانت تغلى بمن فيها ، وكان الفرد يرى نفسه

وهو معتمد على هذا الماضي المفجع اللانهائي ذرة تافهة قد أقيمت في هذا الخضم ، غير مشغولة عن شيء ، تكافح عبثاً بعض الوقت ، ثم تبتلع في الظلام ولا حيلة لها في دفع هذا الغائل كأنه أمام عدو مجنون . وقد تبين الخيام تلك الحال فنظمها في أبيات حفظها عن ظهر قلب كل شاب ناثر .

أما في الحضارات الفعالة والمتقدمة - حيث تسيطر شعلة الفكر الغامضة ، التي تحترق وتبرق في وجه القدر ، بعض السيطرة العابرة على البيئة ، وترك المعابد الطاهرة للألوهية وللنظم الفلسفية الختالة - فإن الفرد يجد أمامه سبباً أفضل للإيمان بشخصيته الخالقة . فهو يحس في نفسه بشرة من التلقائية ، ويصوغ على مثاله حتى آلهة أوليمب ؛ ثم رأى الإغريق الكون ينمو ويتطور ؛ فقالوا بوجود الآلهة في كل مكان ، وظهور الائتلاف بين الأضداد ، وظن أفلاطون وأرسطو أن العالم كله يتحرك نحو غاية كاملة وكأنه منجذب بما تراه عين العاشق . ومع ذلك فلم تكن تلك الحضارة الخصبية إلا فترة سعيدة نشأت عن ازدياد الثروة والنصر في الحزب . ولم يعد يبدو أن الناس أشبه بالخالددين حين حطمت إسبرطة أثينا بعد عصر بركليس ، وحين هدم الإسكندر مدينة طيبة . وانتهت الفلسفة مع زينون الرواقي إلى النتيجة التي أعلنها سوفوكليس عدة أجيال من قبل من أن القضاء الأعمى Moira صاحب السلطان على الآلهة والبشر .

والحضارات الكلييلة كالنفوس الهرمة تعظم في أحضان مذهب الختمية . فهي حين تعجز عن التغلب على قوى الموت تعظم كلالها وتسميه قضاء ، وترفع من شأن هزيمتها وتسميها قدراً . ونمت المسيحية في سواد هذا اليأس كأنها زهرة بسيطة من الأمل في عالم متفكك الأوصال . وفي قلب الدين الجديد يستقر دائماً التشاؤم الذي خرج منه ذلك الدين . (ولم يكن الدين الجديد مثقلاً بالطقوس الوثنية والمباهج) . فالجانب الآخر من الإيمان بالآخرة يقابله الارتياح والخوف من الحياة . وبلغ هذا الشك القائم في الإيمان مداه في مذهب كاليفين Calvin الحزين عن العناية الأزلية : فقد قدر الله كل شيء وكذلك مصير كل إنسان ، وكتبت على كل نفس سعادتها أو شقاوتها قبل مولدها ، ولن يجزؤ المستقبل على الخروج عما سبق في علم الله الأزلي . وانتهت المسيحية بعض الوقت إلى عقائد

أقصى وأمر من الحظوظ الأرضية ، تلك المسيحية التي جاءت تسعى إلى راحة المحروم ، وعزاء المظلوم .

وأخذ المفكرون في العصر الحديث يعظمون هذا اللاهوت القاسي بعصمة العلم الجديدة . فذهب جاليليو ، وقد افتتن بما كشفه في النجوم من نظام دائب صابر ، إلى أن هذا النظام هدف كل علم ، ويجب أن يرد العلم ميدان معارفه إلى القوانين الرياضية والكمية . وسحرت شهرة نيوتن العالية ، وكمال عمله الموقت في الميكانيكا ، كل طالب . وبمحت علماء الفسيولوجيا وعلماء النفس عن التفسيرات الميكانيكية والقوانين الرياضية لتعليل نمو الخلية واضطرابات الرغبة . وعندئذ أصبحت الفلسفة مفتونة بالرياضة ؛ فذهب ديكارت في غموض مشوب بالخذلر إلى أن العالم كله آلة ، أى هندسة في حركة . وطابق نيوتن بين نظام الكون الدقيق وبين التركيب الأوقليدي لفكره . وابتهج نواز عصر النور حين علموا أن الإنسان ليس مخلوقاً على صورة الإله ومثاله ، بل الأولى أن يكون ذلك على نسق الآلات التي أخذت في عصرهم تحل محل عمل الإنسان وإرادته .

أما الثورة الصناعية فهي التي قوضت أركان فلسفة الحرية ؛ لأنها أولاً عودت العقل العمل بالآلة ، ثم بعثته على التفكير أكثر فأكثر في العلل على أنها ميكانيكية . وأما العامل المحصن داخل جدران المصنع ، حيث يرى جميع الحياة الخافقة من حوله تسير على بكر وتدور على عجل ، فقد نسي الحياة الزراعية القديمة التي بدت فيها الحياة مسألة بذور تنبت بأعجوبة من الأرض التي تستجيب في نشاط لكل فلاحة ، وتفويض بخصوبة تلقائية . وأما العالم الذي كان ذات يوم ميداناً لنمو النبات ، والأطفال ذوو الإرادة ، والأمهات المغرمت ، والرجال الطامحون ، فقد أصبح كل أولئك في نظر العقل الحديث نظاماً شاسعاً من الميكانيكيات ابتداء من الكواكب التي تدور دوراناً ميكانيكياً حول الشمس ، إلى الحياة الميكروسكوبية التي تتجمع ميكانيكياً حول شعاع من الضوء . كان العلم على يقين من أنه قد دخل آخر الأمر خلف ستار الدراما الكونية ، فتحجب من هذه الآلية غير المنتظرة التي خلقت الأوهام ، وبذلت آفاقاً من المناظر . واستنتج العلم في إعجاب متواضع أن الإنسان الممثل هو صاحب الرواية ، وأن الأسلاك هي الرواية .

ولكن مرة أخرى الثورة الصناعية هي التي خلقت المدن ، وخلقت المدن الجماهير ، وحطمت الجماهير الناس . ومرة أخرى ظهرت في المدينة الجديدة تلك الشروط التي مزقت في الشرق شخصية الفرد وقيمته ، فأفضت إلى فلسفة مماثلة من الجبرية واليأس . وأصبح المرء في هذا الحشد المضطرب من السكان رقماً أو « بدأ » ، فالعقل أداء للقياس والحساب ، والإنسان جزء من الآلات التي يديرها . وأصبحت الديمقراطية ذاتها التي استهدفت تحرير الفرد آلة ، وسلسلة من « الآلات machines » التي تقود الجماهير غير العاقلة آلياً إلى صناديق الانتخابات . وكان من العيب أن يحتج الفرد على هذا النظام من الأسلاك والدوافع والمحركات ، كما كان من العيب أن يعترض بنفسه في وجه الجماهير الساحقة والمعایش المحطمة في الشرق القديم . بل أصبح « القادة » أجزاء نصف حية من البدعة الجديدة يبلغون من البلادة وفقدان الإرادة مبلغ القطعان الضالة التي تدرج رؤوسها (أو لا تدرج) في جداول الانتخاب .

فاذا كان العيب قد ثاروا في وجه هذه الميكانيكية فذلك عن فلسفة تعرف بامتياز الآلات وقداستها . ولم تتردد الاشتراكية socialism في ربط نفسها بعجلة الحتمية determinism والعلم الميكانيكي ، فكانت تغذى جنودها على مائدة بوخزر وهيكل وسبنسر وماركس . ولم يكن العالم وحده آلة ، بل التاريخ آلة لا تتم فيه أى حركة إلا بئمن الحيز ، ويستطيع الاقتصادى البارع إذا كان على معرفة كافية بالحاضر والماضى أن يتنبأ بيقين محتوم بكل وجهة أو مصير في المستقبل . فالإنسان هو الآن مخلوق مركب من الوراثة والبيئة ، وأى شيء يعمل هو ثمرة العلل الموروثة أو الطبيعة ، والى لا سلطان له عليها . فالإنسان إن هو إلا آلة متحركة بذاتها عجيبة ذات حياة ظاهرية . ويترتب على ذلك أنه « غير مذنب » : فاذا ارتكب جريمة فاللوم يقع على المجتمع ، وإذا كان مجنوناً فتلك غلطة الآلة التي سمحت عجلاتها بتوليده ، ولا ينبغي أن يحرم لهذا السبب من حقه في الانتخاب أو أن يكون رئيساً للدولة . كل ما كان العالم في حاجة إليه هو آلة أكبر وأفضل ، آلة مؤممة nationalized ، إلى مائة مليون آلة تديرها آلة واحدة منفذة حين يضغط الرئيس على أحد الأزرار ضغطاً ميكانيكياً .

وقد كان من الممكن أن يسمح القادة في العصر الأرستقراطي للجماهير المضطهدة باحتكار هذه الفلسفة المخدرة . أما في عصر الديمقراطية فقد أحسن أعظم المفكرين بأنفسهم مندوبين للمشاركة الوطنية في فلسفة الجمهور . وأصبح الشك في الآلة الموجودة في كل شيء والقادرة على كل شيء بدعة قديمة تليق بعصر ما قبل الطوفان . وأسرع المفكرون فأعلنوا أنهم أنفسهم آلات وضعت فيها الأفكار متصلة بالزمان ، منذ ملايين الملايين من السنين من قبل . واعترف تين Taine بالإله الجديد ، وابتكر نظرية نقدية في تمجيده . وكتب زولا تمثيلات كثيرة يبين فيها أن المرء يجب أن يدفع ثمن أجداده . وعرض توماس هاردي الإنسان في هيئة العاجز بين مخالف الظروف . ورثي أناطول فرانس في عبارات رشيقة نقية عبودية النفس ، وعبث الحياة . ورأى دانزوي في كل مكان انتصار الموت ونخريته .

لعل نزول الشخصية عن عرشها أحد أسباب هذا الحزن الغامض الذي يجتني وراء بريق الفكر الحديث وبراعته. لهذا لن نجد من يقرأ كتاب « ما الإنسان » تشاؤم مارك توين غامضاً أو غريباً ، ذلك أن هذا الكاتب الساخر البائس كان من غلاة مذهب الختمية ، وكان يعتقد أن سائر نكاته (قفشاته) المرحة مفروضة من قبل في التركيب الغازي للسدم الأولية (أى جرائم لم يسأل عنها هذا الغاز المسكين ؟) ولم ير في حيوية توم سوير Tom Sawyer النابضة سوى فوران مركب كربوني . حقاً إن اليسير من الفلسفة عظيم الخطورة ، إذ تميل بعقل الإنسان نحو التشاؤم . ويقال إن الآلة المرحة التي خلقت هكلبرى فن Huckleberry Finn واجهت بعض الصعوبات مع زوجته . ولكن كيف يمكن أن تشارك المرأة في سلام في مخدعها وطعامها مع آلة نائرة تنظر إليها على أنها مجموعة من العجلات دارت في طفولة الزمان ، وتبطل الآن عن الدوران مصدرة أصواتاً صاحبة للزوم لها وسطحية ، حتى تنتهي إلى عجز وصمت أبديين ؟

ولا ريب في أن فقدان إيمان طفولتنا قد أحزننا ؛ كما أن الحرمان المزدوج لكل بالغ فقدت نفسه مثل طفولتها اللاهوتية ثم بعد ذلك مثل شبابها الاجتماعية ، مما يترك قلب الشاب مثقلاً ببعض الشيء بعبء هذا العالم غير المفهوم . وقد

يرجع بعض الصوت الخافت الكئيب الذى يجرى تحت مرخنا الظاهر إلى الاندفاع التافه لفكرنا . فلم يكن مطلوباً منا أن نهجر اللاهوت الذى كان يحقتر الأساس الطبيعى للوجود ، إلى فلسفة تتجاهل ما فى الحياة من قوة خالقة وما فى العقل من ابتكار . ولم يكن مطلوباً منا وقد هجرنا زعمنا الصياني من أننا قلب التاريخ الكلى وذروته أن نحقر أنفسنا إزاء الآلات فى المصانع ، ونقبلها كأنها المثل الأفلاطونية التى صاغت التغيرات الذاتية نفوسنا على مثال نماذجها السامية . وليس علينا أن نترك نصيبنا فى حيوية العالم ، أو فى الامتداد غير المستقر للحياة ، أو فى البناء المشتمر للفكر . ولكن هزيمتنا فى جناح من جبهة القتال أدت إلى هربنا من الميدان كله مع التسليم التام .

أكان من الضرورى أن نسلم مثل هذا التسليم الكامل ؟ وهل يشبه السلوك الإنسانى عملية تفتت التلال ، أو هبوب الرياح ، أو مد البحر وجزره ؟ وهل قلق الأمومة الذى لا يهدأ ، أو شهوة الشباب الجارفة ، أو تقدير الحب الهادى ، ليست إلا توزيعاً ميكانيكياً توزيعاً جديداً للعناصر الكيماية والقوى الطبيعية ؟ أيبكون تشبث الحياة مع سعة الحيلة مجرد مظهر ، والسعى نحو الكمال ليس إلا إلزاماً أعمى ، وقدرة الفكر وهماً ، وحقيقة الإرادة حلماً ؟

هل الإنسان آلة ؟

٢ - الميكانيكية

ولنبحث فى أمر النقلة . ولنأخذ آلة بسيطة ولتكن لعبة هى سيارة تجرى عندما نملأ زنبركها ، ونطلقه . ونربط فى مقدمتها قطعة مربعة من المطاط تكون حاجزاً حساساً . ثم نضع اللعبة على أرض غرفة ملساء بحيث تواجه مباشرة حاجزاً قريباً . ثم نملأ الزنبرك ونطلقه . ولنفرض أن تخطيط الحائط والأرضية واللعبة من الكمال كما نفرض فى النظرية الرياضية والميكانيكية . سترتد السيارة مقيدة بهذه الشروط من الحائط فى نفس الطريق الذى جاءت منه ، ثم تعود إلى الحائط فى نفس الخط مرة أخرى . وتظل تكرر هذا العمل نظرياً ودائماً

في خط مستقيم عمودي على الحائط ، حتى تستنفد طاقتها الصناعية تماماً . إنها تسلك سلوكاً ميكانيكياً .

والآن املاً إزاء مستطيلاً من الزجاج بالماء . ضع في الوسط حاجزاً شفافاً من الزجاج أقصر من عرض الإناء ، بحيث يترك مسافة ضيقة من الجانبين . ضع في أحد جانبي الإناء قطعة من الطعام ، وضع في الجانب الآخر كائناً حياً دينياً ، أبسط ما يمكن - وليكن الشق الطولي *Paramecium* . راقب الكائن تحت الميكروسكوب . إنه يتجه مباشرة نحو الطعام ؛ ثم يصطدم بالحاجز الزجاجي ، فيتراجع في خط مستقيم . من الظاهر أنه آلة . ولكن فجأة ينحرف الكائن متجهاً حوله ، ثم يشرع في السير مرة أخرى بزاوية ، فيصطدم بالحاجز مرة أخرى . ثم يتراجع ، وينحرف ويصطدم مرة أخرى . . . ويتراجع ، وينحرف ، ثم يمر من خلال الفتحة إلى الطعام . ولا يوجد شيء في تركيب أي آلة ، أو شيء في مبادئ علم الميكانيكا ، يفسر هذا الاتجاه الحكيم ، هذا المظهر من « الغرض » الموجه في أدنى الحيوانات المعروفة للإنسان .

أوتأمل سلوك حيوان ميكروسكوبي مشابه له هو سنتر رازيلي *Stentor rasilii* وهو نقاعة (١) في هيئة البوق يتصل بالنباتات أو الأعشاب في المستنقعات . دع تياراً رقيقاً من الماء يسقط على محيط الفم أو القرص عند فم الكائن ، وإذا به يتقلص في الحال ويتجدد على ساقه . وبعد دقيقة ينبسط إلى حجمه الطبيعي ، ويصبح في الظاهر كما كان . والآن دع تيار الماء يضربه ثانياً كالمرّة السابقة بالضبط ، ولكن حيوان سننتور لا يحفل به . حرك الشيء الذي تتعلق به حركة بسيطة ، وإذا به يتقلص مرة أخرى إلى أنبوبته . أعد المؤثر نفسه بعد دقيقة ، فلا تجد أي استجابة . فلماذا هذا التكيف السريع الاكتساب ؟ أيرجع إلى التعب - إلى الإنهاك من عنف الاستجابة الأولى ؟ كلا ، إذ في الوقت الذي يظل فيه الاستنتور غير حافل بتيار الماء المتساقط على قرصه ، نجد أنه يرتد بشدة عن المؤثرات الضارة . أما إذا تكرّر المؤثر « غير الضار » عدة مرات ،

(١) النقاعة هي الانفيوسوريا ، قسم من البروتوزوا ذات الأهداب ، وسميت كذلك لأنها تتكاثر في فقوات المواد العضوية . (المترجم - عن قاموس شرف) .

فان الكائن وكيف نفسه تكييفاً فلسفياً مع البيئة الجديدة ، ويتراجع تماماً عما لاحيلة له فيه (١) . فليشاهد العالم الميكانيكي ذهنه لتفسير هذه الردود الانتخائية والمتكيفة التي نجدها في أدنى صنف من المملكة الحيوانية . سيربح نفسه مجادلا ، ويؤكد لنا كأي ملحد قائلا : «سنجد ذات يوم ، بطريقة ما ، تفسيراً ميكانيكياً لهذه الأمور» . لقد كان أناتول فرانس يقول : ليس العلماء محبين للاستطلاع Les savants ne sont pas curieux : لقد فقد العلماء فن الشك .

أو فلنبحث في الهضم . بعض النباتات الحساسة مثل الدوينة أو ورد الشمس drosera يطبق على الغذاء الموضوع على سطحه ويمتصه . أما إذا وضعت على سطحه مواد غير صالحة للغذاء فلا يستجيب هذا النبات أبداً . وتنفي الأميبا بطبيعتها ما لا يصلح لتغذيتها . والحيوان الميكروسكوبي الذي يشبه الـ swan-animalcule المسمى ديلبتوس أنسر dileptus anser ، يبرز عنقاً مملوءاً أكياساً شعيرية trichocysts (خيوط ملفوفة لاسعة) ، لا يلقبها إلا على الغذاء الملائم . ونجد أن خلايا أمعاء الإنسان انتقائية في فعلها ، فكل نوع من الخلايا يؤثر في أطعمة معينة ولا يؤثر في غيرها . وكل خلية في بدن الإنسان تنتق من مجرى الدم ما تحتاج إليه من المواد الخاصة بنوعها specific وتتجاهل غير ذلك ، وتصب في الدم نفاية ما تنتجه من تغيرات كيميائية . إنها تفتت المواد التي تنتقيها إلى أجزاء ، ثم تعيد تركيب عناصرها إلى مركبات تحتاج إليها في بقائها ونشاطها . إنها تنفس ، وتأكل ، وتفرز ، وتنمو ، وتتكاثر ، وتموت ، كما لو كانت كائناً حياً له فرديته الخاصة . وفي ذلك يقول لينون : « إن ما تحققه هذه الخلايا في كل لحظة من حياتنا يسمو سموماً بعيداً على كل ما يستطيع العلم المتقدم أن يحققه . وإن الطالب القادر أن يحل بعقله المسائل التي تحلها كل لحظة خلايا أدنى المخلوقات هو أسنى بكثير عن غيره من البشر حتى لقد يعدونه بالنسبة إليهم لها » (٢) .

ولنتأمل النمو ؛ كيف يمكن أن تنمو الآلة ؟ ولماذا تعنى بالنمو ؟ أوجدت

(1) Jennings, H.S. Behavior of the Lower Organisms, pp. 170-3.

(2) Le Bon, The Evolution of Forces, p. 363.

قط آلة تبلغ من العجب أن تشبه امتداد الحياة المدهش؟ انظر إلى زنابق الوادى؛
 أى قوة ساحرة تجذبها من سبحتها فى الأرض ، وترفعها ببطء وصبر نحو الشمس ؟
 أو تأمل العصفائر تطير فى الهواء ، فلا تجد فيها تروساً ولا بكرأً ولا عجلات .
 ومع ذلك فنحن كما قال الشاعر :

إننا نحتقر ونبغض ونفخر كذلك ونزهب
 ولو كنا جنساً خلق لا للبكاء والنصب
 كيف يمكن لست أدرى من سرورك تقرب

هذا طفل ، فلماذا يجوع ويتعطش للغذاء ، ويمد أصابعه الرقيقة ليمتلك
 العالم ؟ انظر إلى الطفل ينمو : إنه لا يحتاج إلا لغذاء واحد يصنع به خديه
 السميين ، وشعره الغزير ، وعينه الضاحكتين . تأمل الطفل يقف وحده لأول
 مرة ، فى خوف وشجاعة ، منتصب القامة فى كرامة . لماذا يشناق هكذا إلى
 الوقوف والمشى ؟ لماذا يضطرب بالفضول المستمر ، والطموح الشره الخطر ،
 يلمس ويدوق ، يتأمل ويسمع ، يعث بيديه ويجرب ، يلاحظ ويفكر ،
 « ينمو » - إلى أن يبحث فى الأرض ، ويقيس أبعاد النجوم ؟ وما أغمض هذا
 التغير فى الهيئة الذى يحدث مع المراهقة ، ذلك التغير الذى ينقل الصبي إلى رجل
 هادىء عريض ، ويصوغ الفتاة إلى قطعة حية من الجمال أبهى من أى
 أثر فى ؟

انظر إلى تجدد النمو . اقطع غضروفاً من جناح نجمة البحر ، تجد أن
 الغضروف ينمو ثانية . اقطع جميع الغضاريف تجد أن المركز يولدها ثانية .
 اقطع المركز كله تجد أن الغضاريف تعيد نموه . إن الآلة إذا تعطلت فلا تصلح
 أجزاءها بنفسها . إنها تقف لا حراك بها ولا حس ، فى انتظار لمسة من يد حية
 تعيد إلى أجزائها نظامها فى تأدية مهمتها . وليست هذه الظواهر الكبرى التى
 وصفها برجسون أعظم دلالة ، فأبسط شفاء لأنفه جرح أمر غير ميكانيكى ،
 ويكنى فى الدلالة على العجب . ما هذا الفن الذى تنمو به الخلايا الحديدية فوق
 اللحم المصاب كما لو كان ثمة عقل خلوى يهدى إلى هذا العمل المفيد . نعم نحن
 تقدم معونة ميكانيكية أو كيميوية إلى هذه العمليات الحيوية ، ولكننا نعلم أن لها

نفس الصلة بالقوة الطبيعية على الشفاء ، كالرخام أو الطين في يد الفنان . ونحن نعلم أن طاقة الحياة ودفعها ستحملنا ، بطريقة لن توضحها الميكانيكية أبداً ، خلال آلاف من المعارك وآلاف من الإصابات حتى تستنفد هذه الحيوية المرنة ، وتلتبس لنفسها صورة تعيد إليها الشباب .

تأمل الشعور . ما هذه الملكة الغامضة التي ندرك بها أننا نشعر بما نعمل ، أو ما عملنا ، أو ما ننوي عمله ؛ وندرك بها الصراع بين أفكارنا ورغباتنا ، ناقدين بعضها ببعضها ؛ وبها نتصور أنواع الردد الممكنة ونتوقع بوساطة الذاكرة النتائج الممكنة ؛ وأخيراً نواجه بها الموقف فنحلله في صبر معتمدين على كل ما فينا من أفكار ورغبات فناسق بينها ونعيد صياغتها في رد فعل خالقي ؟ وقد نقضت تجارب كوهلر ، التي بينت عمل الاستبصار insight الكلي في التعلم ضد الفعل المنعكس الشرطي ، التصور الميكانيكي للعمليات العقلية (١) .

ما هذا الكذب الغبي الذي أصابنا ففرض علينا أننا اليوم إذا شئنا مسابقة الجمهور فيجب أن ننكر وجود الشعور حتى نظفر بفلسفة ميكانيكية لا يمكن في أكبر الظن أن نفسره ؟

إننا نبدأ من الأشياء التي لا نعرفها إلا خارجياً فقط ، في هيئتها الخارجية والسطحية (كالمادة التي هي في علم الطبيعة الحديث الهيئة الظاهرة للطاقة) ؛ ثم من الطبيعي أن نجد أنفسنا في حيرة كيف ننقل من هذه الميكانيكيات الظاهرة إلى ذلك الشعور الباطن وهو أكثر الحقائق الواقعة مباشرة ووضوحاً في معرفتنا كلها . ولكن السلوكي behaviorist لا يتردد في التضحية بالوقائع الواضحة في سبيل نظرية مشكوك فيها . فهو يعلن في شجاعة أن هذه العقبة المزعجة من الشعور التي تعجز الميكانيكية عن تفسيرها من النوافل وليس لها وجود حقيقي . إنه يتلقى عقائده مثل رجال الدين الطيبين من الخارج (مثلاً من رجال الطبيعة الأموات) ، ويعني باستبعاد الوقائع التي تضابق تعميمه : حقاً السلوكي عالم نفساني ممتاز ، ولكنه ليس إلا فيلسوفاً ضعيفاً ، ولو أنه في بساطته المتسامية يعتقد أيضاً ألا قيمة للفلسفة ، وأنها ستموت بعد جيل (واحد) . أما أن هذا

(١) أنظر كتاب دين مارتين البديع عن « معنى التربية الحرة » ، ص ٣٦ - ٣٩ .

اللاهوت المقلوب آخذ في كسب الأنصار بالسرعة التي كسب بها مقابله ومكمله العلم المسيحي فهذا دليل على شعبية الفكر المعاصر وسطحيته . أى مأزق نواجهه الآن حين ينكر بعضنا المادة ، وينكر بعضنا الآخر الشعور . ونستطيع أن نتصور الابتسامة الحزينة التي قد ترتسم على وجه جيته أو فولتير عند رؤية هذا الجنون الفكرى فى عصرنا .

وتأمل آخر الأمر التناسل . فهذه بويضة صغيرة جداً لا ترى بالعين . وهذه نطفة لا تستقر وتتحرك من حولها فى عوالم تتحقق . وكل من هاتين الخليتين المكرووسكوبيتين غنيتان غنى عظيمة بالصفات الموروثة التي تحمل ذكرى آلاف من الأجيال . وتحمل كل منهما فى داخلها صفات فريدة ودقيقة عن الجسم والعقل ، ودوافع وميول واستعدادات ، وجوعاً وشوقاً وحباً . ولعل فى بلازمتها (١) Plasm تستقر من قبل شهوة العبقريه وصبرها . حسناً ، فلتتحد النطفة بالبويضة ، وإذا بتلك الإمكانيات تصبح فجأة حقائق ، وتظهر معجزة حياة جديدة . وتنقسم الخلية المنحصة بنوع من الضرورة الباطنة وقد نفذت بدم المشيمة إلى خليتين ، ثم أربع ، ثم ثمان ، إلى مئات الملايين من الخلايا التي يبدو أنها تنمو فى وحدة كلما تكاثر عددها . ويتكون القلب ويبدأ فى النبض ؛ ويتكون المخ ويأخذ فى الحس ، وتبرز اليدان والرجلان وتتحرك فى الرحم . ثم تخرج الأعجوبة الصغيرة إلى العالم فتصطدم بالهواء والبرودة والصوت والضوء ، وتفتح العينان والشفتان والأذنان ، وتهتز جميع أعصابها بالإحساس . لقد نفذت الحياة من خلال الموت مرة أخرى ، وأخذت تندفق بغزارة فى هيئتها الجديدة ، مرحلة وقوية وشابة من جديد .

أهذا شيء ميكانيكى ؟ لقد اكتشف جاك لوب Jacques Loeb أنه يستطيع تخصيب بويضة قنفذ الماء (٢) بمحلول من الملح أو بوحزة دبوس ، فسارع إلى استنتاج أنه أثبت الطبيعة الميكانيكية للتناسل . الحقيقة أنه بين فقط أن بويضة الأنثى فى بعض الحالات يمكن أن تولد بنفسها خلفاً حتى بدون تلك

(١) البلازم هو السائل الدموى ، أو صورة الدم ، أو المادة الأولى الحية . (المترجم عن قاموس شرف) .

(٢) Sea-Urchin ، هو الرتزا المعروفة بالاسكندرية (المترجم - عن قاموس شرف) .

المعونة العارضة التي تحددها الطبيعة للذكر . لقد أعاد كشف التناسل بدون نكاح الذكر^(١) parthenogenesis الذي عرفه علماء الحياة منذ ألف عام . ولا حاجة بنا إلى القول بأن الأنثى ذاتها تكاد تكون ميكانيكية كالدبوس ، أو بسيطة كجائياً كالملح . الحق أن تناسل الأنثى بغير ذكر يبدو أكثر عجباً من أخواتها الأكثر حظاً . وهذا الضرب من التناسل نذير سوء كذلك ، ويدل على أن تحرر الجنس الذي كان ذات يوم أضعف قد يفضي إلى عصرنا إلى نهاية لا تسر .

وكانت كشوف هانس دريش Hans Driesch^(٢) المشتركة أكثر دلالة من تلك التجارب التي أجراها لوب . وقد نشأ دريش في معمل إرنست هيكل في مدينة جينا Jena . وكانت جميع البواعث تدفعه إلى أن يكون من أصحاب المذهب الميكانيكي الخالص . غير أنه وجد ظواهر لا يحلم بها أستاذه . لقد قطع بويضة مخصبة نصفين ، ومع ذلك نمت نمواً طبيعياً . ثم شوش نظام الخلايا اعتباراً بعد القسمة الثانية ، ومع ذلك نمت الخلايا نمواً طبيعياً . وحصل على النتيجة نفسها بعد القسمة الثالثة وتشويش نظام الخلايا . والآن حاول أن تتخيل أولاً مزوجة آلتين من جيل الآلة الثالثة . وتخيل أن كل جزء من الآلتين موهوب بقوة التناسل واعتياده ، وأنه يستمر في التكاثر والنمو . وتخيل بعد ذلك أن بعض أجزاء الآلة الأب تلثم لتكوين نموذج للآلة الجديدة ؛ وأن النموذج يولد الآلة الكاملة بأن ينقسم تلقائياً إلى اثنتين ، وأربع ، وثمان . . . ؛ وأنها كلما تكاثرت كلما أصبحت واحدة . وتخيل ظهور شخص جبار مثل دريش ، فيقطع الآلة الملتزمة إلى أنصاف ، أو يوزع أجزائها إلى فوضى . جملة القول تخيل أن الآلة تشرع في العمل بشكل طبيعي وبنجاح كما لو أن شيئاً لم يحدث . أوجدت قط أضحوة أبدع من ذلك في العلم أو الفلسفة ؟ أئمة أى معجزة في أى دين قديم أو متوسط أو أمريكي يمكن أن تقارن بهذه الأسطورة البديعة والمهولة .

(١) التولد اللاق أو التناسل بدون ذكر بأنثى ومثله في أنواع من المدوزة والنيا والنحل (عن قاموس شرف) .

٣ - الحتمية

يقول لنا صاحب المذهب الميكانيكي إننا غير منصفين ، وإننا حملنا مصطلحة على معنى حرفي ، وهاجناه في موضع لم يكن مستعداً فيه للدفاع . وقد نتصور جوابه على هذا النحو :

« ليس ما نعنيه بصفة السلوك الإنساني الشبيه بالآلة أكثر من التابع الضروري بين السبب والنتيجة في العالم العقلي والعالم الطبيعي ؛ فالإنسان جزء من الطبيعة ، وأكبر الظن أنه خاضع لقوانينها . فلا يمكن أن نتصور وجود انقطاع في سلسلة السببية ، لأن مثل هذا الانقطاع قد ينشأ عنه فناء الطاقة أو تولدها . ولكن استمرار الطاقة وبقائها ماثلان بوضوح في كل مكان . أوقف تغذية إنسان تجد أن ردود أفعاله تبطل . أطعمه الغذاء الصحيح يصبح فاضلاً محباً لوطنه ؛ أطعمه غذاء غير ملائم تجعل منه شخصاً عاجزاً ، أو مجرماً أو متشائماً ، أو أحمق ، أو مؤمناً بجزية الإرادة . قس نشاط إنسان منذ ولادته إلى وفاته ، تجد أن ذلك النشاط يكاد يتطابق بالضبط مع الغذاء الذي تناوله . فمن الواضح أن الطاقة العقلية في الإنسان ثمرة الطاقة الموجودة في المواد العضوية التي يتغذى بها . ولكن هذه المواد مستمدة في النهاية من مواد غير عضوية موجودة في الأرض والهواء ويتم تحويلها في خلايا النبات . فإذا سلمنا بوجود سلسلة محكمة من الأسباب والمسببات في العالم غير العضوي ، فلا بد أن نسلم بوجودها حتى في أدق عمليات الحياة الإنسانية أو الفكر الإنساني .

« ومرة أخرى يتضح أنه كلما ازدادت معرفتنا بالسلوك الإنساني ازداد نجاحنا في التنبؤ به . وأكبر الظن أننا إذا عرفنا جميع الشروط المؤثرة في أصدقاتنا تنبأنا باستجاباتهم نفسها بالدقة التي نتبأ بها عن أوجه القمر وحسوفه . فإذا كانت الحتمية غير صادقة ، ولو كانت أعمال الإنسان لا تتبع قوانين لا تتغير ، لكان من المستحيل أن نتطور بالتنبؤ عن السلوك الإنساني والتحكم فيه عن طريق زيادة معرفتنا بالإنسان .

« ومن الواضح فوق كل شيء أن سلوك المرء هو ثمرة صفاته والظروف

التي تحيط بأفعاله . وصفاته ثمرة بيئته الماضية (هاهوذا يعود إلى فكرته) ووراثته . ونحن نهاية سلسلة التطور عن الدودة الشريطية Tape-worm (١) ، فنحن لا نولد شيئاً ، ولا نبرم أمراً ، بل نحركنا وتوجهنا وتفسرنا في النهاية قوى خارجية عنا ، وليست لنا عليها عند التحليل الأخير رقابة . والاختيار وهم ، فهو مجرد تأليف بين القوى المحتومة . وفي ذلك يقول سينوزا : « يظن الناس أنفسهم أحراراً لأنهم شاعرون بإراداتهم ورغباتهم ، ولكنهم يجهلون الأسباب التي أفضت بهم إلى الإرادة والرغبة » (٢) الحق أن سلوكنا تختمه في إحكام القوى التي تولدنا وتحيطنا ، كما تحدد كتلة الحجر وسرعته واتجاهه سقوطه في الزمان والمكان . فالإنسان على هذا المعنى آلة .

فليواجه الحتمى بصراحة ماتتضمنته فلسفته . فاذا كان كل فعل هو بالضرورة ثمرة الشروط الطبيعية الموجودة سابقاً في نهاية الأمر ، فيجب علينا أن نستنتج أن الميكانيكية والحتمية شيء واحد ، وأن تقوى ميخائيل أنجلو ، وعاطفة شكسبير ، وأنف سقراط ، وابتسامة كليوباترة ، كل ذلك يرجع إلى التركيب الميكانيكي والكيمائي للسديم الأولى . فهذا نظام شاسع ، ولقد يعجب المرء حين يبادر جماعة من الشكاك المحترفين مثل تين ورينان وأنانول فرانس إلى ابتلاع مثل هذا الحمل المحتوم . ولكن حتى الشكاك مؤمنون بهذا « العصر الحديد من الإيمان » . ذلك أن رفضهم العلمي المتعالى لعقيدة من العقائد ، يتبعه في الحال قبولهم الإنساني الأعمى لعقيدة أخرى . ولا يشك الميكانيكيون أبداً كيف يختنق اعتقادهم الساذج خلف شكهم غير المهجى .

سيعد المؤرخون كيف أن هذا السديم الهائل لم يقطع رقبة الاعتقاد أعجوبة من الأعاجيب . ما هذا التنويم المغناطيسى الذي جعلنا مدة جيل نسلم بأنظمة الطبيعة العابرة على أنها قوانين حياتنا ورموزها ؟ من منا اعتقد حقاً أنه آلة ، وتصرف بصراحة حسب هذا الفرض المضحك ؟ أو هل علمنا سراً من خلال هذا الزعم البيروني Byronic أن الحس والعقل فاعلان ومنفعلان كثيرهما من

Mark Twain, What is Man ? p. 5. (١)

(٢) سينوزا ، الأخلاق ، الكتاب الأول ، ملحق .

الأمور ، وأنا في طرائقنا الصغيرة مراكز للخلق في تيار القوة ؟ كيف يمكن أن نتصور حقاً في اصطلاحات من الميكانيكية والحتمية تعدد أنواع الحياة الهائل وخصوبتها ، وتجاربها وصورها غير المحدودة ، وأفانينها التي لا تنفذ ، وتعديلها الجازم للأرض وغزوها إياها ؟

لقد جاء مذهبنا الحتمي من تصور لوك العقل لوحدة بيضاء تسجل عليها الإحساسات ، أو قطعة سلبية من الشمع تشكلها الأشياء الخارجية وتعيد تشكيلها ولا حيلة لها في ذلك . ولكنهم يعلموننا اليوم ضرباً آخر من علم النفس . ففي أعماق أنفسنا نجد الرغبة ، هذه الرغبة التي « هي جوهر الإنسان بالذات » ويمكننا أن نتبع بآلاف من الوسائل أثر الرغبة الانتقائي والتكويني في إحساساتنا وإدراكاتنا ، وذكرياتنا ، وأفكارنا . وقد قسمت الحياة جوعها الكبير إلى دوافع وقوى متخصصة . وهذه هي التي تحدد أفعالنا واتجاهاتنا ، ووجهة حواسنا . إننا لا نشعر بموثرات لا يحصيها العد نحاول عبثاً أن تبعث برسائلها إلينا . إننا نجهل عوالم شاسعة من الحقيقة المحسوسة ، لأننا نختار من خلال أغراضنا الإحساسات التي نحتاج إليها . إننا نسمع بعض الأصوات التي تهمننا ، ونصم أنفسنا عن آلاف غيرها . إننا نتأمل بعض الأشياء التي نخلو مؤقتاً من المعنى ونرى من خلالها هدفاً يشغل أذهاننا ، ويوجه بناء على ذلك أعيننا . فأغراضنا هي التي توول الإحساسات إلى مدركات وأفكار . يقال لنا مثلاً أن نجمع عدددين ، وإذا « بالهيئة الذهنية mental set » للجمع « تحتم » بغير مجهود ارتباط المؤثر بالاستجابة ، وحين نسمع ما حاصل جمع « ٧ و ٧ » ، نجيب « ١٤ » . أما إذا طلب منا الضرب ، فرد فعلنا على ذلك الإحساس « المطابق » هو « ٤٩ » . فالغرض إذن ، لا الجدة ولا كثرة الوقوع ولا الوضوح ، هو الذي يفسر ترابط المعاني . ولسنا شيئاً عاجزاً وفريسة تنفعل بأي مؤثر يطبعها الحظ على بدننا ، بل نحن فاعلون للاختيار . وهذا الاختراع المنشئ نفسه الذي ملأ مصانعنا بالآلات هو أفضل نقض للنظرية التي تشبه عقل المخترع بالتاج السلبي لمح .

في هذه العملية من التكيف الفعال تأتي بأعاجيب عقلية يصعب تصورها ، على أنها ميكانيكية . فنحن نحلل الكل إلى أجزائه ، ثم نعيد تأليف الأجزاء في

كلمات wholes جديدة . ونحلل الأفكار إلى مدركات ، ثم نعيد تركيبها في استدلالات . إننا نزل الأغراض منزلة الاعتبار ، ونزن القيم ، ونتخيل النتائج ، ونبتدع الوسائل والطرق لتنفيذ أخص رغباتنا الباطنة . ونسرجع من الماضي الحلول في الاستجابات السابقة ، ونرى ما يشبهها في محيطها ، ونحكم عليها في ضوء أغراضنا . فالمعرفة هي تذكر نتائج الأساليب المختلفة من الفعل . وكلما عظمت معرفتنا ازداد بصرنا بالمستقبل . وكلما كانت بصيرتنا foresight أعظم اتسع نطاق حريتنا . ويمدنا الشعور بمرحلة نقف عندها لنستعيد الاستجابات المتخيلة . فنحن نستبعد بوساطة الذاكرة والتخيل والتفكير الاستجابات الحمقاء ، ونعبر في شيء من النجاح عن هدفنا الأخير . والحرية ، كالتفكير ، هي استجابة متمهلة تؤدي إلى الاستجابة الشاملة . وتنمو حريتنا لأننا بالتسهل نسمح للموقف المعقد أن يثير فينا جميع الدوافع المناسبة ، ولأننا بالتخيل نضم هذه الدوافع الجزئية إلى استجابة كلية تعبر عن نفسنا الكاملة والناضجة .

فالميكانيكية ثانوية ؛ أما ما نراه كشيء أولى ، وأساسي ، ومباشر ، وما نقبله قضية مسلمة في فلسفة حياتنا الواقعة والصحيحة ، فهو أن كل كائن حي بالنسبة إلى مرونة تركيبه مركز لقوة يعاد توجيهها ، ولبداءة تلقائية إلى جد ما . والحياة خالقة لا لأنها تبتدع قوة جديدة من لا شيء ، بل لأنها تضيف طاقها المصاغة من جديد إلى القوى التي تتدخل من خارج . وليست الإرادة حرة إلا بمقدار ما تعيد الحياة ، التي هي صورة لها ، تشكيل العالم بنشاط . ولكي تعيد الحياة تشكيل العالم « تخرع » و « تنشئ » الرياضة والميكانيكا للتعامل بها مع الأشياء الخارجية . فالحياة تسخر من هذه المخلوقات التي ابتدعها عقلها وإرادتها ، وتعالى عليها حين تتلفت هذه المخلوقات بصلف حولها تحاول فهم الحياة في ضوء تلك الاصطلاحات التي ابتدعها الحياة ذاتها .

أيستطيع هذا التصور للحرية الصمود في وجه حملات الحتمية ؟ سيذكرنا إذا كان بارعاً بأن « الإرادة » اصطلاح مجرد ، وسيجعل نصب عينه أن يتناسى أن « القوة » ليست أقل تجريداً . وجوابنا على ذلك أننا لا نعني بالإرادة شيئاً مجرداً بل السلوك المسير والموسع للحياة نفسها . أما ما الحياة ؟ فقد حاولنا الإجابة عن ذلك في صفحات سابقة ، ولكننا لا نريد أن نقلب الحقيقة إلى سر غامض .

أو سيدكرنا الحتمى بعدم فناء الطاقة ؛ فالكائن الحى لا يمكن أن يستنفد من الطاقة أكثر مما يتلقى . إنه ينسى أن الحياة نفسها طاقة من الواضح أنها تحول ما يأتيها من قوى ومواد إلى مركبات تهدف إلى السيطرة على البيئة بالفكر ، وقد نجحت في ذلك عرضاً . وقد لا تزيد كمية ما يخرج مع الفعل عن مقدار ما يدخل مع الإحساس ؛ ولكن ما أعظم اختلافهما في الكيفية . فقوة الحياة المشكلة هي أسمى طاقة نعرفها . ومعرفتنا لها أكثر مباشرة وتأكيداً من أى طاقة أخرى في العالم . وهى منبع حريتنا المتواضعة وأملها .

يفترض الحتمى أن الحرية وهم ؛ لأن الدافع motive « الأقوى » يتغلب دائماً . ولا ريب أن هذا لغو باطل . فالدافع القوى بما فيه الكفاية للغلبة ، أقوى من تلك التى تهزم . أليست موافقة الدافع للإدارة والرغبة وجوهر النفس هى التى يجعلته أقوى من غيره ؟ — « ومع ذلك فلا فعل بغير سبب » . وهذا صحيح ، ولكن الإرادة جزء من السبب ، ويجب أن تشمل ظروف الفعل مطالب الحياة المقبلة . وكل « حالة state » للعقل تنشأ طبيعياً من مجموع الحالة السابقة للحقيقة كلها . ولكن هذه الحالة وتلك تشملان الطاقة المشكلة للحياة والإرادة . — « نفس النتيجة تتبع دائماً نفس السبب » . ولكن السبب ليس هو ذاته أبداً ، لأن النفس التى نحن بصدددها فى جريان دائم ، والظروف متغيرة على الدوام . — « إذا عرفت جميع ماضيك وحاضرك استطعت أن أتنبأ باستجابتك دون خطأ » . وتستطيع ذلك إذا عرفت أيضاً طبيعة دفعة الحياة وقوتها الموجودة فى داخلى . لعلك تستطيع ذلك إذا هجرت المبادئ الميكانيكية ، وسألت نفسك . مسترشداً ماذا أنت — أى الحياة — فاعل فى هذه العقدة المعقدة من الظروف . أكبر الظن أنك لن تستطيع — حتى مع ذلك — التنبؤ بنجاح . أكبر الظن أن الحياة فيها عنصر لا يمكن حسابه ، وفيها تلقائية لا تتفق مع قوالب عقولنا categories . « وقوانيننا » ، وهذا العنصر هو الذى يخلع على التطور العضوى وأمور الإنسان لذة وصفة خاصتين . فلنطلب من الله ألا نعيش أبداً فى عالم محكوم بالقضاء والقدر . ألا تبدو صورة مثل هذا العالم متناقضة بشكل مضحك مع الحياة — فالميكانيكية كما قال برجسون مزاح عابر ؟

« ولكن كل فعل فهو نتيجة الوراثة والبيئة ». ليس الأمر كذلك بالضبط ، فالختمى مع التواضع في معرفة نفسه ، فهو يفترض مرة أخرى أن الحياة ثمرة سلبية لقوى خارجية . إنه يهمل (مع استعمال الغو) حيوية الحياة نفسها وحياتها . إننا لسنا مجرد أسلافنا وظروفنا ، بل نحن أيضاً بحار من الطاقة المشكلة ، وأجزاء من ذلك التيار للقوة الموجهة ، للقدرة على الاختيار والفكر المكيفين مما كان أسلافنا كذلك يتحركون ويعيشون فيها . فهو لاء الأسلاف هم في الحقيقة أحياء يعملون في داخلنا ، ولكن الإرادة والحياة اللتين كانتا فيهما فما مضى من الزمان توجدان في كل واحد منا الآن وتخلقان « الأنا التلقائي » . والحرية أصيبق وأوسع مما كانوا يتصورونها في القديم . ولا ريب أنها تخضع لتحديدات موروثه وبيئته من كل نوع ، ولكنها مع ذلك عميقة عمق الحياة ، عريضة عرض الشعور . إنها تنمو في مداها وقوتها مع تعدد التجارب ، وسعة المناظر ، ووضوح الفكر (١) فالإرادة حرة بمقدار ما تكون الحياة خالقة . وبمقدار ما تدخل بطاقتها المشكلة كشرط « واحد » من الشروط المحددة للاختيار والفعل . وليس في مثل هذه الحرية انتهاك لحرمة « القانون الطبيعي » ، لأن الحياة نفسها عامل factor طبيعي ، وعملية process طبيعية ، لا قوة خارج ميدان الطبيعة المتغير . والطبيعة نفسها ، كما يدل عليها اسمها اللطيف ، هي تلك القوة الحية التي تنشأ عن طريقها جميع الأشياء . ولعل هذه التلقائية وهذه الدفعة القاهرة مما زعمناه للحياة تتخفيان خلال العالم ؛ إذ بأي سبيل أخرى استطاعت الحياة أن تكتسب هذه التلقائية ؟ (٢)

(١) أنظر جيته : « ليس على المرء إلا أن يملن حريته فيمحس باللحظة التي يخضع فيها للشرط . أما إذا كان المرء من الشجاعة بأن يملن نفسه مشروطاً فعتنذ بحس بأنه حر » . نقلنا عن شينجلر في « سقوط الغرب » الجزء الثاني ، ص ٢٦٧ .

(٢) يمكن أن نضيف بعض الاعتبارات الفنية التي توحى بهذه الوجة من النظر . وليس طلاب مناهج العلوم في حاجة إلى تكبيرهم بأن ماخ وبيرسون وبوانكاريه قد غيروا تصورنا من « القانون الطبيعي » من قوة خارجية تنظم الظواهر ، إلى صياغتنا الذاتية لبعض الأحداث المتتابعة في التجربة الإنسانية . وجميع اصطلاحات العلم وقوانينه هي تعبيرات « مختصرة » لنظريتنا الفرضية عن العالم . ويذهب الحتميون إلى أن كل ما نعرف يدل على الحتمية ، وهذا لأنهم يمتون بلفظة « كل » معرفتنا بالعالم الطبيعي والكجائي . فن السخرية القول بأن كل ما نعرفه عن العالم العقل أو الطبيعي يدل على الحتمية . على العكس تجريتنا المباشرة وهي آخر معيار للحقيقة تطلعنا على تلقائية غريبة في كل مكان . و « قوانيننا » مستمدة من عالم « المادة » ، ثم تطبق اصطلاحياً على « العقل » . « لقد وضع العقل بقرته الانتقائية عمليات الطبيعة في إطار من القانون ، وهو قالب إلى حد كبير =

ومن الصواب أن نقول إن صفاتنا تحدد أفعالنا . ولكننا وصفاتنا شيء واحد We «are» our characters فنحن الذين نختار . ومن الصواب — ومن اللغو

من اختياره نفسه . . . والعقل في كشفه هذا النظام من القانون يمكن أن ننظر إليه كأنه يسترده من الطبيعة ما سبق أن وضعه العقل في الطبيعة « (إدنجتون ، طبيعة العالم الفيزيقي ، ص ٢٤٤) . بل إن قانون عدم فناء المادة والذرة نفسه قد كشف في « الكوانتوم » عن درجة من اللاتحديد واللاتعيين تكاد تكون إنسانية .

إن نظرية الكوانتوم ، التي يسلم بها اليوم عملياً جميع علماء الطبيعة ، تصف حركة الإلكترونات على أنها منفصلة وغير منتظمة ، فليس ثم نظام يمكن التنبؤ عنه في سلوكها . ومع أنها قد تغير مكانها أو سرعتها ، فن الواضح أنها تتحرك من مكان إلى آخر أو من سرعة إلى أخرى دون أن تمر بالمواضع أو بالسرعات المتوسطة . وفي ذلك يقول الأستاذ هولتبيد : « إنها كما لو أن سيارة تتحرك بمعدل ثلاثين ميلاً في الساعة لم تغير الطريق في اتصال ، بل كانت تظهر على التتابع في معالم متتابعة ، وتبقى في كل معلم دقيقتين » . (العلم والعالم الحديث ، ص ٥٢) :

ويقول إدنجتون : « من نتائج نظرية الكوانتوم أن علم الطبيعة لم يعد مغموراً في نطاق القانون الخفى . فقد فوجئت الحتمية مفاجأة تامة بالقوانين الأخيرة للطبيعة النظرية ، وأصبحت عودتها إلى مكانها موضع شك فالقوانين الكبرى التي كانت تقبل على أنها خاضعة للسببية تظهر عند الفحص الدقيق أنها ذات صفة إحصائية ، وأن كل تنبؤ إنما يرجع إلى الانتظام الإحصائي الجزئيات غير محسوبة (إدنجتون ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٨) . وهذا يعني أن التنبؤ بحسب القمر يرجع إلى متوسط السلوك الخاص بالذرات المكونة للشمس والأرض والقمر . ويمكن التجاوز عن عدم حساب الفعل الذري في كتلة كبيرة ، وهذا بالضبط كما يستطيع موظف البريد أن يحسب بدقة كبيرة عدد الخطابات المجهولة التي ترسل خلال عام . ولكن كيف يكون الحال إذا كانت العمليات العقلية مختلفة عن هذه الظواهر « الواسعة النطاق » التي منها نستمد « قوانيننا » .

ومع أن برتراند رسل لا يزال من الحتميين فإنه يصور الموقف تصويراً صادقاً ، قائلاً : « لقد رأينا أنه على أساس علم الطبيعة نفسه يمكن وجود حدود للحتمية الطبيعية . فنحن لا نعرف قانوناً يدلنا متى تقع عملية الكوانتوم ، أو متى تنفث الذرة المشعة . ونحن نعرف جيداً جداً ماذا يحدث « إذا » حدث شيء ما ، ونعرف المتوسطات الإحصائية التي تكن في تحديد الظواهر الواسعة النطاق . ولكن إذا كان العقل والمخ متداخلين تداخل السبب بالمسبب ، فإن أصغر تغيير في المخ يجب أن يصحب بتغيير عقل ملحوظ . وهكذا قد نضطر إلى النزول في ميدان التغيرات في الكوانتوم ، وأن نهجر المستوى الكبير الذي تصلح له المتوسطات الإحصائية . فلعل الإلكترون يطفو حين تريد ؟ ولعل الظاهرة الدقيقة في المخ التي تسبب الخلاف كله في الظواهر العقلية تتعلق بالميدان الذي لم تمد القوانين الطبيعية تحدد تحديداً نهائياً ما يجب أن يحدث . وليس هذا بالطبع إلا مجرد احتمال نظري ولكنه اعتراض يقف في سبيل الدجاجيقية المادية « (الفلسفة ، ص ٣٩٣) . « وبقدر ما تستطيع نظرية الكوانتوم أن تقدمه في الوقت الحاضر فقد يمكن أن تكون الذرات موهوبة بجزئية الإرادة ، ولو أنها محسوبة مع ذلك باختيار طريق واحد من بين عدة طرق ممكنة » (تحليل العقل ، ص ٣٨) .

ولن يهتم المرء بإقامة فلسفة من الفعل على مثل هذا الأساس المززعج في النظرية الطبيعية المؤقتة . فأفضل أساس يستند إليه الاعتقاد في حقيقة الاختيار هو إدراكنا المباشر والشخصي بالطبيعة غير الميكانيكية لحيرتنا الخاصة وفكرنا ذاته . ولعل تصور السببية كعملية حية سيكون الخطوة التالية في الفلسفة .

كذلك - أن نقول مع هكسلي إننا قد نكون أحراراً في إبراز رغبتنا في صورة من الفعل ، ولكننا لن نكون أحراراً أبداً في اختيار ما يجب أن تكون عليه رغبتنا ؛ لأننا ورغباتنا شيء واحد ، والرغبة هي الحياة ذاتها ؛ وفي تحقيق رغباتنا إنما نحقق أنفسنا . ولا يكفي أن نقول إن القوى الخارجية والموروثة ترغمتنا وتمهرنا ، فهناك جانب آخر من الحق هو أن الحياة نفسها قوة ذاتية لها ، ولها وجهتها الخاصة ومقدرتها ، ولو أنها محدودة ومرغمة ، إلا أنها تؤثر بإرادتها إلى حد مدهش ، مرتفعة من أدنى الكائنات الحية إلى سمو العبقريّة الفذ ، منتشرة في أرجاء العالم بصورها وانتصاراتها . ولو لم تكن الحياة قوة فعالة ومشكلة ، مiale إلى جانب التمر ، ما ظهر أى تطور قط .

هذا التحقيق لحيويتنا الموجهة يعيد إلينا مسئوليتنا وشخصيتنا ، وتكامل نظريتنا بحياتنا . ذلك أننا حين كنا نتحدث عن الحتمية كنا نعرف بطلانها . ولم يحدث أن تعاملنا مع أنفسنا أو مع أبنائنا كآلات (١) . فإذا كان البحث في فلسفة الحرية يتكرر على الدوام فذلك لأن الإدراك المباشر لا يمكن أبداً أن يخضع للقوانين ، ولا الإحساس للتفكير . فضلاً عن ذلك فقد رأينا في الميكانيكية شيئاً من الجبن بإرجاعها الجريمة إلى الوراثة والمجتمع - وهما الضحيتان المجردتان المسكينتان اللتان تقدمهما ستاراً لرديلتنا وكسلنا . ولعل ضعف الخلق في عصرنا وعدم استقراره مرتبطان ارتباطاً المسبب بالسبب بسيطرة الفرد بالآلة في الفلسفة والحياة . فالآلات تكسب نصراً بعد آخر ، وتبسط بشكل عظيم قوتنا على تحقيق غايات قديمة ومتناقضة : فنحن نتحرك فوق السحب ، ونرى أعماق البحار ، ونتج ملايين من البضائع الموحدة كل واحدة منها رخيصة في الثمن وفي الصناعة . وهكذا تختفي المهارة خطوة خطوة أمام الميكانيكية ، ويتوارى الكيف أمام الكم ، والفن أمام الصناعة ، والخلق أمام الثروة ، وسيختفي الإنسان نفسه قريباً ولا يبقى إلا الأزرار والمحولات switches .

(١) أنظر برود Broad « لو أن شخصاً أشار إلى أخيه أو إلى قطه قائلاً : هذه آلة صجيبة ، فلا بد أن نعرف أنه إما مجنون أو عالم فيسيولوجي . فلا أحد في الحياة العملية يسلك مع نفسه أو مع زملائه أو مع حيواناته المستأنسة سلوكه مع آلات . ولكن العلماء الذين لم يدرسوا الفلسفة النظرية يظهر في الغالب أنهم يظنون من واجهم أن يتمسكوا نظرياً بما لا يمكن أن يسلم به عملياً أى شخص بعيد عن مستشقى المجاذيب .

فهل يستغرب من جيل يقنع بالسيف الناطقة بدل المسرح ، وبالناطحات بدل البيوت ، بأعمدة التلغراف بدل الأشجار ، بالساسة بدل رجال الدولة ، أن يسلم آخر الأمر بجميع شخصيته وقدرته على المبادأة ، وأن يسمح لنفسه أن يوصف بأنه عملية آلية ؟

وقد انعكست الميكانيكية أيضاً على ظلال الشخصية بوساطة المدن المتزايدة في النمو ، والديمقراطيات الجشعة ؛ فن العسير أن يحتفظ الفرد في الغرغاء أو في الانتخابات بمبادئه أو بفرديته . فضلاً عن ذلك فقد كانت الحتمية نتيجة افتتاح علم الطبيعة بعظمتها الخارجية ذاتها ، فظن أنه يطوى عالم العقل والفن والحب في قوانينه المزرعة والجزئية . وعندما تنتقل ببطء من عصر الآلات إلى عصر الثقافة المبدعة ، سنتعلم أن نرى من وراء الميكانيكية السطحية الأرض والحياة النابضة تحتها . وسنفهم بعد كثير من الأخطاء والشكوك أننا بحالتنا البسيطة نساهم أيضاً في نشاط العالم ، وأنها إذا شئنا فقد نكتب بالحيال والمعرفة بعض السطور في المأساة الغامضة التي نلعبها .

٤ - عصر البيولوجيا (علم الحياة)

نود أن نشير في الختام إلى أن التفسير الميكانيكي الساذج أخذ يحتقن من الفلسفة ، وعلم الحياة ، وعلم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء ، بل في علم الطبيعة نفسه . وفي ذلك يقول لوسيان بوانكاريه : « لقد هجرت على وجه العموم اليوم الفكرة القائلة بأن جميع الظواهر تخضع لتفسيرات ميكانيكية » (١) ويقول كاسيرر : « إن النظرة الميكانيكية للعالم في علم الطبيعة الحديث قد استبدلت أكثر فأكثر وحل محلها النظرة الديناميكية الكهربية » (٢) . ويقول لبيون : « لقد أصبحت الفسيولوجيا على الرغم من جهود آلاف العمال عاجزة عن إخبارنا شيئاً يختص بطبيعة القوى التي تنتج ظواهر الحياة ، وليس لها مثل مما يلزم في علم الطبيعة » (٣) وكما يحتاج علم الكيمياء إلى فكرة الكيف بالإضافة إلى فكرة الكم التي يحاول علم الطبيعة الاكتفاء بها ، كذلك يحتاج علم الفسيولوجيا

(١) لبيون ، تطور القوى ، ص ٨ .

(٢) Substance and Function, p. 355

(٣) لبيون : ص ٣٦٧ .

إلى جانب الكيف والكم ، إلى فكرتي الكائن الحي organism والمجموع totality . فالطبيعة والكيمياء يدرسان الأجزاء التي تحدد سلوك مجموعها ؛ وعلم الحياة يدرس الكلات wholes التي تحدد سلوك أجزائها . حتى العلم يجب ذات يوم أن يتعلم كيف يرى الأشياء ككلا .

لقد أصبح رفض الميكانيكية بين علماء الحياة أنفسهم أمراً مألوفاً : فأسماء دريش و بافلوف وهالدين تجعل أى ميكانيكى يفكر طويلا وينعم النظر . وكانت حركة « الجشتالت Gestalt » فى علم النفس رد فعل عدل عن وجهة النظر الميكانيكية إلى العضوية . ويقول هالدين :

« لقد سارت النظرية الميكانيكية على وجه العموم سيراً غاية السوء . فقد هجرت نظرية شوان Schwann البسيطة الميكانيكية . ونحن نعرف الآن أن جميع الخلايا تتكون بالانقسام عن خلايا سابقة ، وأن مشكلة عملية نمو الخلية وتغذيتها ليست من العمليات التي نرى حلها فى الوقت الحاضر بأى اتجاه ميكانيكى . كما أنها ليست مختلفة أى اختلاف عن مشكلتى الإفراز والامتصاص . فالنظريات البسيطة الكيميائية الخاصة بالتنفس وغيره من عمليات التحويل . . . قد اختفت كذلك . . . وأصبح من الواضح أن أى نظرية بسيطة فيسيوكيائية physio-chemic تفسر الحركة العضلية أو أى حركة أخرى فيسيولوجية غير كافية . . . فكل عام من التقدم الفسيولوجى يبعدها فيما يظهر أكثر فأكثر من أى أمل فى مثل هذا الحل . . . فأبحاث شرنجتون Sherrington وغيره تجعل من الواضح تمام الوضوح أنه ينبغي هجر الفكرة القديمة عن الأفعال المنعكسة الميكانيكية البسيطة والمحددة الخاصة بالجهاز العصبى . . . ولست أرى - بصفتى عالماً فى الفسيولوجيا - أى فائدة من النظرية القائلة بأن الحياة ككل عملية ميكانيكية . فهذه النظرية لا تساعدنى فى بحثى ، وأظن أنها ولا ريب تعوق الآن بخطورة تقدم الفسيولوجيا ، وإنى لأوثر أن أعود إلى أساطير أجدادنا السكسون من التمسك بالفسيولوجيا الميكانيكية » (١) .

ومن الأمور التي لها دلالتها أن شوبنهاور ونيته - على ما فيها من عداء
للاهوت التقليدي - قد رفضا باحتقار قبول الميكانيكية . وفي ذلك يقول نيته
ساخراً من العالم الطبيعي الميكانيكي :

« زعمك بأن تفسيراً واحداً للعالم صواب ، وهو تفسير تؤيد به
مؤقك ، وبه يتقدم البحث وينجح علمياً في « نظرك » ، هذا التفسير
الذي يعترف بالعد والحساب والوزن والمشاهدة واللمس ولا شيء بعد ذلك -
مثل هذه الفكرة إلا تكن جنوناً وبلاهة فهي بشاعة وسذاجة . . . إني أقول هذا
القول هامساً في أذن أصدقائي الميكانيكيين الذين يودون اليوم مسامرة الفلاسفة ،
ويعتقدون اعتقاداً مطلقاً أن الميكانيكا تعاليم أول القوانين وآخرها . . . التي يجب
أن تبنى عليها جميع أنواع الوجود . . . أليس العكس أكثر احتمالاً ، وهو أن
صفات الوجود الخارجية الأكثر ظهوراً . . . هي التي تفهم أولاً ؟ » (١) .

ويقف علم البيولوجيا ساكناً اليوم ، لأنه كان يبحث في الموت أكثر
مما يبحث في الحياة ؛ في نماذج محفوظة في الكحول ، في الفراشات المقيدة
بالدبابيس لا الطائرة بالأجنحة ، في الجثث التي سمحت بها المشانق لغرض
التشريح ، في « مستحضرات » من الأنسجة موضوعة على الزجاج slides
الميكروسكوبي . ولقد تنبأ جوته بهذا كله منذ مائة عام وقال على لسان
شيطانه البارح :

إن من يدرس كائناً حياً ويصوره
يظن من الأليق أن يبدأ بالبحث
عن طريقة لانتزاع الروح منه .
فاذا فعل ذلك أمسك بيديه

(١) Joyful Wisdom, Eng. Tr., p.339 . ويبدو أن فلاسفة الألمان في الوقت

الحاضر قد انقلبوا على الميكانيكية . وفي ذلك يقول شبنجلر : « من البعث محاولة الحصول على علم
« مضبوط » من النفس الغامضة على النوم » (سقوط الغرب ، الجزء الأول ، ص ٣٠١) ويقول
كيسلرنج : « إذا كان المثقفون قد اجتازوا مرحلة المادية ، فالجواهر في طريقهم إليها » (العالم
في التكوين ، ص ٢٦٥) .

الأجزاء التي عليه أن يسميها ويثبتها.
ولكن وأسفاه إن رباط الروح
الذي غزل الأجزاء وجمع بينها
قد تبدد وذهب وتبخر
هذه العملية هي التي يسر
علماء الكيمياء أن يطلقوا عليها
« اسم الاشتغال بالطبيعة »

Nature encheiresis

وهم حين يفعلون ذلك يجعلون أنفسهم
سخرية دون أن بشعروا (١)

لعل علم الحياة سوف يثور قريباً على سيطرة الميكانيكية بمناهج علم
الطبيعة وتصوراتها . سيكتشف أن الحياة التي يمتاز بدراستها أدنى إلى أسس
الحقيقة من « مادة » الطبيعة والكيمياء ، وحين يتحرر علم الحياة آخر الأمر
من قبضة المنهج الميكانيكي الميتة ، فسوف يخرج من المعمل إلى العالم . سوف
يشرع في تعديل الأغراض الإنسانية كما غير علم الطبيعة وجه الأرض . وسيقتضى
على الاستعداد المتوحش للآلات على البشرية . وسيكشف ، حتى للفلاسفة
الذين ظلوا خلال قرنين من الزمان عبيداً لعلماء الرياضة والطبيعة ، عن الوحدة
الموجهة ، والمعين الخالق ، وتلقائية الحياة الباهرة .

(١) فارست ، ترجمة مارتن ص ٨٧ . وهذا مثال لما يحدث لجوته حين يترجم .

الجزء الرابع

مشكلات الأخلاقية

الفصل الخامس

أخلاقنا المتغيرة

١ - نسيية الأخلاق

تتغير الأخلاق النوم ، وهى التى تتغير ببطء شديد ، كما تتغير السحب تسوقها الرياح . فقد ذابت أمام أبصارنا التقاليد والنظم القديمة قدماً لا تعيه ذاكرة الإنسان ، كما لو كانت عادات بسيطة ، اكتسبت حديثاً ويسهل نسيانها . فالفتوة التى هى كما يقول نيتشه « لا يستطيع المرء أن يكون شديد الرقة مع النساء » ، والظرف gallantry الذى يكسو الأبدان رشاقة والعقول كياسة ، لم يسلموا من تحرر المرأة . فقد قبل الرجال تحدى المساواة ، ووجدوا من الصعوبة عبادة جنس يطريهم بما لا يليق تقليداً . أما العفة والحياء مما كان يغرى العاشق بأعمال البطولة ، ويضاعف قوة كل قوة ، فقد سقطا إلى الحضيض ، وأخذت المرأة فى سن الشباب تخطب ود أعدائها بالإفراط فى إظهار مفاتها ، حتى لم يعد حب الاستطلاع معيناً على الزواج . وجمعت حياة المدينة ملايين من جياح الذكور فوقعوا فريسة سهلة فى أيدي عملاء اللذة . وأخذ المسرح يتنافس أيام شارل الثانى ، وأصبح الأدب الحديث من الإباحية phallic (١) كما كان فى عصر التدين قديماً . وبدأ الزواج يفقد ما كان له من رواج ، وهو الذى كان السبيل إلى كل متعة جسدية ، والذى إذا تم مبكراً أدى إلى شىء من الاستقرار فى الحياة الإنسانية وفى السلوك . فقد أخذ الرجال يظنون أن فوائده يمكن الحصول عليها بغير آلامه . فهو يضيق

(١) يشير المؤلف إلى أعياد اليونان الدينية قديماً حين كانوا يحتفلون بإله التناسل ويحملون عضو التناسل أثناء الاحتفال من جملة المراسم . وفى صورة قداماء المصريين الموجودة على جدران المعابد ما يدل على هذا النوع من التقديس . (المترجم)

من كل جانب ويتوقف بالتأجيل إلى سنين غير طبيعية ، وبمشاغبات الطلاق .
أما الأسرة التي كانت فيما مضى مهد الأخلاق والأساس المنيع للنظام الاجتماعي ،
فقد انحلت إلى فردية الصناعة في المدينة ، وتمزقت إرباً إرباً خلال جيل واحد .
وأصبحت البيوت التي بنيت بعرق الجبين لسر البنين والبنات صامتة ومهجورة ،
فقد تفرق الأطفال سعياً وراء أشغال بعيدة ، تاركين الأب والأم وحدهما في
بيتهما الكئيب ينظران إلى الكراسي الخالية ، ولا تردد أي غرفة أصوات الأسرة .
فلنتظر كيف أصاب التحول العظيم الذي نجتازه أخلاقنا وبدلها .

من المسائل الدقيقة التي يبحثها علم النفس في الوقت الحاضر هذه المسألة
وهي : هل يشعر صغارنا في خطاياهم التي يباهون بها بلذة أعظم مما يشعر به من
هم أكبر ستاً في الشكوى منها ؟ ويبدو أن الحياة من وجهة نظر الأخلاق تنقسم
إلى مرحلتين ، نغمس في اللذات في الأولى ، ونعظ في الثانية . ثم ينتهي الأمر
بالشهوة إلى الخدر ، وتصبح تيارات الرغبة المتدفقة كلاماً يتبدد في الهواء .
ويتراخي وقع الحياة ، ويتغير المزاج ، ويصعب على الشيخوخة أن تغفر
للشباب . و « الحقيقة » في هذه الأمور وظيفة للعمر ، و « اللاأخلاقية »
immorality عند قوم هي أخلاقية عند الآخرين .

ونحن الذين قد انصهرنا في بوتقة الشباب ، ولم نجمد بعد إلى الشيخوخة
(من يدرى؟) ، قد نحاول إذا واتانا الحظ فهم خلفائنا ، وقد ننجح في بلوغ هذا
الفهم . وأفضل سبيل إلى هذا التفهم هو النظر التاريخي ، فعلياً أن نتأمل في
تغير « الخير » ، وفي النسبية السببية للأخلاق . يجب علينا أن ننظر في أصل
الأفكار الأخلاقية الأرضية وغير المعصومة ، وفي اعتمادها على الأسس المتغيرة
للحياة الإنسانية .

والأخلاق Morals ، في الاصطلاح اللغوي والتاريخي ، مستمدة من
التقاليد (customs) (mores) . والأصل في الأخلاق هو التمسك بتلك التقاليد
التي تعد جوهرية لسلامة الجماعة وحفظها . وبعض التقاليد مجرد اصطلاحات ،
مثل استعمال الشوكية والسكين على المائدة ، وليس لها مظهر أخلاقي . فاذا
قطعت « سلطة salade » غيرك بسكين فليس ذلك ذنباً ، مع أنه يعاقب بشدة

أكثر من الفسق . ولكن بعض التقاليد مثل عدم تعدد الزوجات monogamy أو تعددها polygamy ، والزواج من داخل القبيلة endogamy أو من خارجها exogamy ، وتحريم القتل داخل القبيلة وإباحته خارجها ، تعتبر حيوية للصالح العام ، وتسان بضروب عاطفية من الحظر والوعظ والحرمان . والاصطلاحات تقاليد إلى الممارسة أدنى منها إلى الوعظ . والأخلاق تقاليد إلى الوعظ أدنى منها إلى الممارسة . هي واجبات نطلبها من جيراننا .

ومن المدهش أن نرى كيف اختلف القانون Code الأخلاقى من زمان إلى زمان ، ومن مكان إلى آخر . فقد انزعج القديس أغسطين من تعدد زوجات إبراهيم ، ولكنه بين بحق أن قدماء اليهود لم يروا « لا أخلاقيا » أن يدفع أحدهم نفقات عدة زوجات ، فهي عادة الوقت ، ولم تكن تعتبر مضرّة بالجماعة . حقاً قد يصح تعدد الزوجات في عصر الحرب فضيلة تبارك بكثرة الأولاد . وقبل أن يحل النظام الاجتماعى محل النزاع المستمر بين قبيلة وأخرى ، كان معدل الوفيات بين الرجال يزيد زيادة عظيمة على مثله بين النساء ، فكان تعدد الزوجات نتيجة طبيعية للتفوق العددي فى الجنس الذى كان فيما مضى ضعيفاً . إن المرأة لتؤثر امتلاك ظفر من رجل على الحرمان من الرجال على الإطلاق . أما الاقتصار على زوجة واحدة فعقوبة من عقوبات السلم القبلى .

وهلم بنا نستعيد بعض الأمثلة على نسبية الأخلاق . فالشركيون يغطون رؤوسهم دليلاً على الاحترام ، والغربون يكشفونها . والمرأة اليابانية (ولو أن ذلك مبل كثير من الحقائق قد تغير) لا تلتقى بالآلى عرى عامل ، ومع ذلك قد تبلغ من الحياء مبلغ بريسكيلا دين Priscilla Dean . وكان من « الفحش » Obscene (المعنى الحرفى « على المسرح » - إشارة إلى إباحية أرسطوفان فى كوميدياته القديمة) (١) أن تكشف المرأة العربية عن وجهها ، أو المرأة الصينية عن قدمها ، وتغطية هذا الجزء أو ذاك يدعو إلى إثارة الخيال وبعث الرغبة ،

(١) بشرح المؤلف الاصطلاح الإنجليزى ويرده إل أصله اللغوى ، وكان أرسطوفان أعظم شعراء الكوميديا فى أثينا ، وكان معاصراً لسقراط ، وله تمثيلات كثيرة مشهورة ، ولم يكن الأدب المكشوف عيباً ، كما لم يكن ذلك عيباً فى الاحتفالات الدينية (المترجم) .

فيخدم مصلحة الجنس . وكان سكان الملايو يثدون المريض والشيخ ، وظنوا أن ذلك طريقة كريمة للتخلص من نفاياتهم (١) . ويقول لايوك Lubbok : كانوا في الصين يعدون إهداء تابوت لشيخ من ذوى القربى من الهدايا الملائمة ، وبخاصة إذا ساءت صحته (٢) .

ويقول سومر : « يباع لحم الإنسان في جزيرة بريطانيا الجديدة في الحيوانات ، كما يباع اللحم عند القصابين في بلادنا . وفي بعض جزر سولومون على الأقل يسمن الوطنيون من البشر كالحنازير (ويفضلون النساء) إعداداً لإياهم لوليمة » (٣) . ومن أيسر الأمور أن نجمع مئات غير ذلك من الأمثلة تبين أن « اللأخلاقى » في عصرنا وبلدنا « أخلاقى » في عصور أخرى وبلاد أخرى . وفي ذلك قال أحد مفكرى الإغريق القدماء : إذا جمعت في كومة سائر التقاليد التى تعد في بلد مقدسة وأخلاقية ، ثم نزعت منه جميع التقاليد التى تعد في بلد آخر ككراً ولا أخلاقية ، فلن يبق في الكومة شيء (٤) .

٢ - القانون الزراعى

من الواضح أن القوانين الأخلاقية قد تتغير ؛ فما الذى يغيرها ؟ ولماذا تعد بعض الأفعال حسنة في زمان أو في مكان ، ثم تصبح قبيحة في زمان أو مكان آخر ؟

من المحتمل أن تبدل الأساس الاقتصادى للحياة هو الذى يحدد التغيير الأخلاقى . ولقد وقع في التاريخ نوعان من التغيير العميق من هذا القبيل : أحدهما الانتقال من الصيد إلى الزراعة ، والآخر الانتقال من الزراعة إلى الصناعة . فهذان هما الحادثان المحوريان في التطور البشرى ، وعليهما تدور سائر الحوادث والعمليات الأخرى . وفي كل طور منهما اتضح أن القانون الأخلاقى الذى كان

(١) Sumer W.G., Folkwys, pp. 324, 431, 440.

(٢) The Origin of Civilisation, p. 24.

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .

(٤) جوميرز ، مفكرو الإغريق ، الجزء الأول ، ص ٤٠٤ .

يرعى صالح الجماعة في الطور السابق من الحياة أصبح غير ملائم ، وأخذ يتعدل بطيئاً مضطرباً في ظل النظام الجديد .

وقد عاشت جميع أجناس البشر تقريباً في القديم على مطاردة الحيوانات ، وقتلها ، وتقطيع أجسادها - في نفس المكان عادة - ثم أكلها ، وغالباً نيئة ، ودائماً بما يملأ معدة الصياد إلى أقصى ما تطيق . ذلك أن الحضارة بمعناها الاقتصادي من التمرين والأمن security ، لم تكن قد ظهرت بعد ، وكانت الشراة فضيلة لازمة لحفظ الذات . كان الإنسان البدائي يأكل كما يأكل الكلب في العصر الحديث ، لأنه لم يكن يعرف متى يتناول وجبته التالية . والقلق insecurity أم الشراة ، كما أن القسوة بنت الخوف . وما أكثر ما ترجع القسوة والشراة ، والعنف المتجدد ، ونزعة الإنسان العارضة للحرب في الوقت الحاضر ، إلى مرحلة الصيد . استمع إلى هذا الرجل في المطعم يهمس في أذن الخادم : « هات الشواء ناقص النضج » . إنه لا يزال في مرحلة الصيد .

وكل رذيلة كانت ذات يوم فضيلة ، وقد تسرد اعتبارها مرة أخرى ، كالكراهية التي يصبح لها احترامها في الحروب . كانت الوجشية والشراة ضروريتين في قديم الزمان للكفاح في الحياة ، وهما الآن ارتداد atavism سخيف ، وليست خطايا الإنسان ثمرة سقوطه ، إنها بقايا تحلفت عن صعوده . وعندما نختار الدوافع الملائمة للحاجات الجارية بمطرنا الآباء والجيران والوعاظ بوابل من المدح أو الذم كما نعطى الكلب الذي ندربه السكر أو نضربه بالسوط . وعلى هذا النحو تشجع بعض الحاصل التي وهبتها لنا الطبيعة في اعتدال ، وتهذب بعض الحاصل الأخرى التي تفيض عن الحاجة الاجتماعية المعاصرة بأساليب من الصرف مثل الحجز بعد المدرسة ، أو الكي في الكرسي الكهربائي . دع ضرباً من السلوك يذم الآن أو يمدح ، ويزيد أو ينقص إلى حد الإفراط - أي إلى حد تعريض الجماعة للخطر - تجد أن الذم censure أو المدح praise يتحولان بالتدرج إلى اللوم blame أو التشجيع encouragement . وعلى هذا النحو احتضنت أمريكا دوافع الكسب ، واستعادت من الفضائل الحربية مادام أن مواردها في حاجة إلى الاستغلال في الداخل ، وإلى حماية بسيرة من الخارج . أما الآن

فيبدو أن الحاجة إلى الاستغلال أقل ، وإلى الحماية أكثر (كما يقولون) ؛ فلم يعد أحدنا يبجل أصحاب الملايين لمجرد ثروتهم في الوقت الذي يطير فيه ضباطنا بعظمة غير مألوفة . فهناك عرض وطلب في الأخلاق كما يوجد في البضائع ، وإذا كان الطلب يخلق العرض في ميدان أبطأ منه في الآخر ، فذلك لأن النفس اللطيف من الأرض وأقل منها انقياداً . ولكن النفس ستلتقي كذلك بدوراً مختلفة فنتج ثماراً حلوة أو مرة .

ولسنا نعرف بالضبط متى وكيف انتقل الناس من الصيد إلى الزرع ، ولكننا على يقين من أن هذا التحول العظيم خلق طلباً لفضائل جديدة ، وانقلب كثير من الفضائل القديمة رذائل مع « روتين routine » المزرعة المستقر والهادئ . وأصبح الدأب على العمل ألزم للحياة من الشجاعة ، والاقتصاد مرغوباً فيه أكثر من القسوة ، والسلم أعظم نفعاً من الحرب . وفضلاً عن ذلك تغيرت منزلة المرأة ، فأصبحت أعظم قيمة في الأرض منها في الصيد ، لأنها الآن تكسب بأداء مئآت اللوازم في الدار بمن بقائها أضعاف المرات . والزواج أرخص من استخدام امرأة تكلف نفقة أكثر لأداء هذه المهام المتعددة . بل أكثر من ذلك : كل طفل تلده الزوجة تصبح المعونة التي يقدمها أكثر من تكاليف غذائه اليسير وكسائه البسيط أضعافاً مضاعفة . فالأبناء يساعدون آباءهم في الحقل حتى يتم بلوغهم ، ولا يحتاجون إلى مال ينفق في تعليمهم . حتى البنات كن نافعات إلى حد ما . من أجل ذلك ارتفعت الأمومية إلى مرتبة القداسة ، وعد منع الحمل منافياً للأخلاق ، وكسبت الأسرة الكثيرة العدد رضا الإله .

وفي ذلك الوسط الزراعي اتخذ قانوننا الأخلاقي الموروث شكله . لأن الإنسان كان ينضج في الحقل في سن مبكرة ، ينضج في العقل كما ينضج في الاكتفاء الذاتي ، فكان يفهم في العشرين من العمر مهام الحياة كما يفهمها وهو في الأربعين ، إذ كان كل ما يحتاج إليه محراثاً ، وساعداً قوياً ، وعيناً يستطلع بها تقلبات الجو . ولهذا السبب كان يتزوج في سن مبكرة ، حالما تتطلب الطبيعة منه ذلك ؛ ولذلك لم يطل تبرمه بالقيود التي يفرضها القانون الأخلاقي على الصلات الجنسية قبل الزواج . ولهذا بدت الحاجة إلى الطهارة أمراً معقولاً ، حتى إذا أطلق

لنفسه العنان . أما عفة النساء فكانت أمراً لازماً لأن انتهاكها يفضي إلى أمومة
بغير حماية .

وكان من المعقول كذلك أن تقبل تعاليم المسيحية عدم تعدد الزوجات
وعدم انفصال الزوجين ، ذلك أن زوجة الفلاح كانت تلد له كثيراً من الأطفال ،
وكان من الصواب أن يحتفظ الأب والأم بولاء أحدهما للآخر إلى أن يستقر
هؤلاء الأطفال في العالم ، حتى إذا بلغ آخر أطفالهما سن البلوغ ذبلت شهوة
التنويج مع فتور الجسد وامتزاج روحهما ومشاكلتهما . وكان قانون البيوريتان (١)
Puritans (المتطهرين) على شدته عملياً في الريف ، وأنتج جنساً قوياً
استطاع أن يغزو قارة قرن واحد . لقد طلبت الفضيلة دائماً أكثر مما تتوقع كى
تحصل على حاجتها .

وظل هذا النظام الأخلاقي الزراعى : من العفة ، والزواج المبكر ،
والاقتصار على زوجة واحدة بغير طلاق ، والميل إلى كثرة النسل ، مما سكا خمسة
عشر قرناً من الزمان في أوروبا ومستعمراتها . وكان ذلك أمراً في غاية اليسر ،
ما دامت الأسرة في الريف هي وحدة الإنتاج ، يتعاون أفرادها على زرع الأرض ،
ويقتسمون ثمارها . بل إن الصناعة حين أخذت في الظهور كانت صناعة منزلية ،
تجرى في البيوت لا في المصانع ، وتملأ أرجاء الدار بجلبة جديدة وشغل جديد ،
وظائف جديدة ومعنى جديد . حتى إذا انتهى أداء العمل اليومي ، اختلفت
الأسیاد من الجماعة الصغيرة إلى مائدة واحدة في المساء ، أو تجمعوا أمام نار
المدفأة ، يلعبون الألعاب ، أو يقرأون الكتب التي تقص عجائب العالم البعيد .
كان كل شيء يتأمر على تقوية الأواصر التي تربط الأخ بأخيه ، والابن بأبيه ،
والرجل بزوجته . لقد كان لتلك الحضارة البيوريتانية (المتطهرة) فضائلها .

(١) فرقة دينية ظهرت في إنجلترا في القرن السابع عشر ودعت إلى التشدد في الدين وإلى
الطهارة ، واضطهدت أسرة ستوارت أصحابها فهاجروا إلى أمريكا وكانوا سبباً في استعمارها .
(المترجم)

٣ - القانون الصناعى

ثم ظهرت المصانع فجأة . وأخذ الرجال والنساء والأطفال يهجرون البيت والأسرة ، والسلطة والوحدة ، ليعملوا كأفراد يأخذ كل منهم أجره بمفرده ، وذلك فى أبنية موحشة أقيمت لتأوى الآلات لا البشر . ثم نمت المدن فأخذ الناس بدلا من البذر والحصاد فى الحقول يكافحون معركة حياة أو موت فى ورش مظلمة قدرة مع السيور والطناير وضخام السكاكين والمناشير ، وآلاف العجلات والمكابس ، وأذرع وتروس من حديد . وتوالدت الاختراعات كما توالدت الطبقة العاملة التى تشغل بها ، وفى كل عام كانت تظهر أنواع جديدة من الآلات تجعل الحياة أصعب تناولا وفهماً . وأصبح النضوج العقلى أكثر تأخراً عما كان فى الريف . فالرجل فى العشرين من العمر فى المدينة الحديثة لا يزال صبيياً فى وجه عالم متغير ومعقد ، ويحتاج إلى عقد آخر من السنين حتى يتخلص من أوامره العظيمة عن الرجال والنساء والدول . ولعله قد يبلغ فى الأربعين النضوج العقلى . وطالت فترة البلوغ وأصبح التحلى بقدر عظيم من التعليم ضرورياً ليتلاءم الذهن مع مطالب الحياة الحديثة .

وأخذ انتقال الإنسان من الزراعة إلى الصناعة يؤثر فى الحال على سلوك الناس الأخلاقى . وتأخر النضوج الاقتصادى إلى الحد الذى تأخره النضوج العقلى تقريباً ، إلا فى طبقة العمال اليدويين حيث يبلغ الفنى سن الاكتفاء الذاتى فى الواحدة والعشرين من العمر ويستطيع أن يتزوج . أما فى الطبقات الأعلى فان سن الاكتفاء الذاتى ترتفع مع ارتفاع المنزلة والرفاهية ، إذ يتأخر النضوج الاقتصادى كلما ارتفعت المهن . وفى التجارة والصناعة ظهرت آلاف من العوامل تؤثر فى عمل المرء من قريب أو من بعيد ، وقد تؤدى إلى فقدان عمله فى أى وقت .

وأخذ الرجل - وقد أثقلته مطالب الحياة ومراوغاتها بما لم يعهد من قبل - يرى المرأة وقد تجردت من وظائفها مع نمو المصانع والآلات ، وإذا تزوج كان مضطراً بحكم التقاليد المنحدرة عن القانون الزراعى إلى الاحتفاظ بزوجه فى البيت ، وهو بيت أصبح الآن مجرداً من الأهمية والعمل ، فتكون الزوجة حملاً

جميلاً ، أو تمثالاً حياً يزين داخل البيت ولا شيء أكثر من ذلك . فجميع أنواع العمل التي كان عليها أن تقوم بأدائها في الأيام الخوالي أصبحت الآن تؤدي في المصانع ، وعلى الرجل أن يدفع ثمنها مما يكسبه من عمله . وإذا أرادت المرأة شغل وظيفتها بالحمل ازدادت مصاعبها لوجودها في المدينة : فالحمل في الوقت الحاضر يكلف المال الكثير أجراً للأطباء والمرضات والمستشفيات والأدوات ، وليس من اليسير على المرأة في العصر الحديث أن تنجب من الأطفال بالمهولة والبساطة كما كانت جدتها تفعل من قبل . وكلما كثر عدد أولادها ازدادت الحالة سوءاً ، فكل ولد منهم غرم لا غنم ، وهم في حاجة إلى التعليم حتى السادسة عشرة ، وقد يمتد تعليمهم إلى السادسة والعشرين . هذا إلى أنهم يضاعفون أجرة البيت ونفقة السفر ، ويذهبون إلى المسارح والملاهي بانتظام ، كما يحتاجون إلى ملابس من أحدث طراز لمسيرة غيرهم من الأطفال الذين يرغبون في مجازاتهم بالمثل . حتى إذا بلغوا السن التي يكسبون فيها قوتهم هربوا من سلطان الأبوة إلى حرية الحياة الفردية الحالية من المسئولية . بل حتى إذا لم يهجروا البيت بمحض رغبتهم فإن نداء العمل والكسب ، وتفرق الأسواق والمصانع والحرف في أماكن بعيدة ، ينزعهم من البيت ويبعثرهم كما تتناثر الشظايا من القنبلة المنفجرة . من أجل ذلك بدأ الحمل في المدن صورة من الاستعباد ، وتضحية سخيفة في سبيل حفظ النوع ، تؤخر المرأة الحصيصة وقوعه إلى أكثر ما تستطيع ، وكثيراً ما تؤثر العقم على تأجيل الحمل . وارتفع تحديد النسل إلى فضيلة تتضاعف مكانتها ، وأصبحت وسائل منع الحمل إحدى مشكلات الفلسفة .

واختراع موانع الحمل وذبوعها هو السبب المباشر في تغير أخلاقنا . فقد كان القانون الأخلاقي قديماً يقيد الصلة الجنسية بالزواج ، لأن النكاح كان يؤدي إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما ، ولم يكن الوالد مسئولاً عن ولده إلا بطريق الزواج . أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفاً لم يكن آباؤنا يتوقعونه ، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغير نتيجة هذا العامل ، ويجب على القانون الأخلاقي في المستقبل أن يدخل في حسابه هذه التسهيلات الجديدة التي جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة .

وأتمرت هذه الشروط كلها علة أوسع وأعم لتغير أخلاقنا ، وهى الزواج المتأخر . فقد كان متوسط سن الزواج بين الرجال فى باريس سنة ١٩١٢ الثلاثين وكان فى إنجلترا ستاً وعشرين (١) . ومن المحتمل جداً أن يكون هذا المتوسط قد ارتفع فى إنجلترا خلال السبع عشرة سنة الأخيرة ، ومن الواضح أن باقى العالم « المتحضر » (أى المصنع) أخذ فى الاتجاه فى نفس الوجهة ، لأن الأخلاق كالأزياء تفد من باريس . وهذا التأخير فى الزواج أشد بين طبقات الموسرين فى مجتمعات المدن ، مع أنهم فى منزلة تجعلهم أقدر على تربية الأطفال عقلياً وجسدياً تربية حسنة . وكثير منهم لا يتزوج على الإطلاق ، فن بين ٣٦ مليوناً وهم سكان إنجلترا وويلز سنة ١٩١١ ، تخلص ٧ ملايين من الزواج ، من جملة عدد البالغين وهم ٢٠ مليوناً (٢) . وكلما هجر الناس الريف وازدحمت بهم المدن ارتفعت سن الزواج ، وطالت صحة الرجل لخليلة تنهى به إلى العجز عن الزواج . واتجهت أكثر فأكثر نزعة رجال الطبقة المتوسطة إلى اعتبار الزواج خسارة عليهم ، فهناك آلاف من النساء ينتظرن إقبال الرجل لإشباع رغبته الجنسية . وماذا يمكن للزواج تحقيقه أكثر من ذلك ، وقد أصبح الأطفال حملاً ثقيلاً ، والبيت شقة فى عمارة كبيرة ؟ ويتأمل الأعزب حال أصدقائه المتزوجين ، ويرى كيف يتهاكرون على العمل ليحفظوا للزوجة بحياة ناعمة وفاسدة تنفق مع وضعها ، فيعجب ما الذى دفع هؤلاء الذكور إلى هذا الاستعباد الذى لم يسبق له مثيل . أو يرى المستوى الراقى من الحياة والوجاهة حين يحيط الأب من الطبقة المتوسطة بناته بهالة من الفرو والسيارات والخدم اجتذاباً لزوج ثمين ؛ فيعجب كيف يستطيع بدخله المحدود فى أول الشباب مسامرة هذه الرفاهية التى حققها الأب فى بيته بعد زمن طويل ، ويرجع الشاب إلى رصيده فى البنك فيقرر إثثار السلامة إلى حين .

فحياة المدينة تفضى إلى كل مشيط عن الزواج ، فى الوقت الذى تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها . ولكن النمو

(١) Gallichan, W.M. The Great Unmarried, p. 47.

(٢) المرجع السابق .

الجنسى يتم مبكراً عما كان من قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادي فإذا كان قمع الرغبة شيئاً عملياً ومعقولاً في ظل النظام الاقتصادي ، أما الآن فإنه يبدو أمراً عسيراً وغير طبيعي في حضارة صناعية أجلت الزواج بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين . ولا مفر من أن يأخذ الجسم في الثورة ، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان في الزمن القديم . وتصبح العفة التي كانت فضيلة موضعاً للسخرية ؛ ويختفي الحياء الذي كان يضمن على الجمال جمالا ؛ ويفاخر الرجال بتعدد خطاياهم ، وتطالب النساء بحقها في الانغماس في مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال . ويصبح الاتصال قبل الزواج أمراً مألوفاً ؛ وتختفي البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس . لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقي الزراعي ، ولم يعد العالم المدني يحكم به .

وذهب لينتز إلى أن زواج الرجل مسألة يستغرق في بحثها طول عمره (١) ، ومن الواضح أن شباب اليوم يوافقونه على ذلك . فبعضهم يفكر طويلاً وطويلاً ، ثم يصبح أعزب ، وينتهي أخيراً إلى الزواج عن ملال . وإنك لتري هذا الصنف في الحدائق العامة يسعى أجدهم إلى الاستمتاع بالحياة مع فتاة غرفت مع غيرها الحياة ، متقلبا مع ذلك من ساقطة إلى أخرى ، أو يتردد على (الكباريهات) حتى تفتقر نفسه ويسأم استعراض السيقان الغارية المختلفة الأشكال ، ويكتشف أن جميع الفتيات في (الحدائق) متشابهات ، فيمل آخر الأمر الرذيلة نفسها . ثم يجد أن صعوبات الزواج ليست شيئاً مذكوراً بالقياس إلى الفراغ الذي يحسن به معظم العزبات في حياتهم . فتلك المسؤوليات المتزايدة ، والمشكلات المتلاحقة أفضل ألف مرة من الشعور المتزايد بعدم الكمال ، وحياة الإنسان وحيداً كالمضنن المعطل عن حمل الثمار .

ولسنا ندرى مقدار « الشر الاجتماعي » الذي يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسئولاً عنه . ولا ريب في أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة في التعدد لم تهذب ، لأن الطبيعة لم تهيننا للاقتصار على زوجة واحدة . ويرجع بعضها الآخر إلى ولاء المتزوجين الذين يوثرون شراء متعة جنسية جديدة على

الملال الذى يحسونه فى حصار قلعة مستسلمة . ولكن معظم هذا الشر يرجع فى أكبر الظن فى عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعى للحياة الزوجية . وما يحدث من إباحية بعد الزواج فهو فى الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية فى هذه الصناعة المزدهرة ، وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه فى عالم خلقه الإنسان ، وهذا هو الرأى الشائع لمعظم المفكرين فى الوقت الحاضر . غير أنه من المخجل أن نرضى فى سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية وهى تعرض علينا فى المسارح أو كتب الأدب المكشوف ، تلك التى تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية فى الرجال والنساء المحرومين وهم فى حى الفوضى الصناعية من حى الزواج ورعايته للصحة .

ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة ، لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن فى ابتذال ظاهر . ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة فى هذه الفترة من التأجيل نظاماً دولياً مجهزاً بأحدث التحسينات ومنظماً بأسمى ضروب الإدارة العلمية . ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها . ولكن الفتاة التى سوف يتزوجها بعد تجربة استغرقت عشر سنوات ، يجب أن تحافظ على عفتها ، فلا يقربها أحد حتى يتلقاها بين أحضانها المحجبة . (شبه بلزك العروس فى ليلة الزفاف بقرد يحاول العزف على الكمان) . وهذا وضع غير معقول بعض الشيء فى ترتيبه . ولا نزاع فى أن ذلك يرجع إلى حد ما إلى ما كان يقتضيه الآباء المغرمون ببناتهم من مهر غال ثمناً لعفتن ، وقت أن كان الزواج يشترى صراحة . ولا ريب كذلك فى ارتباط هذا الأمر بذلك العرف المزدوج الذى أصبح مقدساً على مر الزمن ، والذى يقتضى إخلاصاً من جانب واحد هو جانب الأم حتى يمكن التعرف على الورثة ، وإثبات حقهم فى الميراث . وهذا فى نظر « العقل الخالص » ظلم فادح ، ولن يطول استمراره على الأرض .

ولا يشك عاقل يخلو من الهوى فى أن كبح جماح الشهوة بعد البلوغ أمر غير طبيعى ، فالكبت الجنسي يودى إلى ضروب كثيرة من الأمراض

العصبية والانحرافات ، وهو ضغط لا مسوغ له على العقل والجسم في هذه المرحلة الدقيقة من التحول ، حين يحتاج العقل والجسم إلى صحة وافرة . ومن التناقض أن يقدح عالم الأخلاق في العلاقات الجنسية قبل الزواج إلا إذا هباً مقاومة فعالة للقوى المفضية إلى تأخير الزواج . ولن نستطيع تحقيق هذه الحاجات إلا إذا أمكن أن تعود مرة ثانية تلك الشروط التي كانت معقولة في ظلها . وقد حان الوقت لمواجهة هذه المشكلة دون مواربة . فيجب إما أن نطلق حرية العلاقة الجنسية قبل الزواج ، وإما أن نحث على الزواج بالرجوع إلى السن الطبيعية .

٤ - رجالنا المتحررون (٢)

جرت العادة أن تربط بين العريضة الجنسية والشباب ، ولكن هذه العريضة تسود جميع الأعمار التي لم تزال فيها بقية من قوة ولم ينهكها العمل . فقد فاضت المدن بسبب تأخير الزواج بالرجال والنساء الذين يسعون إلى استبدال مثيرات التنوع الخارجية بمهام الأبوة وتدبير المنزل مما كان يستغرق وقت الآباء والأمهات . وهذا الضرب من الناس بوجه خاص (وكذلك الرجال من أهل الريف حين يذهبون إلى المدينة في إجازة) هو الذي يملأ حانات الليل night-clubs ، حيث يذهب الغر وحيداً ويسمح لنفسه أن يخدر بالشراب ، وأن تسلب ماله تلك الفريسة اللطيفة التي يظن أنه قد يجد في أحضانها بديلاً عن الزوجة . وصادات هذه الطبقة آخذة في الانتشار بسرعة بين جميع الطبقات ، فقد أصبحت الإباحية بدعة ، ولا يجروء أي رجل على التسليم بأنه أمين لزوجته ، أو يؤثر الصحو على السكر . فطابع العصر في الوقت الحاضر أدنى إلى إباحية الرجولة منه إلى رومانتيكية الشباب .

وقد رأينا أن تأخير الزواج هو الأصل في تحول أخلاقنا الجارف في المجتمعات الحديثة . وهنا أيضاً بمقدار ما تتدخل العوامل الشخصية يجب أن نلتمس علة التغيير في الآباء لا في « الجيل الأصغر » . وغرائر الشاب رابحة

(١) يتكلم المؤلف عن المرحلة التي تلي مرحلة الشباب ، وسمى أصحابها « الأكبر سناً elders » ، وفي اللغة العربية تسمى هذه المرحلة بالرجولة وتمقها الكهولة ثم الشيخوخة . (المترجم) .

قوية وقد تقوده سريعاً إلى التقيد بحبل الزواج ، ولكن الأب الحذر والأم الغيور يسألان الشاب في سخطكم يكسب من مال يبيع له متابعة هذا الغرام المخبون . ويبدو أن حكمة الحبيب هي التي تكون فلسفة الوالدين الأساسية وهما في منتصف العمر . ولكنهما ينسيان شهوتهما الحامدة ولا يخطر ببالهما أن عاطفة الشاب قد تسوغ أموراً لا يستطيع عقل الشيخ فهمها . فالجيل الأكبر سناً إذن هو الأكثر بعداً عن الأخلاق . فهو الذي لا يحفل بصالح المجتمع أو الجنس ويحد من دوافع الطبيعة الحكيمة ، فينصح بالفعل أن يقضى الشباب سنوات عدة من الإباحية تمهيداً للظفر بزواج سعيد وأطفال أشداء . أما إذا كانت نظرة الآباء أوسع فيجب عليهم أن يضعوا المال في المرتبة الثانية بالنسبة إلى سعادة وصحة الفرد والجماعة ، وأن يتعاونوا مع الطبيعة ، وأن يقدموا بعض التضحية يتمكن بها أبناءهم من الزواج المبكر . وإلى أن تسود هذه النظرة فلنا أن نرد لا أخلاقية الشباب إلى فلسفة الآباء التجارية .

ومن الذي يقول إن خلاعة الشباب أسوأ من عدم استقرار الزواج في سن الكهولة؟ انظر إلى طغيان الطلاق المستمر على الزواج تجد أنه يزعم حتى أولئك الذين لا يؤمنون إلا بالإحصاء . ففي دوفر عام ١٩٢١ كانت نسبة الطلاق مساوية لنسبة الزواج . وارتفعت نسبة الطلاق عن الزواج في السنوات الأربع السابقة من ٢٥ إلى ٥٠ (١) . وفي شيكاغو عام ١٩٢٢ تم ٣٩٩٠٠٠ زواج ، و ١٣٠٠٠٠ طلاق . وفي ولاية نيويورك عام ١٩٢٤ قلت نسبة الزواج ٤٦ في المائة عن عام ١٩٢٣ ، وارتفعت نسبة الطلاق إلى ٨٢ في المائة (٢) و (٣) .

أما « الأسباب » التي تبني عليها المحاكم الحكم بقطع حبل الزواج فسطحية مع براعتها : مثل الهجر ، والقسوة ، والإهمال ، والسكر ، وما إلى ذلك كأن هذه الأسباب كانت مجهولة حين كان الطلاق نادر الوقوع . ذلك أنه تحت

(١) Literary Digest, Feb. 17, 1923.

(٢) New York Times, Nov. 15, 1925.

(٣) في عام ١٩٤٩ كانت نسبة الطلاق الربع في ولاية نيويورك - انظر لوس انجلز

تايمس ، ١٠ أبريل سنة ١٩٤٩ .

هذه العوامل السطحية توجد هذا النفور الحديد من الأبوة ، وهذه الشهوة إلى التنوع المتأصلة في طبيعة الإنسان والتي تضاعفت اليوم أضعافاً مضاعفة مع فردية الحياة الحديثة ، وتعدد المثيرات الجنسية في المدينة ، والاتجار في المتع الجنسية .

وترجع جاذبية المرأة كزوجة إلى جمالها إلى حد كبير . فالرجل يختار الزوجة لما فيها من جمال ، لأن الجمال كان في القديم سبيلاً إلى أمومة قوية . ولكن الزواج يطول على مر الزمان ، ويأخذ الجمال في الذبول . والرجل الذي يتزوج المرأة لجمالها لا يستمتع بها إلى الأبد . أما جاذبية الرجل كزوج فترجع إلى حد كبير إلى الشخصية والفحولة . ومع ذلك فإن ألمع شخصية ، وأقوى رجولة يجب أن تحبو بعد ألفة وصحة إجبارية تدوم سنين عدة ، لذلك ينجو الرجل بنفسه بالتغيب عن البيت بعض الوقت كل يوم . وتسعى المرأة إلى الاحتفاظ بجمالها بأن تؤجل الحمل ، وبمعالجة بشرتها بألوان من المستحضرات الكيماوية تصبح الأسمدة الزراعية العلمية إلى جانبها بدائية . ولكن سرعان ما يظهر جوهر المسألة إلى الوجود . إذ يجب أن نحمل جاذبية الأمومة محل الجاذبية الجنسية حتى يحتفظ بكيان الزواج ، وعندئذ تزدهر الزوجة بألوان من الهناء لم يكن الزوج يحلم بها في فلسفته . فهي تتغير الآن ، وتنمو ، وتفتح مرة أخرى ، ويلفها الإعجاب الغريزي بالطفل بغلالة جديدة قوية من السحر . وإذا فقدت الزوجة هذه الصفات أصبح البيت داراً عبارة عن جدران ميتة تضم جسد الزوجين ، ثم لا تلبث أن تضم شخصين متباعدين ولا غير ، حيث كان من المحتمل أن تنشأ في تلك الدار أسرة .

٥ - الأسرة

ومع ذلك فالأسرة أكثر النظم الاجتماعية تلقائية ، وأشدّها قرباً من الطبيعة ، لأنها تتركز مباشرة على ميول موروثية لا تدفع إلى مجرد الاتصال الجنسي فقط ، بل إلى إنجاب الأطفال وتربيتهم ، ولذلك لا نجد في العادة ضرورة لطرح هذا الموضوع على البحث الأخلاقي . وما نسميه « غريزة التناسل » عبارة عن متاهة

معقدة من دوافع واستعدادات واتجاهات يؤثرها صاحبها . وأكبر الظن أن الدافع إلى الاتصال الجنسي يجب أن يتميز تميزاً دقيقاً عن الميول التناسلية كالرغبة في الإنجاب ، والميل إلى المثابرة على العناية بالأطفال بعد ولادتهم . ذلك أنه ولو أن بعض النساء وكثيراً من الرجال يعتقدون في خلوهم من الرغبة في الإنجاب ، فهناك قليل من الرجال وقلة أقل من النساء لا يكتشفون في الحال أن الطفل ظاهرة رائعة ومحبوبة حتى إذا كان مكروهاً ومشكلاً . إن أبرد الفلاسفة متحيز لصالح طفله ، فإذا كان الطفل سقيماً نما حبه في القلب مع العناية به ، كما يزداد حب الفنان للصورة التي تتشكل بين يديه . وإذا كان الطفل قبيحاً أعمت الطبيعة الرحيمة عين الآباء وبسطت جناح الخيال على الحس . وكما قيل : « إن الله ينزل الدواء مع وقوع المرض » . وقد كان القدر رحباً لأنه حرماناً هبة رؤيوة أنفسنا كما يرانا غيرنا من الناس .

ولا نزاع في أن الأطفال لا يعيشون من أجل آبائهم ، بل الآباء هم الذين يعيشون من أجل الأبناء . وتستمد الأسرة أصلها ومعنى وجودها من عجز الطفل الشديد . ولقد كانت الأسرة أداة حماية لتلك العادات والقنون ، والتقاليد والأخلاق التي تكون مادة تراثنا الإنساني ، وتقوم مقام الملاط في البناء الاجتماعي . فالطفل فوضوى ، ولا يشعر باحترام لأى قانون أو عرف ، ويعتبر ألوان الحظر فريسته الطبيعية . ولكن الأسرة — بطريق الأطفال والآباء كذلك — تحمّل الفردى الصغير بالرشوة والعصا ، وبالخلوى والأوامر ، إلى كائن اجتماعى راغب فى التعاون — بل وبعض الوقت إلى شيوعى راغب فى القسمة . والأسرة هى أول وحدة اجتماعية يتعلم الفرد الولاء لها ، ويجب أن يقوم نموه الأخلاقى على تعلم الولاء لكل وحدة أكبر ، إلى أن يبلغ قلبه أخيراً أقصى حدود بلاده . ولكن الشاب حين يخرج عن أرض البيت الثابتة ، تبتلعه دوامة المنافسة ، فيفقد مع الزمن الرغبة التى غذتها الأسرة فى التعاون . والإنسان فى منتصف العمر ، مع أنه ناجح ولكنه غير سعيد ، يرجع بين حين وآخر إلى بيت الأسرة مع شعور بالراحة والتفريح ، وكأنه يرجع إلى جزيرة شيوعية فى بحر من الفردية .

وقد نشأت هذه الوظيفة للأسرة ، كمرکز أخلاقى وموحد للمجتمع ، من

وضعها باعتبار أنها الوحدة المنتجة للنوع الإنساني . وكلنا يعلم أن هذا الوضع المركزي للأسرة قد انتهى ، وأن السكان المصنعين يعيشون معلقين بشرط متغير يهددهم بتحويل قانونهم الأخلاقي عن نظام فقد أساسه الاقتصادي والسياسي . ذلك أن هجرة الصناعة من البيت والحقل إلى المصنع والشارع ، وتطور المهن الحرة مع تغير المركز الجغرافي بحياة الفردية ، وحركة العمل المتغيرة التي تنسب إلى وفرة رءوس الأموال أو ظهور موارد طبيعية جديدة ، كل ذلك قد مزق الروابط التي كانت تصل بين الأبناء والآباء لحفظ وحدة البيت . وأخذ الإخلاص للأسرة والولاء لها يذبلان ، وامتنعت الوطنية ما فيهما من عاطفة قوية ، كما تذوب قوة الأبوة عاماً بعد آخر في وظائف الدولة المتوسعة وقواها النامية . ففي كل مكان ينهار التعاون التلقائي الصادر عن الترابط الطبيعي في الإنسان ، ويجد بديلاً مزعماً في الروابط الصناعية والخارجية للقانون والنظام ، والخضوع للمذهب والقهر . وفي نهاية الأمر نجد أن هذه الفردية الاقتصادية والسياسية تعكس نفسها في فردية أخلاقية ليس لها مثل من جهة نظام توزيع الأرباح ، ولا توجد إلا في تلك العصور التي ذابت فيها الحضارات الكبرى في غياهب الماضي .

٦ - الأسباب

ولنلخص ما سبق أن ذكرناه . فالعلة الأساسية لهذه التغيرات الأخلاقية هي الثورة الصناعية التي كان لها يد، إن خيراً أو شراً، في معظم كل تحول حديث ؛ فقد أخرج قيام نظام المصانع الزواج لأنه جعل الفرد غير آمن، وازدادت الإباحية بهذا التأخير الداعر ، وباللقاء الملايين من الناس في بحر حياة المدينة ، وما فيها من صلات مثيرة وستار المساواة . كما أدى قيام المصانع إلى تحرير (تصنيع) المرأة ففتحت عن ذلك عرضاً تجربة الصلة الجنسية قبل الزواج ؛ وإلى إضعاف أثر الأسرة الأخلاقي ؛ وإلى استبدال الزهد والحرمان البيوريتاني بالانغماس الأبيقوري في كل لذة وفي كل انحراف . وتوافق نمو وسائل منع الحمل مع ظهور كل سبب من هذه الأسباب ، وتعاون وإياها على العمل والتأثير .

وكما كانت ثورة عصر النهضة سيلاً إلى تحريره وحرته وفنونه ، كذلك

ثورة العصر الحاضر السائدة في كل مكان، والتي فاقت كل ثورة أدبية، هي التي بدلت قانون الحجاج القاسى بتساهل النفوس المتحررة. ويعد تغير أيام الآحاد عندنا من أيام راحة وعبادة إلى رحلات وأفراح وثنية لا حد لها، دليلاً واضحاً على تبدل أخلاقنا وحياتنا المتحررة. ومن الأسهل أن يكون الإنسان فاضلاً حين يكون فقيراً، وقد يقاوم الإغراء في بعض الأحيان إذا كان فادح الثمن. ولكن دع جيوبنا تتضخم بالمال، ودع عزلة الناس تحجبنا عن أعين الجيران، وسوف نلتبس نسيان الموموم في وجوه الحسان، ونتحرق لإظهار رجولتنا لقلوبنا ذاتها. ومن العيب أن يرثى علماء الأخلاق لحال رفاهيتنا الحديثة في الزينة والمزاج، فهذا الأمر يقوم على دوافع كانت موجودة على الدوام وتجد الآن أمامها فرصة نادرة للظهور. وستظل النتيجة على ما هي عليه حتى تغير الظروف الاقتصادية من هذه الحال. فما دام نظام الآلات يضاعف أوقات الفراغ، ويستبدل الأعمال العقلية بالأعمال اليدوية، فإن الطاقة التي كانت تصرف مع الأعمال الجسدية سوف تصعد إلى الدم، وتجعلنا في غاية الحساسية للمؤثرات الجنسية.

وأكبر الظن أن هذا التجدد في الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم مذهب دارون على المعتقدات الدينية. وحين اكتشف الشبان والفتيات وقد أكسبهم المال جرأة، أن الدين يشهر بملاذمهم، التمسوا في العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين. وأدى التزم في حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى رد فعل في الأدب وعلم النفس صور الجنس مرادفاً للحياة. وكان علماء اللاهوت قديماً يتجادلون في مسألة لمس يد الفتاة أيكون ذلك ذنباً (١)، أما الآن فلنا أن ندهش ونقول: أليس من الإجرام أن نرى مثل تلك اليد ولا نقبلها؟ لقد فقد الناس الإيمان وأخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة. إنها عقوبة جماعية تدفع الأخلاق اليوم ثمنها لأنها ارتبطت بالعقائد الغيبية. فقد بنى القانون الأخلاقي على الخوف - الخوف من العقاب في الحياة الدنيا، ومن النار في الآخرة - ولكن المعرفة عدو الخوف، وهي آخذة في النمو، فلا يمكن

Ellis, Studies in the Psychology of Sex, Vol. VII, p. 180. (1)

أن يعيش القانون القديم إلى جانب التعليم الجديد . إن حياتنا الصاخبة تنادى اليوم بأخلاق جديدة تستند إلى طبيعة الإنسان وقيم هذه الحياة ، وتنقذ سفينة الحضارة التي تركت لتهدى بنفسها بعد أن طارت الآلة عنها فجأة .

ويجب أن نضيف إلى زوال الزراعة وانحلال الدين تدهور الحضارة الأنجلوسكسونية . فقد هوى المذهب البيوريتاني ، لا لأن قيوده على الدوافع الإنسانية والتي كانت معقولة أصبحت غير معقولة في ظل الشروط المتغيرة في العصر الحاضر ، بل كذلك لأن أولئك الأقوام الذين ما يزال القانون القديم يجد فيهم مثلاً وعضداً قد أصبحوا في مدننا (١) قلة لا حساب لها ولا حيلة . وقد أدت الهجرة وارتفاع نسبة المواليد إلى التسامى بالعامه وانزاع ذوى السلطان من مراكزهم . فالأجناس « غير الشمالية » من إيرلندا وروسيا وجنوب أوروبا هم الذين يسيطرون اليوم على الحياة السياسية في مدننا الكبرى ، ويضفون على الأدب والحياة طابعهما العام الذى يتميز بالتهاون في القانون الأخلاقى . ففضائل الأنجلوسكسون المنزلية لا تناسب مرح الإيرلندى ، أو حماسة الإيطالى ، أو تساهل السلافى . وكما أن عصر نيوانجلاند قد زال من أدبنا حين أخذ المهاجرون المتأخرون يتلمسون في بطء وحشونة هيئة جديدة وأسلوباً جديداً لفلسفتهم الواقعية والتشاؤمية ، كذلك أخلاقنا في الوقت الحاضر تتعثر في حال من الفوضى ، على حين أصبحت الأقليات التي كانت مضطهدة من قبل هي صاحبة السلطان على الأدب والمسرح والكنيسة وعلى الدولة بشكل أوسع . لقد غيرت الأخلاق في أمريكا أساسها البشرى كما غيرت أساسها الاقتصادى .

وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل في هذا التغيير . ذلك أن تلك الحرب قوضت تقاليد التعاون والسلام المتكونين في ظل الصناعة والتجارة ، وعودت الجند الوحشية والإباحية ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بوثة للفساد الخلقى . وأدت تلك الحرب إلى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رهوس ، ومهدت إلى ظهور العصابات والجرائم

(١) يشير المؤلف إلى المدن في الولايات المتحدة ، ولذلك يتحدث فيما بعد عن الهجرة إليها من الخارج . (المترجم) .

القائمة على الاضطرابات النفسية . وحطمت الإيمان بال العناية الإلهية ، وانزعجت من الضمير سند العقيدة الدينية . وبعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة ، ظهر جيل مخدوع ألقى بنفسه في أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقي . وأصبحت الحكومات في واد والشعب في واد آخر ، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها ، واستهدفت الصناعات الربح ، بصرف النظر عن الصالح العام ، وتجنب الرجال الزواج خشية مسؤوليته ، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة ، أو إلى طفيليات فاسدة ، ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات جديدة ، تحميه الاختراعات من نتائج المغامرات النسائية في الماضي ، وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية في الفن والحياة .

فهذه هي الأسباب المتعددة لتغير أخلاقنا . وفي ضوء انتقال هذه الأسباب من الحقل والبيت إلى المصنع والشارع في المدينة يجب أن نفهم الجيل الذي يحل محلنا في حال شديدة من الاضطراب . فشاكل هذا الجيل وحياته جديدة ومختلفة عن الجيل السابق ، وهو واقع بين يرانن الثورة الصناعية التي تعدل عاداته وأزياءه وعمله ودينه وسلوكه . وليس من العدل ولا مما يتفق مع التاريخ أن نحكم على هذا الجيل في ضوء القانون القديم ، وإلا كنا كمن يفرض عليه أن تلبس الفتاة (الكورسيه) والعجيزة ، وأن يلبس الشباب الخذاء ذى الرقبة ويطلق لحيته كما كان يفعل أجدادنا . فصاحب الخلق وعديم الخلق كلاهما في تغير مستمر ، بين التقاليد الثابتة المولية والعادات الجديدة التي تشق طريقها إلى الظهور . ولا يعرف أحد بالضبط مدلول الأخلاقية أو اللاأخلاقية ، وكيف يمكن تعريفهما من جديد لنستعين بهما في فهم سلوك الإنسان في العصر الصناعي والمدني^(١) .

إننا نقف بين عالمين ، أحدهما ميت ، والآخر لم يكذب يظهر إلى الوجود . ومصيرنا فوضى لا يليق بالجيل الجديد . فنحن أشبه بسقراط وكونفوشيوس ، في قولهما بأن الأخلاق القائمة على القهر والخوف قد فقدت سلطانها على الناس . ونحن كذلك نحاول أن نلتمس قانوناً أخلاقياً طبيعياً يقوم على العقل لاعلى الخوف ،

(١) مدني هنا بمعنى النسبة إلى المدينة وذلك في مقابل عصر الزراعة ، واللفظة في الإنجليزية

urban (المترجم) .

ويمكن من إقناع الناس ، حتى المتعلمين منهم . ويواجه الآباء في الوقت الحاضر آلافاً من الأسئلة الأخلاقية والنفسانية التي لم تعد الإجابات القديمة تصلح لها . فنحن مضطرون على الرغم منا إلى أن نكون فلاسفة ، وإلى فحص أفكارنا المزعومة وعاداتنا ، حتى نبني لأنفسنا مذهباً في الحياة والفكر متماسكاً مع نفسه ومع تجارب العصر ومطالبه . إننا نقف إزاء النجوم ونكاد نكون مجردين من العقيدة الغيبية ومن القانون الخلقى الجديد . فكل شيء يجب أن يبني من جديد كأننا قد رجعنا إلى حياة القفار نشرع في إقامة حضارة جديدة .

وأين نجد قانوناً أخلاقياً يتفق مع شروط حياتنا المتغيرة ، ويرفعنا مع ذلك ، كما رفع القانون القديم الناس ، إلى الرقة والدعة والحياء والأدب والنبيل والكرامة والفتوة والنجدة والحب ؟ أو يرفعنا إلى فضائل جديدة كهذه الفضائل ؟ وكيف نعرف الخير تعريفاً جديداً ؟ وكيف نعيد بناء الأساس الخلقى للمجتمع الكبير ؟

الفصل السادس

١ - الأخلاقية واللاأخلاقية

١ - الأخلاقية كذكاء

لنستمع بعض الوقت إلى ما يقوله الفلاسفة عن موضوع الأخلاق .
سيضعفون بلبلة فكرنا وأحكامنا ، ولكننا لن نستطيع أن نجد استجابة توافق
هذه المشكلة إلا إذا أدخلنا في حسابنا جميع العوامل المتدخلة في الموقف .

وأقدم من نصادفهم يقذفون بنا في قلب المتاهة الأخلاقية الشائكة هم
سفسطاثيو الإغريق ، وهم المؤسسون القساة للأخلاق الأوربية . ذلك أنهم
قدموا اقتراحات وتحليلات تجعل نيتشه بالنسبة إليهم متواضعاً ، وتضعه إلى جانبهم
في المحل الثاني . فقد استلبوا قبل ظهوره بألني عام نصف صيحته التي نادى بها
أقوى رجل في الفلسفة الألمانية . يقول كاليكليسي في محاوره جورجياس التي
كتبها أفلاطون : إن الأخلاق ابتكار الضعفاء لتقييد الأقوياء ، وطريقة تحد
من سلطان السوبرمان داخل حدود قوى طبقة الشعب . والحكيم هو الذي يعلو
على مستوى الفضيلة والرذيلة ، ويصغر عن رغبات قوية ، وينشد صفات القوة
والشجاعة والمهارة في تحقيقها ، باعتبار أنها أنبل الصفات (١) . ويعلن ثراسياخوس
في محاوره الجمهورية أن : « القوة هي الحق ، وأن العدالة ليست إلا مصلحة
الأقوى ، وأن « الظالم » سيد البسيط والعاقل ، وأن « العادل » هو الخاسر بالإضافة
إليه على الدوام » (٢) . واهتم بأن يضيف أنه « يتحدث عن الظلم على نطاق
واسع » . ويحذر من النصيح بالظلم إذا لم يستطع المرء أن يرتكبه جملة .

هذا النقد القديم للفضيلة له دلالاته ، أي هل يتعلق مذهب نيتشه بشباب

(١) أفلاطون ، جورجياس ، ٤٨٣ .

(٢) الجمهورية ، الكتاب الأول .

الفكر أكثر مما يرجع إلى مرحلة نضوجه ؟ لقد كان السفسطائيون يمثلون نشوة الحرية التي أصابت الفلسفة اليونانية حين رفعت عن كاهلها قيود الشرك والتقاليد. كان القانون الخلقى القديم في اليونان يعتمد اعتماداً مزعزماً على أساس وعلى جزاء من الدين ، كما يعلق المرء من رجله في الهواء . فلما ظهر أن الأساس غير وطيء أصيبت الأخلاق بالضرورة ، وأصبحت اللاأخلاقية ، كالألحاد والمادية والحتمية ، حدثاً طبيعياً لثورة الشباب العارضة . كذلك الحال بالنسبة إلينا ، فنحن حين نكتشف أن يهوذا الذي كان يخيفنا في طفولتنا - موسى الملائكى الموجود في السماء - ليس إلهاً حقيقياً بل مجرد إنسان مخيف يهدف إلى كفنا عن سرقة البلى ومشاكسة المدرسين ، فاننا نخلص إلى هذه النتيجة الموقنة ، وهي : أنه ما دام هذا الإله الخاص بالمتبربرين غير موجود ، فسائر الأشياء التي كان يجرمها هي الآن مباحة ، وأن السرقة والقتل والنصب هي ألوان محترمة من النشاط إذا زاو لها المرء بصواب مع احترام أوامر البوليس . وفي ذلك قال دستوفسكى : « إذا لم يكن ثمة إله (على المعنى السابق من الرعب الليلي) فكل شيء مباح » . فليس على المرء إلا أن يكون حذراً . ومشكلة الأخلاق (وهي البحث العقلي في الأخلاقية) تنحصر في هذا البحث وهو : هل المطلوب أن يكون الإنسان « فاضلاً » كما يكون حذراً ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكن أن نحث الناس بناء على ذلك ؟

ولا نستطيع أن نفهم منزلة سقراط العظيمة في تطور الأخلاق الفلسفية إلا في ضوء هذه النيئشية السفسطائية الفتية . فقد رأى سقراط أننا نتأرجح بين خطرين : ضغط الأكرية الديمقراطية للرجوع إلى المعتقدات القديمة ، وهذه الفردية المتحررة من الخلق المستهتر التي نشأت من زوال الأوهام عن العقيدة الموروثة ، تلك الفردية التي جعلت من أننا فوضى تعجز عن الوقوف في وجه أرسقراطية إسبرطة القوية . أنحن في حاجة إلى الموازنة بين تلك الصورة وبين صورة عصرنا الحاضر ؟ لقد تصور سقراط مشكلة الفلسفة الكبرى في تطور أخلاق طبيعية تحل محل الأخلاق الغيبية التي كانت الفلسفة قد هدمتها . وإذا استطاع المرء أن يقيم مذهباً أخلاقياً مستقلاً عن المعتقدات الدينية ، فمن الممكن أن تعيش هذه المعتقدات دون أن تحل الروابط الأخلاقية التي تجعل من الأفراد

المنفصلين مواطنين مسالمين في الدولة . فثلا لو أن « الخير » كان يعنى « العاقل » ، وكانت « الفضيلة virtue » تعنى « الحكمة wisdom » ، ولو أمكن أن يعلم الناس معرفة مصالحتهم الحقيقية ، والبصر بالنتائج البعيدة لأعمالهم ، ونقد رغباتهم والتوفيق بينها للخروج بها من فوضى تمحو النفس إلى رغبة كلية خالقة وتهدف إلى غاية — ففعل هذا يمد المتعلم والفسطائى بالأخلاق التى تعتمد عند العامة على الجزاء الإلهى ، وأحكام رجال البوليس . ومن المحتمل أن يكون مرجع كل ذنب إلى الجهل ، وإلى الإخفاق فى الوصول إلى نظرة كلية . ألا يمكن أن يكون العقل النامى بالعلم الغزير فضيلة تكفى فى حفظ كل نظام اجتماعى ضرورى ؟

وفى هذا المذهب تختبئ فردية داهية ، كانوا يرونها المقابل للأخلاقى لفلسفة سياسية أرسطراطية . وكان ذلك المذهب يزعم أن شرف طبقة النبلاء يمكن أن يثبت بتعليم الجليل . ولم يخطر ببال أصحاب المذهب أن العقل قد يجعل المجرم أكثر بالعقل إجراماً . وبذلك بقيت المشكلة القديمة بدون حل : أن نجعل العقل اجتماعياً ، أو أن نلتمس للأخلاق أساساً خارج العقل والتفكير . وأخذ أفلاطون بالحل الأول : فليس العقل ، كما يقول ، مسألة عقلية فقط ، بل هو التناسب الجميل أو الفنى بين العناصر فى صفات المرء ، هو التماثل ، والترتيب ، وهو التوافق فى السلوك الإنسانى . وليس أسمى الفضائل فى صفاء الذهن ، أو فى القوة العارية من الأخلاق ، بل هى ائتلاف الأجزاء فى كل ، سواء أكان ذلك فى الفرد أم فى الدولة . وهنا نجد أساساً سليماً يقوم عليه أبحاث أخرى فى الأخلاق ، ولكن الفلسفة لم تتابع السير فى هذا الطريق . ثم تدهورت بلاد اليونان على الرغم من وجود فلاسفة الأخلاق . حتى إذا جاءت المسيحية كان العالم بأسره مستعداً لقبول قانون أخلاقى يقوى بالأمل فى حياة آخرة والخوف منها ما يحسه الناس من ضعف فى الإيثار والعدل . وبقيت المشكلة القديمة الخاصة بأخلاق طبيعية مستقلة عن الأديان بغير حل .

٢ — الأخلاق الطبيعية

وهنا نجد أن فرانسيس بيكون هو الذى قدم مفتاح الحل ، كما فعل فى ميادين أخرى كثيرة . وتجميل إحدى العبارات الهامة من كتابه « تقدم العلم »

نظرية كاملة في الأخلاق الدنيوية . يقول الوزير الأكبر : « في كل شيء نزعاً إلى نوعين من الخير ، إحداهما نزعاً باعتبار الشيء كلاً في نفسه (ونحن نسمى هذه النزعاً بالفرائض الفردية) ؛ والأخرى باعتبار الشيء جزءاً من كل أعظم (ونحن نسمى هذه النزعاً بالأخرى بالفرائض الاجتماعية) وهذه الأخيرة أهم وأقوى من الأولى ، لأنها تتجه إلى حفظ صورة أكل » (١) ومعنى ذلك أن أساس الأخلاق ، كعدم الأخلاق ، موجود في الطبيعة البشرية . فهناك دوافع اجتماعية كما توجد دوافع أنانية ، وغرائز لحفظ الجماعة والجنس كما توجد غرائز لحفظ الذات . ويذهب بيبكون إلى أن هذه الغرائز الاجتماعية هي على الإطلاق أقوى من الغرائز التي تستهدف حفظ الفرد . فان صح هذا القول فهو ولا ريب في غاية الأهمية . وفي هذا الطريق يجب أن يتجه البحث عن أخلاق طبيعية .

وظل هذا الرأي الجديد الذي قال به بيبكون بغير أساس علمي حتى وجد عرضاً عند ظهور دارون . وقد بدت النتائج الأخلاقية لمذهب دارون أول الأمر مؤيدة للنيتشية . ذلك أن التطور إذا كان كفاحاً من أجل الحياة وبقاء الأصلح ، فالبقاء هو معيار الصلاحية في كل شيء ، ولا تستثنى الأخلاق من ذلك . فلا ينجح إلا الرجل الفاضل فقط ، وتصبح القوة هي الحق مرة أخرى . ولقد فزع هكسلي حين رأى إلى أين تقودنا نظرية التطور ، ووافق تينسون على أن الطبيعة (التي كان يعنى بها عملية الانتخاب الطبيعي) كانت « حادة الناب والمخلب » وهي في غاية العداوة لجميع المبادئ الخلقية التي رفعت من شأن الحياة الإنسانية هذا الارتفاع . فالتطور يدل في جميع مظاهره على استعباد القوى للضعيف (وكان بعض علماء التطور مثل كارل بيرسون يحتجون على الآثار السيئة التي يولدها الإحسان) . أما الأخلاق فأنها تعنى مساعدة القوى للضعيف . ويقضى التطور الكفاح من أجل الحياة بأى سبيل ؛ وتقضى الأخلاق الحد من الكفاح ، اللهم إلا داخل حدود الإنسانية والشرف . والغاية القصوى من الأخلاق هي السلام ، والمعيار الأعظم للكفاح هو الحرب . وينتهى

هكسلى إلى قوله: « لا يعتمد التطور الخلقى للمجتمع على محاكاة عمليات الكون ... بل على حربها » (١).

وكان اتخاذ ذلك الموقف خطيراً ، إذ لو كانت الأخلاق مضادة للطبيعة فالأخلاق مقضى عليها قضاء مبرماً . وقد كان هكسلى نافذ البصر حين رأى هذه النتيجة : « إن الطبيعة الكونية التى تولد مع مولدنا ، والضرورية إلى أقصى حد فى بقائنا ، هى ثمرة ملايين من السنين من التجارب القاسية ، ومن الحماية أن نتصور أن بضعة قرون تكفى فى إخضاع سيطرتها لأغراض أخلاقية خالصة » (٢). فالمشكلة الأخلاقية ، نعنى تأديب الإنسان بغير طريق الخرافات أو القوة ، لا يمكن حلها إطلاقاً ، إذا كانت الأخلاق والطبيعة متعارضتين هذا التعارض الحاسم .

ويرجع الفضل إلى دارون المتواضع فى التماس مخرج لهذه المشكلة . فلم يكن الفلاسفة قد لاحظوا — وما كانوا ليلحظوا لولا أن دلم كروبوتكين (٣) Kropotkin على ذلك — أن « المخرف » (٤) الأكبر فى الفصل الرابع من كتاب « تسلسل الإنسان » وضع أسس القانون الخلقى الذى يعتمد على وقائع بيولوجية لا على عقائد إلهية . كان أرسطو ويكون على صواب ، فالإنسان اجتماعى بالطبع ، لأن المجتمعات وجدت قبل وجود الإنسان بزمن طويل ، وورثت الإنسانية العادات الاجتماعية — أى حملت النزعة الاجتماعية فى دماغها — إلى جانب الدوافع الفردية إلى المنافسة والقتال . وقد تطور التنظيم الاجتماعى ، حتى فى المراحل الدنيا من الحياة الحيوانية ، كما هى الحال فى النمل والنحل ، إلى حد من التعاون أرقى من أى ضرب نراه فى الجنس البشرى . ومع تطور المجتمعات ضاق نطاق التنافس من الداخل للحاجة إلى حفظ التماسك الداخلى فى وجه المنافسة الخارجية . وأخذ تأثير الانتخاب الطبيعى يقل فى الفرد ، ويزيد فى الجماعات ؛ فقد يمكن الاحتفاظ بالضعاف من الأفراد مع نمو العادات الاجتماعية لأترابهم فى المجتمع ،

(١) التطور والأخلاق ، ص ٨٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٥ .

(٣) Mutual Aid as a Factor in Evolution .

(٤) يشير المؤلف إلى دارون (المترجم) .

أما الأمم الضعيفة مثل أسبانيا ، والأجناس الضعيفة مثل أهل طسمانيا (١) ، والأنواع الضعيفة مثل المستدون (٢) Mastodon والجاموس ، فيمكن أن تهلك في الحرب والمنافسة بين الجماعات لقد وقف التطور عن أن يكون طبيعياً وأصبح اجتماعياً . وجاء بقاء الأصلح من تماسك الجماعة وقدرتها لا من قوة الفرد . وجعل التنظيم أجهزة الدفاع الثقيلة ، التي تحملها على الدوام الحيوانات المتوحدة المعتمدة على قوتها الفردية فقط وعلى دهائها في الدفاع عن نفسها ، زائدة عن الحاجة . أما في النمل والنحل حيث يكاد يبلغ التنظيم الاجتماعي حد الكمال ، فقد اختفى تقريباً حمل السلاح الفردي ، كالأنياب والأسنان والمخالب والجلد السميك . ووجد نمو الخطر الخارجي والمنافسة الخارجية بين أفراد الجماعة بضروب من التعاطف (بين الفرد والفرد) ، والشفقة (بين الفرد والجماعة) ، وحب العشرة ، وتبادل المعونة . وكان ينتشع بعد وجود النساء ضرورة اجتماعية لبقاء الجماعة ، فظهر بذلك تناقض غريب مؤداه أن عنف المنافسة والتنازع بين المجتمعات هو علة التعاون والسلام في داخلها . فالحرب ، أو خطر الحرب ، هي التي أدت إلى ظهور الأخلاق كما أدت إلى ظهور الروح المعنوية .

وفي ضوء هذا النظر البيولوجي يصبح من الواضح بما فيه الكفاية أن أساس الأخلاق وتعريفها الطبيعيين والضروريين هو اتفاق الجزء في العمل مع الكل . إنها النظرة الشاملة التي تتعاون فيها كل رغبة مع جميع الرغبات ، وكل فرد مع أسرته ، وكل أسرة مع الدولة ، وكل دولة مع الإنسانية ، والإنسانية ذاتها مع حركة الحياة العليا . ونحن في الشباب نحاول تعريف الأخلاق في عبارات تصدر عن الفرد النائر ؛ فنخضع العقل للقوانين غافلين عن خضوع العقل المخادع للرغبة ، واستعداده الحقيق لالتماس الأسباب لكل عمل مشكوك فيه . إننا نتمتدح الاعتماد على النفس ، والتوافق conformity والشجاعة. ونشدد أغنية « الإنسان البسيط والمتوحد » ، ونقول مع إبسن المتوحد إن الأقوى هو الذي يقف وحده ، كما لو كان براند Brand أو بيرجنت Peer Gynt (٣) قد وجد الأمر كذلك .

(١) طسمانيا جزيرة صغيرة في الجنوب الشرق من أستراليا . (المترجم) .

(٢) حيوان منقرض يشبه الفيل (المترجم) .

(٣) براند و بيرجنت مسرحيتان لإبسن ، ويشير المؤلف إلى شخصية كل منهما (المترجم) .

وهذا رد فعل سليم ضد عشرة الأسرة الثقيلة ، ولا يدل إلا على أن الصبي قد
نضج ويرغب في إثبات وجوده في العالم . وبعد أن نجتاز مرحلة الشباب نكتشف
أن « المجتمع » الذي كنا ندره ، والذي كنا نعارض بينه وبين الفرد العظيم ،
لا يشمل شيئاً آخر سوى أفراد أيضاً ، كل واحد منهم ثمين كأنفسنا الغالية . ثم
نسلم بعد مقاومة طويلة أن الأخلاق لا يمكن تعريفها بأى حال في صيغة الفرد ،
ويجب علينا أن نقبل خير المجموع باعتبار أنه المعيار الأقصى الذي به نحكم
(حين يجب أن نحكم) على سلوك الفرد .

أما العبارة التي وضعناها بين قوسين فهي السبيل الممهّد إلى النتيجة التي
نريد بلوغها . فتنى يجب أن نحكم ؟ وكما أن أفضل حكومة هي التي تحكم أقل ،
كذلك أفضل أخلاق ما كانت أوامرها أقل . وحرية الحياة نعمة عظيمة ، حتى
ليعد بحق أولئك الذين يرغبون في فرض الأخلاق على جيرانهم أعداء الجنس
البشرى . وقد رأينا إلى أى حد من التزعزع يبلغ الحكم الأخلاقى ، وأن الأمر
المنافى للأخلاق قد لا يكون إلا مرحلة انتقال تتحسس طريقها بين قانون أخلاقى
وآخر . وفضلاً عن ذلك فهذا الزهد في الحكم الأخلاقى « يوصف » لعلاج
الرجال والنساء المصابين بالعبقرية . فمثل هؤلاء الأشخاص ، كما يقولون ،
تعزهم الطبيعة لتجربة أساليب جديدة من العمل والشعور والتفكير . فإذا أخضعناهم
لأخلاقنا الاجتماعية المألوفة والضرورية كنا كمن يبطل الغرض نفسه الذى من أجله
وجدوا . ولسنا في حاجة إلى أن نكون أكثر قسوة مع هؤلاء العابرة من البابا
بولس الثالث الذى قال حين نصح بسجن شليني^(١) Cellini لما ارتكبه من
أعمال القتل في ساعة من الحماسة : « يجب أن تعلموا أن قوماً مثل بنفنوتو Benvenuto
الأفذاذ في مهنتهم هم فوق القانون » . فلنبسط على عباقرتنا بعض التساهل الذى
نمنحه لأصحاب الملايين عندنا .

لقد انتهينا بعد انحراف إلى نتيجة من أقدم النتائج وأشدّها احتراماً ، وهي
أن معيار الأخلاق هو الصالح العام . ولكن لا ينبغي أن يخذعنا النظر البيولوجى

(١) بنفنوتوشليني (١٥٠٠ - ١٥٧١) نحات مشهور إيطالى ولد في فلورنسا ، ودعاه
فرانسوا الأول إلى البلاط ، وله تماثيل مشهورة في فونتبلير .
(المترجم) .

فنفترض أن غرائزنا تتفق مع العقل . فالطبيعة لا تعرف جماعة ولا أخلاقاً إلا ما يتصل بالخلية والأسرة والقطيع . لقد كان سيكون ودارون وكروبتكين متفائلين في اعتقادهم أن الغرائز الاجتماعية أقوى من غرائز الذات . وقد يكون الأمر كذلك داخل الأسرة حيث نجد التضحية بالذات أمراً طبيعياً ولا يحتاج إلى مؤثر من خارج أكثر من الحب أو المدح . أما خارج هذا الميدان الصغير فالدوافع الفردية هي المحركة لنا في سلوكنا ، ولذلك كانت البطولة heroism متصفة بالنجدة heroic لندرتها . وهذا هو السر في ابتداء المجتمع شبكة واسعة من النظم التي تقوى الدوافع الاجتماعية كالدين ، والتعليم ، والنشرات ، والتماثيل المقامة في الميادين . ولسنا أكثر الأنواع ميلاً إلى الاجتماع ؛ فنحن في وسط الطريق بين فردية حيوان الغابات وتعاون النمل . وأقصى ما يمكن قوله في هذا الصدد هو أن الغرائز الاجتماعية - التي تبدو أحدث من حيث أصلها من المنافسة والاكتساب ، وأضعف مؤقتاً بسبب تدهور الدين والأسرة - آخذة في التقوى ببطء مع نمو قيمة التعاون وأثره في البقاء . وفي المستقبل البعيد لعل أولئك الذين تعلموا العمل مع أقرانهم في ائتلاف وعدل يقضون على أولئك الذين يتعطشون إلى التملك الفردى وإلى السلطان . ولكن سنكون عندئذ قد انتقلنا إلى عالم آخر .

وإذا كان المحافظون راضين كل الرضا عن صيغة هذا المبدأ الخلقى ، فليأملوا بعض نتائجه . فلا شيء ينافي الأخلاق إلا إذا أضر بأقراننا ، وبناء على ذلك فالانتحار في بعض الظروف ليس جريمة . وإذا اعتقد المرء أن الموت نعمة ، وأنه أدى واجبه نحو بني جنسه ، ولم يخلف من بعده محرماً أو عاجزاً ، فحياته ملك نفسه يفعل بها ما يشاء . ثم إذا دعتنا الغريزة أو اللذة فلا ضير من تلبية نداءهما بشرط ألا يصاب أحد أقراننا بأذى ، وبشرط ألا يصيبنا نحن أى ضرر جسمى أو عقلى على حساب الجنس . وليس « للجريمة » أى معنى إلا إذا تعرض صالح المجموع للخطر .

ويجب أن نسلم آخر الأمر بأن التعاون الذى تقوم الأخلاق على أساسه لا ينشأ من نمو النفس بمقدار ما ينشأ عن اتساع ضروريات الحياة الاقتصادية .

فكما تخرج الزهرة من الأرض ، تنتشر الأخلاق مع ازدياد الوحدات الاجتماعية والاقتصادية . ويزداد المجموع الذي يجب أن تتعاون الأجزاء وإياه على السلامة عظماً ما دام نسيج العالم يغزل من وحدات يتزايد عظمها مع انتشار القطارات والبرق والسفن وأمواج الأثير التي تربط أطراف العالم . لقد أحالت التجارة والمصالح المشتركة القبائل في الزمن القديم إلى أوطان ، وانحلت الأخلاق القبلية فلا يتبعها إلا سفلة القوم . وشيناً فشيناً تحيل التجارة والمصالح المشتركة الأوطان إلى جماعات وطنية مترامية الأطراف ، وتصبح أساس أخلاق دولية . وسوف يؤمن العالم في المستقبل القريب بأن الوطنية ليست كافية .

٣ - ميزان الأخلاق

هناك إذن ميزان خلقى يبدو صالحاً في كل مكان وزمان مهما تختلف الألسنة التي تنطق . ولكن كل حل هو أيضاً مشكلة ؛ إذ لانكاد نبلغ تعريفنا الأخلاق أنها تعاون الجزء مع الكل حتى تبرز مئات الأسئلة . أى جماعة سنتعاون وإياها ؟ مع الأسرة ، أو الدولة ، أو الإنسانية ، أو الحياة ؟ وماذا نحن فاعلون إذا تنازع حلفاؤنا ؟

عندما يبلغ المرء الأربعين من العمر يصبح أعظم همه أن يتصور الأخلاق في إخلاصه لأسرته فقط . وليس معنى ذلك أنه يعيش بهذا التصور فقط ، إذ لو فعل ذلك فأكبر الظن (كما رأى كونفوشيوس) أنه لن يحتاج إلى أى أخلاق أخرى . ولو نمت الدولة نمواً عظيماً حتى تبتلع حقوق الأبوة ووظائفها الواحد بعد الآخر ، فليس ذلك فقط لأن الحياة الاقتصادية أدت إلى تطور العلاقات والمنازعات المعقدة التي تحتاج إلى سلطة منسقة وحاكمة في قلب الجماعة ؛ بل أيضاً لأن فردية الصناعة قد ضعفت سلطان الأبوة وانتزعت من الأسرة مهامها القديمة . فعندما كادت كل أسرة أمريكية أن تكون مملكة اقتصادية ، تزرع طعامها ، وتغزل لباسها ، وتقتل بنفسها الهنود الحمر ، وقل أن تتعامل مع غيرها من الجماعات ، فقد كان من الممكن أن تكفى أخلاق الأسرة . فاذا كان الأب فاضلاً ، والأم صالحة ، وسلم الأبناء بسلطة الأب على أنها السلطة

العليا ، كانت الأسرة وحدة قوية في النظام الاجتماعي تبلغ من الاكتفاء الذاتي حدًا يجعل الدولة إلى جانبها كمية ضئيلة تكاد أن تكون مهملة . ولك أن تتخذ من الصين مثلا يوضح ما نذهب إليه . أما إذا تمزقت أوصال الأسرة ، أو إذا لعبت العلاقات بين أفرادها وغيرهم من الأفراد والجماعات دوراً حيوياً في حياتها الاقتصادية والحلقية ، انهارت عندئذ الأخلاق الطبيعية القديمة ؛ فقد يكون الرجل كريماً مع أبنائه ، قاسياً لا يرحم عماله ؛ وقد يبيع الرجل وطنه من أجل حفنة من المال ، ويكون مع ذلك نموذج الزوج والأب . وقد يلجأ الرجل إلى السرقة أو الغش خلسة ليقنتى من المال ما يسد به حاجة زوجته ، ويمجد مع ذلك في كل كنيسة يذهب إليها . فأخلاق الأسرة ليست كافية .

فهل نحن مساقون إذن إلى أحضان الدولة المشرفة على كل شيء ؟ أيجب أن يذوب قانوننا الخلقى ولاء للسلطة - لرئيس الضبط ، وقائد المنطقة ، و « المنظمة » ، والحاكم ؛ وعضو الشيوخ ، وقائد الجيش أو الأسطول ؟ هذا هو الجواب الذى يقول به رجال السياسة . ثم تسكت الدولة وهى مؤيدة بالسلاح وثقة الناخبين كل صوت يرتفع للحد من سلطانها . وفى ذلك كثير من الحق ، إذ إلى أن يصبح النظام العالمى حقيقة واقعة ، وتنظم الإنسانية بحيث تأمن وتؤمن بإخلاص الفرد ، فلن تكون الأخلاق المثالية الكاملة - أى تعاون الجزء مع المجموع الكامل - إلا مجرد نصيحة لتحقيق الكمال ، كالأمر بعدم مقاومة الشر . فكل نظام فى العالم يجب أن يستند إلى القوة حتى تظهر جماعة أكبر . فاذا كانت الحال على وجه الأرض كما نرى من تزايد عدد سكانها وتحركهم بغير رقابة ، وتهافت أهلها للحصول على أفدح الأجور محطمين كل تجربة فى مكافحة الفقر ، فمن الخير أن تحمى أعلى وحدة منظمة نفسها من عدوان الوحدات الأدنى ، كما يجب على الإنسان مهما يكن مخلصاً للحياة أن يحمى نفسه من الحيوانات المتوحشة . ومن الخير على مر الزمن لسائر البشر أن تحمى الطبقة الممتازة نفسها على هذا النحو ، إذ لا غنى فى التطور عن وجود فئة ممتازة تكون نموذجاً يحتذى مثاله . فإلى أن تبتدع الصناعة لونا من الرقابة الدولية ، فان المجموع

الذى يجب أن تتعاون وإياه ، والذي لا يجب أن تضر بمصالحه ، سيكون المجتمع الوطنى (١) .

ولكن ضميرنا لا يزال ناقص التكوين حتى فى داخل حدود هذا المجتمع الأصغر . فهناك أخلاق للصناعة والسياسة ، كما توجد أخلاق للحب والزواج . وأولئك الذين يتدمرون من أهواء الجنس فى الوقت الحاضر قد يكونون ممن يحتلسون المنافع أو يخونون الأوطان . إننا نغضب لفساد الفتاة ، ولا نجد فى قلوبنا الشجاعة للزج بالمفسدين فى غياهب السجن . إننا نفترض الرقابة على الكتب ، ولا نحفل بأصحاب مصانع السلاح الذين يثيرون الحروب . والصعوبة الوحيدة التى تلفت النظر من بين الصعوبات غير الجنسية التى تواجه الأخلاق اليوم هى تلك الخاصة بشرب الخمر إلى حد السكر . ولا ريب فى ظهور نتيجة أخلاقية عن ذلك ، لأن الخروج على القانون ، معارضة لقانون هو موضع خلاف ، مما يضعف النسيج الخلقى للجماعة بأسرها . ومن دلائل عدم نضوجنا أن تدور أحداثنا ومعاركنا بالجدل حول شرب الخمر ، فى الوقت الذى تفسد فيه مشروعاتنا الجوهرية لحاجتها إلى العناية والفهم .

ها نحن أولاء بإزاء أضخم نظام صناعى عرفه التاريخ ، فإذا يحدث لو أنه أدير بغير تفكير صادر من الجميع ، وبغير نظر إلى السياسة الصناعية والتجارية والمالية وأثر ذلك على مستقبل الوطن والجنس البشرى ..؟ أهذا شئ يسير ؟ عندما نقول : « الشغل شغل » *business is business* نغنى فى أكبر الظن أن الشغل لا يعرف الأخلاق ، وأن العملية الصناعية بطريق الإنتاج الواسع النطاق ، بصرف النظر عن أصحاب العمل والمنافسة غير المشروعة ، قد أصبحت غير إنسانية وغير شخصية ، أصبحت نظاماً آلياً للشراء الرخيص والبيع الغالى ، أصبحت آلة تحمى المدارس (ورشاً) ومصانع عسكرية ، تؤثر استخدام النساء

(١) ليس معنى ذلك أن قيودنا الحالية المفروضة على الهجرة معقولة أو عادلة . بل على التقيض ليس هذه القيود فيما يبدو أى أساس آخر سوى الخوف والتعصب الجنسى . وسوف يجد رجال الدولة لهجرة ، ومن المحتمل أن يشتد تقييدها عما هو اليوم حتى تم القضاء على البطالة . ومع ذلك فلن يتم هذا التقييد بالتمييز العنصرى الباطل الذى لا يعتمد على أى سند من العلم ، بل برفع مستوى الصحة والثقافة المطلوب من المهاجر .

على الرجال ، والأطفال على النساء ، وتهدم كيان الأمة وأخلاقها ... ولكنها تجنى أرباحاً . وهذا التصور عن الحياة الاقتصادية صحيح بالنسبة إلى الطبقة العاملة ، كما هو صحيح بالنسبة إلى أصحاب المصانع . فصاحب المصنع يفكر في مصلحته الذاتية أو في مصلحة طبقته ، ولما يفكر في صالح المجموع . فكل فئة لها « مثلها » ، ولكن المثل الأعلى في الصناعة أو السياسة هو عادة الرغبة المكبوتة لطبقة من الطبقات تغلف في أثواب كريمة من العقل . ومعظم نظرياتنا الأخلاقية ليست إلا أفكارنا نحن لما ينبغي أن يكون عليه سلوك غيرنا من الناس .

ولقد قال ناسوسنيور Nassau Senior : « علم الاقتصاد علم الثروة لا الرفاهية » . ومعنى ذلك أن الصناعة يجب أن تقصر نفسها على إنتاج أكبر قدر ممكن من البضائع بصرف النظر عن النتائج التي تصيب المنتج أو المستهلك . وكان علم الاقتصاد سابقاً أفضل ولو أن كارليل وصفه بالكآبة . وكان ذلك العلم يسمى نفسه « الاقتصاد السياسي » ، واعترف بأن الاقتصاد على صلة بالهيئة الحاكمة . وشاع في بعض الأوقات الحديث عن « حقوق » الإنسان . ومع أن هذا الاصطلاح فقد الآن ما كان له من شهرة إلا أنه كان يصيب كبد الحقيقة ويدل على قيمة كبيرة ، وهي أن ثمة بعض الحاجات يتطلبها الفرد أو الطبقة من المجتمع ، وأن هذه الحاجات إذا أشبعت تؤدي إلى صالح المجموع . ومن المعقول أن مثل هذا الطلب قد يسمى « حقاً » . فإذا كانت الزراعة مثلاً ضرورية لسلامة الوطن من الحصار والمجاعة ، فللفلاحين عندئذ « الحق » في معونة حكومية قد يحتاجون إليها للاحتفاظ بمستوى معتدل من الحياة . وقد أخذت إنجلترا تعي هذا الدرس . وإذا كانت الصناعات الكيماوية تفسد صحة العمال ، فلهؤلاء العمال « الحق » في كل حماية تستطيع الدولة تقديمها لهم ، لأن صحة مواطنيها تخص الجماعة كلها . وإذا كانت النساء قد أصبحن غير صالحات للأمومة بما يشغلن من وظائف ، فن الحق أن تحمي الحكومة من ترغب منهن في الحماية . وإذا اتبع المخترعون والتجار من الأساليب ما قد يثير عداة الدول الأجنبية ضد أمريكا . فن حقنا إخضاع مثل هذه الاختراعات والتجارات للوائح الحكومية . ففي كل خطوة تؤثر العمليات الاقتصادية على ثروة المجتمع وتصطدم بالأخلاق .

ولكن الأداة الوحيدة في الوقت الحاضر التي يمكن عن طريقها إخضاع الصناعة للصالح العام هي الدولة . وليست الدولة أمراً أخلاقياً ، بل مزيجاً دائماً التغيير من المنتخبين . ويتطلع المصلح إلى حكومة مطلقة القوة ناسياً أن مثل هذه الحكومة تقتضى حكماً سياسياً مطلقاً . ولخير ألف مرة أن يبتدع الناس أساليبهم الخاصة في التعاون والرقابة من أن يعتمدوا على العمدة ورجال البوليس . ولعل نظاماً اجتماعياً في سبيله إلى الظهور مقتصرأ على طبقات العامة في التوزيع ، وعلى الجمعيات التعاونية التي تتكون كل عام (وتكاد أن تفشل كل عام) حتى يسد الثغرة الواسعة ، ويتجنب جيش الوسطاء المتزايد بين المنتج والمستهلك . وهنا نجد أن الاقتصاد يمس الأخلاق مرة أخرى ، ويتحمس فلاسفة الأخلاق للفكرة القائلة بأن مجهود وتجربة قرن آخر قد يستبدل المنافسة الفردية بالتعاون الذي يجب أن نعتمد عليه في تسيير أمور العالم . إن صورة قوم يعملون معاً ، ويوظفون الفنيين والإداريين جنباً إلى جنب ، ويقسمون الأرباح والخسائر سوياً ، قد تبدو بعيدة عن الحقيقة ، كما بدت صورة التعاون الحديثة بعيدة التحقيق أيام أن كانت الصناعة آخذة في الظهور .

وغرائرنا فردية على الإطلاق (١) ، ولكن منظماتنا وحاجتنا الاجتماعية تصوغنا أكثر فأكثر نحو التعاون . فالصناعة الحديثة أكثر رحمة بالنسبة إلى فظاعة نظام المصنع منذ مائة سنة مضت . فالرفاهية أصبحت جزءاً في كل مؤسسة حديثة ، وأخذت الصناعة تمول بجانب كبير من أرباحها المستشفيات والمدارس والمكتبات والبحوث العلمية . ولا يزال العالم يلد القديسين ، ومازلنا نقابل أهل النجدة في كل ركن من الشوارع ، ويمكن أن نجد الفتاة ذات الحياء إذا رغبنا في البحث عنها ، وتزوي الأمهات الصابرات في آلاف البيوت ، ونقرأ عن منافسة البطولة للجريمة في الصحف اليومية . فهذا فيضان يغرق البلاد ، وإذا بآلاف من الناس يهبون للمساعدة ، ويساهم الملايين في تقديم المعونة المالية . وهذه أمة يصيبها القحط وتعرض للموت جوعاً ، فيسرع أعداؤها لنجدها . ويضل الجوابون الطريق فيعرض زملاؤهم أنفسهم للخطر إنقاذاً لهم . الحق لم

(١) هذا يناقض ما ذهب إليه المؤلف قبل ذلك من أن بعض غرائرنا اجتماعية . (المترجم) .

يستطيع أحد أن يبلغ أغوار قوى الإنسان في سبيل الخير . فوراء ما عندنا من فوضى وما نرتكبه من جرائم تقوم الشفقة المتأصلة في النفس الإنسانية . إنها تنتظر حتى تزول الثورة العابرة ، ثم يظهر نظام جديد من الأخلاق يتحسس طريقة بالتجربة ليرفع بالنفس إلى مراتب الشرف والنبيل .

٤ - الأخلاق الكبرى

أكبر الظن أننا في الوقت الذي ننتحي فيه جانباً نتأمل الأمور في سخرية ينشأ عالم من النظام العالمي تحت بصرنا دون أن نراه . وهو عالم تخلقه التجارة والتمويل ، وذلك بالرقابة على الاستثمار ، والرغبة في ضمان المدين وازدهار السوق . وليس العمال هم اليوم أكبر أعداء الحرب ، بل أصحاب الملايين . وإن كنت في ريب مما نقول فاستمع إلى تهليل الجمهور حين تتحدث الحكومة عن الحرب . ثم ارقب آلة تسجيل الأخبار وانظر كيف تشل آلاف الأعمال خوفاً كلما انتشرت أنباء الأعداء . ولم يكن الأمر كذلك فيما مضى من الزمان ، ولكنه يجري على هذا النحو الآن .

وهذا بالضبط ما كان العالم ينتظره ، نغني أن شبكة التبادل التجاري الكبرى ، التي وحدت بين الولايات ، وجعلت من الدول إمبراطوريات ، يجب أن تبني آخر الأمر نظاماً عالمياً اقتصادياً . ذلك أنه كما أن الانفعالات المثالية في الفرد تكون ضعيفة ومزعزعة إذا لم تقم على أساس فسيولوجي طبيعي ، كذلك الآراء الخلقية والسياسية لا تقف على أقدامها في ثبات إلا إذا قامت على حقائق اقتصادية . وحين يكون لنا نظام عالمي اقتصادي سيكون لنا نظام عالمي سياسي . فاذا تم لنا هذا النظام العالمي السياسي سيكون لنا أخلاق عالمية . فالضمير يتبع رجل البوليس ، لأنه ينشأ من الخضوع للنظام ، وينمو مع التعود . ومن الواضح أن نظاماً عالمياً آخذ اليوم في الظهور . ونحن الآن كلما بدا لنا الصالح الوطني معارضاً لمصالح البشرية ، فليس ثمة ما يمنعنا من الولاء للإنسانية ، ومن التسامى بالأخلاق والدبلوماسية إلى ذلك الشعور بالجموع وهو سر الحياة الفاضلة ، كما أنه السبيل الذي يهدى إلى الحكمة ، والمعيار الذي يزن الحق .

من أجل ذلك فلنرحب بكل تجربة ، ولنشجع كل محاولة تتجه نحو نظام العالم الجديد . وليستمر العلم في تنظيم نفسه على أساس يتجاهل الحدود . وليجدد العمل عهوده التي نقضت ضد الحرب . وعلى الرغم مما في عصابة الأمم (١) من ضعف ، وجبن ، وإبعادها روسيا ، ودستورها المستحيل التحقيق (عن قصد) فلننضم إلى العصابة نفويها بالتعاون ، ونضع حداً لنزعنا الإقليمية ، ونعرتنا الوطنية ، وننافسنا على التسليح ، وحلم بعض الأوغاد للسيطرة سراً على العالم . الحق أننا نجد هنا - كما قال ميرابو - الأخلاق الصغيرة هي عدو الأخلاق الكبيرة . La petite morale est l'ennemie de la grande . فلا يمكن أن نتوقع من الدولة أن تلقن الضمير العالمي لأبنائها في المدرسة ، ما دام خطر الحرب قائماً . أما نحن أحرار الفكر البعيدين عن الأحزاب فما بالنا نظل منقسمين على أنفسنا في هذه المسألة ؟ ما الذي يمنعنا من قبول الأخلاق الكبرى ، ومن الولاء لسائر ألوان الحياة ؟

وخلف هذا الانقسام المستمر بين الأحرار توجد الفردية التي تختفي كالسوس الذي ينخر في عظام كل حرية . فأشهر المحامين عن المجرمين الأمريكيين (٢) يطرب لسخف عصابة الأمم ، على أساس أن نظاماً سياسياً يتجاوز حدود الأوطان هو ضرب آخر من الطغيان ، وأن انفصال الدول ، وتحاربها بين حين وآخر ، أفضل من سلطة سياسية هائلة قد تقف كما يقف الطاغية غير المسئول في سبيل تفكير البشرية وحركتها . وهذا شك صادق ومعقول . ولكن إذا كان قد أمكن التجاوز عن هذه المخاطر بتوحيد المستعمرات ، فلا بأس من مواجهة هذه المخاطر ذاتها بتوحيد الدول اليوم ، وقد بلغ العلم حداً يستطيع معه في يوم واحد أن يمحو جيوشاً بأكملها ، وأن يدمر مدناً بأسرها ، وأن يرد كل حياة ، وكل نظام ، وكل حرية ، وكل فكر إلى مستوى الهمجية مرة أخرى . إن الخطر على الحرية يكمن في الحكومات الضعيفة لا القوية . ذلك أن الدولة لا تقبذ الحريات إلا حين تشعر بالخطر الذي يهددها . وعلينا أن نختار بين سلم روماني أو عالم بلقاني .

(١) كتب هذا الفصل عام ١٩٢٧ .

(٢) هو كلارنس دارو Clarence Darrow .

٥ - الحياة الجنسية والأخلاق

لاشئ يحزن له صاحب المذهب الفردى كهذا التعريف للأخلاق الذى يكاد يكون فسيولوجياً بأنه التعاون بين الأجزاء والمجموع . سيحتج بأن الأخلاق الوحيدة الصحيحة هى الذكاء (١) ، أو يمضى إلى آخر الشوط ويقول مع أناتول فرانس: «الصحة هى الأخلاق الوحيدة L'hygiène est la seule morale» ولكن المجرم قد يستعمل جميع وسائل النظافة ، ومع ذلك يحصل على ثروة كبيرة من الاتجار فى المخدرات . وقد يكون رئيس وزراء فرنسا على ذكاء نادر ومقدرة ممتازة ، ومع ذلك يقتل مليوناً من الفرنسيين ليفرض ضريبة على الألزاس واللورين . وقد يقبل الفسق النظيف الزواج إباحية ، والأطفال كلاباً مدللة ، والرجولة الوطنية انحلالاً . قد يكفى الذكاء إذا كان كاملاً ، وأمكن أن يستحيل إلى حكمة . ولكن ماذا نعمل فى انتظار كماله ؟ سيسرق الناس ويقتلون ويموتون قبل أن نجعل منهم فلاسفة . كلا ، يجب أن نبدأ بالشباب ونعلمهم التعاون فى صبر . يجب أن نبث التعاون فى عادات الفرد الناشئ وشعوره . يجب أن نلتمس طريقة ما نعطى بها حتى الأذكاء من الناس المعنى الرادع للمجموع . ومن يدري لعل هذا المعنى لا يختلف فى النهاية كثيراً عن الذكاء الحقيقى ، ذلك أن النظرة الكلية للفكر ستشمل النظرة الكلية للمجتمع ، وسوف يودى الفهم إلى الولاء .

بل إن خلفاءنا الصغار سوف يفهمون حين يكبرون أنه ما دامت حياة الجماعة تقوم على صفات الجنس والعناية بربية الأطفال ، فينبغى أن نخضع شهواتنا الجنسية لبعض القيود الأخلاقية . قد نتجاوز عن لا أخلاقتنا المبتكرة ، وقد نرغب فى دراسة ألوان من الشذوذ الجنى كالجنىسية المثلية ، ومباشرة الحيوانات ، وعشق القذارة ... وقد نبئس حين نرى على المسرح محاولات جريئة تتحسس على غير هدى ضرباً آخر من القانون الخلقى . ولكن قلوبنا لن ترضى عن أى أخلاق تتجاهل الجماعة . وإنا لنشعر عقب أى فعل يتنافى مع

(١) كما فعل المؤلف فى كتابه « الفلسفة والمشكلة الاجتماعية » .

المجتمع بالحاجة إلى حياة أصح وأنظف ، ونحن في حاجة إلى حياة لا نعرف فيها لذات البدن فقط ، بل رضا النفس الناشئ عن حسن الصحبة والتعاون . نريد أن نكون حيوانات سليمة ، كما نريد أيضاً أن نكون مواطنين .

أيمكن أن نفعل شيئاً لنبدل أخلاقنا من الفوضى إلى النظام ، ومن الترخص إلى المسؤولية ؟ ولا ينبغي أن نجسم تأثير الجدل والآراء في هذا الأمر . فهذه التغييرات في العلاقات الجنسية لم تنشأ عن طريق التفكير ، ولن يخيفها منطقنا . ذلك أننا نواجه عملية غير شخصية تختص بالتحول الاقتصادي وأثره على الحياة الخلقية . فإذا لم يساير فكرنا ذلك التيار من الاختراع الذي يحدد مجرى التاريخ ، فسوف يلقينا التيار على الشاطئ ، مستقيمين ولكن عاجزين .

ومع ذلك فلن تدعنا شهوة الفهم في راحة ، إذ علينا أن نتحى بهذا التغيير الخلقى جانباً ، فنحلل أسبابه ونتأمله . ولن نفقد الأمل في أن المعرفة هنا أيضاً هي القوة ، وأن الوضوح مطية الإحكام ، فلنبداً من البداية ، ولنفحص تلك الشعلة من الحب التي تنفذ في كل قانون خلقي ، وتسهلك الفرد ، وتحفظ الجنس . ولندرس صفات الجنسين ، لنبين طبيعة هذين الكائنين الغريبيين - الرجل والمرأة - اللذين يولد تجاذبهما وتنافرهما مشكلات الأخلاق الجنسية . ولنتأمل بعض الوقت المرأة المتحررة ، وننظر في أثر تحريرها المفاجيء على أخلاق هذا العصر ومستقبل البشرية . وسنكون بعد ذلك مستعدين لمواجهة إخفاق الزواج مسلمين بشيء من العلم بأصله وأسبابه . وسنقدم في تواضع بعض الاقتراحات للتوفيق بين هذا النظام العسير وبين سعادة المرء وصحة المجتمع . وأخيراً سوف نزل الأخلاق من السماء إلى الأرض ، ونناقش تربية الأطفال وتكوين الخلق . وبهذا تكمل الدائرة .

الفصل السابع

الحب LOVE

١ - لماذا نحب ؟

الحب باعتراف جميع الناس أمتع صور التجارب الإنسانية جميعاً ، ومع ذلك فمن الغريب أن يعنى عدد قليل جداً من المفكرين يبحث نشأته ونموه . وما أكثر ألوان الأدب التي تحدثت عن الحب في كل لغة وبكل أسلوب ، من أناشيد ، وتمثيلات ، وقصص ، وشعر يزخر بالعاطفة ، ومع ذلك ما أقل المباحث العلمية وما أنلر الجهود التي بذلت لفحص هذه المسألة العجيبة فحسباً موضوعياً ، ومعرفة أصلها في الطبيعة ، والكشف عن أسباب نمو الحب العجيب من اندماج البروتوزوا البسيط إلى إخلاص دانتي ، وهيام بترارك ، ووفاء هلويز لأبيلارد .

نعم لا نزاع في اشتياق الرجال إلى النساء ، وفي أن الحب « الذي يحرك الشمس وغيرها من الكواكب » يتسامى بالنفس إلى ضرب من الرفعة أعلى من غايات الحياة . ولكن لم كان ذلك ؟ لقد أعلن الشعر وجهة نظره فذهب إلى أن الحب ينبع منذ الأزل من قلب البشر . ولكن أين يوجد ينبوع الخلق لمساء الحب ؟ لماذا يهتاج الفتى عند رؤية خصلات الشعر المهذلة فوق الحاجب ؟ أو عندما تلمس أصابع المرأة ذراعه ؟ أيكون ذلك لأن الفتاة جميلة ؟ ولكن ألا يخلق حبه جمالها ، كما يخلق جمالها حبه ؟ ولماذا يجب ؟

ولست تجد في أمور الإنسان أغرب من إقبال الرجال - مع ما في ذلك من خوف - على مطاردة النساء ، اللهم إلا أن يكون استعداد النساء - وهذا من جانبيه رزائة - لقبول المطاردة . ولست تجد في سلوك الإنسان أثبت من نظرة الرجل الفاحصة التي يرمى بها المرأة في كل لحظة من النهار . تأمل هذا

الحيوان الخائول وهو يختلس النظر إلى فريسته زاعماً أنه يقرأ في الصحيفة . استمع إلى حديثه وكيف يدور به حول صيده الأزلى . تخيل ما يتخيله في خياله وكيف يرفرف حائماً حول هذه الشعلة المغناطيسية . فلماذا ؟ وكيف حدث ذلك ؟ وما جذور هذه الرغبة العميقة ، والمراحل التي اجتازتها حتى بلغت ما هي عليه من سمو وجنون ؟

فلنجازف بالبحث عن إجابات لهذه الأسئلة التي لا تخطر أبداً على بال المحيين . ولنضم أطراف هذا العلم بقدر ما نستطيع راجعين إلى ستندال ، وإليس Ellis ومول Moll ، وبولش Bolsche ، وديجورمون De Gourmont ، وفرويد ، وستانلي هول ، لئرى أيمكن أن نركب صورة فيها نظرة شاملة تكشف عن وظيفة الحب ومعناه . ولنتتبع بقدر الطاقة الطريق الذي يسير الحب فيه .

٢ - من الناحية البيولوجية

كما تدور حياة الفرد بالتبادل بين الجوع والحب ، كذلك الحياة في مجموعها تدور على التغذية والتناسل باعتبارهما المركزين الكبيرين في فلك الحياة . فالتغذية سبيل إلى التناسل ، والتناسل طريق إلى التغذية . فتحن نأكل كى نعيش ، وننضج ، ونحقق أنفسنا عن طريق الأبوة . وبالتناسل تنفصل من جسدنا الصائر إلى الموت حياة جديدة فيها القوة على التغذية والنمو من جديد ، ولعلها تبلغ في المستقبل هيئة أبداع مما كانت عليه من قبل .

ومن الواضح أن النمو في أبسط الخلايا هو الدافع إلى الانقسام ، الذى يعد أحط أنواع التناسل . ذلك أن جسم الخلية ينمو أسرع من غشائها الذى تتغذى من خلاله . ولكى تحتفظ الخلية بالتناسب بين جسمها المتزايد وغشائها تنقسم قسمين ، بحيث يتكافأ الغشاء مع الجسم . وإذا كنا في التفسير العلمى نلجأ إلى افتراض نظرية من النظريات فهذا الانقسام نفسه من الوقائع التي لا تحتاج إلى تفسير . فالبكتريا - وهى أصغر الكائنات الحية المعروفة - تتكاثر بالانقسام ، ثم تكرر الانقسام إلى الحد الذى يتعب الدهن من حسابه . وتنفصل

عناصر جسم الأميبا المركزي، أو النواة، انفصلاً غربياً إلى نواتين، ثم تنقسم الخلية كلها وتكون أميبتين جديدتين. فهذه أبوة، ولكن تمايز الجنسين لم يوجد بعد، وأكبر الظن لا يوجد حب.

مثل هذا الانقسام للكائن الحي قسمين هو جوهر حيلة الطبيعة للاستمرار في الحياة، حتى في الحيوان العاقل *Homo sapiens*. ومع أن الطبيعة تتطور بهذه الصيغة إلى آلاف من الصور المعقدة إلا أنها لا تهجرها أبداً. ويسود هذا التوالد عن طريق الانقسام البروتوزوا (أى الحيوانات ذات الخلية الواحدة). فالهيدرا (1) *Hydra* الصغيرة تبرعم من ساق هيدرا أكبر، وتنمو بالتغذية من حياة أبيها، حتى إذا تم نضوجها برزت للبحث عن الغذاء فتنافس الكائن نفسه الذي برعمت منه. وأخيراً تنفصل في حرية، وتلتمس مكاناً آخر، وتهيء لنفسها معيشتها.

وفي بعض الأحيان تبقى خلايا البروتوزون المنقسمة كالحال في بعض الفطريات *Volvox* مستقرة في قالب هلامي وتكون « مستعمرة colony ». وعندئذ يظهر تميز غريب في الوظيفة، إذ تخصص الخلايا الخارجية بالتغذية، والداخلية بالتناسل. وتصبح المستعمرة كائناً اجتماعياً تعتمد أجزاؤه بعضها على بعض وتعاون. فنذ بداية مظهر الحياة، تقدم الحياة لنا مثلاً عن « انزعال جرثومة البلازما » ذلك الانزعال الذي أقام فايسمان *Weismann* على أساسه النظرية السائدة الخاصة بالوراثة في الإنسان.

ولكن مع أن الانقسام عام إلا أنه لا يكفي، إذ يأتي وقت بعد عدة أجيال يبدو فيه أن البروتوزوا التي تكرر انقسامها تفقد الطاقة اللازمة لتكوين كائنات جديدة. وهنا تظهر ظاهرة جديدة، إذ تتحد اثنتان ضعيفتان من البروتوزوا، وتصب كل منهما من نواتها تياراً من البروتوبلازما ينفذ إلى جسم الأخرى. ثم

(1) اسمه الشجاع - بالبرية (قاموس شرف) وهو ثمان مائى متعدد الروس، إذا قطعت إحداها نمت أخرى. أو هو جنس من الديدان المائية التي تتكاثر بالانقسام. وفي حياة الحيوان للدميرى : الشجاع الحية العظيمة وتزعم العرب أن الرجل إذا طال جوعه يمرض له في البطن حية يسمونها الشجاع (المترجم).

تفصلان، ويظهر مع الغرابة أنهما قد قويتا بهذا « الزواج المجدد للشباب » ، إذ تنقسم كل منهما بقوة فطرية ، ويحقق الانقسام لعدة أجيال مرة أخرى أعراض استمرار الحياة . فالشأن في البروتوزوا في هذه الحالة شبيه بأنفسنا الإنسانية وجماعاتنا ، إذ يقوى المرء عندما يتزوج ، ويتجدد شباب الأجناس عندما تختلط .

وعلى ما في هذا الاتحاد البسيط من دلالة فهو لا يشبه ذلك الزواج بين الأفراد المختلفة ، وهو أصل زهرة الحب . أمكن أن نجد مثيلاً لذلك في الحيوانات الدنيئة ؟ نعم ، تقرب من ذلك في البندورينا *Pándorina* ، وهي مستعمرة بروتوزوية مكونة من ستين خلية، وتنقسم كل منها لا إلى خليتين مستقلتين، بل إلى أجزاء متناهية الصغر أو إلى « خلايا جرثومية *Spores* » كلها متشابهة فيما يلبو ، ولا ينشأ كائن جديد إلا بالاتحاد جرثومتين . ولنتقل إلى مستعمرة بروتوزوية أخرى هي الإيدورينا *Eudorina* فنجد الظاهرة نفسها ؛ إذ تنقسم كل خلية إلى جراثيم مختلفة ، بعضها كبير وساكن ، وبعضها صغير ونشط ، ولا يتكون كائن جديد إلا عندما تنفذ جرثومة صغيرة في داخل جرثومة كبيرة . في الإيدورينا تبدأ الطبيعة في اكتشاف الجنتين .

وهنا نجد أن الطبيعة تتردد بعض الوقت ؛ ففي بعض الفطريات نرى طريقة التناسل القديمة تتبادل بغيره مع الطريقة الجديدة . في الجيل الأول تتكاثر خلايا المستعمرة بالانقسام المعروف ، ولكن خلايا الجيل الثاني التي حدثت بالانقسام ، تتكاثر كالإيدورينا إلى جراثيم غير متشابهة ، ويجب أن تتحد جرثومتان لتكوين خلايا الجيل الثالث . وهكذا لا يمكن أن يستتب أمر الأشياء الجديدة إلا إذا ألفت بنفسها في أحضان القديم ... وهذا درس يتعلمه الشباب بعد أن يولى الشباب .

وبعض أعضاء الجسم في الكائنات الأكثر تعقيداً ، كأعضاء التذكير والتأنيث في النبات تخصص لإنتاج الجراثيم ، فيتميز نوعان من الجراثيم تميزاً كبيراً ويصبح كل نوع منهما في المراحل المتأخرة من تطور الحياة البويضة *ova* والنطفة *sperm* . ولكن هذين العنصرين المتضادين لا يزالان في كثير من الأنواع يحدثان

في الجسم نفسه بوساطة الأب (أو الأم)^(١) فقط . فدودة الأرض مثلا تفرز في فلقة من فلقها بويضات ، وفي فلقة أخرى في موسم آخر نطفاً . والحال كذلك في الحمار والملايمات الأخرى ، وبعض ذوات الأغشية ، وسمك الفرخ perch ، بل الرنجة herring المعروفة . ولما كانت الطبيعة قد ترددت في التمييز بين العناصر المولدة ، فقد ترددت كذلك قبل التمييز بين الذكر والأنثى في الكائنات التي تولدهما .

ويظهر أبسط صور التمييز المعروفة في السنجام syngame - وهو طفيلي يعيش في داخل الطيور . وهنا نجد كائناً كبيراً يبدو أنه أنثى ، أي يفرز بويضة . ثم كائناً أصغر منه كثيراً يعيش متصلاً على الدوام بجانب الأنثى ، ولا يعطى بسبب صغر حجمه أى فكرة عن سيطرة الذكر . ويشبه هذا الكائن الصغير الذى يفرز النطفة طفلياً يعيش على طفيلي أكبر منه ، أو يشبه عضواً في كائن . ولن يشك أحد في أنه زوج الأنثى .

وانظر كذلك إلى دودة البحر المسماة بونيليا bonellia ، ويبلغ طول أنثى هذا النوع نصف قدم ، وهى عريضة إلى حد ما ، أما الذكر فهو شحمة ضئيلة يبلغ طولها جزءاً من ستة عشر جزءاً من البوصة ، أى إنه أصغر مائة مرة من أنثاه . وتعمل كل أنثى نحو عشرين ذكراً من هذه الذكور الضئيلة ، التي تنفذ من داخل مجرى المضم في الأنثى إلى جسمها ، حيث تلتقي بالبويضات الموجودة داخلها وتلقحها . وأنثى الحشرات تكاد تكون دائماً أكبر وأقوى من الذكر . فأنثى الفراشة أطول من الذكر خمس عشرة مرة وتزن عشرات أضعاف وزنه . وفي بعض أنواع الحشرات يبلغ الذكر من الصغر حداً يكون فيه « أشبه بالتملة التي تدب على ظهر الخوخة »^(٢) . ولا يتفوق الذكر إلا في الطيور والثدييات ، وهنا نجد أن قوته ترجع إلى أن الأنثى بعد اضطلاعها بمعظم أعباء التناسل تغلب جسمانياً على أمرها في الحرب الجنسية الأزلية .

(١) في الأصل parent ، وهى في الإنجليزية تدل على أى الوالدين ، لا الأب فقط أو الأم فقط (المترجم) .

(٢) Gourmont R. de, The Natural Philosophy of Love. (٢)

ويبلغ هذا الاعتماد الذي نراه في الذكر وهو أصغر الجنسين على الأنثى ذروته في توضحية الذكر بنفسه عند عملية التلقيح . ففي كثير من الأنواع تأكل الأنثى الذكر بعد الاتصال الجنسي مباشرة . ويعيش ذكر العنكبوت من فصيلة إبيروس Epirus بعيداً عن الأنثى طلباً للسلامة إلى أن يصاب بنوع من القلق . وعندئذ يقبل في حياء كأنه دانتى يقرب من بياتريس ويتصل بالنسيج الخارجى للأنثى ، ويبنى لنفسه بعناية طريقاً للانسحاب والخروج ، ثم يتقدم بحذر . والغالب أن الأنثى تلتهمه في الحال دون أن تسمح لهذا المسكين بمعرفة أى شيء عن لذة الحب . ولعلها تظنه من الأعداء ، وقد تكون بمن يورث الطعام على الغرام . أما إذا سادها مزاج السفاد فأنها تمارس شعائر الحياء ، فتراجع في خفر مع أنها أكبر وأقوى من الذكر ، وتنزل خيطاً من نسيج بيتها وترفع خيطاً آخر ، على حين يتبعها الذكر الهائج ، وأخيراً تستسلم لقبضة الذكر وهيء له وهم السيطرة اللذيذ . ويبلغ انفعالهما في هذه المرحلة مبلغ الرومانتيكية والسمو ، فيربت أحدهما برقة على صاحبه بملامسه peelers ، ويفصحان عن رغبتهما برشاقة . ولا يكاد ينتهى التساقد حتى تنقض الأنثى على الذكر وتلتهمه بكل ما في الحب الكامل من سخرية . وقد يكون الذكر في بعض الأحيان يقطاً إلى الحد الذي يجعله يهرب من قبضتها المهلكة . فيزلق متراجماً على خيطه ناجياً بحياته العزيزة . ويصبح بعد ذلك فيلسوفاً ، حتى ينتابه القاق مرة أخرى .

ويقول فابر Fabre إن أنثى الجراد mantis تأكل عشاقها بمثل هذه الوحشية مع شراهة أعظم . وترفض الحشرات الأخرى اقتراب الذكر منها؛ بعد تلقيحها ، ولكن أنثى الجراد تسمح لاثنين إلى سبعة من الذكور وتقبل مغازلتهم ، ثم تأكلهم الواحد بعد الآخر في وقت فراغها . وفي كثير من الأحوال لا تستطيع الأنثى أن تصبر في انتظار وجبتها ، فتدير رأسها وتأكل الجزء الأعلى من الذكر حين يكون مشغولاً بتأدية مهمته الجنسية . ويروى بواري Poiret حالة أنثى أطاحت برأس الذكر بمجرد ظهوره ، ولكن المغرم المقطوع رأسه مضى في أداء وظيفة التناسل وكان شيئاً لم يحدث له ، وكان الرأس لا قيمة له في الصلة الجنسية . وقطع جاك لوب Jacques Loeb بطن الجماروس gammarus

وهو ذكر من القشريات حين كان يسافد، ولكنه استمر في عملياته دون اضطراب، ومن الواضح أن سائر قواه الحسية اتجهت وجهة أخرى. وفي ذلك يقول لوب: «الواقع، إلا إذا كانت ذاكرتي تخدعني، أن هذه الذكور المزروعة بطونها على استعداد إذا أبعدت عن الإناث أن تتصل بغيرها متى وجدتها» (١).

وإنا لنعجب حين ننظر إلى تبعية دور الذكر في الأنواع الدنيئة، أمثل ذلك ضرباً من التخصص تطور إليه أخيراً بالطبيعة عن نوع من الكائنات مثل دودة الأرض، حيث يعيش كلا الجنسين في جسم واحد. وكل ما كان لازماً لظهور الجنس هو تباين يحدث لبعض الكائنات التي مع تولدها من أنواع خنثى bisexual إلا أنها تصبح مع ذلك متخصصة الجنس unisexual، أى قادرة على إنجاب نوع واحد فقط من الأعضاء التناسلية.

ولكن ما الذى أعان على ظهور هذا التباين؟ وما فائدة هذا الانفصال الجديدي في الحياة إلى أنثى وذكر؟ لا يمكن أن يكون ذلك لأن الذكر الجديدي لا غنى للأنثى عنه، فالطبيعة والتجربة تشكان في ذلك. فهناك حالات كثيرة تستطيع الأنثى، حتى في الأنواع التي تم فيها انفصال الجنسين، أن تنجب فيما يبدو بغير معونة الذكر. مثال ذلك أن بقى النبات المسمى أphis يتسافد الذكر والأنثى عادة وقت سقوط الأوراق، وتضع الأنثى «بيضة شتوية» كبيرة تعيش حتى الربيع، على حين يموت سائر النوع. وتنفقس هذه البيضة الكبيرة في الربيع إنثاءً بغير أجنحة، وهى، مع أنها لم ترى ذكر من جنسها، إلا أنها تنجب خلفاً كلها من الإناث حتى نهاية الصيف. ثم تظهر فجأة بين البرقات ذكور، ينضج بعضها، وتلقح إناث جيلها التي تضع بيضات شتوية من جديد.

لعل هذه الحالات من التوالد بغير تلقيح parthenogenesis ترجع [كما يظن ترمبلى Trembley] إلى انتقال بعض ما اختزنته الإناث الملحقه في موسم سقوط الأوراق إلى البيض الملحق من الأجيال التالية غير الملحقه، وليست هذه النظرية مؤكدة. أما إمكان الاستغناء عن الذكر بالفعل فقد ثبت بالتجربة

في كثير من المعامل . فقد شجع جاك لوب البيض غير الملقح لأصداف البحر sea-urchins ، ونجمة البحر starfish على الفقس والنمو بأن يضع البيض في الكحول والأثير والكلوروفورم والاستركين والسكر والأملاح والحوامض والقلويات ، فكانت هذه الأصناف المتعددة بديلا عن الذكر المفروض أنه لا غنى عنه .

فن الواضح أن ظهور الذكر في الطبيعة لا يرجع إلى الحاجة إلى التلقيح .
فإلى أي شيء يرجع إذن؟ أكبر الظن أنه يرجع إلى ضرورة التهجين cross-fertilisation ذلك أن انفصال الجنسين جعل اتحاد الصفات والقوى الوراثية في الذرية ممكناً ، وهي صفات وقوى تنحدر عن أصلين متميزين من الأسلاف . وتبلغ مزايا هذه الوراثة المزدوجة من الوضوح ما يجعلنا نتوقع ظهور ترتيب معين يمنع التوالد الذاتي بغير لقاح . وهذا هو الواقع : فالأزهار (وهي الأعضاء التناسلية في النبات) مركبة بطريقة تجعل نفاذ عضو التذكير في عضو التأنيث من ذلك النبات مستحيلا . حتى القوقعة التي تضم في جسمها كلا الجنسين ، نجد أن أعضاءها مرتبة ترتيباً لا يسمح باللحاق الذاتي . وهكذا تدبر الطبيعة حتى نبغ نوع الإنسان فنجد أن العوامل الاجتماعية والنفسية قد تخالفت على تحريم الزواج بين الأخ وأخته ، وتوجد محرمات taboos قوية تمنع الزواج بين أفراد القبيلة الواحدة . وليس تحريم الزواج من الأهل incest ، وقوانين الزواج من خارج القبيلة ، إلا أسمى صورة لذلك الاتجاه نفسه نحو التهجين ، وهو المستول عن التمايز بين الجنسين .

والآن وقد انقسمت الكائنات إلى جنسين ، فعلينا أن نواجه المشكلة التالية وهي تعاونهما بالتقاء أعضاء التناسل . وهنا يذهلنا إسراف الطبيعة ؛ وإسرافها أعظم في النباتات المزهرة ، إذ هناك آلاف من الأنواع تعتمد على الرياح في نقل بذور التلقيح من نبات إلى آخر ، ويفوح الهواء برائحة حبوب اللقاح التي تكون ذراتها أريج الزهر ، حتى لتشغل ملايين من هذه الذرات مسافة تبلغ خمس ياردات . وتحمل أنثى سمك الدخس sturgeon في جسمها ٣٠٠٠٠ بيضة (أي ٩٠٠ رطل) ، وهذا يكفي لعمل ٦٠٠٠ شطيرة (ساندوتش) من الكافيار . أما

في سمك الرنجة فالأمر أشد إسرافاً ، إذ تتجمع مئات الآلاف من الإناث والذكور في مكان واحد حتى ليخيل للمرء أنها قطعة كبيرة من الجلاتين ، وتفرز البيض. والمنى milt بكثرة شديدة حتى يصبح لون ماء البحر كاللبن . ثم يأتي الصيادون فيمسكون بهؤلاء المغرمين جملة ، ويسحبونهم بالآلاف في شباكهم . ومع ذلك يلقح بعض البيض بوساطة المني ، أما الطبيعة المهملة التي تختقر من شأن الفرد فإنها تعزى نفسها بالاحتفاظ بالنوع .

ونحن نجد هذا الإسراف نفسه في نوعنا الإنساني ، ولو أنه خفي ؛ إذ من بين ٧٢,٠٠٠ بيضة تفرزها الأنثى ، وبلايين النطف التي يفرزها الذكر ، لا يستغل في التناسل إلا قلة قليلة (في أيامنا هذه واحدة أو اثنتان فقط) ويعتقد بولش Bolsche أن هذه الوفرة ليست مجرد نفاية ، إذ أنها تقدم المادة التي منها ينشأ الانتقاء الطبيعي البيض والمنى الضعيف وينتخب الأقوى ؛ وقد يكون هذا صحيحاً . ولكننا نشك في أن الأستاذ بولش قد أعلى من شأن الطبيعة أكثر مما تستحق ، فهي ليست من الذكاء بمقدار ما يظن . ولا ريب في أننا قد ورثنا الغباء الذي لا ينضب له معين من أمنا الطبيعة .

ويصحح هذا الإسراف في الحيوانات الراقية ما تتخذه الطبيعة من احتياط. في التركيب لهداية البيضة والنطفة واتحادهما من جهة ، وما يتخذه الآباء من عناية نامية من جهة أخرى . مثال ذلك أن نجمة البحر star-fish تحتضن بيضها الملقح بيديها ، وكذلك صغارها بعد فقسها . ويقود ذكر الزقزوق (نوع من السمك) أنثاه إلى حفرة لتضع البيض ، ثم تذهب إلى حالها ويعنى الذكر بالنسل بنفسه ، كما يفعل الزوج في العصر الحديث . وتضع أنثى فرس البحر من النوع المسمى كامبوس هدسونيوس campus hudsonius بيضها في جراب على بدن الذكر الذي يعنى بالبيض إلى أن يفقس . ويبلغ المتوسط السنوي لما تضعه آلاف الأسماك التي تكثني بوضع البيض ثم تتركه حول مليون لكل زوج . وفي مائتي النوع التي تظهر شيئاً من عناية الأبوة فلا يبلغ المتوسط إلا ٥٦ بيضة للزوج في العام . وتضع الطيور التي لا تبني لها عشاً اثنتي عشرة بيضة في العام . أما التي تبني عشاً خشناً فيبلغ ما تضعه ثمانى بيضات ، والتي

تبنى عشها بعناية خمساً (١). وهكذا نجد أن الحب الأبوى يحل شيئاً فشيئاً محل إسراف الطبيعة ويعوضها . وفي الثدييات التي تختص بعناية الأمومة بنجب الزوج ثلاثة صغار في العام ، وتقل هذه النسبة في الأنواع الراقية . ثم تنمو الأسرة ببطء كأنها رحم خارجي يعنى بالنسل خلال فترة أطول من الزمن . وكلما طال زمن البلوغ ارتفعت الحضارة التي تعتمد إلى حد كبير على فترة التربية إلى مستويات أعلى مما كانت عليه من قبل .

والآن ما موقف مشكلة الحب من وجهة نظر هذه الزاوية البيولوجية السريعة ؟ يجيب أرسطوفانس ساخرآ في محاوره المأدبة لأفلاطون (١٨٩ - ١٩٢) قائلا : « كان الجنسان في الزمن القديم واحداً ، ولكن الإله - بسبب خبث البشر - قطع الإنسان نصفين ، كاللفت الذي يشق نصفين للتخليخ ، أو كما ينشق البيضة بشعرة ... وكل منا حين انفصل لم يكن إلا نصف إنسان ... بتطلع على الدوام إلى نصفه الآخر ؛ فالرغبة في الكل والسعي إلى تحقيقه يسمى حباً » . وهذا لعمري تعريف شريف ، يحننا على تأويل هذه الأسطورة تأويلاً علمياً ، فنقول : كان كلا الجنسين في قديم الزمان في بدن واحد كما هي الحال إلى الآن في دودة الأرض ، ثم فصلتهما الطبيعة إلى كائنين . ولذلك يحس الآن كل شطر منهما وهو منفصل بأنه ليس إلا نصفاً ، فيشتاق إلى الاتحاد والتكامل .

ولكن الجواب عن سؤالنا « ما الحب » يعد جواباً غامضاً . إذ يفترض ذلك وجود وعى فلسفي عال في أحط الخلايا الجرثومية البروتوزوية . وأكبر الظن أن وظيفة الذكر حين تخصصت أول مرة في كائن منفصل ، لم يسع إلا قلة قليلة من تلك الذكور الأولية إلى الاتحاد « بأنصافها الحلوة » . وتلك الذكور التي سعت ووقفت في الاتصال بنصفها الآخر ، هي وحدها التي أصبحت آباء الجيل التالي . وهكذا كان المحبون في كل جيل - أي الأفراد الذين حققوا الكمال بالاندماج فيمن يكملهم - هم الذين نقلوا شوقهم إلا الاتحاد في مجرى الحياة . أما الذين فقدوا الشعور بهذه النزعة أو شعروا بها شعوراً ضعيفاً ، فقد انقضت

Sutherland, A., Origin and Development of the Moral Instincts, Vol. I, (1)

حياتهم بغير نسل أو بنسل قليل ، وذهب فتورهم بموتهم . من أجل ذلك نما:
الشوق الشديد مع كل جيل ، فلا غرابة أن يصبح هو العاطفة الغالبة ، وهى
أقوى من الموت ... ذلك الموت الذى تخدعه هذه العاطفة فى صبر بالاستمرار
عن طريق التبدل . ولعل ... لعل هذا هو الطريق الذى جاء منه الحب .

٣ - الأساس الفسيولوجى

لقد تحدثنا عن الحب بما فيه الكفاية فى تطوره خلال سلسلة الحياة ..
فلنتأمل الآن نموه فى الفرد ، أو كما قال أرسطو : إذا أردت أن تفهم حقيقة
شئ ما فعليك أن تبحث نشأته وتطوره .

أوجد فى الطفل ما يضاهاى عاطفة الحب التى تظهر فيما بعد ؟ يجيب
فرويد فى ثقة عن هذا السؤال مثبتاً إياه ، وشيد قصوراً مدهشة من علم النفس
الطبي أقامها على الاحتمالات الشبقية لمص الأصابع ورضع الثدي . ولكننا حين
نفصل الوقائع عن النظريات نجد الوقائع ضئيلة جداً . فهذا واطسن وأعوانه وضعوا
مئات عدة من الأطفال تحت الرقابة فترة طويلة من الزمن ، فلم يجهدوا عندهم أى
سلوك جنسى من أى نوع (١) .

ومع ذلك فلا يلبث الطفل أن يظهر وعياً بالجنس الآخر ، فيبدو عنده
ضرب من الفضول التشرىحي يشجعه عليه الإخفاء والمراوغة . ويصبح كل جنس
شيئاً غامضاً بالنسبة إلى الجنس الآخر ، ويثير فيه رد فعل عبارة عن مزيج من
الحجل والحاذية . ولا يكاد يوجد بين الجنسين الصغيرين أكثر من ذلك .
فاذا حصل الحب قبل البلوغ فالأشبه أن يكون فى هيئة « عقدة أوديب » ، أى
يتعاقب الصبي بأمه ، والفتاة بأبيها . ولكن ليس ما بينه فرويد هو الشئ القطيع ،
فالعقدة أوديب ليست لا شعورية ولا شاذة ، بل هى سبيل الطبيعة إلى إعداد
الطفل لحب سليم . أما إذا كانت العلاقة على غير تلك الصورة ، أى حين

(١) Watson, J.B., Behavior, p. 262.

يتعلق الابن عاطفياً بأبيه ، أو تتعلق البنت بأبها ، فعندئذ يكون من المعقول أن يزعج علماء الطب النفسى .

وعند البلوغ يفتى الحب أنشودته الواضحة . والمعنى الحرفى للبلوغ (١) puberty يدل على السن التى يثبت فيها الشعر على جلد الذكر ، وبخاصة شعر الصدر الذى يتيه به فى توحش ، وكذلك شعر الوجه والذقن الذى ينتزع فى صبر أيوب . ويبدو أن نوع الشعر وغزارته يثبتان ويقعان (فى الظروف العادية) مع دورة القوة الجنسية ، ويبلغان الأوج عند ازدهار الحيوية . هذا الشعر الذى يثبت فجأة إلى جانب خشونة الصوت من « الصفات الجنسية الثانوية » التى تصيب الذكر عند البلوغ . أما الفتاة النضرة فان الطبيعة تجعلها لينة الأطراف ثقيلة الأرداف حتى تفتن العين ، عريضة الحوض لتيسير الحمل ، بارزة الهدين لإرضاع الطفل .

فما الذى يسبب هذه الصفات الثانوية ؟ لا أحد يدرى . ولكن الأستاذ ستارلنج Starling اكتشف ما يؤيد نظريته التى تذهب إلى أن الخلايا التناسلية عند البلوغ لا تشرع فى إفراز البويضة والمنى فقط ، بل كذلك بعض « الهرمونات » التى تنفذ إلى الدم وتكون علة حدوث تغيير جسمانى ونفسانى . ولا يوهب الجسم فقط بقوى جديدة ، بل يتأثر العقل والخلق بألوان شتى من التأثير . وفى ذلك يقول رومان رولان : « تمر بالرجل فترات من العمل يحدث فيها تغيير عضوى صامت » - أو بالمرأة . ومرحلة البلوغ هى أهم هذه المراحل .

ثم تغمر مشاعر جديدة الجسم والنفس . ويسوق حب الاستطلاع العقل إلى الأمام ، ويرده الحياء إلى الوراء . ويصاحب الشاب بالارتباك فى حضرة الجنس الآخر ، وتعلم الفتاة كيف يحمر وجهها خجلاً . وقد يصبح الطفل فجأة ذكياً بعد أن كان غيبياً ، أو يصبح عنيداً بلا سبب معقول بعد أن كان مطيعاً . وتنتاب البالغ نوبات من النظر فى باطن نفسه ، وأحوال غريبة من التأمل

(١) هذا من جملة معانى اللفظة فى الإنجليزية . أما فى العربية فالبلوغ هو إدراك سن الرشد ، ويقال أيضاً الاحتلام والحلم والمراهقة ، وبعضها يدل على الإدراك العقل ، وبعضها يشير إلى الحالة الجنسية المروقة (المترجم) .

والشروء . ويفتح الخيال وتظهر دولة الشعر ، ويطمع جميع المثقفين إذا بلغوا هذه السن في التأليف ويحملون بشهرة خالدة . وتسرع كل قوة عقلية في النمو ، ويهجم العقل بأسئلة جديدة على الكون . وإذا استمر الشاب سائراً في طريق التفكير أصبح عالماً أو فيلسوفاً ، أما إذا هجره سريعاً فقد يصبح رجلاً ناجحاً في الحياة ويرتقى أعلى المناصب .

وفي هذه الفترة يروى ماء الحب المتدفق جذور الفن للمجتمع والإخلاص له . ذلك أن الحب يتخيل الجمال ، ويبحث عنه ، وقد يبتدعه . والحب يتخيل الخير ، ويسعى إليه ، ويبرز عازماً على تحقيقه . وإذا كان الدين يعرض نفسه في هذه المرحلة على أنه عقائد إلهية فقد يثير في نفس الشباب شهوة الجدل ، وتمتاز بذلك أوصال الدين . أما إذا عرض نفسه على أنه يطلب الخير تأثرت به مثالية النفس المتغيرة ، وأصبح الدين جزءاً لا يتجزأ من الشخصية .

جملة القول مرحلة البلوغ أعجب مراحل حياتنا . فهو عصر العقل ، وهو مع ذلك فترة الانفعال ، إذ ينثر العقل والقلب في كل جانب وابلًا من أفكار جديدة ومن عواطف المحبة . ولن تجد العالم يبدو أغرب ومع ذلك أجمل ، وأبعد منالاً ومع ذلك أسهل نيلاً ، كما يبدو في هذه السنين التي ينتقل فيها الإنسان من طور إلى طور ، حتى ليشتاق المرء في كل عمر متأخر إلى الرجوع إليها . سن البلوغ هو ربيع كل قوة ، وزمان البذر لكل حصاد ، وفيها تجد سائر العواطف الشريفة غذاءها . هذه السن هي نهضة الحياة .

ومع ذلك أي قوة داهية هذه التي تسوق الفتى في خوف نحو الفتاة ، وتجعل الفتيات يتمنعن وهن الراغبات ؟ أي سر غامض يعمل في جنبات الجسم ليخلق أبهى زهرة في جميع حياتنا ... حب الرجل للمرأة ؟

وتأخذ الخلايا الجرثومية في البدن تهتاج وتتفجر بالحوية وكأنها قد عقدت العزم على مغالبة كل جهد للاحتفاظ بهذا النشاط الجديد . وكما أن الأصل البيولوجي للحب هو الانتخاب الطبيعي ونمو الغريزة إلى تحقيق الاتحاد ، كذلك أساس الحب الفسيولوجي في الفرد هو تجمع المادة الجرثومية ، فيحتاج الكائن

بأسره ، لإحساسه بتوقف النمو وقلق الحياة المتوسعة ، ويمتلئ القلب بحزن لذيذ ولكنه ثقيل ، وكأنه قد أدرك أنه ناقص فتعطش إلى أن يكمل نفسه .

وفي ظل هذا الاحتياج يتأثر الشباب بألاف من المؤثرات كانت تمر به دون أن يشعر بها من قبل ، وتروقه بعض الأصوات ، وتفتنه الموسيقى والغناء إلى أقصى حد ، ويتصف الصوت برخامة جديدة (لعلها بدأت في نداء الذكر من الحيوانات الدنيئة) ، ويستمتع المحب بسماعه . ويعجب الشباب ببعض الروائح ، يعبير البدن النامي ، وأريج النظافة ، وقوة العطر المنبهة للغريزة ، وهي جميعاً كالخمر التي تسكب في كأس الحب . وتفتنه كذلك بعض الحركات : إيقاع الرقص ومخاصرته ، وهزة جسم الرياضيين وثقتهم بأنفسهم ، ورشاقة الفتيات وخفتن . أما المناظر فتفتن الشباب أكثر من أى شيء آخر ، إذ يفيض موسم الحب بالألوان ، ويفضئ اللون الأحمر إلى حب الامتلاك . ويتألق الشباب في الملابس في زمان الألفة ، كما ينبت العرف والريش للطير والحيوانات . ويطلق المتوحشون أجسادهم بالنقوش فيشوهون أنفسهم ليلفتوا إليهم الأنظار ويثيروا الحواس . ولا يصبح اللباس وقاية بل زينة ، ومصدراً للوحى ، وباعثاً على التأثير . وتخفق القلوب الرقيقة للشجاعة والقوة ، وتثير رؤية الأجسام البضة رغبة الشباب . فهذه التجارب الجديدة من الروائح والأصوات والملموسات والمناظر ، ومن العطر والغناء والرقص وشتى أنواع الاستعراض ، تشغل أيام الشباب وأفكارهم الحاملة ، وتصبح بواعث لا يمكن صدها إلى الحب .

ثم تجتمع سائر المؤثرات وتظهر فجأة جميع الشروط ، وتنطق حاجات الجنس بلسان جوع البدن والروح . وعندئذ يولد الحب ويشرق في القلب كما ييزغ النور في الصباح ثم ينتشر فيملاً الكون نوراً وناراً . وفي ذلك ينشد لوكريتيوس العظيم :

« إيه أيتها الزهرة ، إنك وحدك سيد طبيعة الأشياء ، ولا شيء يرتفع بغيرك إلى عوالم الحياة المقدسة ، أو يصبح بهياً أو مرحاً . وإنك لتملئين جميع القلوب بالحب العميق ، وتسوقين كل قلب إلى أليفه يعملان على استمرار الجنس بالرغبة الحارة ، من خلال سائر الجبال والبحار والأنهار المتدفقة ، وأعشاش الطيور

المورقة ، والسهول المكسوة بالحشائش . إذ ما يكاد الربيع يشرق مع الصباح ، حتى تثب القطعان البرية فوق المراعى الباسمة ، وتعم في المياه الحارئة ، وقد أسرت قلوبها المباهج الساحرة ، وساقها الحب إلى اتباعك^(١) .

٤ - النمو الروحي

على هذا الأساس الوطيد الطبيعي يقوم ذلك الحب الذى هو روح وشعره ، كما ينشأ إخلاص الأليف لأليفه من شهوة الحياة للاستمرار . ومن هذا الجوع للجسد ينبع أجل وفاء بين روحين . ومن شهوة الهمجى في الكهف ينشأ في النهاية غرام الشعراء . فهذا هو السلم الذى يرتقيه الإنسان .

ويبدو أن البدائيين من البشر لم يعرفوا من الحب إلا الشيء اليسير . إذ ليس في قاموسهم لفظة تدل عليه ، وإذا تزوجوا لم يفعلوا شيئاً يقرب من الغزل أكثر من الرغبة في البنين ، والاختلاف بانتظام إلى تناول وجبات الطعام . وفي ذلك يقول لابوك Lubbock (وعلماء الأجناس مغرمون بالبحث في الأماكن الغربية) : « يحتفل أهل « يوروبا Yoruba » بالزواج بلا أدنى اكتراث . ولا يفكر الرجل منهم في اتخاذ زوجة إلا بمقدار ما يفكر في انتزاع سنبله من القمح ... ولا محل للحب على الإطلاق^(٢) وكان نبتة يعتقد أن « الحب الرومانتيكى » من اختراع شعراء الأقاليم troubadours . ولكن لا ريب أن ثمة عنصراً « روحياً » ينمو في الدافع التناسلي حينما ظهرت الحضارة . وكان الإغريق يعرفون القصص الغرامية ، ولو أن ذلك كان على طريقتهم الشاذة . وتدلل قصص ألف ليلة وليلة العربية على أن الحب لم ينتظر حتى ظهور الأغاني في العصر الوسيط . غير أن مغالاة الكنيسة في تقديس العفة ، وإحاطتها المرأة بسحر ما يستعصى على النوال ، كان مما ساعد على ازدهار شعر الغزل . ويقول في ذلك لاروشفوكو : « الحب بالنسبة إلى روح الحبيب ، كالروح بالنسبة إلى البدن الذى تحييه » . ويقول دى موسيه : « جميع الرجال كذابون وغشاشون .

On the Nature of Things, Tr. Munro, Book ii, lines 99f. (١)

Origin of Civilisation, p. 51. (٢)

ونفاجون ومنافقون ومحتالون ، وكافة النساء معجبات بأنفسهن ومتصنعات وماكرات ... إلا شيء واحد مقدس وجليل ، ذلك هو اتحاد هذين الجنسين الناقصين . « ويقف نيتشة ليمجد الحب قائلاً : « أظهر عبارة سمعتها هي قول القائل : إذا كان الحب صادقاً احتضنت الروح الجسد » .

كيف يمكن تحليل هذا التحول من الرغبة الطبيعية إلى الحب الرومانتيكي؟ ما الذى يجعل الجوع الجنسي يزدهر هذا الازدهار فيصبح ظرفاً ، واهتياج البدن رقة الروح ؟ أيكون ذلك لأن الحضارة مع نموها قد أجلت سن الزواج ، وتركت الجسد في شوق إلى رغبة لم يحققها ، ذلك الشوق الذى انعكس في باطن النفس إلى صورة من الخيال ، وألبس المحبوب ألواناً مثالية أضفتها رغبته التى لم تتحقق ؟ إن ما نطلبه ولا نجده ، يصبح أغلى لأننا لم نجده . وسوف نرى أن جمال الشيء في قوة الرغبة إليه . وأن الرغبة حين تضعف ، تقوى إذا أشبعت بالزهد فيها . من أجل ذلك كان الحب أكثر روحانية في شباب الفرد وأوج الحضارة ، لأن الكبت يبلغ ذروته في ذلك الأوان ، ويخفف الشعر ما تشعر به الأجساد من حرمان .

فلنتأمل النمو النفساني للحب ، مهما يكن مصدره . إنه يبدأ في الأغلب بانعطاف الفتاة انعطافاً خاصاً نحو أبيها ، وانعطاف الولد نحو أمه . ثم يتحول ذلك إلى ضرب من التعلق القوى بشخص في مثل سن الحبيب . وتجذ في كل حجرة دراسية أطفالا يحبون المعلم المخالف لجنسهم . وكتب جيته قصة مشهورة يصف فيها غرامه بامرأة حطمت قلبه ، حين دعت طفلهما . ويبلغ الإبداع الرومانتيكي ذروته في هذه الغراميات المؤقتة ، إذ يحرك البدن النامي الخيال فيرى صوراً بديعة ، ولا بأس أن يرفعها إلى مقام الحقيقة ، فيختزن أى شيء يوافقه في ظلال هذا الخيال . وليس للعنصر الجسماني أى مدخل يشعر به الإنسان . وفي ذلك يقول جيته : « إن أول نزعة للحب عند الشباب الصالح تتخذ وجهة روحانية خالصة » (١) .

ثم تأتي بعد ذلك مباشرة تلك التجربة اللطيفة التي نسيء تسميتها بقولنا حب «العجل calf» (١) - ولو أن المرء لا يمل النظر في جمال ذلك الحيوان الوديع . ويكون مثل ذلك الحب خفياً لا يصرح به ، ولا اسم للمواهب اليسيرة التي تنشأ عنه . والبنت في هذه المرحلة أكثر شجاعة من الصبيان ، ومع أنهم يفقدن (في الظاهر) بعض هذه الحرارة حين تتقدم بهن السن الواعية ، فأنهن يحتفظن إلى آخر الأمر بدراية ممتازة في فنون الحب . ويبدو الصبي خجولاً ، ولكن البنت تحتفظ بكيانها وتظل سيدة الموقف . وفي بعض الأحيان يتعد الصبي عن الطريق حتى يتجنب الفتاة التي يشواق إليها ، وينفق ساعات طويلة وحيداً في ظلمة الليل ، أو يهيم على وجهه في النهار ، يتفكر في مرارة في تلك الحركات الطائشة التي صدرت منه أو العبارات السخيفة التي بليت منه في حضرة محبوبته . وقد تبلغ هذه الحساسية عند بعض الشباب الذين يستظلون بظل الأمومة ويتعلقون بها مبلغاً يجعلهم يتقيدون بها ، فيظل الشاب عزباً إلى آخر عمره . وعندما يشتد ساعد الصبي يغذى في نفسه روح حب الظهور ، حتى إذا رأى فتاة أحلامه خاطر بحياته في الألعاب ليضع تحت قدمها إكليلاً من الغار . ويولد الشباب في ميدان الألعاب البدنية ، تلك المصارعات الدامية بين ذكور الحيوان لامتلاك الإناث ، كما يمهد لتلك المنازعات الاقتصادية التي يتنافس فيها الشباب الناضج للحصول على الفاتنات ، والاحتفاظ فيهن بابتسامة الرضا . وهكذا نرى أن الحب يدير عجلة الحياة .

وينتقل الحب من هذه المظاهر المبكرة التي تعقب تمام البلوغ مباشرة إلى مراحل مختلفة تكون سوية إذا عبرت وزالت ، وشاذة إذا دامت . فالانحراف perversion ارتداد stavism إلى صورة قديمة من السلوك كانت في الأصل سوية ونافعة ، ثم ظهر ما يفضلها ويسمو عليها . ويتقلب الكائن السليم في هذه الشروط المبهمة كما تقلب دانتى في الجحيم ، فهو يجربها ، وتصهره تجربتها ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحب البالغ والسليم . وتظهر في هذه الآونة أيام الغزل ، وهي أبهى أوقات الحياة الإنسانية .

(١) يقال في العربية النعجة بدلا من العجل ، والمقصود اتباع العجل أمه . (المترجم) .

وليس معنى ذلك أن الغزل ظل ينتظر حتى سن النضوج ، لأن نصف ألعاب الطفولة هي ألعاب حب ، حتى إن الطفلة في الخامسة تستطيع أن تغازل ببراعة . ويخدم الغزل أغراضاً حيوية ، فهو يدفع الحب إلى آفاق أرحب ، ويفسح المجال لانتخاب الأفضل ذلك الانتخاب الذى يرفع تدريجاً نوع الحياة . وتمتاز شعائر الغزل عند البالغين بهجوم الذكر للظفر ، وانسحاب الأنثى إغراء ، ولو أننا نجد ضرباً من الاستثناء لهذه القاعدة . ففي غينا الجديدة تغازل الفتيات الرجال ويغدقن عليهم الهدايا ، ولكن هذه العادة البديعة لم تغز بعد بلادنا . وقد نجد في بعض الأحيان امرأة مثل حنة Anne تغرى بعد روية وبصيرة المستر تانر Tanner في شباكها ... على الأقل في رواية برنارد شو . ولكن الذكر عادة هو الذى يلعب الدور الإيجابي والهجومى ، لأنه بالطبيعة هو المحارب وهو الحيوان المفترس . والمرأة بالنسبة إليه غنيمة يجب أن ينتصر عليها ويمتلكها . فكل غزل مغالبة ، وكل سفاد غلبة .

ويقول ستانلى هول : « من الجنادب ما تبلغ من شدة البأس في القتال حداً يجعلها تتمكن من المنازلة كالديكة . وتحارب ذكور السمك حتى الموت . في أثناء موسم التوالد وفي مناطق بيض السمك ، وتصبح أسنان ذكور السلمون البالغة حادة وتختلف اختلافاً تاماً عن أسنان الإناث . وقل أن تلتقى السحلى في الربيع دون أن تتقاتل . وتقاتل معظم الطيور في الربيع فاستعمل المنقار والمخالب والصياصى التى تكون على الأجنحة وتبرز من الأرجل . ويتفق موسم الحرب عند هذه الضروب من الحيوان مع موسم الحب » (١) . وتنقلب الحرب عند الرجال منافسة على التجارة وضرباً من المباهاة . فنحن نتحارب « بالشيكات » لا بالأنياب ، وتختنى محالبنا وراء آداب التجارة .

والمرأة إذا كانت حكيمة حاربت بالفرار والعفة . والعفة انسحاب وفق خطة موضوعة ، وهى تنشأ من الخوف والطهارة ، وتنمو بالمداينة والدهاء . وليسعت العفة من خصائص النوع الإنسانى ، لأننا نجد لها شديماً واضحاً وأصلاً في إحجام أنثى الحيوان عن المسافدة في غير موسم أو في غير موضع . ولكن

الإنسان، كما قال بومارشيه، يختلف عن الحيوانات في أنه يشرب وهو غير ظامئ، ويطأ في كل موسم. والعفة عند المتحضرين من أبهى مراحل النمو النفساني للحب. فهي ترتفع إلى مرتبة فذة من العظمة، وقد تقهر في بعض الأحيان أعرق دوافع النفس. وتابع حكماء المشرعين في الملايو قديماً طريقة يقضون بها على موجة من الانتحار سادت بين النساء، بأن أصدروا أمراً يحتم أن تحمل جثث المنتحرات عارية في الشوارع (١).

وكان وليم جيمس يرى أن العفة ليست غريزية بل مكتسبة، فقد اكتشفت المرأة أن البذل يولد الابتذال، ونقلت هذا الاكتشاف إلى بناتها. وذهب ديدور أبعد من ذلك وأرجع هذه المسألة إلى غيرة الأزواج الذين أدى إحساسهم بالملك إلى فرض العفة على زوجاتهم. وفي كثير من القبائل لا يأتزر إلا المتزوجات فقط، إذ يعتقد أزواجهم (وهم في ذلك أعقل من خالق «جزيرة بنجوين») (٢) أن ذلك يعين على الاحتفاظ بحقوق الملكية. وعندما حل الشراء محل الأسر، وأصبح ذلك بدعة الزواج الشائعة، ورأى الآباء أن الأبنكار أغلى مهوراً، شجعوا - في فضيلة - على العفة.

وقد نشأت العفة من هذه المنابع المتعددة حتى أصبحت إحدى مفاتيح المرأة الداهية. ذلك أن العاهر غير جذابة إلا فترة عابرة للرجال. والتحفظ في العرض والاقتصاد في إبراز المفاصل أفضل سلاح في اصطیاد الرجل. ولوأنهم علمونا تشريح الأعضاء التناسلية على قارعة الطريق لأثار ذلك فينا الانتباه، دون أن تتحرك فينا «النوايا». وينجذب الشاب إلى ناعسة الطرف لأنه يشعر دون أن يفكر في ذلك أن هذا التحفظ البارع يخفي في المرأة رقة هي أجمل ما فيها. فالعفة، بما تحتفظ به من ثمن، تحت على إبراز قلرة الذكر وشجاعته، وتحركه إلى أعمال عظيمة النتائج وتبعث الطاقة المخزنة وراء المستوى المتوسط المريح الذي

(١) Ellis, H., Studies in the Psychology of Sex, vol. I, p. 24.

(٢) قصة لأناتول فرانس يمرض فيها تاريخ فرنسا متهكاً، وفيها يتصور القسيس أنه يعمد

هذه الطيور بدلا من الناس. (المترجم)

نعيش فيه . ومن يدري إلى أى حد ترجع أعمال الرجال الإنشائية إلى المنافسة الجنسية وحب العرض ، كما هي الحال في عظمة ألوان الطيور ؟

ولنفرض أن الفتنة سارت في طريقها ، وتكامل الحب بالأبوة ، واكتملت دائرة الرغبة بإنجاب طفل . وأكبر الظن أنه ليس ثمة غريزة نوعية باسم التناسل ، بل ثمة فقط غرائز الصلة الجنسية mating وعناية الآباء بأبنائهم . فالطبيعة تحقق أغراضها بوسائل منحرفة ، والنوع الإنسانى ثمرة عرضية لأعظم ما فيها من لذة . ولن نجد شيئاً أكثر سخرية من هذه الطريقة التي تنشر الطبيعة بها المواليد الحمر بالدماء المتفرعة عن أمهاتهم : وإن كنت في ريب فاستمع إلى صراخ النساء وصيحات الولاء في المستشفى . ومع ذلك فما أبرع طريقها الشيطانية في تهدة نائرة الأم باللشوة المخدرة ، وقلق الأب بزهو أعمى يجعله يدفع باسم الأجر الباهظة المفروضة الآن لأولئك الذين يجراؤون على استمرار جنسنا الذي ربما لم يكن ضرورياً .

ويتجدد حب الآباء حين يظهر الطفل إلى الوجود ، ولكنه حب يختلف عن تلك الشعلة التي كانت تحترق من قبل . حقاً لقد كانت تلك الشعلة خليقة أن تذبل في تلك الأيام إلى ذوابة ضعيفة عند ولادة الطفل ، والطفل نفسه جدير أن ينتزع من قلمي الأبوين بعض العاطفة التي جعلتهما موتئذ شخصاً واحداً . فالأم تمنح إلى نسيان الأب في عمرة عاطفتها الجديدة ، ويميل الأب إذا كانت الأعجوبة الصغيرة بنتاً إلى أن يخلع عليها هيامه الذي كان يضيفه على زوجته . على أن هذا اللهو يفقد آخر الأمر سحره ، وتنشأ روابط جديدة تصل بين الزوجين مرة أخرى .

وبعد فهذا هو الأوان الذي يجعل التألف بين الزوجين كاملاً . ذلك أن تلك الأعوام من الأبوة تزخر بكثير من التجارب والحزن ، وصروف الدهر ، وآلام البدن ، ومخاوف القلب . ويحلب المرض للخيال المتقلب شيئاً من العمق والاعتدال ، ويسير الحب في ركاب حياة جديدة مصيرها إلى الموت . وحين يشترك الزوجان في عمل المشروعات ومحاولة تنفيذها ، ويظفران معاً بالنجاح ، ويتسمان ، يتداخل عقلاهما المتجانس في شركة روحية قد ترتفع إلى حد

امتزاج الشخصيتين ؛ بل إن وجهيهما قد يتشابهان . ذلك أن مراقبتهما معاً مهد الأطفال ، وروثيتهما إياهم ينمون ، ومنحهم بعد ذلك شيئاً فشيئاً حباً أصغر ، كل ذلك يصوغهما شخصاً واحداً .

حتى إذا لم يبق في البيت الذي كان يردد رنين ضحكات الأطفال إلا ذكراهم الصامته ، أظل الحب وكأنه يعزى الزوجين بجناحيه رفيق العمر الطويل . ذلك أن أنشودة الحب لا تبلغ تمامها حتى تسرى بنغمتها الحارة وحدة العمر واقتراب « العدو الأكبر » . والذين عرفوا الحب على أنه رغبة لم يعرفوا منه إلا جذوره وجسده ، أما روحه فهي الباقية الآن وقد تبدد كل عنصر جسماني . وفي هذا التآلف الجديد بين القليلين القديمين يبلغ الازدهار الروحي لجوع البدن التمام .

فهذه هي دورة الحب . ولتأمل هذه الدورة مرة أخرى في لحظة واحدة ... في خلايا البروتوزوا المندمجة ، وفي شهوة الحيوان العنيفة ، وفي غلطة الهمجي الغليظة ، وفي عيون الشباب الحاملة الذائبة ، وفي قصائد إليزابيث بروننج أو قصة فرنشسكا ، وفي الرفيقين العجوزين وهما يرتعشان سعادة كلما تجمع أبناؤهما وأحفادهما لإحياء ذكرى نصف قرن من الحب . أهنئك أغرب من هذا التحول ، هذا التسامى البطيء من مغناطيسية العناصر إلى أناشيد الهيام والإخلاص لجميع ميادين الحياة ؟ وإنا لنذكر في هذا المقام كلمات سنتايانا العميقة التي يقول فيها : « لكل شيء مثالي أساس طبيعي ، ولكل شيء طبيعي نماء مثالي » . فقل للحب : لا تنجس من أصلك ، وللرغبة أن تذلل إذا لم تسم إلى مراتب العبادة .

لتند كان حب الفلسفة هو الذي ساق أفلاطون إلى أن يقول : « إن الذي لم تمسه نار الحب يمشي في الظلام »^(١) . ولام لا بلاس عندما حضرته الوفاة أصدقاءه الذين أرادوا تعزيتة بشرة كتبه واكتشافه ، فقال لهم أسفاً : إن هذه الأمور ليست أهم شيء في الحياة ، فسألوه : « وماذا إذن ؟ » وأجابهم العالم الشيخ وهو في النزع الأخير : « الحب » .

(١) المأدبة ، ١٩٧ .

فكل شيء إلى موت ، ما عدا الحب الذي يهرب وحده من الفناء . ذلك أنه يتخطى القبور ، ويسد ثغرات الموت بالتوليد . وما أقصر ما يبدو الحب في مرارة الحقيقة البعيدة عن الأوهام ، ومع ذلك فما أدمه إذا نظرنا إليه من خلال البشرية ... وكيف يتقد بضعة منا آخر الأمر من الهلاك ، فيحتفظ بحياتنا مجددة في شباب الطفل وقوته . ونحن قد نمل الثروة ، وقد تكون حكمتنا بصيصاً من النور لا يبعث حرارة ، ولكن الحب يدفء القلب بسلوان لا يمكن التعبير عنه ، ويزداد دفء القلب إذا كان عاشقاً لا معشوقاً .

الفصل الثامن الرجال والنساء

١ - حرب الحب

كان جوركي وتشيكوف يتجولان في القرم فأقبلا على تولستوى الذى كان يجلس بجانب الشاطئ وقد مال برأسه يتأمل حتى مست لحيته الرمال . فجلسا إلى جانبه وشرعا يتحدثان عن النساء . وظل تولستوى ساعة يصغى فى صمت ثم قال فجأة : « أما أنا فلن أحدثكم عن حقيقة المرأة إلا حين أضع قدمى اليمنى فى القبر . سأعلنها صريحة ، ثم أقفز فى التابوت ، وأعطى نفسى وأقول : « افعلوا ما شئتم بى الآن » (١) . وحين دعا الكونت كيسرلنج برنارد شو للمساهمة فى كتابة فصل فى « كتاب الزواج » رفض شو قائلاً : « لا يجرؤ أى رجل أن يكتب شيئاً عن حقيقة الزواج حين تكون زوجته على قيد الحياة » . ومع ذلك فسوف نشرع فى الكتابة عنه ، مقتصرين فى هذا الفصل على تحليل أنواعه المتوسطة والثقلية بوجهين الفحص عن تحرير الأقلية الحديثة من النساء إلى الفصل التالى .

وتعد آداب هذا الموضوع أمتع الآداب وأبعدها عن الثقة . فهى ممتعة لأنها تتصل مباشرة بأنفسنا ، إلا إذا تحدثت عن أخطاء البشرية ورذائلها . أما أن هذا الأدب مما لا يعول عليه فلأنه حكاية عن السيرة الشخصية ، وكل سيرة شخصية فهى ، قصة خيالية fiction ، لأنها فى الغالب صوت الانتقام ، ولا يقدم على كتابتها إلا المحارب المهزوم . وحين يؤلف أحدنا كتاباً عن النساء يدونه بجرحه (وهذا لا ينطبق على مجرد الفصول من كتاب) . وعندما يكسب الرجل قلب المرأة (إذا كان شخصاً مهذباً) فذلك على أمل الزواج منها كما كان يفعل اليونان بعد رقصة الحرب ، ثم يحتفظ بعد ذلك بصمت حكيم ... لأن

Gorki, M., Reminiscences of Tolstoy, p. 65. (1)

اثنين لا يتكلمان في وقت واحد . أما إذا خسر ، فانه يؤلف الكتب . وأمتع من المقالات التي كتبها شوبنهاور ونيتشة وفيننجر وغيرهم من المصايين بداء الغرام الذين كتبوا عن الجنس اللطيف ، هو ذلك التحليل الذي يكتبه عن الرجال النساء اللاتي يفهمن الطبيعة البشرية . ويعاملنها بذكاء أعظم من ذكاء الرجال المشوب بالتردد . ولكن النساء أمكرمن أن يفحصن عن ذات أنفسهن في صفحات الأدب ، فهن راضيات بتحقيق رغبتهم ، وعلى عدوهن إذا شاء أن يؤلف الكتب .

وكل شخص عادى لا بد أن يكون متحيراً بشأن هذا الموضوع ، فهو لا يعرف إلا نصفه معرفة ذاتية ، وأكبر الظن أنه لا يعرف إلا شطراً من هذا النصف معرفة وثيقة ، وحتى هذا الشطر فهو لا يعرفه معرفة صادقة أو جيدة . وكذلك من العسير أن يكون الإنسان منصفاً في زمن الحرب . من أجل ذلك كان العلم ضعيفاً في هذا الميدان . أما ملاحظات الأستاذ ثورنديك البسيطة والعرضية ، ونتائج اختبارات الذكاء ، فانها محاولات سريعة لفرع من البحث لم يكده يقدم على النمو . ذلك أن آخر بحث في النوع الإنساني هو الإنسان ، وآخر علم هو علم النفس ، وآخر فرع في هذا العلم هو المرأة .

ومع ذلك فلنكن على حذر ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . سنقسم الطبيعة البشرية تقسيماً مريحاً ولو أنه صناعي ، إلى الغرائز الأساسية التي تتكون الطبيعة البشرية منها ، وسنسأل في كل حالة كيف يختلف عقل المرأة وخلقها عن عقل الرجل وخلقه . وسنفترض (مع احترامنا للسلوكيين) أن الإنسان خلق مزوداً ببعض الاستعدادات السابقة والميول الخاصة بالاستجابة والشعور ، التي سماها الفلاسفة وعلماء النفس منذ شوبنهاور غرائز . وسنصنع تصنيف الأستاذ مارشال لهذه الاستعدادات الموروثة بحسب تحقيقها لأغراض الفرد أو الجماعة أو الجنس^(١) . فهناك بعض الغرائز — مثل الحصول على الطعام ، والقتال ، والحرب ، واللعب — تتجه إلى خدمة الفرد . وتتجه بعض الغرائز الأخرى مثل حب الاجتماع Gregariousness وحب التوافق approval — إلى حفظ الجماعة . وغرائز أخرى أيضاً — مثل الاتصال الجنسي والعناية بالبنين — ترمي

Marshall, H.R., Instinct and Reason. (١)

إلى حفظ النوع . وها هنا بعض المسائل موضع مناقشة ، ولكننا لا يجب أن ندخل في مجادلات فنية لا تؤثر في هذه المشكلة تأثيراً حيوياً (١) . كل ما نحتاج إليه هو أن نسأل هل يختلف الرجال والنساء في الحصول على هذه الغرائز نوعاً أو درجة . وسوف نبدأ بالغرائز الجنسية أو التناسلية لأنها بالنسبة إلى غرضنا الحاضر أهم سائر الغرائز ، وتكاد تفيض عن عملياتها المختلفة جميع تلك المميزات التي تفصل بين الجنسين في الجسم والخلق والعقل .

٢ - اختلافات الخلق Character

(١) الغرائز الجنسية Racial

يصدم الذكر بامتياز الأنثى في عالم الحيوان ، لا في الحجم فقط (كما رأينا) بل في تفوقها الحيوي باعتبار أنها هي التي تحمل مباشرة جسم الجنس . وفي المراتب الدنيا للحياة يجرى التناسل بالانقسام ولا يوجد جنسان ، وفي النوع الإنساني تتم عملية التوليد فعلا في الأنثى التي تولد بالانقسام تماماً كالحال في الأميبا . أما وظيفة الرجل فعرضية وسطحية ، وليست مما لا غنى عنه ، فقد أيدت تجارب المعمل مظاهر الطبيعة في البرهنة على أن الذكر زائد عن الحاجة على الإطلاق . ويرتب بوضوح على ذلك أن الأنثى من جهة النوع في مرتبة أولى وأساسية ، وأن الذكر ثانوي ومساعد . فالذكر يتضمن الوظائف ويتخصص فيها ، وهي تلك التي كانت تؤدي من قبل بدونه . وهو يلعب في مأساة التناسل التي تدور عليها الحياة كلها دوراً صغيراً ، يكاد أن يكون زائداً عن الحاجة . فهو ينتحي في أزمة الولادة جانباً خجلاً عاجزاً ، ويفطن آخر الأمر إلى مقدار تفاهته وتبعيته في تطور الجنس . ويعرف في تلك اللحظة أن المرأة أشد منه التصاقاً بالنوع ، وأن تيار الحياة العظيم يفيض صاحباً عن طريقها ، وأن الخلق

(١) الأسلوب الذي جرت عليه العادة في نثر وجود الفريزة هو بيان أنها ليست متبعة في الصبا . ولكن معظم الغرائز لا تظهر بطبيعة الحال إلا في فترة معينة من الحياة ممتدة اعتماداً أساسياً على نمو القوى الفسيولوجية المطلوبة . ومن أوضح الأمثلة على ذلك المشي والتناول والحب .

من دمها ولحمها ، ويفطن عندئذ لم كان البدائيون وأصحاب الديانات الكبرى يعبدون الأمومة .

ومن الواضح أن عفة المرأة الشديدة تخدم أغراض التناسل . ذلك أن تمنعها على استحياء يعين على الانتخاب الجنسي ، إذ يمكنها من التمييز بين المحبين واختيار ذلك الذى سوف يظفر بأن يكون والد أطفالها . وهنا نجد أن مصالح الجنس والجماعة تتخذ من المرأة سبيلاً إلى التعبير ، كما أن المصالح الفردية تجد صوتها القوي في الرجل . حتى إذا نفذت غرضها وحقت ذاتها بالأمومة زال حياؤها . وإنك لتجد الأم الفلاحة التي كانت قبل أمومتها شديدة الحياء ، تفخر بأن ترضع ابنها أمام الناس في بساطة بهيجة ، وهي على حق في ذلك لأن هذا المنظر هو أحب المناظر والصور في عالم الحياة والفن .

والمرأة أبرع في الحب من الرجل ، لأن رغبتها عادة أقل حدة من رغبته ، فلا تغشى أحكامها بالغموض ، وهذا هو سر حكمتها التي اشتهرت بها منذ القدم . ويذهب دارون إلى أن أنثى معظم الأنواع لا تحتفل بالحب نسبياً . ويصور لنا مبروزو ، وكيش Kisch ، وكرافت إبنج Krafft-Ebing ، وغيرهم من الباحثين الذين اقتحموا أبواب هذا الموضوع الذى يخشى الملائكة بحثه ، أن أربعين في المائة من الجنس الضعيف يتمتعن بمثل هذا البرود apathy ، وبلادنا على العكس من ذلك . ويقولون أيضاً إن المرأة لا تنشئ اللذة الحسية بمقدار ما تنشئ الإعجاب الشامل بحاجاتها والعناية الشديدة بها . وكثيراً ما يرضيها مجرد اللذة بشعورها أنها مطلوبة . وفي ذلك يقول توماس هارى : « حب المرأة أن تكون محبوبة يرضى نفسها غاية الرضا » (١) .

ويجد ما سميناه بشكل غامض بالعنصر الروحاني spiritual في الحب - هذا الجانب من الحب الذى لا يفكر في البدن - صدرأ رجلاً في المرأة أكثر مما يجد في الرجل . ويعتقد بعض الباحثين في قلب المرأة المغلق أن حبها أى maternal أكثر منه جنسى . أو كما يقول لومبروزو : « ليس حب المرأة

Jude the Obscure, p. 286. (1)

في طبيعته الأساسية شيئاً أكثر من صفة ثانوية للأومومة ، ولا تنشأ كافة مشاعر الحب التي تربط بين المرأة والرجل من الدوافع الجنسية ، بل من غريزتي الخضوع subordination والاستسلام المكتسبتين بالتكيف^(١) . وكان ألفريد دي فيني يظن أن حب الرجل ذكرى رضاعته ثدى أمه ، ورغبته فيه . ومن يدري لعل كل محب بالنسبة إلى المرأة ليس إلا طفلاً آخر يدلل ... ويطعم ؟

ومع أن حب المرأة أقل في عمقه من حب الرجل ، إلا أنه أعظم عرضاً ، حتى لينفذ إلى كل زاوية من حياتها . فهي لا تعيش إلا إذا كانت محبوبة ، والالتفات إليها محور حيويتها . ويروى أن أحد حكام فرنسا أنب امرأة لمعيشتها إلى جانب لص ، فأجابت : « لست شيئاً إذا لم أحب » . ولعل هذه الحاجة النفسانية هي التي كانت في ذهن فينجر حين ذهب إلى أن المرأة لا « روح » لها ... أي إن حياتها تتجه (أو كانت تتجه ؟) إلى أن تتركز حول رجل . وهذا وهم ، لأن المرأة لا تحاكي إلا أفكاره ، أما فيما بينها وبين نفسها فأنها تظل وحدها ، وتحفظ بعزمها . وهي تعرف أن الرجل في حبه غير المحدود لذاته قد ينفر منها إذا أبرزت الشيء الكثير من شخصيتها .

وإذا كانت المرأة تتفوق على الرجل في فن الحب ، فهو يمتاز عنها بالصدقة . وقد يرتفع الرجال إلى مرتبة الأصدقاء ، أما النساء فلا يتجاوزن نطاق المعارف . وإذا ذكرت المرأة غيرها من النساء بنجر اضطربت النجوم في أفلاكها . ويجد النساء صعوبة في الحديث ، ويشعرن بضمجر شديد في حضرة بعضهن البعض ، ولا يحتملن ذلك إلا بالتحدث عن الرجال . وهذا شيء طبيعي ، كما لاحظ لاروشفوكو^(٢) La Rochefoucauld منذ زمن طويل فقال : « العلة التي من أجلها لا يقبل معظم النساء على الصداقة ، هي ما يشعرن به بعد هجر الحب من أن الصداقة لا طعم لها » . فالحب كما قال الشاعر يشغل جزءاً

(١) In Kisch, The Sexual Life of Woman, p. 133.

(٢) (١٦١٣ - ١٦٨٠) أحد دوقات فرنسا ، ألف مجموعة من الحكم أو التأملات (١٦٦٤ - ١٦٦٥) ومذكرات نشرها ١٦٦٢ ، يصف فيها مزائمه السياسية ضد الكردينال ريشليو . أما حكه فهي نظرات صائبة حكيمة عن الحياة بوجه عام . (المترجم)

من وقت الرجل ، ولكنه عملاً حياة المرأة كلها . وبعد ، فأحوالنا هي ما يجب أن نكون عليه .

وغيره الرجل كحبه أكثر عمقاً ، وأقل عرضاً أو طولاً . فالإحساس بالامتلاك أقوى في الرجل ، ويؤلف نصف حبه . فليس الحب مجرد نكران الذات فقط ، بل هو ، على ما في ذلك من تناقض ، توسيع للنفس وانتصار لها . والغيرة هي غريزة الكسب التي يضايقها التنافس . إنها إجراء محاكمة للاعتداء على الأصل . أو كما قيل : « أنا السيد يارنى ، اللهم لا تجعل أرباباً أخرى تقف في طريقي » . ولاهتم المرأة اهتمام الرجل بأن يكون زوجها خالي القلب من قبل . ولكن غيرتها التي تفقدها في الشدة والعمق تزيد في السعة والعرض ، فهي لا تغار فقط ممن يحب زوجها ، بل من أصدقائه ، وجليونه ، وصحيفته ، وكتبه . ثم تسعى شيئاً فشيئاً إلى الفصل بينه وبين أصدقائه ، فإذا لم تستطع أن تفعل ذلك غازلتهم ، فتجمع بين المكر والخطيئة . ولا يزعجها أن يبدي الرجل غيرة من المعجبين بها ، بل يلد لها هذا الشعور ، وتشجعه فيه ، لأنها تعلم أنها لا تكون مطلوبة إلا حين يجد امتلاكه إيها مزعزعا . وهي تدرك بحكمتها الفطرية أن الغيرة لا يفضلها دواء آخر للحب الزائل . ومع ذلك فلا بد من أن نغفر لها هذه الأخطاء البديعة لأنها في مركز ضعيف وتحتاج إلى هذه الفنون توازن بها امتياز الذكر الجسائى . يجب عليها أن تحمى نفسها بأى ثمن ، لأن الجنس يعول عليها في استمراره وقوته . إنها تدفع ثمناً غالياً جداً لتصويبها الصغير في الحب تبرر به شكوانا من خداعها . ويقول نيتشه : « لا يستطيع أحدنا أن يكون عظيم الرقة مع النساء » (١) .

(٢) الغرائز الفردية

وظيفة المرأة خدمة النوع ، ووظيفة الرجل خدمة المرأة والبنين . وقد يكون لهما وظائف أخرى ، ولكنها تتبع بحكمة هاتين الوظيفتين . ذلك أن الطبيعة قد بثت في هذين الغرضين الأساسيين وشبه اللاشعوريين ما فينا من معنى وسعادة .

من أجل ذلك كان عمل الذكر الطبيعي هو الحماية ، والكسب ، والمغامرة . ومهمته أن يترك العش أو البيت بحثاً عن الطعام ، فهو سبيل الحياة إلى التغذية ، كما أن المرأة أداة الحياة للنسل . والطعام غايته القصى ، وهو إذا أصبح محصلاً لأشياء أخرى ، أو لأى شىء آخر ، فذلك لأن (ولو أنه لا يشعر بذلك) هذه الأشياء الأخرى تمثل الثروة التى تؤمن فى الأزمات الحصول على الطعام . وكان متروودورس Metrodorus يقول : إن كافة الأشياء الجميلة ذات صلة بالبطن . ومع أنه ليس من الأدب ذكر هذا القول إلا أنه صحيح إلى حد كبير عن ذكور النوع الإنسانى ، فالرجل يحب الطعام حباً جماً ، ويمكن بسهولة إخضاعه عن طريقه . وهو أكثر غراماً من المرأة بالطعام والشراب . ومنذ أن قدمت حواء التفاحة لآدم ، والمرأة تحكم الرجل عن طريق معدته ، مفسدة هضمه وأخلاقه فى آن واحد .

وأصبح الذكر محارباً بعد أن ضرب فى الأرض يبحث عن الطعام . وذكور الحيوان تحارب بالأنياب والمخالب ، ويتخذ الرجال من المنافسة المالية سلاحاً ، أما الأمم فتتحارب بالحيوش والأساطيل والصحف . وكان كبلنج يظن أن الأنثى أشجع فى القتال من الذكر . ولكن لعله قاسى من جرح (شرق قتال السويس) أفسد نظرتة . ذلك أن طبيعة المرأة البحث عن المأوى لا الحرب . وفى بعض الأنواع تبدو الأنثى هادئة بغير غريزة القتال . وهى لا تقاتل مباشرة إلا من أجل صغارها ، فاذا رأينا فيها قوة توحش فذلك بسبب هذه الضرورات الجنسية . ولكن من الواضح أنها أقل ميلاً إلى العنف ، وغالباً ما ترتبط جرائمها النادرة بفترات اضطرابها الفسيولوجى . وهى أكثر من الرجل صبراً . وإذا كان الرجل أكثر شجاعة فى أزمات الحياة الكبرى وأمورها ، فالمرأة تلجأ إلى قوتها اليومية الدائبة لمواجهة مثيرات العيش الصغيرة التى لا حد لها . وهى تتحمل المرض أكثر هدوءاً ، كما لو كانت تجد فيه لذة غامضة وشيناً من الراحة من عناء عملها اللانهائى . أما الرجل فلأنه لم يتعود الحياة الراكدة فيتحمل المرض فى قلق ، ويخبر جميع الناس بالامه .

ومع ذلك فالمرأة مقاتلة بكهانة . ليحتمل على الجندى ، وتبجح بالرجل

ذى السلطان . ويبدو فى صيحاتها عند رؤية القوة عنصراً غريباً من القسوة ، حتى لو كانت هى نفسها الضحية . وهى تنتخب فى جميع الأجيال الذكر المقاتل ، كأنها تفكر دون وعى فى الحماية التى يحتاج إليها بيتها وصغارها . وقد تغلب فى بعض الأحيان هذه المتعة القديمة بالرجولة على إحساسها الاقتصادى الحديث فتزوج من أحمق إذا كان شجاعاً . إنها تخضع بفرح للرجل الذى يستطيع أن يأمر . وإذا كانت المرأة تبدو فى هذه الأيام أقل ميلاً للخضوع ، فذلك لأن خلق الرجال أضعف مما كان من قبل . ولعل روتين الصناعة المذهل ، وتكلف الحياة العقلية المثير للأعصاب ، مما عود الرجال العبودية ، وانزع منهم الشجاعة .

ولا تنتصر المرأة بالقتال أو الشجاعة ، بل بالمثابرة والثبات . وقاتل الرجل أشد وأصرح ، واكنه أقل نباتاً . وهو أكثر منها استعداداً للصلح أو التسليم فى سبيل السلام . وقد يزجر فى وجه زوجته أو يضربها ، ولكنها تنتصر فى النهاية بالتكرار والإلحاح ، كما ينتصر الإعلان . وإذا كانت تعاد الكرة فلأنها لا تستطيع الإضراب ، فالأنواع والشعوب والأجناس والأفراد الضعيفة غنية بالصبر والخداع . فهذا نابليون لم يستطع حكم زوجته ، مع أنه تمكن من حكم قارة . ولم تجد قوته فى ضعف جوزفين البدنى وجبنها الهدف الذى تتجه إليه ، ولم يكن عنده سلاح يقاوم به أسلحتها التى كانت تستعملها . وفى ذلك يحدثننا نابليون قائلاً : « كثيراً ما كانوا يمتحدون قوة خلقى ، ومع ذلك فلم أكن فى نظر أسرى إلا رجلاً ضعيفاً ، وكانوا يعرفون عنى ذلك . وكانوا يتغلبون على غضبى بالمثابرة والعناد ، ويفعلون ما يريدون منى بمجرد السأم » (١) . ويعبر هذا الكلام عن الأنشودة اليومية التى نغنى فى كل بيت . ولم تكن الأمور فى صالح الرجل فى تلك الأيام المترفة حين كانت زوجة الطبقة المتوسطة تعيش وتزدهر عاطلة فى بيتها الخالى من العمل ومن الأطفال . فالرجل يعود إلى منزله منهوك القوى بعد عمل اليوم ومتعبه ليجد عدوه القديم فى انتظاره على نشاط جيم متجدد فينهزم قبل أن تبدأ المعركة . أما إذا حالفه الحظ وانتصر ، فليمن على المرأة إلا أن تبكى فينهزم أمامها . وكانت

ماريا لويزا تفخر بأنها تحصل دائماً على ما تطلب إذا بكت مرتين . وتتخذ الزوجة الحكيمة هذه القاعدة الأساسية في الحرب : « إذا لم تنجحى أول مرة ، فعليك بالبكاء مرة أخرى » .

ويبدو أن الأنثى تتخذ موقفاً أقل إيجاباً من الذكر مما قد نسبه غرائز الحركة ، كالحبو ، والمشي ، والقذف ، والقفز ، والتساق ، والجرى ، واللعب . فالذكر أميل إلى الحركة عديمة النفع ، والأنثى إلى الاستقرار الزائد عن الحاجة . والمرأة أكسل ، وهي كذلك أخطر الجنسين ، لأن البطالة رأس الفساد . ولكي يكون المرء فاضلاً ، كما يكون سعيداً أو لطيفاً ، يجب أن يشغل نفسه بشيء ما .

(٣) الغرائز الاجتماعية

رأينا في مجموعة الغرائز التي استعرضناها أخيراً ، وهي الغرائز التي تحفظ الفرد ، أن تفوق الرجل واضح وطبيعي . أما الغرائز التي تحفظ الجماعة ، فالمرأة تفوق كما تفوق في الغرائز التي تحفظ الجنس . فهي أشد ميلاً إلى الاجتماع والمعايشة من الرجل ، وتحب الصحبة والمجتمعات ، وتستسلم في سرور لإجماع الجماهير . إنها لا تسأل عن أفضل التمثيليات ، أو الحفلات الموسيقية ، أو أماكن اللهو ، بل تسأل عن أكثرها امتلاءً بالحضور ، ولو أن الفرق بينها وبين الرجل في هذه الناحية ضئيل . (على أقل تقدير تسمى المرأة أن تحب الأفضل ، في حين لا ينقاد الرجل العادي إلى حضور الحفلات الموسيقية ، ومعارض الفن ، والتمثيليات إلا خوفاً من زوجته) . وهي أقل من الرجل قدرة على العزلة ، وقل أن تجد من بينهن ناسكات . وإنما لشعر بالنقص بدون الرجل ، أكثر مما يشعر هو بدونها ... ولا ريب أن ذلك يرجع إلى حاجتها لحمايته ، وعادة لقيادته . إنها حيوان اجتماعي .

لذلك كانت المرأة أكثر ثرثرة . ويقال إن المرأة لا تحفظ سراً . وكان فرانكلين يظن : « أن السر لا يحفظ بين ثلاثة إلا إذا مات منهم اثنان » . فاذا أردنا أن يكون هذا القول صحيحاً عن الجنسين فلا بد أن نرفع نسبة الوفيات . ومع ذلك تستطيع المرأة أن تقاسى في صمت مدة أطول من الرجل ، وذلك

كما يقول مرديث Meredith : « على طريقة النساء اللاتي تشبه صدورهن القبور » (١). والمرأة أكثر من الرجل تعبيراً ، لأنها في الغالب أشد خضوعاً للوجدان والانفعال . وهذا هو السر في أنها أكثر قبولاً للأمراض العصبية — كالكوريا chorea ، والرجفة ، والهستيريا ، والتلبس obsession ، والخوف phobia ، والأوتوماتزم ، والوساطة الروحية ، وغير ذلك — كما يرجع ذلك إلى الكبت القوي الذي يفرضه المجتمع على دوافعها الشهوانية . ونحن نجد أن وجه المرأة يكاد يكون متحركاً كحديثها ، فهي لم تتعلم كرجل الشعب الصابر أو رجل الأعمال الحذر ، أن تحتفظ بسحنة جامدة إزاء تيار المكسب والخسارة ، واللذة والألم . ويصاحب هذا التعبير السريع في وجهها مقدرة أعظم على استقرار علامات الشعور والتفكير في غيرها من الناس . ولذلك كان خداع المرأة أصعب من خداع الرجل — كما يتبين لكل من جرب الاثنين .

ويختلف حب الاجتماع كما وضع جالتون باختلاف الحياء والمحاكاة . فالمرأة تترك عادة المبادأة للرجل ، حتى (على الرغم من شو) في الحب . وهنا تظهر قبل كل شيء سيادته . أما إذا لم تسكره أول كأس من الرغبة ، فقد يظل مبقياً إياها سنوات تنتظر حسابه وجمعه وتجاربه الجنسية . والمرأة غير واثقة بنفسها ، إذ تخضع دائماً لضعفها الجسماني وتبعيتها الاقتصادية ، مما يحث من شجاعتها ، ويحجبها عن الثورة أو العمل . إنها تتشبث بالمألوف والمتعارف ، محاكية الماضي في نقوى ، ومقلدة بحالة عصبية كل ربح حديثة تحمل البدع في الملابس أو السلوك أو الأفكار . وهي أسرع من الرجل إلى اعتناق (التقاليع) والخزعبلات التي تنجيه في أمريكا نحو اتخاذ مكان التقدم الفكرى السلم . وينقب المحلل النفساني .

Ordeal of Richard Feverel, p. 32. (١)

جورج مرديث (١٨٢٨ - ١٩٠٩) روائي انجليزي اشتهر في رواياته بتحليل المشكلات الاجتماعية والدراسة الإنسانية ، وأشهر قصصه « محنة ريتشارد ففريل » كتبها سنة ١٨٥٩ ، وخلصتها أن ريتشارد يقع في الشرين من عمره في حب فتاة ريفية وهي لوسى ويتزوجها ، فينضب أبوه ويفرق بينهما ، ويتصل ريتشارد بفتاة من بنات الهوى ، وتقع لوسى في جائل أحد النبلاء . ويرجع ريتشارد فتعلم بسيرة زوجته وينضب (المترجم) .

تنقياً شهوانياً في نفسها المضطربة ، ويهدئها الوسيط الروحاني بظهور الأشباح ،
ويجد كويته M. Coué في خيالها السهل التصديق مادة سهلة .

والمرأة لا تجسر على مخالفة المعايير والمتوسطات دون اهتمام كالرجل ، وهي
تخرج للعالم عدداً أقل من البلهاء ومن العباقرة . وهي أكثر شبهاً ببنات جنسها
من الرجل بغيره من الرجال . ذلك أن ضغط البيئة المتغيرة ، وتعدد الوظائف
والمهن والحرف أدى إلى تميز الرجال إلى أصناف كثيرة . ولكن صناعة البيت
التقليدية ، واشتغال المرأة منذ القدم بالبحث عن زوج وتربية الأبناء ، كل ذلك
أثر في معظم النساء وصاغهن في بوتقة واحدة ، وإذا كانت وجوههن مختلفة
فأنفسهن دائماً واحدة . ولعل إلى هذا يرجع بعض السبب في انتقال الرجل في
يسر من محبوبة أو من خليله ، إلى محبوبة أخرى أو خليله أخرى ، ولا يحتاج في
ذلك إلا إلى معرفة اسم جديد لا إلى تعلم فن جديد ، بل قد تفيد الحروف
القديمة في بعض الأحيان . أما المرأة التي أحبت وهجرها حبيبها فقد ترى جرحها
مما يصعب اندماله ، لأنها ربطت روحها بصورة خاصة ، وسيعيش قلبها على
الذكريات التي ذهبت .

وآخر ما يترتب على غريزة الاجتماع في المرأة غرامها بالتأييد الاجتماعي ،
فرأى جيرانها له وزنه بالنسبة إليها أكثر مما هو بالنسبة إلى الرجل ، لأن العلاقات
الاجتماعية تمتص من حياتها الساعات التي لا تشغلها في الحب والأمومة . وهي
تمتاز عن الرجل بالزهو ، لأنها أكثر وعياً بفضائلها وجمالها ، وقد تقضى نصف
ساعة تضع المساحيق على وجهها ، ولو أن الفرق ليس كبيراً بين زهو المرأة
وغرور الرجل . ويؤدى إفضاؤها بذات نفسها إلى القيل والقال ، ويقودها
التقليد إلى التطابق . وهي أشد من زوجها شوقاً إلى الظهور في العالم . وتعطشها
إلى المنزلة عبارة عن نصف الريح التي تدفع شراع سفينة زوجها . ولذلك كانت
نحس بنقص شديد عن هم أعلى منزلة منها ، وأسمى كثيراً ممن هم أدنى منها .
ولكنها لنفس هذا السبب أكثر أدباً من الرجل ، ولحساسيتها الاجتماعية مع
أمرتها أكثر منه عطفاً وشفقة . ويعوض عن زهوها اللطيف حسن اعتبارها ،

ورقتها ، ومسارعتها إلى العناية بالمريض ومساعدة الضعيف ، وصفاتها الموهوبة التي تميل بها إلى الإيثار والخلق الحميد .

وأخيراً فإن هذه المميزات العقلية والقلبية تجعلها أكثر تديناً . ذلك أن انفعالها المرهف يهديها إلى سرعة الإحساس بنداء الدين العميق الذي يتجه للحواس والمشاعر . هذا إلى أن الكبت الشديد على ميولها الشهوانية يتركها مثقلة بولاء غامض يرتبط بكل موضوع للعبادة . وشعورها بألوان الحرمان التي تجعل الحياة حزينة أكثر حدة من شعور الرجل ، كما أن رغبتها في الاتحاد مرة أخرى بأولئك الذين أحببتهم وفقدتهم يقنعها بالاعتقاد في الخلود . والطبيعة نموذج رائع لها . ومن يدرى لعل المرأة في عجزها المتواضع عن الفهم ، قد تكون ألصق بسر الطبيعة من علمنا الميكانيكي ؟ إنها تعبد الله بالغريزة ، في الوقت الذي قد ينشد فيه الرجل الرقابة على نفسه . وهي لعجزها الجسماني تلتمس حماية الله القادر على كل شيء ، وتطلب هداية السماء في صلاتها حين يضل عقلها في هذا العالم . وهي تتعطش إلى الوجود في الحضرة الإلهية خوفاً من العزلة وحباً في المجتمع ، وتعمر الفضاء بالأرواح التي تؤنسها في وحدتها وتعينها على حاجتها . وهي أول من يرحب بالصور الجديدة من الاعتقاد ، وآخر من يتخلى عن القديم . ولقد يقتل الإنسان نفسه في ساعة اليأس ، أما المرأة حين تفقد كل أمل فإنها تعتمد على رحمة السماء ، وتلتمس القوة والعزاء في الرب الحبيب .

٣ - الاختلافات العقلية

هذه هي غرائز الرجال والنساء . لكن لا يجب أن نفترض أن مثل هذه الميول الأولية تظل دون تغيير مع التجربة والتعليم . ففي كلا الجنسين تنمو العادة ويقوم العقل على أساس هذه الاستعدادات . فكيف يختلف هذا البناء العقلي في الرجال عنه في النساء ؟

العقل في الرجال أوسع وأعلى . فقد خرج الرجال منذ أجيال كثيرة من البيت المعروف إلى فضاء العالم المتعدد الجنسيات ، وكان عليهم أن يواجهوا مواقف جديدة وموثرات جديدة لا تصلح لها استجابات الغرائز القديمة ، فاضطروا

بالضرورة (بعضهم فقط) إلى تنمية هذه القوة اللينة لتستجيب بنجاح في المواقف
الجديدة ، وهذه القوة هي التي تكون ذكاء الغريزة . ذلك أن الغريزة أيضاً يمكن
أن تكون على ذكاء . وليكن المؤثر أو الموقف من النوع التقليدي الذي واجهته
الإنسانية قروناً طويلة ، نجد أن الغريزة خليقة بالكفاية ، بل هي أجدر أن تكون
أكثر ذكاء ، نغني أفضل تكييفاً وأكثر نجاحاً من عمليات الفكر المزرعة .
وكانت المهام الأساسية في حياة المرأة إلى عهد قريب البحث عن زوج وتربية
الطفل ، ولا يزال هذا الأمر صحيحاً بالنسبة لجميع النساء ما عدا نساء المدن
الكبيرة ، وهو صحيح بالنسبة لجميع نساء المدن ما عدا نساء الطبقة الوسطى .
وهاتان المهمتان الرئيسيتان من أقدم المشكلات التي واجهتها كل امرأة بمقدار
ما تعي الذاكرة . وقد هيأت الطبيعة لهذه المواقف استجابات غريزية قد تؤدي
في بعض الأحيان إلى نكبة ، ولكنها عادة نافعة ومعقولة .

لذلك تفضل المرأة (ما عدا الاستثناءات المدنية دائماً) الرجل في وحدة
غرائزها وكمالها ودقتها . أما الرجل فأكثر نقداً وشكاً ، وأعظم بهيمة التفكير سقماً .
فقد تعطلت غرائزه بالمرونة ، وفقدت ما فيها من مباشرة وثقة . وهو يرتبك
دائماً في حضرة المرأة ، لأنها أشد بنفسها ثقة وأكثر استعداداً للعمل ، وأبرع
في وضع الخطط وأسرع في تنفيذها ، حينما كانت المشكلة تتعلق باصطياد الزوج
أو الإبقاء على المحب ، أو إقامة البيت . ولا تجد رجلاً في الثلاثين يبارى امرأة
في العشرين في حرب الحب اللطيفة . راقب أي رجل مهما يكن شيخاً يحب
امرأة مهما تكن صغيرة ، وانظر أيهما يطوى صاحبه في إصبعه . فهناك بعض
الأمور تعرفها المرأة قبل أن تولد ، وذلك بالحق الأزلي للصبيغيات الثانوية ،
أما الرجل فلا يعرفها إلا بالتجربة الشاقة بعد زوال الوهم عنه . والمرأة تبصر أكثر
مما تقرر ، والرجل يقرر أكثر مما يبصر . المرأة تفكر بغير فكر ، وتكذب بغير
تفكير سابق . لأنها تسبق الرجل في الكذب المخترع بمراحل واسعة ، وهي التي
تفسر بغير اضطراب أي أزمة يكتشف فيها أمرها .

ولما كانت المرأة مهياة منذ الولادة أفضل من الرجل لمهام الحياة العادية ،
فإنها تنضج أسرع ، ومرحلة بلوغها أقصر . وقد وضعها بعض الرجال من أجل

ذلك في مرتبة أدنى من حيث النوع . وفي هذا الحكم شيء من التسرع ، إذ على هذا الأساس تكون السلحفاة أشرف مخلوقات الله . وقد يكون من المعقول أن نستنتج امتياز المرأة العقلية من نسبة وزن مخها الكبيرة ، بالإضافة إلى مخ الرجل ، إلى وزن جسمها . ولعل بلوغها السريع مكتسب ، وقد فرض عليها في ظروف قديمة قاهرة للأمم المبكرة . ويستطيع الرجل كذلك أن يصبح أباً في منتصف السن التي يتزوج فيها الرجل حديثاً ، ولكن الظروف الاقتصادية لا تسمح بذلك . والبلوغ يكون في العقل كما يكون في الجسم ، وله فروق كثيرة . فبعض الرجال يتم نضجهم مبكراً ، والبعض الآخر متأخراً ، والبعض الثالث لا ينضجون أبداً . ومن الواضح أن بلوغنا الإنساني يطول ، لأن عجزنا يزداد في وجه عالم يصبح كل يوم أكثر شمولاً وأبعد عن التجانس لاستعداداتنا وفنوننا الفطرية . وقليل من الرجال في الزمن الحاضر هم الذين يتم بلوغهم العقلي قبل أن يصلوا إلى منتصف الحياة . أما المرأة التي تقوم حياتها على إدراك الأمور الطبيعية والعميقة ببساطة ، فإنها تنضج جسماً وعقلاً في سن مبكرة . وهي أسرع إلى تعلم مباحج السلوك الاجتماعي . وهي أبرع في المدرسة من الصبي الذي يماثلها في العمر . وقد أثبتت أخيراً في كلية ردكليف Radcliffe امتيازها في الاختبارات العقلية على شباب هارفارد المثقفين . ولكن هذا النمو السريع يتجه إلى بلوغ التمام في وقت أسرع عند المرأة منه عند الرجل . فالمرأة لا تنمو بعيداً عما كانت عليه منذ الولادة كما يفعل الرجل المحرب المحنك . وهي تشبث بالوراثة ، وهو يغامر فيتميز . إنها أداة استقرار الجنس وأساسه ، وهو سبيل التغير ونذيره . والمرأة جذع الشجرة الإنسانية ، وجذورها تشبث بشدة في الأرض التي تنمو عليها ، وتمد جذورها في أمان كما تتطلع بفروعها في السماء .

أما الجانب من هذا الثبات فهو ضرب من المحافظة في الوجدان ولون من القصور في الفكر . ذلك أن مصالح المرأة تتعلق بالأسرة ، وبينها عادة هي البيت . فهي عميقة عمق الطبيعة ، ضيقة ضيق الجدران الأربعة . وتلائم الغريزة بينها وبين التقاليد ، ولذلك تحب التقاليد كما يحب الخبير الوسط الذي يكشف عن امتيازها . وهي أقل تجريباً في العقل والأخلاق (ما عدا بعض الاستثناءات

المدنية) . وإذا لجأت إلى « الحب الحر » فليس ذلك لأنها تجد فيه الحرية ، بل لأنها تأس من إتمام زيجة عادية مع رجل مشول . وكم تفرح إذا استطاعت أن تجذب الرجل إلى جانبها وتضمه في البيت ، وحتى إذا كانت في شبابها قد راعتها عبارات الإصلاح السياسي ، وبسطت عاطفتها رقيقة على الإنسانية كلها ، فإنها تسحب هذه المحاولات حين تجد الزوج الأمين . وسرعان ما تفصله ، وتفصل نفسها ، عن هذا الإخلاص العامل ، وتعلمه الولاء العميق المحدود بالأسرة . يقول الشاب في نشوة الغزل : « كم أود أن أهبك العالم » . فإذا تزوج فعل ذلك .

والأمر كذلك في البيت . فالمرأة تعرف دون حاجة إلى التفكير أن الإصلاحات الوحيدة السليمة تبدأ من البيت . وهي تخدم الجنس حين تحيل المثالي الهائم إلى شخص يخلص لأبنائها . والطبيعة لا تحفل إلا قليلا بالقوانين والدول ؛ وغرامها بالأسرة والأبناء ، فإذا استطاعت حفظهم فلا تبالى بالحكومات والأسر الحاكمة ، وتسخر من أولئك الذين يشغلون أنفسهم بتعديل الدساتير . وإذا كانت الطبيعة تبدو اليوم مخففة في مهمة حماية الأسرة والطفل فذلك لأن المرأة قد نسيت الطبيعة في هذا الزمان . ولكن الطبيعة لن تهزم طويلا ، إذ تستطيع في أى وقت أن تغترف من مئات الوسائل المدخرة . فهناك أجناس وشعوب أخرى أكثر منا عدداً وأعظم انتشاراً تستطيع بوساطتهم أن تحتفظ باستمرارها الثابت العزم ، والذي لا تلوى فيه على شيء .

٤ - المرأة والعبقرية

تولد المرأة مزودة بالذكاء ، الذي يحصله بعض الرجال ، ويستحثه معظمهم . وقد أصبحت الحياة بالنسبة إلى الرجل في ظل فوضى الثورة الصناعية المتغيرة ميداناً فسيحاً من المسئوليات المتعددة الألوان ، وليس له يد في اختيارها ولا يتوقعها . وقد انهارت أعصاب كثير من الرجال ، وتطور عقل كثير غيرهم تطوراً واسعاً ولامعاً بحيث يستخدم كل الطاقة المختزنة في الجهاز العصبي ، وينشأ عن هؤلاء القوم عدد من العباقرة والمجانين لم يعهد من قبل . وكما أن الصناعة

تبتلعهم ، كذلك تخضع المرأة لهذه القوة القاهرة من النمو العقلي . ولكن على الرغم من سرعة تغيرها فإنها لا تزال مختلفة عقلياً عن الرجل . ويبدو أن المرأة لا تستريح إلى الفكر المجرد ، فهي تلمح الوقائع وتحسن تذكرها ، غير أنها لا تحسن التعميم ، أو التأويل المبتكر . وقد تنحرف عن الغرض وتغرق في التفصيلات . وهي تهتم بالأشخاص أكثر مما تهتم بالعمليات العقلية أو الأشياء . وهي لا تناقش المشكلات بمقدار ما تناقش الرجال ، لأن الرجل مشكلتها . وقد كتب عليها أن تشغل نفسها بالأشخاص ، بالزوج والطفل . وكتب على الرجل أن يدور في عجلة التجارة والصناعة ، وأن يفكر في الأسباب والعمليات والمسببات كما يتعامل مع النساء والرجال . ومن الأيسر على الرجل أن يسلى نفسه بقراءة كتاب ينشر فكرة . أما الكتاب الذي تقرؤه المرأة فيجب أن يقص قصة ... عن رجل . إنها لا تزال من أصحاب مذهب « الأنيمز » فترى شخصيات إلهية وإرادة أبطال حيث ربما لا يوجد إلا عمليات غير شخصية لتغيرات كونية واجتماعية واقتصادية .

ومن بواعث رضا الذكور من الباحثين عن الاختلافات العقلية بين الجنسين ملاحظة قلة عدد العباقرة الذين قدمتهم المرأة للعالم . وحتى في الفن الذي قد يقال إن له بعض الصلة بالجمال ، وفي الموسيقى التي تضرب على الحساسية العاطفية ، فالمرأة قد أنتجت أقل مما يظهر أن جهودها وظروفها تسمح بذلك . وهناك نساء يعزفن الموسيقى أكثر من الرجال ، وعدد الرجال الذين يؤلفون المقطوعات الحية أكثر من عدد النساء . وعندما يعترف الرجال بالعبقرية العقلية أو الفنية في المرأة فذلك ريثماً يسترجعون هذه العبقرية للرجل معلنين أنها تخص الذكور . ويؤكد لنا شوبنهاور أن ثمة حرباً بين العبقرية والأمومة . فاذا صدقناه انهمينا إلى أنه لا توجد امرأة متفوقة عقلياً دون أن تكون في مثل الشذوذ الخطر الذي كان عليه شوبنهاور . وكانت جورج ساند^(١) George Sand تلحن سيجاراً خاصاً بالرجال ، وكان سبنسر يجد جورج إليوت^(٢) شديدة الذكورة

(١) جورج ساند (١٨٠٤ - ١٨٧٦) روائية فرنسية اسمها الأصل أمانثين لوسيل ، ثم ترجمت وأسمت نفسها جورج ساند ، وأخفقت في زواجها وأنجبت طفلين ، ولها مغامرات غرامية كثيرة . (المترجم)

(٢) جورج إليوت (١٨١٩ - ١٨٨٠) روائية إنجليزية اسمها الأصل ماري آن إيفانز وتمتاز قصصها بدراسة الشخصيات والمشكلات الاجتماعية . (المترجم)

بجيث يصعب الانعطاف إلى روحها الباردة . وتذهب مدام جيراردين إلى أن
للرء يستطيع أن يتبع في كل رواية من روايات جورج ساند أثر آخر محببها
وسلوكة . وفي ذلك تقول : « إننا حين ننقد أعمال الكتاب النساء نكون غالباً
مضطرين إلى القول في تعجب مع يفون : - الأسلوب هو الرجل » (١) .

. وأسباب قلة العباقرة في النساء كثيرة وعسيرة البحث . ولعلنا نعرف اصطلاح
العبقرية في تخير ناسين أنه قد يكون ثمة عبقرية في الأمومة كما يكون في السياسة
أو الأدب أو الحرب . ويجب أن نحكم على المساواة في العبقرية ، لا بالقدرة
على عمل كل شيء بمهارة متساوية ، بل بالقنطرة على أداء المهام والوظائف الطبيعية
لكل سن وجنس أداءً ممتازاً . إننا هنا نقع في نفس الخطأ الذي يرى العبقرية أقل
في عصرنا من عصور سابقة يبعث فيها الزمن سخرأ . فنحن نميل إلى البحث عن
العباقرة اليوم في الميادين ذاتها التي ازدهرت بها في الماضي ؛ ولعل بعض القوة
العقلية التي أبدعت الأدب والفن قديماً قد امتصتها الآن ميادين العلم والصناعة
الواسعة . فنحن مستغرقون في الوقت الحاضر في بذل الجهود لصياغة العالم الطبيعي
صياغة جديدة في ضوء معرفتنا وقوتنا الحديديتين . وعندنا الآن كبار المخترعين
والعلماء والمنفذين للأعمال الدولية والماليين العالميين ، فلا ينبغي أن نتوقع في العصر
نفسه أن يظهر أمثال أفلاطون وشكسبير وليوناردو وبهوفن .

ولعل الرجال قد تفوقوا على النساء في العبقرية ، لأن العباقرة يظهرن عادة
بين الأقلية المتعلمة من كل جنس ، لذلك كانت الموازنة كريمة إلى أن تتكافأ نسبة
المتعلمين تعليماً عالياً في كلا الجنسين . فالعباقرة من الذكور خلاصة ملايين
من الرجال المتعلمين . والعباقرة من الإناث زبدة بضع مئات فقط من المتعلمات ،
فاذا أفسح المجال والتدريب للمرأة أخرجت كبار الشعراء مثل سافو Sappho ،
والروائيين مثل جورج إليوت ، وعلماء الطبيعة مثل مدام كورى ، وعلماء
الرياضة مثل هيباتيا Hypatia وسونيا كوفالفسكي ، والمفكرين مثل أسباسيا
ومدام دى ستال ، بل كذلك حكماً أقوياء مثل الملكة إليزابيث وكاترين
دى مديشى . ومن الملاحظ أن الظروف إذا كانت مواتية ظهرت كثيرات من

Brandes, G. Main Currents of Nineteenth Century Literary, vol. III, p. (1)

71, note.

العباقره . ومن المحتمل مع ذلك أن المرأة بنقصها الحيوية الجسدية الجسدية الخالصة التي يحتاج إليها العمل الفني ، ولعلهن أقل من الرجال موهبة فيما يختص بحاسة الجمال التي تفتن النفس وتبعثها إلى الإنتاج الروحي . وقد يمكن أن نشير هنا مرة أخرى إلى هذا الضرب من الفتور الجنسي - أو قل إنه حساسية متأخرة - في النساء ، والذي يؤكد لنا كثير (من الرجال) من علماء الأمراض العصبية ، ولكن ليس له دليل كاف في الأخلاق المعاصرة . والمرأة على وجه العموم لا تنشأ في زوجها الجمال بل القدرة والقوة كعهد بالحماية . أما الذكر فهو الذي ينتخب ناظراً إلى الجمال ، لا لأنه (كما نجد في عبارة ستاندال) سبيل إلى اللذة ، بل لأنه عادة عنوان القوة والصحة . وإذا كانت المرأة تفقد شيئاً من الهوس بالجمال فذلك لأنها لا ترغب في الامتلاك بمقدار ما ترغب في أن تمتلك . فهي لذلك تلهم الفن أكثر مما تنتجه . ولعلها لا تجد في الرجل ، هذا الرجل المتكبر المضحك ، الجمال الذي يبعث على الخلق . ولماذا تنشأ الجمال وهي تتجسده؟ إن الجمال الحى أفضل من أبهى فنون النحت والتصوير ، وأشرف حتى من الذكاء ؛ لأنها أصل الفن وغاية الذكاء . ولو أن الحياة كانت جميلة ما احتاجت إلى الذكاء ، أما إذا كانت الحياة ذكية فإنها تسعى جاهدة كما تصبح جميلة .

٥ - هل الاختلافات موروثية؟

ليس أمامنا إلا سؤال أخير : هذه الاختلافات العقلية، أهى موروثية أم مكتسبة؟ والجواب عن هذا السؤال صعب ، لأن هذا الميدان ينافس فيه العلم الفلاسفة في زعزعة المعرفة وكثرة الفروض، وقد يمكن أن نجازف فنفترض بأن هذه الاختلافات ولو أنها مرتبطة بالاختلافات الموروثية للبنية والوظيفة ، إلا أنها في معظم الأحيان تنتقل اجتماعياً وتكتسب فردياً . وهي تتوقف إلى حد كبير على المثل العليا التي كونها الرجال لمنفعتهم الخاصة عن النساء ، وفروضها عليهن من خلال آلاف المؤثرات البيئية . وفي ذلك تقول إحدى الأساتذة محتجة : « يشجع الصبيان على الفردية ، فيدربون على الاستقلال في الفكر والعمل ... ويشجعون على التجريب وعلى عمل الأشياء بأنفسهم . أما البنات فيعلمن الطاعة ،

والاعتماد على الغير ، والانقياد . ويحملن على الشعور بأن الإسراف في الاستقلال بالرأى أو العمل منقصة لهن ، فلا يلقى بهن ، أو لا يوافق أنوثتهن . أما الصبي فيعلم أن يشعر بأن نجاحه في الحياة ... يتوقف على قدرته على أداء عمل جديد... ولستنا نجد مثل هذا الدافع الاجتماعي مطبقاً على البنات «(١)» .

ويمكن من بعض الوجوه نتيجة تجارب واسعة أن نجيب إجابة علمية عما إذا كانت الفروق العقلية والخلقية بين الرجال والنساء فطرية أم غير فطرية . وقد وجهت الظروف الاقتصادية التجارب ، وكانت الحياة نفسها المعمل . ويبدو كما لو أن الطبيعة قد وضعت لنفسها المشكلة التي تحيرنا ، وعزمت على حلها باختبار يكاد يكون كونياً . فقد كان الرجال متفوقين عقلياً على النساء : أذلك بالوراثة أم بالبيئة ؟ وللجواب عن السؤال كان لابد من إخضاع عدد كبير من النساء للحياة الاقتصادية المتغيرة والمتباينة التي كانت تصوغ الرجال ، ثم نلاحظ بأى سرعة وعمق غيرت هذه الوظائف الواسعة عقل النساء العاملات وخلقهن . وأصبحت جميع إنجلترا ونصف أمريكا مسرحاً للتجربة الكبيرة ، وفتحت المصانع والوظائف والمهن أبوابها لكلا الجنسين . وانتزعت الضرورة الاقتصادية الملايين إثر الملايين من النساء عن البيت القديم وقذفت بهن في طيش وحشى إلى المنافسة الاقتصادية والتجارية مع الرجال . فماذا كانت نتيجة التجربة ؟

كانت النتيجة تحولاً نحو المرأة « المتحررة » بلغ من السرعة حداً جعل العالم كله يفغر فاه دهشة . ففي خلال أجيال ثلاثة شق العاملات الحديدات بالصناعة طريقهن في كل ميدان حيث لا غنى عن القوة الجسدية . واكتسبن في جميع هذه الميادين من صفات الرجل العقلية والخلقية ما يكفى لأن يجعل أى عالم أخلاقى في المماتك المسيحية بأسف على ترجل الجنس الذى كان ذات يوم أطف وأضعف . وأبرزت المحاميات وعالمات الطبيعة والحاكمات وقاطعات الطريق قدرة المرأة ، المحددة بنطاق فرصهن التي لا تزال ضيقة ، على منافسة الرجل في فنونه التي أسسها من قديم . وتخرج في كليات الجامعات نساء لا يود أى رجل الزواج منهن ، لأن امتيازهن العقلى يتنافى مع بعض مزاعم الرجال في

Thompson, H.B., Mental Traits of Sex, p. 178. (١)

القيادة ، وهى مزاعم من لوازم الزواج ومصاحباته . لقد تناقست الثغرة العقلية والخلقية بين الحسنين بالسرعة التى حلت فيها الورش والمصانع محل المزارع والبيوت .

وستدرس فيما بعد هذا التغيير بتفصيل أوفى . ولكننا لا ننظر إلى هذا التغيير الآن إلا على أنه دليل على أن النساء إذا رغبن فى حياة الرجل المهنية تماماً ، فعلمين منافسته والتماثل وإياه فى الصفات العقلية والخلقية . ولكن أكبر الظن أن المرأة ستفصح عن ذوق أفضل من هذا . وسوف تنقضى هذه الفترة الحاضرة من التقليد ، وتكشف المرأة أن الرجال لا يستحقون هذا الإطراء . سيدركن أن العقل يختلف عن الذكاء ، وأن السعادة كالجبال والكمال فى تحقيق ذاتنا الطبيعية . ولن تسعى أولئك النساء السائرات فى طريق التحرير أن يكن رجالا ناقصات بل نساء كاملات . سيجعلن من الأمومة فناً يحتاج إلى إعداد وذكاء كما تحتاج إدارة الروافع والطنابير والمفاتيح والمعجلات . وقد يكتشفن أن الأمومة هى أعظم سائر الفنون .

لقد جلبت عليهن حريتهن الجديدة مشكلات من التعقيد والصعوبة كذلك التى كانت فى عصر عبوديتهن . ولا يستطيع الرجال مساعدتهن فى هذا المجال ، لأن عقل الرجل من الميكانيكية والحشونة بحيث لا تسمح له أن يفهم بدقة وعطف التغييرات الخطيرة التى تجعل حياة المرأة وعقلها مضطربين . معرفتها الجديدة وحدها هى التى تستطيع تلمس الحل لهذا الموقف الجديد . وأكبر الظن أنها سوف تنجح . فالطاقة التى حققت حريتها سوف تواجه المطالب التى بعثتها هذه الحرية . ستجد سيلاً يجمع بين الحنان الذى يزدهر فى الحب والأمومة ، وبين القدرة المتنوعة ، والذكاء النافذ ، والجمال الزائل ، مما تتميز به اليوم .

الفصل التاسع المرأة الحديثة

١ - التغيير الكبير

لقد أغفلنا في التحليل السابق الحديث عن المرأة المصنعة في المدن الحديثة إلى دراسة منفصلة ، لأن هذا الصنف قد بين النساء ، عزيز على التصنيف ، ويكاد يكون بغير سابقة في التاريخ . ولو تخيلنا أنفسنا في سنة ٢٠٠٠ ، وتساءلنا عن أبرز ملامح الأحداث الإنسانية في الربع الأول من القرن العشرين ، لرأينا أنه ليس الحرب الكبرى ولا الثورة الروسية ، بل تغير حالة المرأة . ولم يشهد التاريخ مثل هذا التحول المذهل في مثل هذا الوقت القصير . « فالبيت المقدس » الذي كان أساس نظامنا الاجتماعي ، ونظام الزواج الذي كان حائلا دون الشهوة الإنسانية وعدم الاستقرار ، والقانون الأخلاقي المعقد الذي رفع البشر من الوحشية إلى المدنية والتهديب ، من الواضح أنها وقعت بين برائن ذلك الانتقال المضطرب الذي أصاب جميع نظمنا وسائر أساليبنا في الحياة والفكر ، منذ أن اغتصبت المصانع المزارع ، وامتصت المدن موارد الريف الطبيعية والإنسانية . فإذا كانت عقولنا قد تزعزعت بعض الشيء في هذا العصر الهائج فلها العذر في ذلك .

أما أن تكون المرأة مجرد جارية في البيت ، أو زينة اجتماعية ، أو متعة جنسية ، فتلك ظاهرة عرفها عصور سالفة غير زماننا ، فهي مجرد ظاهرة وضرب من الشذوذ الأخلاقي يستحق الملاحظة العامة والالتفات . وقد طالب أفلاطون في جراءة بفتح باب كل عمل ، والمساواة في جميع القرص ، دون نظر إلى اختلاف الجنسين . ولكن أرسطو كان أكثر موافقة لميول عصره فوضع المرأة في مرتبة متأخرة من النمو ، وفسر وجودها على أنها إخفاق الطبيعة في أن تنتج رجلا . فهي

تتعلق بطبقة العبيد من حيث تبعيتها الطبيعية ، وعدم جدارتها بالمشاركة في الأمور العامة .

وتلك كانت كذلك نظرة يهوه Jehovah الذي جمع الأزواج والأمهات مع الماشية والأملك الثابتة في آخر الوصايا العشر التي يقال إنه أنزلها على موسى . وقد صاغ اليهود يهوه على صورتهم ، وكانوا كأى شعب محارب يعتبرون المرأة كارثة ، وشرّاً لا بد منه يحتمل باعتبار أنه المصدر الوحيد للحصول على الجند في ذلك الوقت . ولم يكن قدماء اليهود يوقدون أى شمعة إذا كان المولود بنتاً . وكان على الأم التي تلد أنثى أن تتطهر مرتين . أما الصبي ، فخوراً بالآية التي كانت عهد يهوه عليه ، فكان يردد بانتظام في صلاته : « أشكرك يارب لأنك لم تخلفني كافراً ولا امرأة » (١) . ولكن اليهود لم يشذوا عن غيرهم ، ولو أنهم كانوا في كثير من الأمور خارجين على القوانين الأخلاقية في زمانهم . ففي كل مكان من الشرق كانت المرأة محترمة حتى تصبح أم بنين ، ولا تشرف تمام الشرف حتى يجر أبناؤها صرعى في ساحة القتال . وحتى أفلاطون نصير المرأة فقد حمد الله لأنه ولد ذكراً .

ومنذ تلك الأيام حتى عصرنا الحاضر تغيرت دون شك أحوال النساء ومعاملتهن تغيراً عظيماً واختلفت اختلافاً بيناً ، ولستأ في حاجة إلى تفصيل ذلك على هذه الصفحات ؛ فالقيان Hetairai اللاتي أصفين على الحياة الأثينية قديماً صورة بديعة ، والمحظيات اللاتي كن يعمرن بلاط الملوك في العصر الحديث ، التمس الحرية من سيادة الرجل بابرارز مفاتهن الجنسية والعناية باظهارها : فكانت أسباسيا Aspasia ، وفريتا Phryne تحتلطان بالفلاسفة والفنانين ، كما كان صالون مدام دي باري وبومبادور مراكز عقلية لأسمى ثقافة عرفها العالم . وكانت الثورة الفرنسية تبشر في زمانها بحرية عالمية . فقدم كوندورسيه للمجلس الوطني طلباً بحق المرأة في الانتخاب ، وأضافت ماري ولشتنكرافت حقوق المرأة إلى حقوق الرجل . حتى إذا انقشعت دماء الثورة بعد أن قدمت المرأة نصف مليون من بنيتها لتحرير فرنسا ، وجدت أن أحداً لم يفكر في تطبيق الحرية

(١) Royden, A.M., Woman and the Sovereign State, p. 45.

والمساواة على البيت ، وأن الثوار الذين استولوا على التويلرى أمكنهم أن يحكموا زوجاتهم بيد قوية كالرومان الذين كانوا يحبون اصطناع أسمائهم . كانت الحرية وفقاً على الرجال لا غير ، وكانت موثثة لغوياً فقط .

وظلت هذه الآراء سارية في هذا القرن . فمن منا اجتاز الأربعين ولا يذكر الرسالة العنيفة التي أثبتت فيها أتوفاييننجر أن المرأة لا روح لها ؟ ومن منا نحن الرجال لم يستمتع بقراءة كتاب شوبنهور « مقال عن النساء » حيث يقول : « هذا الجنس القمىء ، ضيق الكتفين ، عريض الحقوتين قصير الرجلين » ؟ ألم تملأنا نشوة التفوق حين نصحنا نيتشه قائلاً : « إذا أقبلت على المرأة فلا تنس أن تحمل سوطك ؟ » لم نلتفت إلى أن هذه الكتب التي استمتعنا بها أعظم متعة لم تكن إلا جزءاً من الحرب الأزلية بين الجنسين ، فهي كتب حربية للذين ضرب عليهم الحصار تعبر عن حكمة المهزمين من الرجال . وفاتنا أن نلاحظ ، لأننا نشبه هؤلاء الشهود في تحيزهم ، أن شوبنهور هجرته عشيقته البديعة وآثرت عليه لقب بيرون وحسن مظهره . وأن نيتشه قد هجرته عشيقته السمراء لو سالومي Lou Salomé بعد أن تتبعها في نصف ممالك القارة متقرباً إليها بفقها اللغة والأمثال . وأن فاييننجر ، ذلك العبقري المتعجرف ، هجرته قينة في إحدى حانات فينا ، وفي ساعة من ساعات اليأس قتل نفسه رمياً بالرصاص في بيت بيتهوفن . إننا نقرأ تلك الكتب راضين لأنها تعبر بدهاء وأمن عن عداثنا الكامن للجنس الذي سوف نظل على الدوام نكن له الحب .

لم يكن للمرأة حتى سنة ١٩٠٠ أو ما يقرب من ذلك أى حقوق يرتبط الرجل قانونياً باحترامها . وفي القرن التاسع عشر كان نساء أفريقيا يشترين ويبيعن كالرقيق أو كالألات الزراعية . وكن في جزر تاهيتي وبريطانيا الجديدة يرضعن الخنازير (١) . وفي مري إنجلترا قد يضرب الزوج امرأته ولا يحاسبه القانون إذا بقيت بعد (العلاقة) على قيد الحياة . وقد يرتكب الفحشاء كل ليلة ، وليس لها أن تفعل مثله إلا إذا هجرها . وإذا اكتسبت مالا فهو من نصيبه ، وإذا كان لها

Thomas, W.L., Sex and Society, p. 138. (1)

مال وقت الرواج فله أن يتصرف فيه . أما أن يكون للمرأة حق العمل في مصنع ، أو شرف العمل في مصنع ، فشيء لم يخطر على بال أى رجل .

ثم حدث التغيير الكبير ، فأخذت تلك النساء اللاتي كن عبيداً يتحدثن عن الحرية وغيرها من التأمم ، وعن المساواة وغيرها من المستحيلات ، وحطمن النوافذ وصناديق البريد ، واشتركن في مواكب لا حصر لها ، ومظاهرات صاخبة . الخلاصة فلنقل على « طريقة كوميديا الأخطاء » (١) .

في الفراش لم يغمض لنا جفن لاستعجالهن الأمر
وعلى المائدة لم نذق طعم الأكل لاستعجالهن الأمر
وفي صحبتن كن يدمن النظر إلى هذا الأمر

لقد ركبت المرأة رأسها ، وشقت طريقها . ولا يمكننا اليوم أن نضربها ، ولن تطهى لنا الطعام ، بل لن تبقى إلى جانبنا في البيت ليلة واحدة . وبدلاً من القلق على خطايانا فهن في شغل بخطاياهن . لقد كسبن نفوساً وأصواتاً في الوقت نفسه الذي يبدو أن الرجال قد فقدوا النفوس ونسوا الأصوات . فالمرأة تدخن ، وتحلف ، وتشرب ، وتفكر ، على حين يجلس الرجل الفخور الذي احتكر في الماضي تلك الفنون في البيت يشرف على تربية الطفل .

٢ - الأسباب

كيف نفسر هذا الانقلاب السريع للتقاليد والنظم الثابتة والمحترمة المنحدرة من عصور أقدم من المسيحية ؟ السبب الشامل لهذا التغيير هو تكاثر الآلات . أما « تحرر » المرأة فكان عرضاً نشأ عن الثورة الصناعية .

فأول كل شيء دفعت الثورة إلى تصنيع النساء على نطاق لم يعرف من قبل ولم يحلم به . كن عاملات أرخص من الرجال . وكان صاحب العمل يؤثر توظيفهن على الذكور الأعلى أجراً والأكثر ثورة . وكان الرجال في إنجلترا منذ

(١) كوميديا الأخطاء Comedy of Errors ، تمثيلية لشكسبير ، تقوم على الخلط

بين توأمين شكلهما واسمهما واحد ، وتخطي، زوجة أحدهما وتختل بالآخر (المترجم) .

قرن مضى يجدون مشقة في الحصول على عمل ، ولكنهم كانوا يقرؤون في الإعلانات دعوة نسائهم وأولادهم يرسلونهم إلى أبواب المصنع^(١) . فأصحاب العمل يجب أن يفكروا في صيغ من المكاسب والأسمم ، ولا يجب أن تشغلهم اعتبارات الأخلاق والنظم والدول . والرجال الذين تأمروا ببلاهة على « هدم البيت » هم أصحاب المصانع الوطنيين في إنجلترا في القرن التاسع عشر .

وأول خطوة قانونية لتحرير جداتنا كان تشريع عام ١٨٨٢ الذي نص على أن نساء بريطانيا العظمى لهن الحق في التمتع بمزية لم تكن لهن من قبل ، وهي الاحتفاظ بما يكسبن من أجر . كان ذلك التشريع أخلاقياً ومسيحياً إلى أقصى حد ، فرضه أصحاب المصانع في مجلس العموم ليجذب فتيات إنجلترا للعمل في مصانعهم . ومنذ تلك السنة حتى وقتنا هذا ظل الدافع الذي لا يدفع إلى الحصول على الكسب يجتذب النساء من عبودية البيت إلى رق الورشة . ونصف نساء إنجلترا اليوم يشتغلن إما في المكاتب أو المصانع . وتزايد نسبة العاملات في الصناعة أربعة أضعاف السرعة التي تزايد بها نسبة الرجال . وأكبر الظن أن كل امرأة في مدينة المستقبل ستعمل خارج البيت فيما عدا فترات أمومتها النادرة . وقد يبدو هذا المنظر لبعضنا كريهاً عند التأمل فيه ، ولكننا سنعتاده بعد جيل أو جيلين ، لأن العادة تجعل كل شيء يبدو معقولاً .

ومن الطبيعي أن ينشأ عن تصنيع المرأة فساد الحياة المنزلية . وكلما ولدت الآلات آلات جديدة بكثرة متزايدة مستمرة ، وأدى الإنتاج الواسع النطاق المزود بأساليب جديدة من القوة إلى رخص الأسعار ، غلب المصنع البيت وتفوق عليه في مئات الحرف التي كانت تنوع حياة المرأة ، وانتزع منها عملها السابق شيئاً فشيئاً ، وأخذت المهن التي أدت إلى عبوديتها تفر واحدة بعد أخرى ، تاركة البيت خالياً من الاهتمام ، والمرأة نفسها عارية عن الوظيفة وغير راضية .

والمرأة التي خرجت لحسابها الخاص من البيت إلى المصنع . لقد بحثت عن العمل الذي طار من يديها . وكانت تعلم أنها بغير هذا العمل لا بد أن تصبح طفيلية لا معنى لها ، وترفاً لا يقوى على اقتنائه إلا ذوو المال الوفير ، أو

Hammond, J.L. and R. : The Town Labourer, 1760-1832. (1)

ذور العاهات من الرجال . وتلقت المرأة أول أجر لها بالاعتزاز والسعادة اللتين يشعر بهما الصبي الذي أراد أن يثبت رجولته بالعمل في المصنع والتدخين يوم الأحد ، كى يهرب من المدرسة . فالابتهاج الذي استقبلت به المرأة عملها الحديد كان فرحة عثورها على شيء تعمله . فهذه هى السعادة بالوظيفة مرة أخرى .

فلما أصبح البيت فارغاً ، ولم يعد فيه مكان لعمل شيء أو الاستمتاع بالحياة ، هجره الرجال والنساء ، وأخذوا يعيشون في صناديق أو خلايا تسمى شقة في بيت ، وعنابر ينام فيها أولئك الذين يقضون حياتهم ليلاً ونهاراً في الخارج في صخب الشوارع وزحمتها . فهذا نظام استمر عشرة آلاف سنة أنهار في جبل واحد . وقد تعلمنا من علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعى أن النظم والتقاليد والأخلاق لا يمكن تبديلها إلا بالتدرج البطيء غير المحسوس ، ولكن ها هنا أحد التغييرات الكبرى في تاريخ الحضارة ، والذي يكاد يبلغ الأوج ، وقع في زمن لا يزيد عن طفولة شخص واحد إلى كهولته . وقد حذر الكتاب والعواظ والساسة من السماح للاشتراكين بهدم البيت ، ومع ذلك لعبت العمليات الاقتصادية هذه المأساة تحت أبصارهم وفي قلب حياتهم قبل أن يتمكن علماء الأخلاق من التحقق من أسبابها .

وقد يمكن أن يظل البيت قائماً لو أن الأطفال كانوا يملأونه بالمناعب والصخب ، غير أن الثورة الصناعية قد انزعجتهم بعيداً جداً . ذلك أن الأطفال الذين كانوا عوناً أى عون وبهجة في المزارع الفسيحة ، أصبحوا عائقاً في المدينة المزدهمة والشقة الضيقة . وكان في العالم كثرة كثيرة من العمال ، لذلك وجب أن يجد الإكتار من النسل على الطريقة القديمة ، حتى لا يظل الناس في فقر دائم وجهل مستمر . وأدى ظهور الآلات إلى وجود المصانع ، وأفضت المصانع إلى نشأة المدن ، وخلقت المدن الديمقراطية والاشتراكية وتحديد النسل . الحق أن أحداً لم يرد شيئاً من ذلك ، ولم يكن لمظاهرات حقوق النساء البراقة المطالبات بشيء من التوقف عن كثرة الحمل إلا أثر ضئيل جداً في إحداثها ذلك التغيير ، ولم يكن في مقدور عظمات رجال الدين والحكام وقف موجته . وكان من الواجب على تاريخ أوربا وأمريكا في مائة العام الأخيرة أن يتبدل ليستنبى هذه

النتائج . ولكن التاريخ كالطاقة لا يسير إلى الوراء ، فهو يحمل في طياته ضرباً من القدر المحتوم ، ويجب أن يجرى في مجراه إلى المصير .

ولم يكن الأطفال ضرباً من الترف في المدن حيث لا يمكن دفعهم إلى العمل في الخامسة من العمر ، وحيث يزيد كل طفل جديداً في أجرة البيت ، نقول لم يكن الأطفال ترفاً فقط ، بل الحمل نفسه لم يعد حادثاً طبيعياً ، ولكنه عملية خطيرة . ذلك أن المرأة الحديثة لاشتغالها في المصنع ، أو ابتعادها عن العمل في البيت ، أصبحت أضعف فيسولوجياً من أسلافها . ومما زاد الطين بلة تدهور حاسة الجمال عند الرجل في العصر الحاضر لشغفه بالقوام الرشيق الخائر . أما أمثال النساء اللاتي عرفهن روبنز Rubens (١) ، أو الأمهات من مثل لايتشيا Laetitia أم بونابارت ، فلا يرقن في نظر فنائنا أو رجالنا في المدن الذين يحكمون على الجمال في ظل الفتنة الجنسية العابرة أكثر مما يحكمون عليه بشيراً بأبومة قوية . وهكذا أصبح النساء أكثر فأكثر عاجزاً عن حمل الأطفال ، وتجنين الحمل ما استطعن إلى ذلك سبيلاً ، ونزلن به إلى أضيق حد . ووافقهم أزواجهم في معظم الأحوال على ذلك ، وهم لا يعلمون في براءتهم أن الأطفال تكلف من النفقة أقل مما يبذلونه في ملاهى الليل .

ثم جاءت تلك المبتكرات الجديدة المسماة وسائل منع الحمل فكملت الدائرة ، وتعاونت في صمت على تحرير المرأة . فلما تحررت من هم الولادة وتحررت بناء على ذلك من آخر عمل كان يمكن أن يجعل البيت مكاناً محتملاً له معنى ، ذهبت إلى المكاتب والمصانع وإلى العالم . وافتخرت بأنها أخذت مكانها إلى جانب الرجل في الورشة أو المتجر . فهي تؤدي نفس العمل ، وتفكر نفس الأفكار ، وتنطق بنفس الألفاظ كالرجل . والأغلب أن التحرير جاء عن طريق التقليد ، فاصطنعت المرأة واحدة بعد أخرى عادات الرجل التقليدية البالية حسنة كانت أم قبيحة ، فحاكته في تدخينه ، وفجوره ، وإلحاده ، وفي طريقة تصفيف شعره ولبسه السراويل وأدى هذا التقارب بين الرجال والنساء في أثناء النهار إلى تأنت الرجل واسترجال المرأة . وصاغت المهن والبيئة والمؤثرات

(١) رسام مشهور من بلاد الفلنك (١٥٧٧ - ١٦٤٠) (المترجم) .

المثالة الجسدين فى جنس يكاد يكون واحداً . ولن يمر جيل حتى يصبح من الضرورى أن يميز كل منهما بعلامة تمنع الوقوع فى مشكلات معقدة يؤسف لها . فلا يستطيع أحدنا الآن أن يكون وانثى .

فما أعمق التغيير الذى تمثله المرأة العقيم أو ذات الطفل الوحيد بالإضافة إلى المرأة فى الزمن السابق ، وما أعظم أثره حين نذكر فرع كلا الرجل والمرأة من تصور العقم . وكان احترام المرأة حتى بداية القرن العشرين يتغير مع عدد الأطفال الذين أنجبته . وكانت وظيفة المرأة إما أن تكون أمماً أو عاهرة ، وفى كلتا الحالتين كانت تلد فى الغالب ما أمكنها . وكانت ملايين الصلوات تقام كل يوم فى أوروبا المسيحية والعالم الوثنى يطلب أصحابها من الآلهة أن يهبهم نعمة البنين ، وكانوا يتلون الأدعية ، ويزورون الأضرحة ، ويتمسحون بالحجارة المقدسة . ومن عادة شعب المايا Maya أن يصوم الزوجان العقيان ويصليان ، ويقدمان الهدايا اللطيفة لاستعطاف الآلهة لتجود بكثير من الأولاد . وسئل أحد ملوك أفريقيا عن عدد أبنائه فأجاب حزينا أنهم عدد قليل ، لا يزيد على السبعين .

لم تؤثر صور الأمومة فىنا إلى شعاف القلب وتبعث الدمع إلى العين ؟ لأننا قبل ظهور المدن كنا فى حاجة إلى عدد كبير من الأطفال ، وكانت مشاعرنا تعكس تلك الحاجة . أما الآن فليست المدينة فى حاجة إلى النسل ، لأنها بأنوارها الساطعة ولياليها الطويلة تستطيع أن تجذب ذرية أسود الريف الأقوياء . وليس على الإله الجديد إلا أن يبسط ذراعيه ويحمل فى أطراف أصابعه ملايين المصابيح المتعددة الألوان حتى يهرع إليه الأطفال ، آفاً وآفاً كل عام ، ويرتفعون بدورهم إلى الحكمة والعقم . فالمدينة لا تعتقد أن الأطفال لازمون ، وهى لذلك تعلم النساء أن يصبحن محظيات ، ولا تلوثن بالحمل . إن الحنان إلى الأمومة الذى يذيب فى بعض الأحيان حتى أرواحنا الجامدة المتشككة هو ثمرة عهد الشباب فى الريف ، والذى لا يزال النساء يحملن فيه الأولاد بين حين وآخر ؛ ومشاعرنا تبقى بعد تغير الظروف التى نشأت فى ظلها وذهابها . ونحن الذين ولدنا فى أواخر القرن التاسع عشر ، ونشأنا على مقربة من الحقول الفسيحة ، وسنظل نعتقد إلى النهاية (كما يحذرنا المثل العربى) « أن أولئك الذين يغير ولد لا سعادة لهم » ، وأن تشييد أسرة مكونة من بنين تسرى فيهم الرجولة ، وبنات ينطبع فيهن

الحنان ، عمل يحتاج إلى خلق أعظم ، وقد يكون له ثمرة أهم من رسم الصور
التأثيرية الحديثة ، أو تأليف الموسيقى المعاصرة ، أو كتابة مقالات عن المرأة في
العصر الحاضر .

٣ - بناتنا

فالمرأة المتحررة ثمرة تطورات اقتصادية ليس لإرادتها يد فيها ، ومن
التناقض الشنيع أن توجه إليها الحملات الأخلاقية تلومها على ما هي عليه .
أما نحن فقد نستطيع بهذه العين أن ننظر إليها نظراً إلى حد ما موضوعياً وبعيداً
عن التحيز . فهلم بنا نتأملها .

فالمرأة في الصناعة تكيف نفسها بمرونة مدهشة ، مع مرونة عقلية
لا شك فيها . ومعظم حيل الذكاء وعاداته التي أعلن علم النفس الحديث أنها
موروثة في الرجال يظهر أنها مكتسبات سطحية يمكن للمرأة أن تصطنعها بمثل
السهولة التي تتجمل فيها بالأحمر . راقب فتيات المكاتب الموظفات في كل مكان ،
قد تنقصهن المبادأة بعض الشيء (إلا في المسائل الجنسية Erotica) ولكن
ما فيهن من منافسة هادئة ، وأدب صابر ، واضطلاع بمعظم أعمال المكتب
الحقيقية - على حين يدخن الرئيس الذكر سيجاره ، ويتكئ إلى الخلف في
كرسيه ، وينظر بعظمة حوله - كل هذا مصدر دهشة مستمرة ، وإعجاب
متواضع . لم يمض إلا جيل أو جيلان حتى حقق الجنس الأضعف من التقدم
في الظفر بمركز في الصناعة ، وفي غزو كل ميدان فيها ما عدا الأعمال الجسمانية
الجسيمة ، حتى لقد يعجب اليوم جون ستوارت مل الأمين حين يرى إلى أي
حد أصبحت آماله المتواضعة عن الجنس الذي اضطلع بحمايته لا ضرورة لها .
(إنى لأتصوره واقفاً في دهشة ينظر إلى نساء البوليس يرشدن حركة المرور في
أكثر المناطق ازدحاماً في القسطنطينية) (١) . ولا أحد يعرف إلى أي حد سوف
يبلغ هذا النفوذ النسائي في الصناعة . فقد يأتي اليوم الذي توازن فيه سياسة المرأة
العالية ومهارتهن في القيام بالتفصيلات قوة الرجال الأعظم منهن وجرأتهم في

Montreal Gazette, April 2, 1928. (1)

المبادأة . وحين تظطلع القوة الكهربائية بمجهود الصناعة القدر والعضلى ، فسوف ينبغي حتى على الرجل أن يصبح ذكياً للاحتفاظ بمكانه فى العالم الاقتصادى .

ولن تستمتع بناتنا فى السياسة بمثل هذا الحظ . ولا ريب فى أن المرأة المصنعة يجب أن تشترك فى هذه اللعبة المؤسفة لحماية نفسها من القوانين التى يفرضها الرجل ، ومن هذا التمييز فى العصر الحاضر . ألم يحط الذكر الشرير امتيازاته التى شاخت بألاف من الحواجز التشريعية ، وحصن قوته فى نقط كثيرة بقوانين موقرة ؟ يجب أن تحمل هذه القوانين ، وأن يفتح كل طريق للطاقة المدخرة لهذا الجنس الذى تخلص فجأة من العمل المنزلى وتحرر من أنقال الأمومة المتكررة كل سنتين . أى قدرة حماسية قذفت بها المرأة فى هذه المعركة من التحرير ؟ لم يسبق لنصف العالم من المقاومة أن انهزم بمثل هذه السرعة ورباطة الجأش . فى الوقت نفسه لم تستطع البروليتاريا (الجبهة الشعبية) فى إنجلترا وأمريكا أن تحقق شيئاً مع ما لها من قوى تماثل المرأة فى الصوت والعدد . إن شجاعة المجندين من الرجال السكارى بأصوات الحرب وغضبها لم تستطع التغلب على شجاعة هذه النساء المطالبات بحق الانتخاب ، القارعات أبواب كل سلطان ، حتى فتحت الأبواب وأرغمت الديمقراطية على قبولهن . وبعد خمسين سنة من اليوم سوف يتحققن إلى أى مدى من الكمال بلغن .

ويدرك بعض النساء الآن أن حق الانتخاب ليس هو التحرير ، وأن الحرية ليست سياسية بل عقلية . فثمة ملايين من البنات اليقظات السعيدات يملأن حجرات الدراسة والعنابر والساحات المدرسية بالبشر والبهجة ، تلك الأماكن التى كانت وقفاً على المختالين من ورثة الكون . إننا نراهم فى آلاف الكليات وقد علا الحد وجوههن بما فى العالم من أدب وعلم ، وأعينهن تسطع بالشهوة إلى المعرفة ، وأجسامهن الرياضية تفيض باحساس أكمل من الحياة . لعل جملهن يعنى أبطارنا فنغالى فى الحكم على مرجهن الصاخب وطيّشهن العميق . ولكن هلا سمعتن يسألن المعلمين ؟ أراقبتن وهن يمزقن النظريات إرباً إرباً ، ويصفن العالم من جديد بحيث يكون أدنى إلى رغبات قلوبهن ؟

ما مصير كل هذا التعليم ؟ أيتعاون مع حياة المرأة الحديثة المتوسعة ومع

آلاف التجارب الجديدة التي تصوغها صياغة جديدة فيها ذكاء قادراً على كفاح هذا العالم المتغير ؟ أيمزق هذا التنوع الحديد في العقل والاهتمام وحدة الغريزة وحكمها ، تلك الغريزة التي أحسنت خدمة المرأة قديماً في حربها الأزلية مع الرجل العقلي المتردد ؟ أيزعج ذكاء المرأة الحديد طلاب الزواج ويخيفهم ، فيصعب على المرأة المتعلمة التوفيق إلى زوج ؟ مما يروى أن المواطن الروماني كان يمتلئ رعباً من صورة الزوجة المتعلمة . وكذلك شأن كل رجل ، فهو لا يجد سعادة في صحبة امرأة يكافئ عقلها عقله . إنه لا يجب إلا من هي أضعف منه ، كما أن المرأة لا تحب إلا من هو أقوى منها . من أجل ذلك كانت الفتاة ، التي تقوم ثقافتها على المعرفة والأفكار أكثر مما تقوم على السحر الطبيعي والمهارة شبه الواعية ، بعيدة عن مزية التوفيق إلى زوج . إنها تنهك حرمة الميادين التي احتفظ بها الرجال قروناً عديدة لأنفسهم . ويدل الإحصاء على أن ستين في المائة من المتخرجات في الجامعة يبقين غير متزوجات^(١) . وكانت سونيا كوفالفسكي العاملة الممتازة تشكو من أن أحداً لا يقبل على الزواج منها ، وفي ذلك تقول : « لم لا يستطيع أحد أن يحبني ؟ إنني أستطيع أن أقدم أكثر مما تستطيع معظم النساء ، ومع ذلك فإن أتفه النساء تحب ولا يحبني أحد »^(٢) . الفتاة الذكية هي التي تحق امتيازها العقلي حتى تبلغ سنّاً كبيرة .

لقد أثبتت المرأة إذن خلال خمسين عاماً أن الفوارق العقلية بين الجنسين ترجع إلى البيئة والمهنة أكثر مما ترجع إلى الطبيعة الثابتة . وهذا لا يدل على أن المرأة ستتغلب في زمن قريب على العوائق العقلية التي أحاطها الزمن والعرف بها . فلم يكفد تطورها الثقافي يبدأ ، وليس وراءها تقاليد وشدائد انحدرت مع الزمان ، ولا مثل كبيرة تلهمها الثقة أو تتخذها نماذج في تطورها . ولم تتمتع المرأة المتوسطة بفرص التعليم إلا في عصرنا الحاضر فقط ، وذلك على نطاق يكاد يقرب من المساواة بالرجل . وستظل نسبة الإناث إلى الذكور في كليات الجامعة لعدة أجيال أقل من نسبة النساء إلى الرجال في عدد السكان عندنا . وأكبر الظن أن

(١) Siegfried, A., America Comes of Age, p. 111.

(٢) in Ellis, H., Studies in the Psychology of Sex, Vol. VI, p. 141.

الحمل كذلك على ما هو عليه في الوقت الحاضر من نسبة ضئيلة ، سوف يمتص شطراً كبيراً من طاقة المرأة . ولعلها تعتبره مرة أخرى مهمتها العظمى ، وتقع بالتنازل عن مثل هذه الوظائف العرضية للرجال كالفن والأدب . وقد تكتشف أن ثمة في هذا العالم أموراً أعظم من الألفاظ المكتوبة ، وأن ثمة بعض الفرق بين العاقل والذكي .

ماذا حدث في أثناء ذلك . لجسم المرأة الحديث ؟ هل أدى هجرها البيت وإقبالها على المصنع إلى فساد جسماني ؟ من المحتمل جداً ، فهي لا تبدو في قوة جدتها الريفية أو المنزلية ولا في صحتها . إن لون بشرتها أقل نضارة ، ولا تستطيع أن تلد أطفالاً دون شعور بالعجز والألم مما يجعل أي فتاة بدائية تنظر إليها باحتقار ، ولكن هذا صحيح بالنسبة إلينا جميعاً ، فالرجال كذلك فقدوا العافية منذ أن هجروا الحقول . حقاً العقل الحديث أكثر يقظة ، فهو يستعمل الآلات المعقدة والمكينات بثقة ثابتة وأمن نسبي . ولكن الجسم الحديث عاجز عن حمل الأثقال والمجهودات التي كان يحتملها كجزء من الروتين اليومي .

وعلى الرغم من جميع متاعب المرأة الحديثة فإنها لاتزال جميلة إلى الحد الذي يبهر الفلاسفة حين تخطر أمامهم . ولا يمكن أن نسر منها كثيراً لهذه الفنون الماكرة التي تحافظ بها على جاذبيتها المغربية إلى عمر كان يصل بنساء القرون الماضية إلى الشيخوخة . كانت المرأة إذا بلغت الأربعين عجوزاً متقاعددة وموضع السر . أما اليوم فلا خطر عليها من ذلك . حتى أحمر الشفاه والمطريات هي من هذا الوجه من مجلوبات الفن والحضارة ويمكن أن تغتفر ، ولو أن اللون الطبيعي أبدع بديل عن الدهانات .

قد يكون هذا الوهن البديع وهذا الضعف الجسماني في المرأة الحديثة شيئاً عارضاً وسطحياً . ففي عالم يدور بقوة الكهرباء ستكون المصانع من النظافة كما كانت البيوت قديماً . وستنبت المدن ويتنفس الناس الهواء الطلق مرة أخرى . ولعل الفتاة الحديثة مع رياضة المشي والتنس وكرة السلة تستعيد ذلك التوردد الذي انتزعت الصناعات المدنية من خديها . ولقد تغلبنا على الملابس المشدودة المعوقة ، إذ تحرر جسم الفتاة المعاصرة من تلك المهمات المحترمة التي كانت إحدى معوقات

الحمل . فالسراويل القصيرة نعمة لجميع العالم ما عدا حائك الملابس . وضررها الوحيد هو في ضمور خيال الرجال – وأكبر الظن أن المرأة لا جمال لها إذا فقد الرجال الخيال . جملة القول لقد أضافت المرأة الجديدة الشيء العظيم إلى ألوان الحياة الحديثة وتعددها ، إذ أصبحت أكثر حيوية وسعادة بدافع حريتها . قد يكون من العسير على بعضنا اعتياد الشعر القصير (ولو أن هذه البدعة قديمة) وتدخين النساء ، ولكن الجيل المقبل لن يحفل بهذه التغييرات السطحية . وأي شيء إذا أحسنت صنعه أيدي الحسان يبدو في نظر الرجل العادى جذاباً . والعلادة تكون الأخلاق ولها كذلك يد في تكوين الجمال . في سالف الأيام كانت العجائز تدخن (البيبة) ذات الرائحة الكريهة ولم يحفل العالم بهن . ولن يحفل العالم بعجائز اليوم حين يغالزن ، وتنفخ الشابات سمح التبغ في وجه حبيبا . قد يكون التدخين مضراً كما يكون لذيذاً ، فاذا كان الرجال والنساء يؤثران حياة قصيرة وممتعة ، فلهم في ذلك الخيار . وأناقون نحن من أن المرء ليس أحكم من الحكمة ؟

وماذا نقول في هذا « الهوس الاهتزازي delirium tremens » المسمى بالرقص الحديث . أهى المرأة التي اخترعته أم بعض العصبيين من الرجال ؟ أيمكن أن يثور أجدادنا ثورة خلقية كما نفعل اليوم ، حين كان (الفالس) الشهوانى يحل محل الرقص الدائري pirouetting أيام الأرسطراطية^(١) ؟ وماذا نقول أيضاً في براعة السيدات النامية في فنون السرقة والقتل والسياسة ؟ في عام ١٩٢٦ كما تروى إحدى صحف^(٢) بليتيمور المحترمة قائلة : « نقل شخص مجهول الشخصية إلى المستشفى في حالة خطيرة ، متألماً من إصابات شديدة يقال إن ثلاث فتيات اعتدين عليه في غابة بالقرب من هيرلوك . كان الرجل ماشياً ... حين مرت به الفتيات في سيارة وعرضن عليه الركوب معهن ، فقبل . وبعد ركوبه مسافة قصيرة أوقف الفتيات السيارة عند طريق منعزل . وفي خلال صحبة صاحبة بعد ذلك ... غضبت إحدى الفتيات لقله غيرته ، ونشبت معركة ، وكتفته

Cf. De Musset, Confessions of a Child of the Century, p. 112. (١)

Quoted in the American Mercury, March, 1926. (٢)

اثنان منهن وأخذت الثالثة تطعنه بدبوس كبير . ثم هربت الفتيات بعد أن تركته على الأرض عاجزاً .. ، « أيمكن بعد ذلك أن نشك في تحرير المرأة ؟

ويبدو أن هكسلي كان على حق في قوله : « فضيلة المرأة أعظم خرافة شعرية للرجل » . ففي النساء على الدوام هذه الشهوات ، ولكنهن يجتهدن في إخفاؤها في الزمن السابق لأنهن كن يعتقدن أن الرجال يؤثرن الحياء . أما اليوم فيبدو أن الرجال أسرع استجابة لعدم الاحتشام. وتميل الفتاة العصرية إلى الصراحة الجسمية والنفسية مما يفتن الحواس فتنة مؤقتة ، ولكنها قلّ أن تجتذب الروح . والرجل الناضج يطرب للتمنع ويحب في المرأة الأدب الرقيق . ولا ريب في أن الرجل حين يظل ناقص النمو ، منغمساً في الفسق ، غافلاً عن مباحج الصحة البريئة والإخلاص ، غير شاعر بأى سحر ما عدا سحر الجسد ، فلا بد من اتخاذ وسائل شاذة لبعث اهتمامه واجتذابه إلى الزواج . فاذا أثمرت هذه الحرارة الملائمة زيجة شرعية فإنها سرعان ما تتحطم مع انطفاء شعلة الهوى بألفة الزواج . لقد كان شو مخطئاً إذ ليس الزواج غاية ما يكون من الإغراء مرتبطاً بغاية ما يكون من الفرصة ، لأن الفرصة باقية ولكن الإغراء سرعان ما يتناقص إلى أقل حد .

٤ — ربات يوتنا

إن صورة فتاة الطبقة العاملة الحديثة ، مشغولة بالعمل في العالم وممتلئة بالحياة والحرية ، أمتع عند النظر إليها من صورة امرأة الطبقة الوسطى الحديثة المتزوجة ، المطمئنة إلى دخل ثابت ، والتي تحيا حياة تقوم على لعب البردج ، وبالشراء من المحال التجارية ، والاشتغال بالإصلاح الاجتماعي .

فلننظر إلى أنفسنا من خلال عين أجنبية . يقول الكونت كسرلنج (١) : « لقد أصبح الزوج في أمريكا مستبداً به كما كانت الزوجة في الشرق القديم ، مع ما يصحب ذلك من انتكاسات نفسانية تتزايد وضوحاً يوماً بعد يوم » .

(١) الكونت كسرلنج Keyserling (١٨٨٠ - ١٩٤٦) فيلسوف اجتماعي من أستونيا ، أنشأ في مدينة دارستات « مدرسة الحكمة » بعد قيام الثورة الروسية ومصادرة أملاكه . رحل إلى بلاد كثيرة واتصل بثقافات عدة حتى لقد سُمي الفيلسوف المتجول (المترجم) .

ويضيف إلى ذلك أن نساء أمريكا أصبحن مسترجلات ضامرات الثدي حتى
 ليطنعن المرء بطابع من « البرودة والحشونة وانعدام الروح »^(١) - ولو أنا نقول
 ماذا كان الكونت ينتظر في أول زيارة ؟ وعلينا أن نسمح هنا ببعض الحذف
 لآراء مستمدة من ميراث أرستقراطية براندنبرج . ولكن القدر الباقي قد يكفي لأن
 يكشف لنا عن خضوع الرجال في المستقبل ، وحاجتهم الواجبة إلى امرأة مثل
 سوزان أنتوني^(٢) . ولا ريب أنه سيكون عندنا في القريب المرأة المتعددة الأزواج
 وسيجمع النساء ذوات السلطان حريماً من الرجال العاملين يحرسهم خصيان من
 الإناث . وأكبر الظن أن سيكون لنا في المستقبل ثلاثة أجناس كما هي الحال في النمل
 والنحل . فبعض النساء يلدن الجنس ، وسيهب البعض الآخر نفسه هبة كاملة
 للنشاط الاقتصادي بحيث يفقدن أولاً الرغبة في الحمل ثم القدرة عليه . وليس
 في التطور أى سبب يجعلنا نتوقع من المستقبل أن ينحصر في الماضي .

كيف جاء هذا الانقلاب في الأدوار ؟ أكبر الظن بسبب زوال سلطان
 التفوق الجسماني^(٣) . فقد قام خضوع النساء على أساس بسالة الرجال العضلية .
 كان الرجل هو السيد ، لأنه كان يستطيع أن يضربها فيطرحها أرضاً في آخر
 الأمر (ولم يكن يؤجل هذا العمل طويلاً) . وإلى الآن يستطيع الرجال أن
 يغلبن النساء ، وأصبح من المسائل الدقيقة في الفلسفة تعليل إقلاع الرجال عن
 تلك العادة القديمة . ومن المحتمل أن تكون الحاسة الحلقية النامية في الرجل قد
 جعلته يخجل من استعمال آخر حيلة . وكلما كان تحرر المرأة من الرعب الجنسية
 أعظم ، كان موقفها موقف التي تعطي الرجل ما يطلب . ولكن وراء هذه الظاهرة
 الثانوية توجد الحقيقة الاقتصادية الأولية من أن تعقيد الأمور الحديثة الذي
 يستدعي ذكاء أكثر فأكثر ، ويتطلب قوة أقل فأقل ، قد ذهب بسمعة مجرد
 القوة العضلية ، وانزع من رجل الطبقة المتوسطة تفوقه الوحيد على زوجته ،
 وأكسبها بعد ذلك تفوقها في الدهاء والتشبث امتيازاً على خجله وحساسيته وتعبه .

(١) Europe, pp. 66-67.

(٢) Susan B. Anthony (١٨٢٠ - ١٩٠٦) زعيمة أمريكية مشهورة قادت حركة

مطالبة المرأة بحق الانتخاب وغيرها من الحركات (المترجم) .

(٣) Mill, J.S., The Subjection of Women, p. 4.

أما حيث لا تزال سمعة قوة العضلات عالية كما هي الحال في الطبقة العاملة ، فلا يزال الرجل رب البيت ، وتظفر المرأة ببقائها انتقاماً .

تأمل بعد ذلك المرأة العالة على غيرها ، تجد أنها بعد أن تحررت من العمل المنزل بسبب هجرة الصناعة من البيت ، وبعد أن تحررت من الحمل بأساليب منع الحمل أو الممرضات والخدم ، قد تركت يديها ورأسها وقلبها فارغة غير مستقرة ، وأرض خصبة لزراع غريب . ثم يمضي النمو الطبيعي في طريقه ، فكلما كانت أفرغ من العمل أصبحت أشد كسلاً ، وأقل رغبة في أداء ما يتبقى من العمل الذي جعلها في القديم رقيقاً معيناً لا دمية .

ولسنا نوجه في هذا المقام أى سبة للمرأة التي تعمل في البيت أو في الورشة متجة للحياة الإنسانية ، أو للبضائع الثمينة للإنسان . أما السبة إذا كانت تستحقها فللمرأة التي تتاجر بجمالها في الزواج وفي غير الزواج ، والتي تسرف في ترفها وزينتها لإرضاء للشهوة ، والتي تنفق أيامها تظل تتأنق وتتطرى تصفف شعرها وأخيراً تلبس ، وتمضى اللبالي في اللهو والغزل . ولست تجد في سائر مناظر الحياة الحديثة المتنوعة أشد إساءة من هذه النساء المسرفات في الفراغ . وليس هن إلا قليل من الأطفال أو بغير ولد ، ومع ذلك يحتجن إلى كثير من الخدم ؛ وليست هن وظيفة ولا تفرغ هن حاجة . إنهن يتقن فن عمل لا شىء بألف أسلوب . ونتيجة هذا كله دفع الرجل إلى التهاك العصبي على العمل ، وإلى الشعور بمرارة أن أهميته ليست إلا مجرد كاتب حسابات .

وإذا كانت المرأة اليوم تنتظر بما لم يعهد من قبل أن يعرض عليها الزواج ، فذلك يرجع إلى حد كبير إلى غلطة هذه الطبقة النافهة . لأن مثل تلك المرأة لا تقدم إلى الرجل إلا اليسير جداً ، حتى لقد يجد في تنوع العلاقات والارتباط فيها بمدة قصيرة أمناً عن الزواج . وفي ظل هذه الظروف لا يبدو الزواج في نظر الأعراب البصير تحقيقاً لغاية الرجل الناضج ، بل تسليماً متحصراً بعد فترة طويلة لأمر عزيز على الطبيعة في عالم الحشرات ، حيث نجد الأنثى كما رأينا تلهم الذكر بشكل ليس له مثيل على حين يكون مستغرقاً في شباك الغرام . فلا غرابة أن يراجع

الرجال أمام فكرة القيد الذهبي للزواج ، وهم يرون عجز هذه السيدات التام اللاقى زايهين الشباب . وهكذا تبدد ملايين النساء حياتهن فى العزلة لأن ملايين الزوجات بعد اصطياىاء فريستها يلتهمنها علانية ، فتسحب كل نفس مطلوبة فى عزلة ثقافية . وهنا نجد بشاعة عصرنا المنافية للأخلاق لا فى الشعر المقصوص أو السروال القصير للفتاة النشيطة .

إننا لنأمل أن تكون هذه الصعوبات مجرد فترة انتقال ، وأن تكون فوضى العقل والأخلاق والسياسة والقرن مرحلة مظلمة بين نظام آخذ فى الزوال ، ونظام آخر يبرز بطيئاً ، لا من مراتبنا وحججنا ، بل من تلمس التوفيق بين الدوافع الإنسانية وبين الظروف الجديدة الصناعية لعصرنا الدنيوى والمدنى والصناعى . وقد يكون طول فترة البلوغ الذى أقر الزواج وبدل الأخلاق دليلاً ما كراً على مستوى أرقى سوف يبلغه الرجل فى القريب ، لأن طول مرحلة البلوغ فى تاريخ الإنسانية وما يتبعه من تعليم وتدريب كان أحد الدوافع العظيمة إلى تقدم الجنس . وأكبر الظن أننا لا نشهد نهاية الحضارة كما يفترض بعض علماء الأخلاق ، فحن الشعب الشاذ للأخلاقى أقلية صغيرة ، قد تكون مريضة وعصبية ، ومصيرها إلى الزوال مع العقم . وسوف تظل الكتلة العظيمة من الشعب البسيط من حولنا تزوج وتتناسل حتى يرث أبناؤها الأرض . وثمة ألف سبب وسبب يجعلنا نعتقد أنها سوف تمضى بالعالم قدماً إلى أن يرفعها النظام الجديد ، والاستقرار الجديد فى السلوك والفكر البشرية ، وقيمتها فى المستوى الأعلى الذى قد تقودنا إليه تجاربنا العمياء .

الفصل العاشر

انهيار الزواج

وبذلك نصل إلى الزواج .

وأكبر الظن أن برنارد شو هو القائل إن الزواج هو الموضوع الذى دار حوله الكلام الفارغ أكثر من أى موضوع آخر فى العالم . ومن البساطة أن يستغفل المرء فى الحديث عن الزواج كما يستغفل فى الزواج نفسه ، وعذره فى الأولى أقل . وعندما نحاول البحث فى هذه المشكلة يدرك المفكر الخالص أن الأفكار ليس لها إلا أثر متواضع (Modest) - ولو أن هذه اللفظة ليست المقصودة تماماً) فى العلاقات الجنسية . وأن التغييرات الاقتصادية تتغلب على الفلسفات والأخلاق . وأن أفضل ما يمكن أن يفعله الفكر هو تحليل هذه التغييرات ، والتنبؤ بنموها ونتيجتها ، والتماس شىء من التوافق البصير فى السلوك قد يحمى الفرد والنوع . وفى مثل هذه الأمور لا خير فى الوعظ ، والفهم أعون .

لقد عميت أبصارنا فى غمار حروبنا وآلامنا عن هذا الأمر الواقع وهو أن حقيقة الحياة الأساسية ليست فى السياسة ولا فى الصناعة بل فى العلاقات الإنسانية ، أى فى ارتباط الرجل بالمرأة ، والآباء بالأبناء . وتدور الحياة كلها حول هذين المحورين من المحبة ، حب الزوج ، وحب الأم . تأمل قصة العشيقة النائرة التى حين دفن عشيقها (الذى قتل فى ثورة موسكو فى ديسمبر ١٩١٧) فى « الجنائز الحمراء Red Funeral » ، قفزت إلى القبر واحتضنت التابوت الذى يضم جثته صائحة : « ادفننى أيضاً ، فماذا يهمنى الآن من الثورة بعد أن مات » . قد تكون واهمة فى الاعتقاد أنه فذ بين الرجال لا يمكن تعويضه - ونحن نشبهها إلى حد أن قلوبنا وعهودنا المحطمة هى كذلك غير معقولة . ولكنها علمت بحكمة موروثه فى دماء المرأة أن هذه الثورة الهائلة شىء تافه عابر

بالإضافة إلى هذا النهر من الزواج والأبوة والموت ، وهو التيار الأساسى للحياة الإنسانية . لقد فهمت - ولو أنها لم تجد الألفاظ المعبرة - أن الأسرة أعظم من الدولة ، وأن الإخلاص واليأس أعمق في القلب من السعى الاقتصادى ، وأن سعادتنا في آخر الأمر ليست في المال أو المنزل أو السلطان ، بل في تبادل المحبة .

١ - تطور الزواج

ما معنى الزواج ؟ لعلنا إذا استطعنا كشف الغطاء عن أصله أن نحسن التحقق من معناه .

تصور نجمة البحر ، وهى من أدنى الحيوانات ، تبسط زعانفها rays أو أذرعها فوق بيضها الملقح وصغارها التى فقست . إنها بداية إحدى الظواهر الأساسية في الطبيعة ... عناية الأبوة . ففي عالم النبات والحيوان بوجه عام يحفظ النوع لا بهموم الأمومة بل بالتناسل المسرف الضائع ؛ فالزهرة يجب أن تملأ الجو باللقاح ، وأن تفنن بعض الحشرات تتخذها رسلاً إلى الزوج الذى لن تراه . ومن المعروف أن القوقعة الصغيرة ذات الدم الأحمر المسماة Haematococcus تحبل منطقة شديدة البياض إلى قرمزية بنشاطها التناسلى في ليلة واحدة . والحجارة May flower ، التى تشبه في نسلها الزهور البرية Oyster تضع ملايين البيض ، ثم تركها بلا اكتراث لمصيرها فينمو قليل منها ، ولكن معظمها يتخذ طعاماً أو يضيع كأنه مجرد نفاية .

وقد اكتشفت الطبيعة ببطء ، كما رأينا ، عناية الأبوة وتمتها بديلاً عن هذا الإسراف الطائش . فن أدنى الفقريات إلى أرقى فصائل الإنسان يتناقص حجم البطن أو الفقس أو الأسرة ، وتزداد عناية الوالدية مع كل مرحلة من النمو في الجنس والنوع والفصل والأمة والطبقة والفرد . وظهر الزواج لا لإباحة الصلة الجنسية بل لتحسين نوع الحياة بربط الزوجين برباط دائم للعناية بالذرية التى يلدونها .

وليس الزواج ظاهرة تعدد وفقاً على الإنسان ، فبعض أنواع الطير وحيدة الزوج أكثر منه . وكتب دى كرسيني De Crespigny عن إنسان الغاب

المسمى أورنفوتان orang-utangs في بورنيو يقول : « إنهم يعيشون في أسر ، ويبنون أعشاشاً مناسبة في الشجر ، ولا يشغل العش بمقدار ما أمكني ملاحظته إلا بالأثني والصغار - أما الذكر فيمضي الليل على فرع الشجرة نفسها أو المجاورة لها » . ويصف وسترمارك الغوريلا بأنها « تعيش في أسرة ، ويقوم الأب ببناء العش وحماية الأسرة . وهذه هي الحال أيضاً في الشمبانزي » . ويقول سافدج Savage : « ليس من الغريب أن ترى (الزوجين العجوزين) في أسرة الغوريلا يجلسان تحت شجرة يتسليان بأكل الفاكهة وود الحديث على حين يقفز صغارهما من حولهما ويتأرجحون من فرع شجرة إلى فرع آخر في مرح صاحب » (١).

ثم يستأصل الانتخاب الطبيعي بالتدريج تلك الأنواع التي لا تعنى إلا قليلاً بلديتها ، وينمى فيمن يبقى تلك الغريزة الخاصة بالعتاية الأبوية التي ترفع شيئاً فشيئاً الفرد والجنس . ومن المعروف عن أمهات القردة أنها تموت حزناً لموت صغارها . وهناك نوع من القردة تحمل الأم رضيعها تحتضنه بذراع واحدة بغير انقطاع أشهراً عدة (٢) . أما في الإنسان فان هذا الدافع يكاد يصبح هو الشهوة المتحكمة الأقوى حتى من الصلة الجنسية . وما أحب المرأة لزوجها إلى جانب حبها أطفالها ؟ ومن أمهات الأجناس المتوحشة من ترضع أبناءها في بعض الأحيان اثني عشر عاماً . وليس من النادر في بعض القبائل مثل نيوهيريدز New Hebrides أن تقتل المرأة نفسها للعتاية بابنها الذي مات ودفن في القبر (٣) . حقاً لن نجد في العالم إلا القليل أعجب في تاريخ البشرية من هذا التحول الذي يكاد يكون كاملاً لحب المرأة ذاتها إلى حبها طفلها .

ونشأ جنباً إلى جنب هذا الدافع القوي للعتاية الأبوية نظام سائد حاكم هو الأسرة . ويرجع الأصل في وجود الأسرة إلى عجز الطفل غير

Westermarck, E., History of Human Marriage, p. 14. (١)

McDougall. W.M, Social Psychology, p. 70. (٢)

Kropotkin, Prince, Mutual Aid, pp. 89, 101. (٣)

كروبوتكين (١٨٤٢ - ١٩٢١) جغرافي وفيلسوف اجتماعي روسي ، عاش في إنجلترا وروسيا ، وزار أمريكا سنة ١٩٠٠ . (المترجم) .

القادر ، وإلى قابليته المتزايدة للنمو والتدريب بعد الولادة . والتطور في الحيوانات بيولوجي قبل كل شيء ، فهو يختص بنمو أعضاء جديدة . أما التطور في الإنسان فهو اجتماعي ، يختص بالانتقال المتزايد لميراث من الصناعة (تكنولوجيا) والثقافة يتجمع وينحدر من جيل إلى جيل . لقد خلقت الطبيعة الأسرة لتربط الذكر إلى خدمة الأنثى التي قيدها الطبيعة لخدمة الطفل . والرجال بالطبيعة عبيد للنساء ، والنساء بالطبيعة عبيد للأطفال والجنس . وفي هذه العبودية الطبيعية أعظم سر لكيانهم ، وأكثره دواماً .

فلنفهم إذن الزواج لا على أنه صلة بين رجل وامرأة، صلة تهدف إلى أن تجعل الشهوة شرعية ، بل على أنه صلة بين الآباء والأبناء الغرض منها حفظ الجنس وشد أزره . ولو كان الزواج أمراً شخصياً لا أمراً يختص بالجنس ، ما كان أول ما تعنى به التبادل والشرائع الإنسانية . ولأمر ما عنيت الدول هذه العناية بتشريع الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة وأسرفت هذا الإسراف في تنظيمها ؟ والنصائح والتحريمات الأخلاقية ، إذا لم يكن ذلك بسبب أن الزواج أعظم أساس لجميع النظم ، وهو الذي يصون مجرى الحياة الإنسانية ويسد نقصه ؟ ومن الواضح ، والله يعلم ، أن الزواج لم يقصد أبداً إلى سعادة الزوجين بل إلى الألفة وتربية الأطفال^(١) . وكان متوسط الانتفاع بالحياة الإنسانية في سالف الزمان من القصر بحيث يظهر أن أحداً لم يكن يعنى بالفرد . ولم يبحث الفرد إذا كانت سعاداته الخاصة في الزواج أولى من استمرار الجنس ورفعته إلا بإطالة الحياة الحديثة ، وإشراف الإنسانية (البضاعة الوحيدة التي لا تخضع للعرض والطلب) ، واقتصار الأبوة على مظهر أكثر من مجرد القناعة بالزواج . حتى إذا ساد « عصر الفرد » ارتفعت الثورة على الزواج إلى هذا الطوفان الحاضر العسير على المقاومة .

وجاء تطور الزواج عقب اتساع مصالح النوع . وإذا رجعنا إلى فجر

Cf. Shelley: "A system could not well have been devised more studiously (1) hostile to human happiness than marriage".— notes to Queen Mab.

التاريخ وجدنا أن حرية الفرد في اختيار الزوجة كان مقيداً تقييداً شديداً بالحاجة الاجتماعية . ويبدو أن أول المحارم الجنسية كانت تهدف إلى منع الاتصال الجنسي بين الآباء والأبناء ، ثم بين الإخوة والأخوات . وانتشر التحريم بالتدريج حتى وصل إلى حد الزواج من خارج العشيرة exogamy الذي يمنع بناء الرجل بالمرأة من قبيلته نفسها . وكان علماء الاجتماع الأوائل مثل لويس مورجان يميلون إلى إرجاع هذه القيود إلى تصور عقل البدائي مساوئ العقم . أما المتأخرون من الباحثين مثل وسترمارك وإليس فيعزرون هذا الأمر في شيء من التهمك إلى الاستخفاف الذي ينشأ عن الألفة ، ولكن هذا لا يفسر مغالاة عجز أجدادنا المتوحشين عن جمع كل زوجين معاً ، وإنشاء نظامهم الخاص بالمجتمع . وأكبر الظن أن مصلحة الجنس كانت في أذهانهم حين قيدوا الفرد .

وتطور الزواج مع تغير العلاقات الاقتصادية . ففي مرحلة الصيد كان الرجل ، وهو صياد ذو بأس يجيره رئيس القبيلة ، يصطحب عصاه وقد يتخذ صاحباً ويتسلل إلى قبيلة أخرى ، ويختطف فتاة جميلة من خيمتها ، ويحملها بعيداً على طريقة الاغتصاب الساباني (1) Sabine . ثم تحسنت الأخلاق مع نمو الثروة وانتشار السلام ، ولم يعد الرجل يحمل العصا ، بل هدية ثمينة ، أو عرضاً بالخدمة الطويلة المدى ، يتقدم به إلى والد الفتاة التي يرغب فيها . وبذلك حل الزواج بالشراء محل الزواج بالسبي . واليوم يعد نظام الزواج مزيجاً غريباً من السبي والشراء .

كانت الحرب في ذلك الزمن القديم كثيرة الوقوع ، وكانت المخاطر متعددة . وكان الذكر يصاب بالموت بأسرع مما تصاب به الأنثى ، فحاول الباقون من الرجال أن يحلوا المشكلة باتخاذ عدة زوجات لحماية النساء اللاتي يزيد عددهن عن الرجال زيادة كبيرة . ولما كان النساء يرضعن أطفالهن عدة سنين ، ويمتنعن عن الصلة الجنسية حتى فطام الطفل ، فقد رأى الرجل أن راحته تقتضي اتخاذ عدة زوجات لتلبية مطالبه المستمرة . هذا فضلاً عن أن تعدد الزوجات يفضي

(1) قبائل قديمة كانت تعيش في إيطاليا . (المترجم) .

إلى كثرة النسل أكثر من الاقتصار على زوجة واحدة . يضاف إلى ذلك أن وفرة الذرية كانت نعمة لقوم مهتدين على الدوام بالحوادث والأمراض والحروب .

فلما قلت الحروب ، وأصبحت الحياة والموت أكثر أمناً ، تناقصت نسبة النساء العددية المتفوقة ، وظهر نظام الزواج من واحدة ، فكان مزية للأطفال الذين يتلقون عناية موحدة ، وجباً مركزاً ، وطعاماً أكثر وفرة لقلة عدد الطاعمين . وكان ذلك النظام مزية للرجل إذ يسر له تركيز إرثه في أسرة بدلا من تشتيت ثروته ، كما شئت نطفته في عشيرة من الذرية . ورأى نفسه لا يزال حراً لبشع شهبواته الحمراء سراً ، على حين يستطيع أن يصون إخلاص زوجته بجميع ألوان الحماية من العرف والسلطان ، فيؤمن بذلك انتقال أملاكه إلى أبناء أكبر الظن أنهم من صلبه . وفوق هذا كله ، وعلى الرغم من هذا المستوى المزدوج (المتغلغل في نظام الميراث) فالإقتصار على زوجة واحدة كان منفعة للمرأة ، لأنه حل جانباً من مشكلة الغيرة التي لا بد أنها كانت تجعل من تعدد الزوجات مارستاناً . على أقل تقدير منح هذا النظام المرأة ضرباً من المساواة البيولوجية بالرجل ، ويسر لها أن تتحرك من هذا المستوى المتواضع وترفع العالم .

أما الباقي من تاريخ الزواج فكان صراعاً بين المرأة والملك ، بين الثروة والزواج . وكان المفروض أن المرأة مع نمو الثروة يجب أن تسيطر بلا منازعة على اختيار الزوج وحكمه ، وأن خضوع المرأة كنظام لإنجاب الذرية ، وبدليل اقتضادى عن العبودية ، كل ذلك يصبح ثابتاً لا يمكن استئصاله من العادات والجنس . ولكن الأمر كان على العكس ، لأن الثروة أدت إلى التعليم ، وهذب التعليم شهوة الرجل المتوحشة ، وبعد قرون من التطور حل الهوى العذرى على نطاق واسع محل شهوة الجسد للجسد .

وظل زواج الاستمتاع قائماً ، وفي كثير من الدول كان الآباء لا يزالون يزوجون بناتهم لأحد الأثرياء لأنهم يتوقعون أن يصبح من أصحاب الملايين . ولكن في إنجلترا وأمريكا ، وهنا وهناك في كل أمة ، انهارت الملكية ، وانتصر أنصار زواج الحب ، وشيئاً فشيئاً إذا بالمرأة التي جعلتها شراسة الرجل رقيقة ، تهذب برقتها شراسته . وشيئاً فشيئاً رفعته بحنانها وتضحيتها بالحمل من حاله التي

يقرب فيها من الحيوان ، وعلمته أن يرى وينشد فيها بعض الصفات ليست من الحسية والجسمانية كتلك التي كانت تجذبه إلى أحضانها . ثم أقامت الحضارة بالتدرج فوق هذا الأساس الطبيعي بناءً واهياً وثميناً من الحب الشعري .

لقد درسنا في مكان آخر النمو الملحوظ الرائع للحب الروحي منذ أناشيد المغنين في العصر الوسيط ، إلى العاطفة الجارفة في قصة كلاريسا هارلو (١) وهلويز الجديدة (٢) ، ثم إلى القصص التي كتبت في القرن التاسع عشر لإشباع النزعة الرومانتيكية السائدة . من يستطيع أن يقول : إلى أي حد طهر هذا الفيض من القصص بعض المظاهر الخشنة للحب الحديث ، مصورة ابتداءً حقيقة اشتياق الروح للروح الذي لعله كان في أول الأمر الوهم الذي يعزى العذارى وقد تقدمت بهن السن والرجال الخياليين ؟ لا ريب أن الحب الرومانتيكي أصبح حقيقياً ، فقد أقبل الشباب عند البلوغ على الأغاني والأناشيد الغرامية مخلصين ، وركع الرجال أمام النساء ، وانحنوا يقابون أيديهن ، وأحبوهن لشيء أسمى من نعومة الجسد . كانوا يتبارزون للظفر بابتسامة ، وابتدعوا الآداب في عمرة من نشوة الإخلاص . ثم وضعوا بالتدرج كل ثروتهم التي كانوا يفخرون بها تحت أقدام مخلوقات تافهة ليس لها من قوة عليهم إلا بطريق الجمال والرياء . وحين انقلبت الرغبة في كثير من القلوب إخلاصاً لا امتلاكاً ، وقدم الرجل ، خاطباً ود المرأة بولاء شديد ، ثقته بها بكل سبيل حتى الموت ، بلغ الزواج أوج تطوره الطويل ، وغاية رقيه البطيء من الوحشية إلى الحب . أكبر الظن أننا لن نعرفه في جميع كماله بعد الآن .

٢ - انحلال الزواج

لما كان اليوم هو عصر الآلة ، فلا بد أن يتغير كل شيء . فقد قلَّ أمن الفرد في الوقت الذي نما فيه الأمن الاجتماعي . وإذا كانت الحياة الجسمانية أعظم

(١) قصة لصمويل رنشارسون كتبها عام ١٧٤٧ ، عبارة عن رسائل كتبها كلاريسا لصديقتها تفصح فيها عن صدف قلبها عن الزوج الذي يريده أبواها ، وتنتهي القصة بموتها كذا . (المترجم) .

(٢) قصة كتبها جان جاك روسو تدور حول زوجة ضيق عليها حبيبها السابق الخناق (المترجم) .

أماً مما كانت ، فالحياة الاقتصادية مثقلة بألف مشكلة معقدة مما يجعل الخطر
جائماً كل لحظة . أما الشباب الذى أصبح أكثر إقداماً وأشد غروراً من قبل ،
فهو عاجز مادياً ، وجاهل اقتصادياً إلى حد لم يسبق له مثيل . ويقبل الحب
فلا يجزمه الشباب على الزواج وجيوبه صفر من المال . ثم يطرق الحب مرة
أخرى باب القلب أكثر ضعفاً (وقد مرت سنوات) ، ومع ذلك لم تمتلئ الجيوب
بما يكفى للزواج ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل
(وقد مرت سنوات) فيجد الجيوب عامرة ، فيحتفل الزواج بموت الحب .

حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار اندفعت بما لم يسبق له مثيل فى تيار
المغامرات الواهية . فهى واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية وهدايا
من الجوارب وحفلات من الشمبانيا فى نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية . وقد
ترجع حرية سلوكها فى بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية . فلم
تعد تعتمد على الرجل فى معاشها وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت
مثله فى فنون الحب . فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذى يجعل الزوج
المنتظر متردداً ، إذ كيف يمكن أن يكفى أجره المتواضع للإتفاق عليهما معاً فى
ستواتهما الحاضر من المعيشة ؟

وأخيراً نجد الرفيق الذى يطلب يدها للزواج ، ويعقد عليها لا فى كنيسة ،
لأنهما من أحرار الفكر الذين ألدوا عن الدين ، ولم يعد للقانون الخلقى الذى ظل
جائماً على إيمانها المهجور أثر فى قلبها . إنهما يتزوجان فى قبو المكتب البلدى
(الذى يفوح منه عبير الساسة) ويستمعان إلى تعاويد العمدة . إنهما لا يرتبطان
بكلمة الشرف بل بعقد من المصلحة ، لهما الحرية فى أى وقت فى التحلل منه .
فلا مراسم مهيبية ، ولا خطبة عظيمة ، ولا موسيقى رائعة ، ولا عمق ولا نشوة
فى الانفعال تحيل ألفاظ وعودهم إلى ذكريات لا تمحى من صفحة الذهن .
ثم يقبل أحدهما صاحبه ضاحكاً ، ويتوجهان إلى البيت فى صخب .

إنه ليس بيتاً ، فليس ثمة كوخ ينتظر الترحيب بهما أنشء وسط الحشائش
النضرة والأشجار الظليلة ، ولا حديقة تنبت لهم الزهور والخضراوات التى يشعرون
بأنها أبهى وأحلى لأنها من زرع أيديهما ، بل يجب أن يخفيا أنفسهما خجلاً

كأنهما في زلزلة سجن ، في حجرات ضيقة لا يمكن أن تستقيما فيها طويلا ، ولا يعيان بتحسينها وتزيينها بما يعبر عن شخصيتهما . ليس هذا المسكن شيئاً روحياً كالبيت الذي كان يتخذ مظهراً ويكسب روحاً قبل ذلك بعشرين عاماً ، بل مجرد شيء مادي فيه من الجفاف والبرودة ما تجده في مارستان . فهو يقوم وسط الضوضاء والحجارة والحديد حيث لا ينفذ إليه ربيع ، لا ينبت لهما الزرع النضر بل سيلا من المطر . ولا يريان مع ورود الخريف قوس قزح في السماء أو أى ألوان على أوراق الشجر ، بل المتاعب والذكريات الحزينة فقط .

وتصاب المرأة بخيبة أمل ، فهي لا تجد في هذا البيت شيئاً يجعل جدرانها تحتمل في الليل والنهار ، ولا تلبث إلا قليلاً حتى تهجره في كل مناسبة ولا تعود إليه إلا قبل مطلع الفجر . ويخيب أمل الرجل ، فهو لا يستطيع أن يتجول في أنحاء هذا البيت يعزى شعوره ببناؤه وإصلاحه ما تصاب به أصابعه من دق المطارق . ويكتشف بعد قليل أن هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التي كان يعيش فيها وهو أعزب ، وأن علاقاته مع زوجته تشبه شياً عادياً تلك العلاقات غير البريئة التي كان يعقدها مع المستهترات من النساء . فلا جديد في هذا البيت ، وليس فيه ما ينمو ، ولا يمزق سكون الليل صوت الرضيع ، ولا يملأ مرح الأطفال النهار بهجة ، ولا أذرع بضعة تستقبل الزوج عند عودته من العمل وتحفف عنه وطأته . إذ أين يمكن أن يلعب الطفل ؟ وكيف يمكن للزوجين تخصيص حجرة أخرى للأطفال ، وتوفير العناية بهم وتعليمهم سنين طويلة في المدينة ؟ والفطنة فيما يظنان أفضل جوانب الحب ، فيعترمان منع النسل . . . إلى أن يقع بينهما الطلاق .

ولما كان زواجهما ليس زواجاً بالمعنى الصحيح — لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة — فانه يفسد لفقدانه الأساس الذي يقوم عليه ومقومات الحياة . يموت هذا الزوج لانفصاله عن الحياة وعن النوع . وينكمش الزوجان في نفسيهما وحيدتين كأنهما قطعتان منفصلتان . وتنتهى الغيرية الموجودة في الحب إلى فردية يعيها ضغط حياة المساخر . وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية في التنوع ، حين تودى الألفة إلى الاستخفاف . فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته .

وإذا كانا بغير أطفال فانهما يلتصقان ألف سبب وسبب للشقاق . وتصبح
لفظة « عزيزى » التى كانت تهز مشاعرهما عند سماعها ، أشيع لفظة فى اللغة ،
يسيرة ولا معنى لها . وتخزن المرأة على أيام الرقة السابقة ، فتهمل لذلك وهى
فى البيت العناية بجسمها وملبسها وحركاتها وحديثها مما كان سبباً فى اجتذاب
الرجل نحوها ، لأنه وجد فيها شيئاً أبهى وأسمى منه . وإذا كان بينهما شىء من عدم
التوافق الجنسى أصبح ذلك حاجزاً منيعاً ، لأنهما ينظران إلى الزواج على أنه مجرد
صلة جنسية . وإذا كانا فقيرين أسف الرجل على الأتقال التى يحملها ، وشغفت
المرأة بالبرنس أوف ويلز . وإذا كانا غنيين تنازعت فيما شيعوية الحب والزواج
وفردية الجشع والخوف . وتنشب المنازعات على المال عندما تهبط حرارة الحب .
وإذا كانا عصريين عبثا على هواهما على قدم المساواة ، وينشب بينهما صراع
ينتهى بسيطرة أحدهما . وإذا كانت المرأة تتكسب استنكرت عبوديتها المستمرة .
وإذا كانت عاطلة ، يثقل الزم عليها حتى تجد لها عملاً . كانا يظنان أن ليس
فى استطاعتهما إنجاب طفل ، ثم يكتشفان - كما قال بلزاك - « أن الرذيلة أقل نفقة
من الأسرة » . إذا كان لأحدهما أصدقاء غار الآخر منهم ، وإذا كانا بغير
أصدقاء انطويا على نفسيهما فى عزلة لا سيبل إلى الفرار منها ، وتجرى فيها الحياة
على نمط واحد لا يحتمل . ثم تحتفى فيهما الحرية اللازمة للشخصية أمام أهواء
التملك وحب الاستطلاع . ولا تجد النفس لها ملاذاً تسكن إليه فى عزلة وسلام .
ويصبح الحب الذى كان على الدوام مطاردة وقتصاً ، حرباً ، وليست فترة أحضان
اللبل إلا هدنة مؤقتة .

وفى أثناء ذلك تنبدد عن عيونهما غشاوة الوهم ، ويكتشف الرجل والمرأة
على حد سواء أن شعلة الحب لم تحترق قبل كل شىء لمتعتهما بل لاستمرار الجنس .
وترى المرأة نفسها قد تحولت من إلهة إلى طاهية - اللهم إلا إذا وقعت على زوج
رقيق يجعل الطاهية إلهة . وتشعر برغبات الرجل فى التنوع ، فتأخذ فى مراقبته
تأكلها نار الغيرة ، لأنها تعلم أنها لا تستطيع أن تنق فيه أكثر من ذلك . فهى
تلاحظ أن عنايته بها أقل وتصدر عن تفكير ، وأنه يتصل بها ، إذا فعل ذلك ،

صلة عادة وهو شارد الذهن . ويفقد الزوج الخيال الذى يرى من خلاله زوجته كما يراها الأجنبي ، أو الذى يرى من خلاله زوجة الأجنبي كما تبدو فى الساعة التاسعة صباح اليوم التالى . وفى جميع تفكيره (وفى تفكيرها) يؤدى البعد إلى فتنة النظر ، ويحملان الحديد على حمل الحمل . فإذا أضفت إلى جانب الزوجة التعطل والعقم تجدهما قد شرعت هى أيضاً فى الاشتياق إلى وجه جديد أو منظر جديد يعبد إلى نفسها مباحج الرغبة . حقاً لا يفكر أحدهما فى الزنا ، كل ما فى الأمر أنهما يتوقان إلى « الحياة » . وفجأة تنتصر الحواس على الحكمة ، ويتسلل عنهما الإخلاص ، ويدب إليهما الشك على قدمين غادرتين ، وتنتهى ثورة الغضب الأخيرة عند انكشاف الأمر بتبسيط موقف كان من التعقيد بحيث لا تتيسر معه حياة التصنع والسيطرة .

وهكذا ينتهى الأمر بالطلاق . انظر إليهما أولاً فى ساحة المحكمة الشرعية ينتظران فى حزن انتهاء مآس أخرى ، ثم استمع إلى مغلاة كل منهما فى بيان قساوة صاحبه بألفاظ نائية تقذف فى وجوهه كانت معززة بالأشواق . قد يوفق بينهما ، ولكن إلى حين . إن كلا منهما يبغض الآن صاحبه بغض أولئك الذين يذكرون وعود الغرام . ثم لا يلبثان أن يستعيد كل منهما حريته ، كالصحراء الحرة ، وقد يعودان إلى التجربة بعد الطلاق ، ولكن الظروف لا تزال كما كانت من قبل ، فكيف يمكن أن تتغير النهاية ؟

وسنة بعد أخرى يتأخر الزواج ويتقدم الطلاق ، ولا يجد الإخلاص إلا قلة بسيطة من الناس يمجّدونه . وبعد زمن قليل لن تجد رجلاً يهبط إلى سفح الحياة مع امرأة تسلق معها قمة الحياة ، وسيكون الزواج نادراً كالعذراء ليلة الزفاف . ومع ذلك فالمطلقات لسن إلا عدداً قليلاً من التعيسات فى الزواج . لن نتحرى كم يطول بهم الزمن دون انفصال ، ولكننا لا نجرؤ على السؤال . فكم سئل متزوجون وأنكروا . لا تبحث فى قلوب غيرك ، فلن يخبرك أحد عما يمكن أن تطلبه . إنهم يخشون العار ويعدلون عن الطلاق ، ويستبدلون الاستخفاف بالحب ، والخداع بالإخلاص . لعله من الأفضل أن ينفرد كذلك شملهم ، وأن يقف إخفاق الزواج عارياً مزعجاً أمام الأبصار ، يتحدى كل

حاكم يفكر في مستقبل الأجيال ، وكل محب يحترم الحب إلى الحد الذي يرغب فيه ألا يموت سريعاً .

٣ - إعادة بناء الزواج

الوصف سهل ، والعلاج صعب . فإذا يمكن أن نقوله ولم يقل ألف مرة ومرة من قبل ؟ أى دواء ننصح به ولم يجرب ووجد ناقصاً ؟ أى نصيحة نتقدم بها لا تؤذى الجراح التي نريد أن نأسوها ؟

لعلنا نهجر المشكلة ونقول مع قول قدماء المسيحيين : سد جميع أبواب الهرب ، وسينسى المحاييس أنهم في السجن . فإذا كان الغرض من الزواج إنجاب الأطفال وبقاء النوع لا متعة الأفراد والأزواج ، فيجب لمصلحة الأبناء أن يكون الزواج أبدياً ، فلا يفصل العبد ما ربطه الرب . وبعد فالفرق بين امرأة وأخرى ضئيل جداً ، وإذا كنا نجد صعوبة مع هذه الزوجة فس نجد صعوبات مماثلة مع غيرها . الحق أن الرجل لم يخلق للسعادة بل ولد للشقاء ، فليزوج وليعيش في سلام .

ولكن أنسمى العهود التي قطعها الشباب الغرير أبدياً ؟ أنربط بين روحيين معاً طول الحياة مع أن حبهما قد انقلب بغضاً ؟ نحن بين أمرين أحلاهما مر : غواية الشيطان ، والغرق إلى الأذقان . أما الآن وقد أصبح عدد الأطفال أقل ، ولا ينتهي دور الأبوين بمجرد ولادة الذرية أو نضجهم كما رتب الطبيعة المسرفة في عالم الحياة الأدنى ، فلا بد أن ننظر إلى الزوجين بعين الاعتبار . ومن المضحك أن نخضع حياة تبلغ سبعين عاماً لاعتبارات نشأت حين كان النساء يلدن الأطفال بالجملة ، ويذوى جملهن في الخامسة والأربعين . إن رقى الجنس في الكيف يتوقف على تقليل التضحية المطلوبة من أفراد . وليس الجنس أعظم من الفرد إلا لأنه ينتج عدداً أكبر من الأفراد . وفيما عدا ذلك ليس الجنس إلا اسماً وتجريداً ، وبذلك تتصل نظرية الزواج في العصر الوسيط بمذاهب الاسمين nominalists في تلك الأيام وقبلها .

وقد نشأت عن عصرنا الفردى نظرية معارضة لها أكثر طرافة وتطرفاً .

أتدري ما اسمها الجذاب ؟ « الزواج الحر Free Love » . فما دامت العهود تقطع ثم تنكث ، فأى حاجة إلى أخذ العهد على الإطلاق ؟ وما دامت الزيجات لا تلبث أن تعقد حتى تحل فلماذا نشغل آلاف المحاكم بالملايين من عقود الزواج ووثائق الطلاق ؟ وإذا كان الحب أفضل دافع إلى الزواج ، فموته سبب كاف للطلاق . وكيف يمكن أن يكون الحب حقيقياً إذا لم يكن حرراً ؟ دع المحبين يرتبطون باخلاصهم وشرفهم فقط . حتى إذا ذوى الحب فليبحثوا دون عائق عن رفقاء آخرين ، وليجدوا حبههم وشبابهم .

ويزيد أنصار هذا الحل لمشكلة الزواج كل عام . وقد جاء في تقرير القاضى لندساي أن عقود الزواج نقصت عام ١٩٢٢ عن عام ١٩٢١ بمقدار ٢٥ في المائة ، وعلل هذا النقص بانتشار الزيجات الحرة . وقد يمكن أن يؤدي هذا الارتباط الحر إلى مخرج بديع من الشرائع الجارية عندنا لولا استمرار اعتماد المرأة اقتصادياً على الرجل واعتمادها نفسانياً عليه قبل أن يربطه الزواج بأهوائها . ذلك أن العجز أيام الحيض ، واحتمال الحمل ، يقللان من مقدرة المرأة على الكسب . وإلى أن تتمكن المرأة من تأمين مسكنها وحماية نفسها حماية مستمرة إزاء المخاطر التي تواجهها فان مزية الزواج « الحر » تبقى كلها في جانب الرجل . وفي الوقت الحاضر — ولو أن هذا الشعور أصبح في الميزان ، ويتجه إلى الضعف يوماً بعد يوم — تنقص المرأة في عين الرجل إذا استسلمت له . والرجل محارب ، أو يجب أن يرى نفسه كذلك ، ويلد له على الأقل أن يجد مظهراً للمقاومة يعظم به انتصاره ، حتى إذا بلغ غاية الظفر فتش عن ميادين أخرى ينتصر فيها . ويجب الرجل في الوقت الحاضر — وهذا أيضاً عرضة للتغيير — أن يعتقد أن المرأة التي يختارها زوجته الدائمة لم يسبق لها التعلق برجل آخر . إنه على أتم استعداد للموافقة على ارتباط مؤقت مع امرأة مجربة ، ولكن قل أن يرغب فيها زوجة شرعية . إنه يفعل كما لو كان يوافق على حكم فاينجر القاسى ، إن المرأة إما أن تكون أمماً أو عاهراً ، وكأنه يرتاب في عودة المرأة التي أحبت جيرانها كنفسها إلى الإباحية أول ما تزول جدة الزواج أو أثنال الحمل . ولا يفكر الرجل أبداً في تطبيق هذا الفحص أو الحكم على نفسه . إنه يفترض في نفسه القدرة على الانتقال من

التنوع إلى الاقتصاد على واحدة دون أى شبهة في الانحراف عن الإخلاص الزوجي . الواقع أن ما يحركه ليس العقل بل حب التملك ، وترتد مشاعره إلى عادة الزواج بالشراء تلك العادة القديمة التي تكاد تكون عامة . فهو يشترى شيئاً من السوق ، ولا يود أن يدفع ثمناً غالباً لبضاعة مستعملة . إنه يظن المرأة هي المقصودة بالوصية العاشرة من الوصايا العشر (١) .

وكل ذلك مصيره إلى التغيير . وأكبر الظن أنه حين يكمل استقلال المرأة الاقتصادي ، وتفصل وسائل منع الحمل تمام الفصل بين الصلة الجنسية والأبوة ، سيطبق الرجال على النساء نفس المستوى المتساهل الذي يحكمون به على أنفسهم ؛ وتزول قوانيننا الأخلاقية القديمة تمام الزوال . ولكن المرأة في أثناء فترة الانتقال الطويلة ستقاسى من أنانية الرجل المستهتر وعدم تحمله أعباء المسئولية . فالزواج الحر زواج تقتصر حرية على الزوج . إنه فخر تقع في شبابه المرأة المتحررة مع رجل مسرف في التحرر . وقد يأتي اليوم الذي تصبح فيه المرأة سيدة نفسها ، فلا تتركها الأمومة تحت رحمة رجل يميل إلى التعدد بطبعه . وقد يأتي يوم ، في المستقبل البعيد ، نجد فيه طريقة للعناية بالأطفال دون أن تربط بين الرجل والمرأة التي أنجبتهن . وعندئذ يصبح الزواج الحر نعمة للجميع ، والحالة المثلى للجنس نال حرية في نهاية الأمر . وإلى ذلك الوقت يحسن بنا أن نخضع للقانون .

ويخلط العامة بين الزواج الحر وزواج المتعة Companionate marriage ويتصور المهوسون هذا الزواج بأشكال مختلفة . إنه لا يبدو عظيم البشاعة إذا تبين لنا أن أجراً المدافعين عنه يعرفه بقوله إنه : « زواج شرعى ، يمنع الحمل بوسائل مشروعة ، مع الحق في طلب الطلاق بموافقة الزوجين بشرط عدم وجود أطفال ، ولا تدفع له في العادة نفقة » . وليس في هذا الضرب من الزواج (فيما عدا شرط النفقة القاسى) شئ لا يجرى بالفعل بين الأسر المفروض أنها محترمة . والطلاق برضا الطرفين وحيث لا أولاد أفضل من الطلاق بفضيحة أو من « الهجر » . وما يخشاه الناس من هذا المشروع هو بلوغ المرأة مرتبة

(١) يريد هذه الوصية : « لا تزن » (المترجم) .

المساواة الكاملة بالرجل . ثم إن المترفات من نساء الطبقة المتوسطة آخذت بسرعة شديدة في الانتقام لجميع بنات جنسها من الرجل المجهد . فالزواج سائر في طريق التغير إلى صورة لن تسمح بوجود المرأة المتعطله من العمل ولا تصلح إلا زينة لكثير من البيوت ومصدراً لمتاعبها . وأخذ الرجال يطلبون من زوجاتهم العمل لكسب المال اللازم لمصرفاتهن . ومن مزية زواج المتعة أن المرأة تذهب إلى العمل إلى أن يثقل عليها الحمل . وفي هذا يكمن السر الذي يحرر المرأة تحريراً كاملاً ، لأنها ستدفع من الآن فصاعداً جميع نفقاتها . ينبغي أن تسير الثورة الصناعية إلى نتائجها المنطقية والتي لا ترحم ، إذ يجب أن تلتحق الزوجة مع زوجها في المصنع ، وبدلاً من بقائها متعطله في مخدعها مرغمة زوجها أن يتكسب ضعف ما يكسب لمواجهة العجز الاقتصادي ، ستصبح كفواً له في العمل والكسب ، وفي الالتزامات والحقوق . وهكذا يكون التحرير .

ويقع على عاتق الرجل كثير من المسئولية ، لأنه استمع لغواية الشيطان وحطم جميع التقاليد الموروثة ليقترح علاجاً لداء الزواج الحديث . ولكن في هذا المشروع شيئاً من الصعوبة والمجازفة مما يعده المتمسكون بالفتوة ظلاماً ، ما دامت مساواة المرأة الاقتصادية والحلقية بالرجل غير كاملة . ذلك أن الرجل - كما قلنا - بينه وبين نفسه فيه شراهة للتعهد . امنح الرجل صورة من الزواج يكون فيها حراً في هجر زوجته عندما يفقد فيها فتنة الطرافة ولذة المقاومة ، وستجده يتحرق شوقاً لمباهج أخرى وقلاع لا تزال حصينة . سوف يودعها إن قريباً أو بعيداً . ولا يفيد القول بأن موافقة الطرفين لازمة للطلاق ، لأن المرأة ستجيب بالموافقة متى طلب منها . وبعد ؟ ثم تجرد نفسها « حرة ومستقلة » مرة ثانية ، وترجع إلى الصناعة وما فيها من أشواك ومتاعب وهي أحسن من الرجل قيمة .

هذه كلها صعوبات صغيرة ، وأكبر الظن أن المشروع معروض للتعديل مع التجارب . وأكثر ما فيه من إنشاء هو التشجيع الذي يقدمه للزواج المبكر ، إذ ها هنا قبل كل شيء نجد لب مشكلتنا الأخلاقية . ولو تيسر لنا أن نجد سيلاً نعيد به الزواج إلى السن الطبيعية ، لاستطعنا بضربة واحدة تقليل نسبة البغاء إلى

النصف ، وكذلك الأمراض السرية ، والعزوبة العقيمة ، والعفة المقوتة ، والانحرافات التي تصم جبين الحياة العصرية .

تأمل مرة أخرى هذه القلة القليلة من الرجال أو النساء الذين يتزوجون أفضل من يحبونه . ذلك أن عاطفة الشباب المشرقة تغزو القلوب بأسرع مما تطيقه حالتنا الاقتصادية ، ولهذا نزرع من المخاطرة الكبرى ، وندع الحب يسير إلى الزوال . ومع ذلك كلما كان الحب مبكراً كلما كان أبهى وأعمق ، ولن نجد رجلاً بعد الثلاثين من العمر يقوى على الحب بقوة الشباب وإنكاره ذاته^(١) . والإخلاص الذي يبعثه أول حب في النفس يكون من العمق بحيث يصعب زواله بعد سنة من العشرة والتجربة . فهذه الرقة الحديدية عند الصبي ، وهذه الثقة الواضحة عند الفتاة ، لا بد أن يجملهما في سعادة على مر السنين ، وتصبح ذكرياتهما الأريج الذي يعطر حياتهما .

تصور زواجاً هو ثمرة أول حب . انظر إلى العروسين الجديدين ، كما هما في المثال ، كيف يختاران لا مخدعاً في شقة بل بيتاً صغيراً مستقلاً حيث لا يزال سلطان الطبيعة قائماً . ثم ينسقان فيه الأثاث بعد مناقشات بديعة حول ما يجب أن يشتري ، وأين يجب أن يوضع . ثم يزرعان الحديقة بالأزهار التي تنمو مع نموها ، ويملآن البيت بألوان من البهجة والموسيقى والكتب والأصدقاء ، فيصبح أمتع من صخب الشوارع وأنوارها الساطعة . ثم يكملانه في النهاية بصياح الطفل وزينته . وكثيراً ما وصفنا أنفسنا بالبراءة للتغلب على قيود الزواج ، ومع ذلك ففي أعماق قلوبنا سننظر دائماً إلى الوراثة في شوق إلى تلك الأيام العاطفية حين كان الحب في عنفوانه^(٢) .

وثمة اعتراضات كثيرة على الزواج المبكر . وأول كل شيء ، من العبث تقديم نصائح تحت على الكمال ، فنحن لانستطيع التغلب على تبصر الشباب الاقتصادي

(١) هذه هي العبارة التي جعلها أحد المحررين عنواناً لإذاعات في جميع أنحاء المملكة ، وهي « لا يقوى رجل على الحب بعد الثلاثين » فالدعاية تؤثر فينا وتحطمنا .

(٢) للتوسع في تأييد الزواج المبكر من وجهة نظر بيولوجية ، انظر

Holmes, S.J., Studies in Evolution and Genetics, pp. 177-8.

بالمواظب الأخلاقية والأملاك الخيالية—ولكن الآباء، لا الأبناء، هم الذين ينصحون بتأخير الزواج ويعملون اقتصادياً على إرجائه . ولا مفر بعد ذلك من استهتار الشباب . فلنقنع الآباء المخطئين أنهم بالعمل على تأخير الزواج يدفعون أبناءهم إلى ألوان من العادات السيئة عوضاً عنه ، وإلى كثير من الانحرافات المنافية للخلق . وأن الحكمة ليست في إقامة الحواجز في سبيل الزواج لمن بلغ تمام الرشد ، بل باعانة الأبناء ، والبنات أيضاً ، بمنح مادية يوازنون بها عجزهم الاقتصادي وتثبت عزائمهم على مواجهة مصاعب العالم . سيكون ذلك دين شرف يدفعه الأبناء للجيل القادم . ولن يخسر أحد ، وسيكسب الجميع . لقد مضى الوقت الذي كان الآباء يبذلون في هذا الأمر بسخاء .

بمثل هذه المعونة قد يستسلم حتى الشاب الحريص لنداء الحب . فاذا تزوج الشاب فسوف يجد شيئاً من الحقيقة في ذلك المثل القديم : « الله ولي التوفيق » . وسوف يصلب بالعزة عوده ، ويقوى ساعده ، وتستمر شجاعته . وترغمه المسؤولية على التعمق ، فيستوى بالزواج رجلاً . فاذا لم يصلح شيء من ذلك ، فلتذهب الربة الصغيرة إلى عملها اليومي كما كانت تفعل من قبل حتى تواجه الحمل . ومن الأفضل أن يكون في يديها عمل من أن تقبع في الدار كقطعة من الزينة سهلة الانكسار . ومن الأفضل إرجاء الحمل من التملل بتأخير الزواج تأخيراً غير طبيعي . يجب أن نسمح بالتمييز بين الزواج وبين النسل ، حتى يقل ابتعاد الجنس عن الزواج . فاذا استمر الرجل هذه المعونة ، فالعلاج الوحيد لصلاحه هو الأبوة ، لأن وجود الطفل سيبعث فيه الرجولة ، اللهم إلا إذا لم يكن رجلاً على الإطلاق .

والصعوبة الثانية التي يثيرونها هي جهل الشباب . وفي ذلك يقول نيتشه :
« عندما يقع الرجل في حبال الحب فلا ينبغي أن نسمح له باتخاذ قرار يختص بحياته ، وأن يقرر إلى الأبد نوع زوجته التي ترافقه نتيجة الزوة . يجب أن نعلن على رءوس الأشهاد أن موثيق الغرام غير صحيحة ، وأن نرفض السماح للمحيين بالزواج (١) » . حقاً الشباب أعمى فلا يستطيع أن يحسن الحكم ،

ولكن العمر عجوز ولا يستطيع أن يحب . لعله لا يجب أن يسمح لنا في أى وقت باتخاذ قرارات حاسمة أو أن يطلب منا ذلك . وليس من الواضح أن الرجال أحكم في الاختيار وهم في الثلاثين منهم في العشرين في مسائل اتخاذ الزوجات . ولما كان جميع الأزواج وجميع الزوجات متشابهين في الجوهر ، فليس الفرق بينهم كبيراً . وإذا فرضنا أن رجلاً لا يستطيع العيش في وفاق مع زوجته ، فالعلة في أغلب الحالات ترجع إلى عيب في سلوكه أو في فلسفته بحيث تؤدي إلى النتيجة ذاتها ، إذا غير زوجته وعقد على زوجة جاره . فالطلاق يشبه رحلة لا خير في الاستمتاع بها إذا لم نغير أنفسنا .

وعلى الرغم من هذا كله فجهل الشباب حقيقة واقعة . وقل لى بربك متى يقف جهلنا عند حد في مثل هذه الأمور ؟ من منا نحن الرجال يفهم النساء ، وكم منا يستطيع سياستهن ؟ ولكي نقلل الخوف من الحكم على المجهول فلنعد إلى تلك العادة القديمة وهي عقد خطوبة رسمية مدة ستة أشهر قبل الزواج . سيكشف المحبان كل منهما عن عقلية صاحبه في أثناء هذه الأشهر الممتعة . ولعلهما يشرعان في النزاع كما يتشاجر الزوج وزوجته ، وعندئذ تكون ثمة فرصة للانفصال قبل أن يجعلهما رباط الزواج واحداً . وقد تضي هذه الأشهر الستة على أنظمة زواجنا قوة أخلاقية وجمالاً هي في أشد الحاجة مع الأسف إليه . وقد تقدم لنا فاصلاً موسيقياً وسط عجلة الحياة الاقتصادية .

وأخر صعوبة وأعظمها هي العبث أن نشجع الشباب قبل أن تهدي التجارب حكمته على الدخول في بيت قد يصبح في أى لحظة سجناً يخنق فيه مدى الحياة . فإذا أردنا أن ندبر للزواج المبكر ترتيباً معقولاً ، فيجب أن نلتمس للزواج مخرجاً كما فتحنا له الأبواب ، ويجب أن يتمكن الزوجان من الطلاق برضا الطرفين . وقد يبدو من السخرية بعد الاحتجاج بأن الطلاق شيء يؤسف له ، وبأن الزواج يعقد للعناية بالأطفال أكثر من متعة الزوجين ، أن نحث على التوسع في الطلاق على حساب الأسرة والأطفال . ولكن من يدري هل يكون قبول الطرفين سبباً كافياً لكثرة الطلاق ؟ أو هل يكون الارتباط القسرى لزوجين لا يثن أحدهما في صاحبه ويكثر النزاع بينهما أفضل للأطفال من توزيعهم أو تبادلهم .

تحت سقف بيتين منفصلين يسودهما السلام ؟ وإذا رفضنا طلاق زوجة من زوج مجرد اتفقا على طلبه ، فاننا ندفعهما إلى صورة من الانفجار تلامس طلباتنا غير المعقولة . ولا ريب في أن التهل بعض الوقت أسلم ، فقد تؤدي هذه المهلة إلى الحكمة وتنصح بتجربة الافتراق وقتاً معقولاً قبل الموافقة على قرار نهائى . فقد يكشف المحاربان باستمرار في هذه الفترة أن العزلة أسوأ من التنازع ، وقد يكشف البعد عن فضائل خفيت مع القرب .

وقد حدث أخيراً في إحدى مدن الغرب أن اتفق أحد أعضاء مجلس الشيوخ وزوجته على طلب الطلاق ، ورفض طلبهما على أساس أنهما لم ينتهكا مقداراً كافياً من الأوامر الإلهية والشرائع الإنسانية . واعتبرت المحكمة أن رغبتهما في التحرر غير مقبولة ، « وكبلا بالحديد » مدى الحياة . مثل هذه الشروط تدفع إلى الفسق . فليس للرجل أن يفعل في ضوء هذه الظروف إلا أن يتحايل على القانون الغشوم . لقد سمحت اليابان منذ سنوات عدة بالطلاق المشروط برضا الزوجين مع أن نسبة الطلاق عندهم أقل من بلادنا . وأخذت روسيا بهذا النظام منذ عام ١٩٠٧ . وكان هذا النظام موجوداً في روما ، وأدخله نابليون في جملة القوانين البونابرتية ؛ ولكن البربون ألغوه لأنهم لا يعلمون شيئاً . ومن المحتمل جداً ألا تزيد نسبة الطلاق إلا قليلاً إن لم تزد على الإطلاق بسبب إصلاح من هذا الضرب الذى يزيد في شرف سلوكنا ووقار محاكمتنا .

ولندع غيرنا من الذين يعرفون بخبرونا عن نتائج تجاربنا . أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده . فنحن غارقون في تيار من التغيير ، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا في اختيارها . وأى شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم . فالآن وقد أخذ البيت في مدننا الكبرى في الاختفاء فقد فقد الزواج القاصر على واحدة جاذبيته الهامة . ولا ريب في أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر حيث لا يكون النسل مقصوداً . وسيزداد الزواج الحر ، مباحاً كان أم غير مباح . ومع أن حريتهما هى إلى جانب الرجل أميل ، فسوف تعتبر المرأة مثل هذا الزواج أقل شراً من عزلة عقيمة تقضيها في أيام لا يغازلها أحد . سينهار « المستوى المزدوج »

وستحث المرأة الرجل بعد تقليده في كل شيء على التجربة قبل الزواج . سينمو الطلاق ، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة . ثم يصاغ نظام الزواج بأسره في صور جديدة أكثر سماحة . وعندما يتم تصنيع المرأة ، ويصبح ضبط الحمل سرّاً شائعاً في كل طبقة ، يضحى الحمل أمراً عارضاً في حياة المرأة ، وتحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت . وهذا كل شيء .

٤ - في إنجاب الأطفال

ومع ذلك فالكلمة الأخيرة يجب أن تكون للزواج المقتصر على امرأة واحدة ، فالرابطة المستمرة مدى الحياة تظل أعظم تصور عن الزواج الإنساني ، ولا تزال هي الهدف الذي يرمى إليه الحب الصحيح الكامل حين يبرم عقده . وثمة ضرب من الجبن في الطلاق أشبه بالهرب من ميدان القتال ، ومن عدم الاستقرار والسطحية في الشخص الذي يتنقل من زوجة إلى أخرى . أما الرجال والنساء ذوو الخلق فسيتغلبون على هذه الصعوبات كلما نشأت ، لأنهم يعرفون أن ثمة صعوبات شبيهة بها ستواجههم في ميادين أخرى من القتال . وهم يحصدون ما زرعوا بعد انقضاء السنوات الشاقة من التوافق المتبادل ، وبعد أن تحل العاطفة الثابتة التي رسمت مع العناية بالأولاد والمشاركة في صروف الدهر محل الشوق العابر إلى الرغبة الحسية ، فتجتمع بين عقليين وجسمين في واحد . ولن يعرفا الحب في كماله إلا حين تمر بهم هذه التجربة النفسية .

ولن يتيسر وجود ذلك الكمال بغير إنجاب الأطفال ، إذ من أجلهم اخترع الزواج ، الذي لم يكن يهدف إلى الجمع بين زوج وزوجة بمقدار ما كان يرمى إلى استمرار النوع بربط الآباء بالأبناء في حبل من الولاء والعناية . ومهما تكن متحررين ، ومهما نكن قد خلصنا أنفسنا من ميول الماضي ، فإن المرأة العقيم بارادتها لا تزال تشيع في أنفسنا الإحساس بالشذوذ والنفور . إن الجمال الموضوعي كالسعادة الشخصية في سهولة تحقيق الأغراض والوظائف الطبيعية ، ولذلك نسخر من النساء اللاتي يبقين إلى آخر الحياة بغير أطفال ، ولا نتقنعهن بأنهن يعرفن صميم الحياة . ولو أن المرأة وجدت وظيفة أخرى بخلاف الأمومة

تستغرق فيها طاقتها وتملأ حياتها ، فلا بأس بذلك ، وستعينها الطبيعة . أما إذا هامت على وجهها بلا غرض ولا رضا ، تتحرك من مكان إلى مكان ، وتنتقل من رجل إلى آخر ومن تسلية إلى أخرى ، دون أن تجد اهتماماً في أى مكان ، فذلك لأنها ولت ظهرها الغرض الطبيعي من الحب . فالمرأة كما قال نيتشه : لغز لا يحله إلا الطفل .

ستضحك الفتاة العصرية من هذا الاقتراح العتيق ، وتعلن للعالم أن الزمن الذى قد تستغل فيه كآلة للحمل قد ولى . وفى الوقت الذى نتجادل فيه حول آرائنا المتطرفة نمر الحياة بمجدلنا مر الكرام . ولن نجد أحداً يملك حاسة التاريخ أو الإدراك بأن التطورات الاقتصادية لا تعود إلى الوراء يخطر بباله أن يسأل المرأة عن الأسرة الواسعة التى كانت من نصيبها فى الريف . وكل شخص يدرك (ما عدا أعضاء المجلس من الفلاحين الذين لا يزالون يحكمون مشرعى الدولة) أن تكاثر الآلات وتناقض نسبة الوفيات قد وضع حداً للحاجة إلى إنجاب الأولاد على نطاق واسع . وإذا كان صالح الجماعة يبدو فى حاجة إلى عدد كبير من السكان ، فذلك لأننا نغرق أنفسنا بالتفكير فى الكم ، أو نطمع فى التوسع الاستعماري والعسكري ، أو نتخيل مملكة مزدحمة كالصين تفيض بسكانها على الغرب . ولكن الكم لم يكن قط سبيلاً إلى الغلبة ، بل العقل والآلة هما الطريق إلى النصر . وعندما يحين الوقت الذى تتكافأ فيه الصين وإيانا فى الآلات ، فسوف يتقلون عنا تلك الأساليب الخاصة بالرقابة على زيادة عدد السكان ، وهى أساليب حديثة تعد بديلة من قتل الأطفال والإجهاض . فليس ثمة حاجة اجتماعية ، أو دعوى أخلاقية لوجود أسرة كبيرة . وإذا اقترح أحدنا أن تظل المرأة إلى حد معقول محتفظة بوظيفة الأمومة ، فالأرجح أن ذلك لتحقيق ذاتها وسعادتها أكثر من تحقيق مصلحة الجماعة .

ومن الملاحظ أن الزواج يذبل مع ابتعاد الأطفال ، ويزدهر مع إقبالهم . كان الزواج فى الماضى عقداً تجارياً لتحقيق اللذة الشهوانية للجنسين . أما الآن فقد استعاد الزواج معناه الطبيعي ، إذ يرفع النفسين الصغيرتين إلى نفس واحدة تجمع بينهما ، وينبت هذا الارتباط ويزهر كالزراع الذى نسقيه بالماء . وتجد المرأة وسط هذا الصخب والمتاعب والمصاعب والآلام شيئاً غريباً أشبه بالنشوة

الهادئة . فلم تكن قط في تعطلها وبذخها سعيدة السعادة التي تجدها في هذه المهام والالتزامات التي تنميها وتكملها، حتى حين يظهر أنها تضحي بها في سبيل النوع . وينظر إليها الرجل فيقع في حبها من جديد ، فهي امرأة أخرى تختلف عما كانت من قبل ، لها موارد وقوى جديدة ، ولها صبر وحنان لم يشعر بهما قط في عنفوان الحب . ومع أن وجهها قد يكون مصفراً الآن ، وقوامها مشوهاً إلى حين في عين الرجل الفاسد الشاذ ، فانها تبدو في عين زوجها وكأنها قد انزعت من برائن الموت ومعها عطية سخيفة ولكنها ثمينة . إنها عطية لن يستطيع مكافأتها عليها . ويصبح الآن العمل الذي كان مشقة مريرة طبيعياً وبهيجاً كالنحل الذي يجمع الشهد . وتصبح الدار - التي لم تكن إلا جدراناً وأسرة للنوم - بيتاً يمتلئ بضحكات الحياة المتجددة الشباب . ويحس الرجل لأول مرة في حياته أنه أصبح كاملاً .

ذلك أن الرجل عن طريق الأبوة (إلا إذا كان عبقرياً تركز شهوته وكماله في الأبوة العقلية) لا يؤدي فقط وظيفته كفرد في جماعة أو كفرد في نوع ، بل يحقق « نفسه » - فهو يقبل المسؤوليات التي تنضجه وتوسع أفقه ، ويستمتع باشباع غريزة الحب الأبوي العميقة التي جاءت على غير انتظار ، ويدخر رفقة الأطفال سلوان العمر ، ويبعد عن نفسه إلى حد ما شبح الموت ، الذي لا يحدد بغير حساب إلا الأجساد البالية والعظام النخرة ، إذ يجب أن يزيلها من الطريق ليفسح المجال للشباب . ولكن في الشباب الذي يحميه تجرى دماؤنا نحن ، وحياتنا ، وأرواحنا . إننا لا نسلم إلى القبر إلا شطراً من أنفسنا ، أما الشطر الآخر الذي تولد من جوهرنا ، وتغذى بأيدينا ، وتربى بعنايتنا ، فانه قد يعيش متجسداً إيانا في تيار الحياة . سي جلب لنا الأطفال متاعب يومية ، وآلاماً مريرة ، وربما خيبة الأمل في النهاية ، ولكنهم يرفرون لنا بلا نزاع متعة لا حد لها تفوق حتى نشوة الغرام . دع الرجل يكمل نفسه ، لا على أنه جزء ، ولا على أنه فرد يتنافس بلا اكتراث ويعيش منعزلاً محدوداً ، فهل يمكن أن يحقق ذاته ويصبح كلا ؟ فليكمل نفسه على أنه شركة في نفس أكبر ، وعلى أنه محب يعطي أكثر مما يأخذ ، وعلى أنه أب يفرح بخدمة النوع ، ويرضى بأن يبتلعه تيار الحياة وخلودها .. ذلك أنه سوف يجد جوهر جميع الأخلاق في هذا التعاون بين الجزء والكل ، ويجد سر جميع الكائنات الحية ، وبصيصاً من السعادة يضيء حياته سنوات كثيرة .

الفصل الحادي عشر في الأطفال : اعتراف

١ - نظرة شخصية

والآن بعد أن غنينا أنشودة الأبوة ، فلنبحث في صراحة وإخلاص تلك المهمة القديمة والشاقة ، نعى تربية الأطفال ، أى تحويل صغار الحيوانات والوحوش إلى سيدات ورجال مهذبين . وأستاذن القارئ في اتخاذ طابع شخصي في هذا الفصل ، وأن أستعمل ضمير المتكلم المحبوب بحرية ، لأن الأساليب والنتائج التي أقترحها ثمرة تجربة محدودة جداً ، وأود أن أقدمها كما هي عليه
إنها مغامرة أبوين مع طفل واحد . وإني أسلم منذ البداية أنني مهمم اهتماماً عميقاً يهولاء الأشخاص الثلاثة أكثر مما يسمح به أى خيال شامل . فالطبيعة تلقحنا يجب الذات حتى نرضى بالعيش ، فن ذا الذي يحتمل أن يرى نفسه في ضوء الأزل ؟

إني شغوف شغفاً خفيفاً بفتاة صغيرة ، ومن العسير أن أتصور أى طفلة أخرى تفوقها صحة أو ذكاء ، أو تورد خدين ، أو غزارة شعر . وعندما أصحبها إلى المدرسة ، وأودعها عند آخر منعطف الطريق ، وأرى انطلاقتها الملائكية وهي تجرى راقصة تترك فصلها المدرسي ، أعد متاعب هذه الحياة الدنيا وآلامها من التفاهة بمكان . فهذه الطفلة اللعوب تكشف عن كل سر ، وتبدد كل حزن . وعندما أعود إلى مكتبي أجد نشوة أبوية عجيبة تسرى في نفسي ، ويبدو كل شيء في نظري مغتفراً - الألم والحزن والموت - لأن هذه الأشياء موجودة في طبيعة أخرجت قسوتها العادلة والرفيقة من بين الآلام غير المعقولة طفلاً محبوباً .
فن الواضح إذن مبلغ تحيرى ، وأنى أبعد الناس من القدرة على مناقشة

مشكلات الأبوة في هدوء موضوعي أو ثقة كلية . لذلك لن يكون هذا الكلام بحثاً بل اعترافاً ، ولا كتاباً في التربية بل تسليماً بمسلك يستوجب اللوم . وثقتي بهذه الأمور مزعزة ككتفتي بمشكلات الميتافيزيقا المعقدة . وعلى الرغم من هذا كله ، فاني في أعماق قلبي أعتقد أن آرائي فلسفية وعميقة ، و « قمقم مفتوح » للأجيال المشرقة . وإني لأحلم وأنا أنظر إلى رأس صميفتي أن بعض الناس قد يرى في هذه الاعترافات شيئاً من الضوء الذي ينير بيوتهم وحجيم الأبوي .

٢ - في الأمور الجسمية

أظن أننا قد نظرنا منذ البداية إلى أثيل Ethel ، كما جاء في تعاليم الدين على أنها مخلوق مركب من جسم وروح . فقد خلق البدن أولاً ثم خلقت الروح عندما ابتسمت « أثيل » . ومنذ ذلك الوقت تحققنا أن هذا الجسد الوردى ، وهذه الأذرع والسيقان المثلثة ، وهاتين العينين الزرقاوين ، والشفتين الحمراوين والشعر الأصفر ، كل أولئك مهما تكن بديعة في ذاتها ليست إلا آلة وأداة لحياة غير مادية سرعان ما تحب وتكره ، وترغب وتحلم ، وتعجب وتنمو ، إلى أن تصبح ذاتاً أخرى ، ومركزاً يبدو أن العالم كله يدور حوله . سوف تعتمد هذه الحياة بطريقة ما على هذا البدن . وقد يكون شعلتها أبهى فيما نطن إذا كان الجسم الذي يحملها أصح وأقوى . وكنا قد عقدنا العزم على أن نضع بدن « أثيل » ودماها تحت رعايتنا الشديدة إلى أن تبلغ العاشرة ، معتمدين على الطبيعة أن تخرج لنا من الجسم الكامل أول زهور الرقة والذكاء . وكنا نشبه في وجود علة جسمانية تختفي وراء انحراف سلوكها أو بطء مواهبها ، وبدلاً من إجراء تحليل نفساني على أثيل أو تهذيبها بالمواعظ الخلقية ، كنا نقدم لها الهواء الطلق والغذاء الصحي .

وارتكبنا في الأشهر الثلاثة الأولى غلطة فظيعة لأننا سمحنا لطفلتنا أن تكون معملاً نجرب فيها نوعاً جديداً من اللبن الخفيف . إنها جريمة لم تستطع عدة سنين من القلق أن تمحوها من أذهاننا . وإنا لنعتمد اليوم مع بن فرانكلن أن الجنس البشري ينبغي أن يحذر من الطيب الشاب والحلاق العجوز . وحالفنا الحظ فعالج غلظتنا ، إذ على الرغم من سوء الغذاء تفتحت أثيل وترعرعت بشكل

عجيب . فلما اكتشفنا خطأ أسلوبنا لم نستطع أن نغزو هذا الحظ الحسن إلا للهواء الذي تمتعت به أثيل في ربيع السنة الأولى ، هواء قرية ساكنة في التلال حيث يكفي أن تتنفس ليصبح بدنك . ومنذ ذلك الحين أصبحت القاعدة رقم ١ . عندنا أن الهواء يأتي أولاً ، حتى قبل تلك المعجزة المدهشة ، وهي اللبن القادر على كل شيء . ففي كل ليلة ، مهما يكن الموسم ، تجلب النوافذ المفتوحة الهواء الذي يجيل خدى أثيل بنفنوننا Ethel Benvenuta (سميها مرحباً Welcome) ررد ولهيب .

وكم رشتنا بألغاز عذاب وذراعين تثبث بهما حول العنق لنسمح لها بالبقاء بعد الساعة المقررة للنوم . ولكننا في هذه المسألة كنا مصممين في هدوء ، فلم نكن نرضى حتى بمناقشة مثل هذا الاقتراح السخيف ، فنبعد الفكرة كأنها جرم ، ونرسل أثيل إلى مورفيوس^(١) Morpheus كل ليلة في الساعة المقررة المبكرة . والآن مع أنها فتاة كبيرة في العاشرة من العمر ، فانها لا تزال تحتفي بانتظام في الثامنة والرابع ، راجية لنا من أعلى السلم « نوماً عميقاً وأحلاماً سعيدة » ، ولا تكاد الساعة تبلغ الثامنة والنصف حتى تستغرق في النوم . كان القانون يخرق بين حين وآخر عندما يزورنا مثلاً أحد لاعبي البيانو المشهورين . ولكن في معظم الأحيان كانت تلك القاعدة مقدسة عندنا ، ووقفة عابرة بسيرة في فلسفتنا .

بعد الهواء يأتي الطعام . ورأينا أن أثيل كانت تزدهر بتناول غذاء نباتي ومعه كمية كبيرة من اللبن وخبز القمح . وأخذت تنمو فطالت قامتها وأصبحت قوية رياضية نشيطة ، وخيل إلينا أنها كانت تحصل على كل عنصر تحتاج إليه لكمال النمو . ولكن النباتيين سيسخطون علينا حين يسمعون أننا أضفنا بعد قليل إلى قائمة طعامها (الكتاكت) مرة أو مرتين في الأسبوع . كنا نسميها « الكتكتوت النباتي » . وظل البيت الصغير يعيش على هذا الغذاء العجيب القائم على غير أساس مزدهراً جسمانياً عشر سنوات . وليس التقرير الصحي عن أثيل نقياً . فقد

(١) ابن إله النوم ، ورب الأحلام ، في أساطير اليونان . وسمى كذلك من اللفظة اليونانية مورفي Morphé : أي هيئة ، لأن الأحلام تجعل الهباء صوراً محسوسة (المترجم) .

أصببت بالحصبة الألمانية في طفولتها وشفيت منها بعد أسبوع . وفي الرابعة من العمر انتقلت إليها عدوى السعال الديكي من طفلة أخرى وتغلبننا عليه بالمصل الحديث . وفي الثامنة أصببت باحتقان اللوزتين وأجريت عملية لاستئصالهما . فهذه هي النقط السوداء في بطاقتها ، وفيما عدا ذلك فهي غريبة عن الأطباء والأدواء ، حتى لقد رغبت أن تعرف : « ما شعور المرء بالمعدة ؟ » .

ويأتي اللعب بعد ذلك فيأخذ هذه العضلات والحواس والأطراف النامية ويعلمها التوافق والضبط والوحدة . والأب الكامل هو الذي يعتمد على فن التربية ، فيعرف بالضبط أى اللعب يشترى لتشجيع نمو كل عضو وكل قوة . ولا شك أن أول مبدأ نعتمد عليه في هذا الأمر أن تكون الألعاب بحيث تحتاج إلى إدراك مضبوط ، سهلة التناول ، وتحتاج فضلاً عن ذلك إلى حركة في الهواء الطلق . فالقبقاب ذو العجل ، والدراجات scooters ، والنبال ، والخلاقات quoits ، وحبال القفز (اللط) ، والبسبول ، والتنس ، والبسكليت (إذا كنت تعيش في الريف بعيداً عن أماكن النط) هي أول معين للطبيعة التي تنصح في حكمة باللعب كما تتدرج جميع القوى لتبلغ الكمال . وأفضل جميع الألعاب العوم والتزلج skating ، فقد خلق الصيف والشتاء لأجلهما ، إذ تعمل كل عضلة في تناسق ، ويسرع التنفس ويعمق ، ويدور الدم بسرعة ، وينبض القلب فرحاً . وإنى لأعترف في خجل أنى لا أعرف التزلج . ولكنى مصمم في هذا الشتاء حين تتعلم أثيل ، أن أجرب أنا أيضاً وأقع . إنى لأتخيل الفتيان والفتيات ينزلقون وقد أخذ أحدهم بذراع الآخر أو أمسك بخصره ، والعيون ضاحكة والحدود ملتهبة ، وهم يغنون في انسجام مع الحركة تحت سماء الشتاء . سوف نذهب للتزلج معاً ؟ حتى الكاتب العجوز يستطيع أن يدفع المركبة الجليدية ويتزلج بها على الثلج . فما أمتع الوقت الذي يقضيه ثلاثتنا حين تتطاير نتف الثلج .

٣ - في الأمور الأخلاقية

الجسم يأتي أولاً ، وبهاء جماله وهو ينمو مصدر بهجة مستمرة . حتى إذا أقيم هذا الأساس المتين ، وانتظمت عملية الهضم انتظاماً صحيحاً وأصبحت عادة

آلية ، عندئذ تبرز أمامنا مشكلات الخلق والتربية كثيرة متشابكة . فالطفل جشع في تناول الطعام على المائدة ، ومخرب للألعاب ، مشاكس في اللعب ، مغتر بهيئته ، كثير الثرثرة ، غشاش ، متقلب المزاج ، كتوم ، يكره الماء والصابون . فكيف نعالجه ؟

أول كل شيء تجنب كلمة « لا » . إذا أساء الطفل السلوك فالتمس له العذر ، لأنك إما أسأت تغذيته أو معاملته . والنواهي ضرورية ، ولكن كل أب يجب أن يتقيد بعدد محدود جداً منها ، كالطبيب حين يصف الحمر دواء ، ولعله يفعل كالطبيب الذي يستنفد الكشف على العدد المقرر عليه سنوياً في شهر يناير ويرتاح بقية العام . لا ريب أننا يجب أن نقول « نعم » كلما كان ذلك ممكناً . وبعض الآباء الذين يفشلون في المال أو الحب ينتقمون لأنفسهم من الحياة بأن يصدروا النواهي ويوجهوا الاعتراضات في طريق الطفل . إن سلطان الأب آخر ملاذ يلجأ إليه وغد . فالضعاف من الناس يحبون السيطرة ، وحق المرأة في النكد عزاء لها عن الحمل . فلندع الطفل سعيداً ولا نخدع أنفسنا بتضحية كثير من الحاضر في سبيل المستقبل . أما نحن فقد عزمنا أن نحتفظ بأثيل باسمه إلى أن تزوج ، والله يعلم ماذا يحدث لها بعد ذلك .

إن إصدار الأمر للطفل يبعث فيه المقاتلة والمقاومة . وهذه القاعدة تكاد تكون يقينية كقوانين نيوتن في الحركة ، وأدنى منها في الخلق بأينشتين . فحين نصدر أمراً نثير علينا غضبات الكرامة النائمة ، ونحرك جيوش الدفاع . اطلب يجب طلبك ، ومر يرفض أمرك . كن عادلاً مع الطفل ، واكسب محبته وثقته ، تجد أن طلباتك وإيحاءك أوقع من الأوامر . ومن المخجل أن نقرر كم حصلنا نحن أبا أثيل وأمها منها على كثير من الأشياء بالإيحاء . نذهب إلى المدرسة برفقة أثيل ، ونعبر لها عن حسدنا لإياها لأيامها السعيدة بالمدرسة . إنا لنعجب كم يعينها أن ترى غيرها يقدر سنوات الطفولة على الاستمتاع بها . ونلح عليها ساعة الغداء بالسؤال عن حظها في الفصل ، فتفرح لاهتمامنا بها ، وتنتقل إليها عدوى اهتمامنا بالتاريخ والجغرافيا والإملاء بل والحساب . الإيحاء يرسخ في نفسها الاعتقاد بأن هذه الأشياء لا يجب أن تكون خاملة ، وأنها قد تكون مثيرة كالمعارك ، أو الرحلات ، أو رسائل الغرام ، أو تقارير الدخل .

وكذلك الحال في البيانو. إنها مشكلة كل بيت: « اذهبي لتأدية تمرينك ». هذه جملة مخيفة لأنها توحى في الغالب بما يأتي : « البيانو حمل ثقيل ، والتدريب عليه عذاب . اذهبي وتألّمي . إنك تستحقين ذلك » . ولكننا جربنا طريقة أخرى مع أثيل . هيأتنا لها فقط فرصة تعلم البيانو إذا شاءت ، وتركنا ذلك لاختيارها . غير أننا ظللنا عدة أسابيع ، قبل أن نطلب منها ، نتحدث عن عظمة الموسيقى ، والمزنية الكبيرة للعزف أو التأليف . ثم بحثنا عن معلم لا يبدأ بتعليمها السلام الثقيلة والتمارين المزعجة ، بل بالحن بسيط يسهل على الأذن التقاطها مما يجعل سائر أهل البيت يرددونها . ولم نكد نجد المدرس حتى انطلقت الأنغام في أرجاء البيت تلعبها أصابع رقيقة دائبة ، حتى لقد كنا نحن الكبار نذهب إلى عملنا نغني الألحان التي تردها أثيل . كان يشرها أن نلاحظ بهجتنا ، وشعرت بنفسها قد أصبحت فنانة . كان البيانو منذ البداية يعنى في نظرها الموسيقى لا الضوضاء والألم .

وحدثت بعد قليل وقفة في تقدمها ، ولم تعد ترغب في أداء تمريناتها ، وكنا نكبح جماح أنفسنا عن شهوة الأمر وعادة القسر . كنت أختلف بدلا من ذلك إلى البيانو وأتمرن على الدرس بنفسى في حدود مقدرتى . ثم دعوت أثيل إلى مصاحبتي وأن نعزف بأربع أيد ، فجاءت وتمزنت معها مدة أسبوع . وإذا لم تحفل بالحجى كنت أعزف مقطوعاتها وحدى . وأمادنا المدرس ببعض الأغنيات الزوجية البسيطة تعلمناها معاً . (في هذه اللحظة نادتنى بنى قائلة : « أبى تعال نتمرن معاً ») وسرعان ما استعادت لذتها في العزف على البيانو . ولم يمض إلا قليل حتى كانت تعزف منتخبات بسيطة من بتهوفن ، وموزارت ، وشومان ، وشوبرت ، وهاندل ، وهايدن ، وباخ . كنا نغنى هذه الألحان المشهورة في سرور ، وأشعرناها بمقدار شكرنا لها لأنها ملأت قلوبنا بالغناء . وأخذت تشعر أن الموسيقى نعمة كبرى جديرة بجميع المتاعب التي تستدعيها . أصبحت تقول وهي تنصرف عن البيانو : « الآن فهتم علة شغفكما إلى ذلك الحد بتهوفن » .

وأنتقل خطوة أخرى في التوضيح من البيانو إلى بحيرة السباحة ، ولو أن هذا الانتقال لا يعد شرفاً كبيراً . أراقبت الأمهات والآباء يعلمون الطفل كيف يجب الماء ؟ إنهم يلاطفونه بعض الوقت ، ثم ينهرونه ، ثم يحملونه قسراً ويغمسون

كل جسمة في الماء . وتنجح هذه الطريقة بعض الوقت ، ثم تخفيه فنبعث في نفسه فزعاً من الماء قد يمنعه من تعلم السباحة على الإطلاق . وهنا نجد أن درهماً من المثال خير من قنطار من القسر . ولم تكن أثيل شغوفاً بالزول في الماء كأى طفل آخر . فخوفها شئء طبيعى وسليم متأصل في أجيال من مخاطر التاريخ . كنا نحملها معنا إلى حمام السباحة ونتركها تلعب في الرمل ، على حين نقفز نحن في الماء ونعوم ، ونوحى إليها بأن الماء شئء بديع . واثارت الغيرة في نفسها ، وأخذت من تلقاء نفسها تخوض في الماء . واشترينا لها حزام نجاة ، ربطناه بجسمها ، وبيننا لها أنها تستطيع بمساعدته السباحة في الماء العميق ولايكاد شعرها يبتل . وأخذت تراقب الأولاد والبنات وتقلد حركاتهم ، حتى أصبحت قادرة بعد زمن يسير على السباحة في أى اتجاه . وتعلمت في آخر موسمها الأول بدون قسر من أى نوع ، بل وبدون زجر ، حركة العوم على الصدر بضع ياردات . ثم انترعنا عنها الحزام ، فتمعجت حين رأت أنها تعرف السباحة . وفي الموسم التالى تعلمت دون قسر وبارشاد صديق ماهر عومة « الكرول crawl » والغطس تحت الماء . والآن تعلم أباهها ، وتجعله ينجل من قوة ضرباتها وتنوعها .

الحق أن المثال إذا كان حسناً فهو من القوة بحيث لا يحتاج في تعليمك إلى شئء آخر . وأفضل بيت ، وأفضل مدرسة ، وكذلك كل شئء آخر ، ما قل الحكم فيها . إن الطفل المهذب بغير عقاب وأمر جدير بالملاحظة . وعندما تخفق أساليب الحرية في التربية فالأغلب أن ذلك يرجع إلى أننا نحن الآباء نخرق القواعد التى نريد من أبنائنا طاعتها . إننا ننصح بالاعتدال ، ونسرف في الطعام والشراب . ونعلم الطفل أن يكون لطيفاً، ومنتشاجر على رؤوس الأشهاد . ونذم مساوىء الحلوى وأفلام الإجرام السينائية ، ولكننا نغمس في الإقبال عليها إلى حد يخرجننا عن الصواب . إننا نطلب الأدب الرفيع ، ونأمر باللياقة في فظاظة . ننصح بالعفة ، ونصنع هيئة الآلهة المعصومين . ولكن الأطفال يتعلمون بما يروننا نفعله لا بما نأمرهم به . فاذا كانوا مشاغبين ، فأكبر الظن أنهم يحاكون ما كنا نفعله . أرني أطفالك أخبرك من أنت .

إذا شئت أن يكون ابنك مؤدباً ، فكن مؤدباً . وإذا شئت أن يكون

مرتباً ، فكن أنت كذلك . ولست بعد ذلك في حاجة إلى شيء آخر . إنك حين تلجأ إلى اللغة العنيفة والألفاظ المثيرة توجهها إلى الطفل ، حتى تحت ضغط الإثارة الشديدة ، إنما ترسخ في نفسه بالمحاكاة ذكرى العبارات النابية . فأداب السلوك لا يمكن أن تعلم إلا مع الصبر بالمثل المستمر . وهذا شيء صعب يكاد يتطلب منا أن نعيد تربية أنفسنا . وبهذا الطريق يربينا أطفالنا . وكم نزل رجال الأخلاق في العصر الحاضر من هذه المبادئ الرفيعة إلى حضيض التصايح المتبدل ، وفقدوا صوابهم وذكاءهم ولجأوا إلى الأوامر والعنف . إنني أسوق هذه النصائح الداعية إلى الكمال لتشجعي حتى أطبق ذات يوم ما أبشر به .

وقد حاولنا توجيه كل غريزة في أثيل نحو غاية مفيدة . فهي محبة للملك كأي حيوان صغير ، ولم تكن على استعداد للسماح بالمشاركة في ألعابها كالحال في معظم الأطفال . ولكنها تأثرت بطريقتنا في اقتسام الأشياء معها ، ومساعدتها كلما نستطيع . وأدى الشعور بالأمن الذي نشأ عن هذه المعونة الصديقة إلى أن تكون أكثر حكمة وتسامحاً . وظلت بعض الوقت تهفو إلى القروش والملاليم ، فعالجنا هذا الأمر بتخصيص « مرتب » شهري لها بشرط أن ترتب حجرتها ، وتنظم فراشها ، وتستيقظ في الوقت المناسب ، وتذهب إلى المدرسة في الميعاد ، وتؤدي دروسها على ما يرام . وظن أصدقائي أنني أعمل على « إفساد » أثيل بهذا المرتب الشهري . وغالباً ما كنت أشك في حكمة هذه الطريقة . ومن الصعب الحكم بعد هذه الفترة القصيرة على رأي أصدقائي بالخطأ أو الصواب ، ولكني أظن أن الدلائل ليست في جانبهم . فقد جعل المال أثيل زايدة - شيئاً ما - في التملك . فهي تشتري به ألعابها الخاصة ، ولا تنفك بين حين وآخر تقبل علينا بحمل هدية لنا . وفي ذهنها مشروعات هائلة لعيد ميلادي ، وتقول : « فيم تظني أقتصد المال إذا لم يكن لشراء بديعة لك ؟ » . وفي هذه اللحظة التي أكتب فيها هذا الكلام أحت علينا في شراء عقد من عقود الأطفال . وبعد أن أجبناها إلى طلبها أخبرتني قائلة : « بالطبع سأدفع ثمنه من مالي » . ولكني أخشى هذه المرة إفلاسها .

والحال في حب التملك كالحال في الكبرياء ، فقد يكون مضراً

وخيافاً ، كما يكون مصدرراً للخلق والنو . ولست أريد من الطفل أن يكون وضعياً
وخانعاً . وعندما أرى عناد أثيل أعزى نفسى بأنها ستكيل الصاع صاعين لكل
من يحاول استغفاله حين تكبر . فالخلق يحتاج في تكوينه إلى شيء من المقاتلة ،
والرغبة في المقاومة أحياناً . أما الكبرياء فهي رأس الشرف ، وعمود الشجاعة ،
ويمكن أن يستغل إلى غير حد في الأغراض الحميدة . إننا نوحى إلى أثيل أنها من
العزة بحيث لا تسمح لأحد يراها غير مرتبة أو قادرة ، وأنها أكبر من أن تأخذ
أكبر من نصيبها في أى شيء ، وأنها أكرم من التهاك على الهدايا والمن والأفضال ،
وأنها أعز من أن تسمح لأحد يتفوق عليها في عملها ، (أرجو ألا تقطع على
اعترافنا بهذه الأسرار) . فالكرامة أفضل بديل من العقاب ، فهي دافع إيجابي
لا مانع سلبي . وهي التي تولد الصلابة والشجاعة ، وتغلب على الحياء والخبث .
ولقد تساءل نيتشه : «ما الفضيلة ؟ » وأجاب : « أن يكون المرء شجاعاً » . ولكن
كيف يمكن أن يكون المرء شجاعاً بغير كرامة ؟ .

ولعلنا كذلك يمكن أن نستبدل الدم بالمدح في تكوين خلق الطفل . فاللوم
يقيد النفس ، ويجعل العمل الناقص مكروهاً إلى الأبد . أما المدح فانه يبسط
كل خلية ، وينشط كل عضو ، ويجعل حتى أصعب المهام مغامرة تفضى إلى
النصر . إن حب الذات هو الرافعة التي نستطيع بها تحريك العالم . وبدلاً من
مهاجمة العمل الذي لم يحسن صاحبه أداءه مصوبين إليه سهام اللوم ، فلنلمح
الأعمال التي أحسن أصحابها أداءها ونوثرها بألوان المديح التي ترسخ حلوة في
صفحة الذاكرة ، وتدفع إلى التقدم في العمل . فاذا جاء تقرير أثيل منبئاً
عن تأخرها في الحساب (وهو خصمها اللدود) أبدينا الأسف ، دون أن نلومها .
ولعلها لن تعرف أبداً أن درجاتها في الحساب أعلى مما كنا نحصل عليه في مثل
سبها . أما حين تدخل البيت وتخبرنا عن الدرجات النهائية التي حصلت عليها
فاننا نرقص طرباً ونحتفي بها ، ونبذل جهدنا في إظهار الفرح من جديد عند كل
سبق . وحين تعمل شيئاً نبتج له بوجه خاص ، نمنحها دولاراً تضيفه إلى رصيدها
على الرغم من نصيحة أصدقائنا . وأى بأس في أن تكون طريقة المدح والعطف
أقل صلاحية من أسلوب القدح والعقاب ؟ إننا نوثر أن نخسر بالطريقة الأولى

على أن نكسب بالثانية . ستقف في صف أى مشروع يؤدي إلى سعادة أثيل .
فاذا كان لنا الخيار ، فنحن نفضل أن ندلها بالعطف من أن نصهرها بالعذاب .
فالعطف ، لا التجهم وبخود القلب ، هو المعين لنا جميعاً في الأزمات .

ولست أدري أيكون ما رسمه القدر لنا من إنجاب طفلة واحدة مشكلة
أم نعمة . إني لأعترف أننا أنفقنا في تربية أثيل من الوقت أكثر مما كنا نمنحه
إياها لو كانت الذرية أكبر . لقد رأيت بيوتاً فيها طفلان أو أكثر ، فوجدت
فيها من الضوضاء ما يتنافر مع ذوقى . إني أودى عملي بالمنزل فأرى لذلك أثيل
كثيراً . ولو كان لها أخوات أو إخوة لبحثت عن مكتب أو حجرة في سطح ،
بعيدة عن البيت ميلا على الأقل . وأثيل بحالتها الراهنة لا تزعجنى ، بل هى مصدر
سرور لا يمكن التعبير عنه . إن صوتها في الحجرات الأخرى ، بل فى بعض
الأحيان حين تقحم حجرتى ، ينشطى وينعشنى . إني لأعد نفسى حسن الحظ
حين أعمل لا فى فوضى المدينة ، بل فى الصحبة الهادئة لمثل هذه الفتاة النامية
السعيدة .

ومع ذلك فهذه النعمة الوحيدة تثير صعوبات ، نحاول حلها باستقبال
أترابها فى المدرسة للعب معها ، وتشجيعها على رد هذه الزيارات ، ودعوة ابن عم
صغير يعيش معنا فى الأجازات ، وتمضية آخر الأسبوع فى بيوت أخرى ، هذا
فضلا عن أننا أنفسنا نلعب لعب الأطفال فنشاركها فى دروسها وألعابها . إنها
تأخذ دروساً فى اللغة الفرنسية ، فنحفظ معجمها الأسبوعى معها ، وتبارى فى
ذلك العمل ، ونحفر كل لفظة فى صفحة الذاكرة بأفانين مختلفة . أو عندما
يصادفها مسائل صعبة فى واجب الحساب فنختلف إلى مائدة حجرة الطعام ،
ونجمع الأسرة كلها وتطرح وتضرب ونقسم فى آن واحد مدة ساعة . أهذا
مضيق لوقت الآباء ؟ ولكن كيف تضيع وقتك « أنت » ؟ أىمكن أن ننفق وقت
فراغنا بأفضل من هذه الأساليب المحددة للشباب ؟

إن سر الأبوة فى القدرة على العود إلى الشباب مرة ثانية ، واطرح أى وقار
أو لقب ، واللعب فى مساواة تامة مع الطفل . ومن المحتمل أن نكسب بهذه المودة
المتواضعة تلك الثقة والمحبة الكاملتين ، وهما حجر الزاوية فى التربية . كيف ننجح

في تربية الخلق إذا لم نستطع بالصراحة أن نجذب الصراحة والشرف من قوى الطفل الأخلاقية الطبيعية؟ (١). نقول لأثيل إن كل فكرة تغير دون وعي وجهها ، وعلى مر الزمن تسطر بجميع عناصر الخلق على صفحة الوجه فتقرأها أي عين . ولكننا لا نقنع بمثل هذه العبارات العقلية المتهاففة . فنحن نعلم أننا إذا شئنا أن تكون ابنتنا صريحة فلنكن نحن أنفسنا صرحاء حتى إذا كانت الصراحة مؤذية ، وأنا يجب ألا نخيفها بالخذر من أي عقاب أكثر من أن ندعها ترى أن انحرافها عن الصراحة قد جلب الغم لأهل البيت طول اليوم . إنا واثقون أن المثال والعطف يدفعانها إلى الصراحة معنا . قد يكون الكذب مباحاً في بعض الأحيان مع البالغين (كما يذهب إلى ذلك قليل من علماء الأخلاق) لأن البالغ يستنكر الحقيقة . ولكن ذلك ليس من الحكمة في شيء بالنسبة للأطفال الظالمين للمعرفة — ولو أن فلاسفة الأخلاق يحاربون بوجه خاص سعى الأطفال إلى معرفة الحقائق الجنسية . لقد ابتعدت أثيل عن المثل الأعلى في هذه المسألة وفي غيرها من الأمور ، وأظن أن ذلك يرجع إلى أنني لم أكن صريحاً معها إلى النهاية . سنحاول مرة أخرى .

٤ — في الأمور الجنسية

أقصى امتحان للصراحة هو التربية الجنسية للطفل . لم نقاوم ذلك الفصول القوي الذي يعد أصل العلم ولباب التربية ؟ أظن أن السبب القريب في ذلك يرجع إلى أن ميراثنا البيوريتاني في أمريكا ، قد خلف فينا شيئاً من الفزع من الجانب الشهواني في الحب . وأن السبب البعيد يرجع إلى السرية التي كانت تحيط العملية الجنسية دائماً ، حتى في المملكة الحيوانية ، للابتعاد عما ينشأ عن ذلك من خطر الهجوم . وأن السبب الرئيسي يرجع إلى أن ازدياد تأخير الزواج من زمن البلوغ إلى سن متأخرة قد ترك فترة خطيرة يجب الابتعاد فيها عن أي مثير لا لزوم له للغريزة الكامنة والقوية . إنها مسألة صعبة متعددة الجوانب . ولكننا عازمون حتى

(١) لا أستطيع أن أضيف شيئاً إلى الفصل العظيم « الصدق » في كتاب برتراند رسل « التربية

والحياة الفاضلة » .

في هذه المسألة أن نحاول بلوغ الحق . سنبدل أقصى وسعنا لاستبعاد هذه المسائل بعيداً عن أذهاننا إلى آخر لحظة ممكنة . وعلى كل حال ستأتي سريعاً مع جو الحياة العصرية الشديد الحرارة . ولكننا نود الإجابة عن هذه الأسئلة قبل أن يجيب عنها أطفال جهلاء أو شهوانيون . ولن نعالجها بأى طريقة أخرى أو بأى نغمة على خلاف المسائل الأخرى . فالوقار reverence في هذه المسألة هو الطريق الباطل ، لأنه سبيل إلى الأسرار والأضرار . يجب على المرء أن يتحدث عن الأمور الجنسية كأنه يتحدث عن الهضم أو التنفس ، بهدوء العالم غير المتحيز . والصدق أسلم في نهاية الأمر بشرط ألا يشاب بالخوف .

المعرفة والصحة أفضل طبييين نفسانيين ، فحيثما كان البدن صحيحاً والعقل سليماً ، فلن تجد « العقد » سيلاً إلى النمو . كان ديدرو Diderot يقول إن التشريح أول الأمور التي يعلمها ابنته ، ولو أني لست متعجلاً في تعليم ابنتي ذلك . ولا ينبغي أن تزعجنا الاضطرابات العادية للشباب بالنسبة لهذه الأمور . سندع الطبيعة تأخذ مجراها ، دون عظات أو أكاذيب . ولكننا ستقدم للطفل جميع الألعاب الرياضية المفيدة التي تفتنه تحت ضوء الشمس . حين أرى الصبي يلعب البسبول في ابتهاج أعلم أن أخلاقه حسنة .

حين تبرز حياة الحب عند الطفل بالصدق تصبح هذه الحياة كأي شيء آخر حولها موضع جمال وبهجة . هاهي ذى أثيل مثلاً تعود من المدرسة ، وتجلس على مسند الكرسي ، « وتطوقني بذراعها » كما نقول ، رهنس في أذني بنجل « أبي ، إني أحب » فإذا أفعل ؟ هل أعنفها لهذه القصة الخيفة ؟ لا أستطيع ، بل بدلاً من ذلك أضحك ، وأطلب منها تفاصيل كاملة . لماذا نطفيء بالأخلاق هذه النفس المضيئة ؟

ولكن ماذا نفعل حين يأتي دور البلوغ ؟ سنملاً الموقف بالمعرفة عند أول علامة له . لن ندخر وسعاً في تجنب الحساسية ، والشعور بالذات ، وحب الانبطاء الذي كثيراً ما يغير لون الحياة في هذه اللحظة الدقيقة من مداها . دع هذه السنة الأولى من البلوغ بعيدة عن الاضطرابات والمأساة ، ولتكن ربيع الروح ، تبذر فيها بذور الإخلاص والمثل العليا ، وموسم المخاطرة والشعر ، وشهر الصحة .

والنمو للجسم والعقل . فالذكاء ينبت الآن بخطى سريعة ، ويتراجع الجسم إلى المحل الثاني ، ويقف الخلق في مكانه بعد أن تكوّن ، وتتركز مهمة المربي آخر الأمر في مشكلات العقل .

٥ - في الأمور العقلية

لست أدرى متى بدأ « عقل » أثيل . ولكننا لم نلق إلى ذلك بالا حتى أصبحت تقول مع ميلن Milne (١) : « الآن بلغنا السادسة » . إنها لا تريد مني أن أستنتج أنها لم تكن ذات عقل قبل ذلك . ألم تأخذ دروساً كل حين في تعلم الشاذ في اللغة الإنجليزية ؟ وهنا أيضاً كان علينا أن نختار بين أمرين : الأوامر والأمثلة . وسلمنا بأن أثيل إذا كانت لا بد أن تتعلم الإنجليزية صحيحة فيجب أن نتعلم نحن أن نتكلمها صحيحة ، وإذا أردنا أن نبعد من معجمها الاصطلاحات السوقية ، فلا ينبغي أن تجرى على ألسنتنا . ليس معنى ذلك استبعاد التشبيهات العامة الحلوة ، فقد تبعث الحياة إلى العبارة ، وتفيد اللفظة الواحدة ما يحتاج الدكتور جونسون إلى جملة طويلة للتعبير عنه . ولكننا آثرنا سلامة اللغة على الابتذال ، ووضعنا في طريق أثيل حينما استطاعت القراءة أحسن الآداب المناسبة لسنها .

وكان لا بد أن نواجه في أثناء ذلك مسألة المدارس الخاصة : أنرسل أثيل إلى المدرسة العامة المجاورة لنا ، أم إلى معهد خاص ذي سمعة حسنة ولكن مكانه غير ملائم ؟ لقد زرنا كلتا المدرستين ، ودهشنا عندما رأينا مدى التقدم الذي بلغته المدارس العامة منذ الأيام التي كنت أقوم بالتدريس فيها لقاء عشرة دولارات في الأسبوع . فالحجرات المدرسية مشرقة ، والفصول أقل عدداً ، ولكل تلميذ (تحتة) خاصة ، والمدرسون متنافسون ومبتهجون ، إلى جميع الأدوات والتسييلات المدرسية ؛ فلم نصدق أعيننا . كنت أسمع الشيء الكثير عن المدارس ، بل لقد كتبت أنتقدها باعتبار أنها سجون نظامية يدخلها الأطفال آلهة في المهل ويتخرجون فيها آلهة في الخلد . فهل كنت أنطق بعبارات منمقة فقط ؟

(١) روائي إنجليزي مشهور ولد سنة ١٨٨٢ ، وله شعر ونثر كتبه لابنه الصغير كرسنوفر . وله روايات كثيرة (المترجم) .

وجربنا المدرسة العامة ، وسار كل شيء على ما يرام . لعلها كانت تغلو بعض الشيء في النزعة الوطنية ، ولكننا في الحملة لم يكن لنا اعتراض أن نتعلم أثيل حب بلادها بحيث يسمح لها أن تقدر عظمة البلاد الأخرى كذلك . وسراقب ذلك . كانت المدارس العامة الأربع التي التحقت بها أثيل نموذجاً في الكفاية والنزعة الإنسانية . كان بعضها أفضل من بعضها الآخر ، لا بسبب المدارس ذاتها بل للعلاقات التي تعقدتها فيها . كنا نلاحظ تغير بنتنا الصغيرة في العادات والميول كلما انتقلت من مدرسة إلى أخرى . أما الآن فهي في أفضلها جميعاً مما يبعث في أنفسنا الامتنان والسعادة .

لا ينبغي أن أعمم بناء على هذه التجربة ، وأعترف أنه لو كنا في مكان آخر ما بلحنا إلى المدرسة العامة إذا تيسر لنا ذلك . فالعلاقات بين الناس نصف لعبة الحياة ، ويجب أن يغفر الله لنا اختيارها . وكان إمرسون يقول : « ارسل ابنك إلى الكلية وسوف يعلمه الصبيان » . وقد دفعنا هذا الاعتبار في إحدى الحالات لتجربة مدرسة خاصة من أبداع مدارس نيويورك . وتبيننا في الحال أن أثيل لا تحبها ، فكانت تشكو من الضوضاء واختلال النظام مما كان مدير المدرسة يسميه حرية . ومع أنها تعلمت بعض الأشغال الصغيرة المفيدة ، وكانت تلعب كثيراً في الهواء الطلق تحت إشراف دقيق ، إلا أنها كانت تسألنا بين حين وآخر : « متى يعلمونني شيئاً ؟ » وفي نهاية السنة الدراسية بالمدرسة الخاصة ألحقناها بمدرسة عامة (كانت الدراسة بها ممتدة شهراً) ووجدنا أنه على الرغم من ارتفاع مستوى ذكائها عن عمرها كانت متأخرة في مواد كثيرة لازمة لنقلها إلى فصل أرقى ، فاضطررنا إلى إئصال الصيف بالدروس .

الخطوة التالية لوجود المدرسة هي التعاون معها ، بالأنا نسمح بالغياب أو التأخير إلا لأسباب حيوية ، وبأن نراقب تقدم أثيل اليومي وتقاريرها الشهرية ، ومتابعة واجباتها المنزلية ، والعناية بدروس كل يوم ، فهذا كله جزء من مهمة الأبوة ، لا يعين المدرسة فقط بل يساعد الطفل كذلك ؛ وكل نظام أو ترتيب فضيلة تضاف إلى الخلق . وكنا إذا تمسكنا في الحقول أو الغابات ندير الحديث ما استطعنا حول التاريخ أو الجغرافيا أو الأدب ، وتعطينا قصص مشهورى الرجال المثيرة أكثر من الحكايات الخيالية والخرافات .

هل الجغرافيا ثقيلة ؟ إذن لم كانت السفينة الراسية في الميناء ، أو الجارية بالشرع أو البخار إيحاء لا يقاوم بقصة خيالية ؟ وحيث كان كل طفل يشناق إلى رؤية البلاد الأجنبية فطريقة تعليم الجغرافيا هي الرحلة الحقيقية أو الخيالية . يرسو المدرس بتلاميذ الفصل في شنغهاي أو سنغافورة ، فترحب بهم سائر أسرار آسيا . أو يرتقبون نهر النيل من الإسكندرية إلى الحبشة مارين بمئات من القبائل الغربية إلى جوهانسبرج ومدينة الكاب ، فتصبح أفريقية حقيقية لا مجرد اسم . لم لا تجهز كل مدرسة بأفلام رحلات ناطقة كذلك التي يعرضها هولز ونيومان ، فيها مناظر وصور متحركة أمتع ألف مرة من الصور الثابتة ؟ والتاريخ ... لا ريب أنه بالنسبة للأطفال يجب أن يكون ما سماه كارليل « سيرة العظماء » . ذلك أن تعويد الطفل تمجيد العبقرية يجعله يخلص لها إخلاصاً لا يحويه العمر حتى إذا ذوى كل حب آخر .

ولكى ندخل تلك المملكة من العقل حيث لا يزال العباقرة المذكورون يعيشون ويعلمون يكفى أن نقرأ ونرى . علينا أن نرى غير متعجلين تلك الصور والتماثيل التي دون فيها الفنانون فلسفاتهم في الحياة على صفحة الوجوه وهيئة الأجسام . وأن نتجرع على مهل عظمة البارثينون Parthenon (١) أو رقة شارتر Chartres (٢) ورشاقهما . وأن نقرأ في غير عجلة تلك الكتب التي صفاها الزمن لنا من نفاية كل عصر تحمل الميزات العقلية للإنسانية . ما أبهج أن نستمتع لأثيل تروى القصص التي سمعنا في المدرسة ، عن روفائيل ورمبراندت ، وليوناردو وميكائيل انجلو ، ورينولدا وجنزبورو ، وروبنز وفانديك . عندما كنت في سنها لم أكن أحلم بوجود هؤلاء الرجال . وأبهي من ذلك أن يجذبها إلى عالم الأدب لتستمع بحياة شكسبير ، وشللي ، وملتون ، وبيرون ، وجوته ، وهوجو ، وهويتان ، وبو .

إنها لم تكدم تم مقرر الأدب المؤلف خاصة لمن هن في مثل سنها . والفصول

(١) البارثينون معبد كبير في أثينا أنشئ في القرن الخامس قبل الميلاد وزينه فيدياس المثال المشهور بالتماثيل . (المترجم) .

(٢) كنيسة مشهورة في فرنسا بنيت على النظام القوطي في القرن الثاني عشر الميلادي واشتهرت بزجاجها الملون ، وأصبحت علماً على الكنائس في العصر الوسيط . (المترجم) .

القديمة في هذا الأدب مثل «أليس في بلاد العجائب Alice in Wonderland» (١) ، و «الكتاب الفارغ بقلم لير Nonsense Book» (٢) ، بديعة جداً . ولكن معظم الكتب المتأخرة المؤلفة للأطفال فاسدة بسبب سوء تقدير ذكاء الطفل ، وليس في مادتها ما يثير ، ولا تبعث على القراءة أو تعمل على تنميتها . إنها تفاهة عقلية قد يفقد معها الأذكاء من الأطفال كل ذوق للقراءة إذا كان غذاؤهم هو هذا اللبن الخائر . وثمة آداب كلاسيكية للبالغين يمكن أن يستمتع بها الطفل في التاسعة أو العاشرة ، مثل «الفرسان الثلاثة» و «الطلسم» بل و «البؤساء» . ثم إن الطفل يزيد استمتاعه بها حين نخبره أنها لم تكتب للأطفال ولن تجد في سائر أنحاء العالم أفضل للطفل من «روبنسن كروز» و «رحلات جالفر» ، ومع ذلك لم يكتب أى واحد منهما للأطفال ، ولا يفهمهما البالغون حتى الآن .

ومن الممتع في كل بيت يعز بالكتاب أن يخصص صاحب الدار ساعة للقراءة بصوت عال ليلة أو أكثر في الأسبوع . ويستطيع الأطفال والبالغون أن يتناوبوا القراءة ، على أن تؤجل التصويبات حتى يتم قراءة الفصل كله ، ثم يصحح الوالد أخطاء الطفل على حدة . إنى لأذكر كيف كانت أنيل وابن عمها لويس ذوالعينين السوداوين وثلاثة من الكبار يقرأون «إنوك أردن Enoch Arden» (٣) بهذه الطريقة ، وكيف كان الطفلان يستقبلان كل سطر باهتمام شديد ، وكيف سادنا الصمت جميعاً في نهاية القصة إلى أن اتجهت أنيل نحو أمها وأخفت وجهها في ذراعيها وبكت . وقد ربنا الآن الحصول على عدة نسخ من «تاجر البندقية» ، لنوزع الشخصيات فيما بيننا ، ونقرأ التمثيلية بكل ما فيها من بلاغة ونحن جالسون أمام نار المدفأة .

(١) قصة غريبة للكاتب لويس كارول كتبها عام ١٨٦٥ ، يصور فيها أليس وقد وقعت في بئر فوجدت نفسها في مملكة غريبة ، حيث أصبحت هي جنية ووقعت لها مغامرات مع الأرنب الأبيض والقطة العريضة ، الخ . (المترجم) .

(٢) ادوارد لير Lear (١٨١٢ - ١٨٨٨) كاتب انجليزي ومصور مشهور بأشعاره الفارفة الغريبة الخيالية . (المترجم) .

(٣) شمر منشور لتيسون ، البطل بحار تحطمت سفينته على جزيرة مهجورة ، ثم عاد بعد غيبة سنوات ليجد زوجته قد تزوجت غيره ، فلما رآها سعيدين صم على التخفى وبارح المكان ومات كسير القلب . (المترجم) .

وإني لأعتقد أننا نحصل آخر الأمر على « التربية الحرة » عن طريق القراءة . لا عن طريق المدارس العالية والكليات . وقد شرح المستر إفرت دين مارتن (١) Everett Dean Martin شرحاً حسناً معنى هذا الاصطلاح ، وإني أوصي بحرارة بهذا الكتاب لأولئك الذين يرغبون في معرفة حقيقة النضوج . إننا نظن في الوقت الحاضر أن الرجل يكون متعلماً إذا استطاع قراءة الصحف في الصباح والظهر والمساء . ولكن على الرغم من أن جامعاتنا تخرج كل عام كثيراً من المتخصصين ، فثمة جذب واضح في الثقافة الحقيقية في حياتنا . نحن أمة فيها مائة ألف مدرسة ولا يكاد يوجد فيها عشرة متعلمين .

فلا غرابة أن يتساءل « ولز » وغيره عن فائدة التعليم الجامعي . وهذه مغالاة في التشاؤم لإبراز هذه النقطة . ومع ذلك فن الحير أن يهض أحد لينقد فكرتنا بأن الإكثار من المدارس والتخرجين في الجامعات قد يجعل منا شعباً ذكياً . لقد عانت مدارسنا وكلياتنا معاناة قاسية من تصور سينسر التربية على أنها تكيف الفرد بالبيئة التي يعيش فيها . كان ذلك التصور تصوراً ميتاً وتعريفاً ميكانيكياً منزعاً من فلسفة ميكانيكية تنفر منه أي روح خلاقة ، وكانت نتيجة ذلك أن غرث مدارسنا العلوم الميكانيكية والنظرية مع استبعاد ، إلى حد ما ، تلك المواد « غير النافعة » كالأدب والتاريخ والفلسفة والفن . وهكذا نخرج صنفاً حسناً من الموظفين والكتبة والفنيين الذين يلتمون بعد انقضاء عملهم اليومي الصحف المصورة ويزدهمون في الملامح التي يرون فيها دائماً على الشاشة نفس صور الحب ، وعلى المسرح نفس الموضوعات .

هذا التعليم الميكانيكي و « العملي » يخرج أشباه رجال لا رجالاً كامليين . يخضع الحضارة للصناعة ، والبيولوجيا لعلم الطبيعة ، والدوق وأدب السلوك للمال . ولكن يجب أن يكمل التعليم الإنسان فيمنى فيه كل قوة خالقة ، ويفتح عقله على جميع مظاهر العالم الممتعة والنافعة . فصاحب الملايين الذي لا يجد في يتهوفن أو كوروت أو هاردي ، أو في توهج غابات الخريف عند غروب الشمس ، إلا أصواتاً وألواناً لا دلالة لها ، إن هو إلا مادة إنسان فقط ، تحجب

(١) عالم أمريكي في التربية (١٨٨٠ - ١٩٤١) له كتاب « سلوك الجماهير » وغيره (المترجم) ..

نوافذ روحه الملوثة نصف هذا العالم . إن التعليم العلمي الخالص يجعل ممن يخرج منه مجرد أداة ، ويترك صاحبه غريباً عن الإحساس بالجمال ، وبهبة قوى بعيدة عن الحكمة . ولو أن سبنسر لم يكتب قط عن التعليم لكان ذلك أفضل للعالم .

ومن الخير أن تأخذ اللغتان اللاتينية والإغريقية في الزوال من جامعاتنا لأنهما كانتا تستنفدان من الجهد مئات المرات أكثر مما تستحقان ، وفي ذلك يقول هايني : « لو كان على الرومان أن يتعلموا اللاتينية أولاً ما بقي لهم من الوقت ما يغزون به العالم » (١) . ولكن مع أن لغتي اليونان والرومان لازمتان لفقهاء اللغة فقط ، فإن أدب هذين الشعبين يكاد يكون مما لا يستغنى عنه . وقد يتجاهل أحدنا عامداً فرجيل وهوراس ، ولو كرتيوس وشيشرون ، وتاسيتوس ومرقص أوريليوس ، ويكون مع ذلك ناضجاً . ولكن ليس من بين سائر أدوات التعليم التي أعرفها شيء أبعد وأوثق من دراسة حياة الإغريق في شتى مظاهرها ، في حكوماتها الديمقراطية والمستبدة ، وخطاباتها وتمثلياتها ، وشعرها وتاريخها ، وبنائها ونحتها ، وعلمها وفلسفتها . دع أي طالب يستوعب حياة عصر بركليس وآدابه ، وعصر النهضة ، وعصر التنوير ، وسيحصل على تعليم أفضل من أي جامعة يمكن أن تقدمه إليه . ليس معنى التعليم أن نحصل على إجازة تثبت خبرتنا في العمل أو التعدين أو النبات أو الصحافة أو الفلسفة . ولكنه يعني أننا نصل إلى فهم أنفسنا والعالم الخارجي والرقابة عليهما بوساطة استيعاب ميراث الإنسانية الخلقى والعقلي والذوقي ؛ وأن اختيارنا قد وقع على أفضل معين لنا في الروح والجد جميعاً ؛ وأنها قد تعلمنا أن نجتمع بين الأدب والثقافة ، وبين الحكمة والمعرفة ، وبين التسامح والفهم . فتنى تخرج جامعاتنا مثل هؤلاء الرجال ؟

٥ - نشوة

ما أبهى أن أرى أثيل جالسة على مقربة من نار الموقد ذات مساء ، وقد مدت ساقيها القويتين إلى جانب الكرسي ، وكشفت عن ذراعيها البضتين ، وتلمع شريطها الحمراء فوق قميصها ، وقد تهدل شعرها فوق كتابها ، وأضاء

Memoirs, vol. I, p. 12. (1).

وجهها بالاهتمام والإحساس ، وهامت روحها بعض الوقت إلى أماكن بعيدة وأزمة صحيحة ، مسافرة موسعة حدودها ، رافعة نفسها يوماً إثر يوم أكثر ملاءمة لصحبة عظماء الرجال والنساء . ستغرم بهم واحداً بعد واحد وتستمع إليهم ، من سافرو إلى ديوز ، ومن أنبادقليس إلى نيتشه ، ومن بوذا إلى دستوفسكي ، ومن لاوتسي إلى أناتول فرانس . إننا نراها تنمو في صحبتهم عاماً بعد عام ، فتتعلم الحكمة من سقراط ، والإخلاص من ليوناردو ، والتسامح من المسيح . إننا نحلم بكل ما يمكن أن تكون عليه .

إننا نرجو ألا تصبح مسرقة في التعليم حتى تحب الحياة ، وأنها لن تؤثر الكتب على الأصدقاء ، أو الطبيعة ، أو الأمومة . لن نعدها كاملة مهما تكن سيرتها في الحياة ، إذا لم تعمل على رفع طفل آخر إلى مرتبة أعلى من مرتبتها كما نحاول أن نرفعها فوق أنفسنا . ولكنها ستكون حرة ولو لتخيب أملنا . الحق أن أحداً لا يستطيع أن يهدى غيره إلى الصواب . إنها ستختار طريقها الخاص ، وتحدد صالحها الخاص . ويكفيها أن الله قد وهبنا إياها ، وأن ضحكها وصراحتها قد أشاعتنا ألواناً من البهجة في هذه الحياة المشكوك في أمر أصلها والغامضة المصير .

الفصل الثاني عشر

إعادة بناء الخلق

١ - عناصر الخلق

لقد تكلمنا بما فيه الكفاية عن التربية الأخلاقية والعقلية للطفل . أما نحن الكبار - أئمة أى احتمال يمكننا من صياغة أنفسنا فى قالب أفضل مما نحن عليه ؟ من المزايا التى يتمتع بها المفكر فى هذا العصر الجبار المعقد أن يتمكن من ملاحظة مولد علم من العلوم . ويبدو واضحاً من هذا الصخب الذى نراه فى المعامل أن « الفلسفة » ، وهى أم العلوم (الجاحدة) ، تتولد الآن عن طفل آخر ، وأن دراسة « العقل » آخذة فى الانتقال ببطء ومشقة من ظلمات الميتافيزيقا إلى أنوار الملاحظات والتجارب المضبوطة . ولم تتم الولادة بعد ، وحتى فى فلسفة فرويد لا يزال العلم الرضيع متعلقاً بأمه تكاد تخنقه النظريات والأساطير .

إن علم النفس يقف اليوم حيث كان علم الطبيعة يقف حين كتب فرانسيس بيكون كتابه « تقدم العلم » منذ ثلاثمائة عام . فقد وضع بيكون ، فى شجاعة أفزعت حتى رجال النهضة الأبطال ، خطة للعلوم تبرز المشكلات الحيوية التى كانت تحتاج إلى الحل ، كما تنبأ فى كل صفحة بالانتصارات التى تجلبها المعرفة الجديدة . وأصبحت هذه الانتصارات الطبيعية اليوم حقائق كلية وعميقة أبعد مما كان يتصورها حتى خيال بيكون . وغيرت الطبيعة والكيمياء والرياضة والميكانيكا وجه الأرض فى كل مكان ، وجعلته أكثر خضوعاً لإرادة الإنسان . والإنسان فقط بما فيه من إرادة وخلق هو الذى يبدو أن يد التغيير . لم تناوله .

ماذا لو كان علم النفس آخذاً فى التحرك صوب نتائج مماثلة ؟ لو ظهر

فيلسوف آخر مثل بيكون يضع خطة مشكلاته ويتنبأ بانتصاراته ، فمن يصدقه ؟
إننا لا نزال على شاطئ البحر الغريب يغشيه ظلام الخرافات والأساطير ،
ولا ندرى مسالكه وأطرافه المترامية ولا الجزر السعيدة التي توجد فيه . ولكن
العلم الجديد سيخاطر بالإبحار مهتدياً بالمحاولة والخطأ trial and error في
وجه رياح التعير وسحب الجهل . سيقف علم النفس بعد ثلاثمائة عام حيث
يقف علم الطبيعة اليوم ، ولا يزال ناقصاً أشبه بلوحة لرودين (١) Rodin ،
ولكنه مع ذلك سيد تقبض فيه يد العلم في النهاية على « العقل » و « القلب »
و « الروح soul » ، وعلى المادة الأولى لإرادتنا المهوشة التي تصوغها المعرفة
بطء فتحيلها إلى جنس أرق في قوته ورقته .

أنفسنا هي محور اهتمامنا ؛ وبمقدار ما يبحث علم النفس في أنفسنا لا في
تجريدات فهو أشبه بالمأساة التي يمكن أن نكون نحن أبطالها . وبعد ، فمن نحن ؟
قردة ؟ ... أم آلهة ؟ أم قردة في طريقها إلى أن تصبح آلهة ؟ ما هذه « الطبيعة
البشرية » التي يبدو أنها تحدد تواريخ لا عدد لها ولا تتكرر مآسيها ؟ ما أسس
الخلق والسلوك وعناصرهما ؟ أهي كلية وراسخة بحيث لا يمكن أن يتغير الخلق
أبداً ؟ أو هل يمكننا - كالبارون منشاوزن Munchausen - أن نرفع أنفسنا
برباط أحذيقنا من تيار ميراثنا وفيضانه ؟ فلننس إلى حين كل شيء آخر ،
ولنبحث في طبيعة الخلق character ، واضعين إياه تحت مشرحة الملاحظة
والفهم . وسنضم هذه الأجزاء بعضها إلى بعض فيما بعد - إذا استطعنا .

حين تنازل علم النفس القديم لبحث في مثل هذا الشيء الأرضي الذي
يسمى سلوك الإنسان ، قسم الخلق أربعة أنواع : الدموي ، والسوداوي ، والصفراوي ،
والبلغمي . هذه القسمة بخيفة وغير طبيعية . إنها تدل فقط على أن الناس إما
فرحون أو مكتئبون أو ناربيون أو أنجلوسكسون (٢) . قد يكون الأمر كذلك ،
ولكن هذه الألفاظ صفات لا تفسيرات . ونظن أن الذي اخترعها كانت له

(١) فرنسوا رودين (١٨٤٠ - ١٩١٧) مثال فرنسي له لوحات مشهورة : « القبلة »
و « المفكر » و « الرجل الذي يمشي » وله تماثيل لفكتور هيجو ، وبرنارد شو ، وبلزاك وغيرهم .
وكان يبرز الماطقة بالحركة في الرغام . (المترجم) .
(٢) يريد المؤلف أنهم بارديون (المترجم) .

نظرة فسيولوجية طريفة عن الخلق ، باعتبار أنه يرجع إلى الدم أو المرارة ، أو الصفراء والبلغم — ولو أننا نتردد في هذين الأخيرين . واقترح بين « Bain » أن يقسم الخلق إلى فكرى ووجدانى وإرادى ، تبعاً لتغلب الفكر أو الشعور أو الإرادة . ولكن لما كان الصنف الإرادى قد يكون وجدانياً كذلك (كالحال فى الإسكندر أو إليزابيث) أو فكرياً أيضاً (مثل قيصر و نابليون) ، وحتى الفكرى قد يكون وجدانياً (مثل أفلاطون وأبيلارد و نيتشه) ، فلن نظفر بنتيجة إذ نخرج من الباب الذى دخلنا منه .

وثمة طريقتان كما رأينا^(١) لبحث الإنسان ، الأولى تبدأ من خارج بالبيئة وتعتبر الإنسان آلة للتكيف ، وترد الفكر للأشياء و« العقل » « للمادة » ، وتشيع فى مادية سبنسر المقنعة ، وسلوكية واطسن . إنها وجهة نظر يمثلها أسماء لامعة : ديمقريطس ، أبيقور ، لوكريتيوس ، هوبس ، بل و سبينوزا الرقيق . وأخرجت لنا فى البيولوجيا دارون ونظرية الانتخاب الطبيعى ، باعتبار أنها تحدد التطور عن طريق البيئة . وأخرجت فى علم الاجتماع باكل Buckle وسبنسر وماركس وتفسير التاريخ فى ضوء المؤثرات الاقتصادية ، والجماهير غير الشخصية ، والأحداث اللاإرادية .

والطريقة الثانية تبدأ من الداخل : فهى تنظر إلى الإنسان كنظام من الحاجات والدوافع والرغبات التى تحته على دراسة بيئته واستغلالها والسيطرة عليها . وهى تؤثر أن ترد الأشياء إلى الفكر ، والمادة إلى العقل . إنها تبدأ من « الكمال الأول Entelechy » الذى قال به أرسطو (وكان يذهب إلى وجود غاية باطنة تحدد كل صورة) ، وتسود فى مذهب برجسون الحيوى ، وبراجماتية وليم جيمس . وبالإضافة إلى هؤلاء الثلاثة يتصل بهذه النزعة أفلاطون وديكارط وليبنز و كانط وشوبنهاور . وأخرج لنا هذا الاتجاه فى البيولوجيا لامارك ونظرية التطور عن طريق الجهود المتكررة الناشئة عن رغبات لم تشيع . وأدت فى علم الاجتماع إلى ظهور جوته ، وكارليل ، و نيتشه ، وتفسير التاريخ فى ضوء المؤثرات النفسانية ، والعبقرية الخالقة ، والإرادة المتغلبة .

(١) الفصل الثالث .

وتحليل الخلق الذي نوره هنا يصطنع الطريقة الثانية، على الرغم من علمنا بالمرات التي تعترض الطريق . وهذا التحليل يعتبر الإنسان معدلا للبيئة أكثر مما يعتبر البيئة معدلة للإنسان . فكل حديقة في الطريق ، وكل طائرة في السماء ، دليل ورمز على إبداع الحياة . والخلق في ضوء هذه النظرة مجموع ميول ورغبات موروثه . إنه خليط من الغرائز تلونها البيئة والمهنة والتجربة وتعيد ترتيبها . ويمكن أن نصنف الدوافع الأساسية لخلق الإنسان في قائمة أولية تتميز فيها العناصر الأولية من الثانوية .

جدول عناصر الخلق

وجدانيات		عادات		غرائز	
سالبة	موجبة	سالبة	موجبة	سالبة	موجبة
النفور	الجوع	النظافة	الصيد	طلب الطعام	التجنب
	القسوة		الاستهلاك		
	الجشع		الادخار		
			الامتلاك		
الخوف	الغضب	التراجع	الاقتراب	الهرب	القتال
الشك	التعجب	التردد	الاستطلاع		
		التفكير	القبض باليد		
الضعفة	الكبرياء	الخضوع	السيطرة		
التعب	النشاط	الراحة	اللعب	النوم	الحركة
الابتهاج بالجماعة	الحجل	الانطواء	الكلام	حب العزلة	حب الاجتماع
			الاستهواء		
			التقليد		
			الاستحسان		
العفة	الرغبة الجنسية	الحياء	الغزل	الامتناع	التناسل
	الحب الأبوي				الأبوة

هذه الغرائز والعادات والوجدانيات هي العناصر العامة في خلق الإنسان ،
 وجميعها موجودة في كل رجل وكل امرأة ، وإنما يرجع اختلافنا في الخلق
 والمزاج إلى أن هذه العناصر لا تتكرر في أى شخصين بدرجة واحدة . وتحدد نوعنا
 وجنسنا الغرائز التي تكوننا ، وتحدد البيئة الموضوعات التي ستبحث عنها ،
 والعادات التي ستولد منها . فالبيئة الحالية من المخاطر تقلب القتال جمعجة .
 فإذا ازدادت المخاطر تحول هذا القتال نفسه إلى مكر ؛ فالغريزة واحدة ، ولكن
 التعبير عنها مختلف . والأضرار البسيطة توجه الهرب إلى الخذر ، والأضرار البليغة
 قد تجعل الهرب جيناً . فجميع التجارب هي على هذا النحو كشف للغرائز أو
 كبت لها . ففي كل يوم يقوى ميل بالنجاح ، ويضعف آخر بالكسل أو الفشل .
 وفي كل منا عدة أخلاق كامنة (خليط من العادات) تنتخب البيئة بعضها
 بالتدريب وتقويه ، كبرادة الحديد التي يجذبها المغناطيس من الخشب . لذلك كان
 أول مبدأ يعمل على تغيير الخلق هو البحث عن بيئة أخرى تفسح المجال لقوى
 جديدة تلعب على الأوتار الحامدة فتخرج من أنفسنا أنعاماً أحلى وأبهى .

ويزيد في توضيح غرضنا من قائمة العناصر التي بسطناها إذا وجهنا إليها
 بعض الملاحظات العارضة . فنحن نلاحظ أن كل غريزة هي تعبير نفساني عن
 نظام فسيولوجي . فطلب الطعام ثمرة الخلايا الخاوية القلقة . والقتال والهرب
 يظهر أنهما خلقا للأيدى والأرجل . وفي ذلك يقول لنكولن دفاعاً عن الفارين
 من صفوف القتال : « إذا كان الله القدير قد وهب الإنسان ساقين قائمتين على
 الجين فكيف يستطيع مغالبة الفرار بهما ؟ » . وغرائز الحركة (الحبو ، المشى ،
 الجرى ، التسلق ، القذف ، إلخ) هي القصيدة التي تنشدها جميع أعضاء البدن
 في اتساق . والتناسل نتيجة احتقان العناصر ؛ وحب الاجتماع ، الذي يبدأ في
 صورة الأسرة ، هو ثمرة التناسل . فكل غريزة ترسخ جذورها في بنيتنا ، وكل
 تغيير في الخلق يقطع أوصال الغريزة يضر الجسم كما يسيء إلى النفس .

ويجب أن نلاحظ كذلك أن كل غريزة لها مصاحب انفعالي ، وهو ضرب
 من الشعور يبلغ من الأصالة والعمق مبلغ الدافع الذي تقابله . وهكذا يصاحب
 الجوع البحث عن الطعام ، والاشمئزاز تجنبه ؛ ويصاحب الغضب القتال ،

والخوف الهرب ؛ والتعجب الاستطلاع ، والشك التردد ؛ والكبرياء السيطرة ،
والضعفة الخضوع ؛ والنشاط الحركة ، والتعب السكون ؛ واللذة الاجتماعية حب
الاجتماع ، وضرب من الحزن مع العزلة ؛ وتصاحب الرغبة الصلة الجنسية ،
والخجل الضعف الجنسي ، والأمومة والأبوة العناية بالأطفال . فكما ترتبط كل
غريزة فينا باللحم والعظام ، تحترق كذلك في طبائنا إلى حرارة الشعور .

ونلاحظ أخيراً أن كل غريزة لها ما يصادها في الفرد نفسه ، فثمة موجب
وسالب في الغريزة، كما ذهب أنبادهقليس بالنسبة لجميع الأشياء . فنحن مزودون،
كما يقال ، بدوافع للبحث عن الطعام وتجنب المضار ، وأخرى للقتال والهرب ،
وثالثة للسيطرة والخضوع ، ورابعة تدفعنا إلى التقدم مستطلعين ، والتوقف شاكين ،
وخامسة للحركة والتلمس باليدين والجلوس والسكون والنوم ، وسادسة للغزل
والتمتع والحفر ، والعرض والاحمرار خجلاً ، وسابعة للقيادة والاتباع والابتداع
والتقليد ، وثامنة للانغماس في الجماعة والاعتكاف في عزلة . جملة القول
نحن مهيارن بالطبيعة (أى بالخلق الطبيعي) لأن نقبل وأن نتجنب في آن واحد
دافعاً أو مشكلة أو موقفاً .

في هذه القسمة الثنائية للعناصر سر التمييز الأساسي بين السجاياء الإنسانية .
فلن يتيسر لنا فهم التاريخ أو التعامل مع جيراننا إذا قسمنا الرجال والنساء إلى
دمويين ومكتئبين ، وإلى أخيار وأشرار . أما التمييز الوحيد الذي تقبله الطبيعة
ويسلم به التاريخ فهو الذي يفصل في السجاياء بين الموجبة والسالبة ، والقوية
والضعيفة . إننا نبنى آفاقاً من المشروعات المثالية في عبارات من الفضيلة ،
ويحطمها الواقع بلسان القوة . ومن الواضح أن هناك أشخاصاً تسودهم الدوافع
الإيجابية ، حيث يوجد عندهم الميل إلى التقارب والبحث والتغلب والتملك .
وهؤلاء فلنسمهم أصحاب الخلق الإيجابي . وثمة آخرون تسودهم الدوافع السلبية ،
وهم أولئك الذين يتغلب فيهم الميل إلى التردد وإلى التراجع وإلى البحث عن ملاذ
وأمن وإلى الخضوع ، وسنطلق عليهم أصحاب الخلق السلبي . ولست تجدر رجلاً
أو امرأة يتصف بإحدى المجموعتين فقط . ويشبه هذا التمييز ما بين الذكر
والأنثى ، ويسمح بكل ضرب من التدرج وكل لون من الامتزاج . ولكن إذا

حاولنا تصور هذه النماذج المتعادية في صورتها الكاملة ، فينبغي أن نعرف القطبين اللذين يتأرجح الخلق الإنساني بينهما ، والمكونات الأخيرة لكل شخصية .

٢ - الخلق السلبي

هذا شخص سلبي ؛ إنه يميل إلى التهور من شأن نفسه . ومع أنه يعجب إعجاباً شديداً بكل صفة حسنة في وجهه وهيئته وعقله ، فإنه يشعر دائماً شعوراً خفيفاً بضعفه الجسماني ، وينظر بطرف عينه حاسداً العامل الطويل القوي ، أو رجل الأعمال الذي يحظر أمامه منتصب القامة معزراً بهيئته وصحته . إن ما يفتقده الشخص السلبي قبل كل شيء هو الجسم والطاقة والقوة المحركة . إنه يفتقر إلى الدم الكافي للقوة .

انظر إليه وهو يجلس إلى المائدة تجده فاقد الشهية ، متبرماً بالطعام ، سريع التفرز . لا يأكل اللحم دون أن يفكر في المذبح ، ويعتقد صيد السمك توحشاً . ولا يجد لذة في طعامه . إنه (ينقتق) وينتق كالعصفور الذي لم يعرف الدود . وينظف أصابعه بعناية . ويخرج من الحجره وهو يود ألا يراه أحد ، وكأنه يشعر بأن كل إنسان يراه .

إذا لقي إنساناً راقبه خلسة ، ناظراً إلى جميع أعضائه ما عدا عينيه ، وازناً قوته ونواياه . وإذا شتمه أحد أو هدده خطر ، ارتعش دهشة وخوفاً . إنه لا يحس بالغضب المحرك ، ولكنه يحترق في غيظ مكتوم . وعنفه قناع من يعرف أنه سيخضع . إنه يحجم عن تحمل المسؤولية ويهرب من التجربة إلى الأمن الهادئ والعزلة الساكنة في بيته . إنه يهوى القراءة وبخاصة قصص المخاطر والمغامرات وفلسفات الإرادة والقوة . إنه يعجب براعي البقر والسوبرمان ويعتقد أن العالم إذا كان ذكياً أودعه ثقته في قيادته . وإذا نجح في أمر نسبه إلى نفسه ، وإذا أخفق فالذنب ليس ذنبه ، بل البيئة (أي غيره من الناس) هي المذنبه ، أو الحكومة ، أو نحس الطالع . إنه متشائم بالنسبة للعالم ، متفائل فيما يختص بنفسه .

ومع ذلك فقد يكون عظيماً بقوة ذلك الخيال العريض نفسها ، وهو خيال يزدهر في نفسه بسبب ضعفه الجسماني . وإذا لم يصطدم خياله بعمل أو بملاحظة

موضوعية سبغ طليقاً في عوالم روحية من الفلسفة والشعر ، ويستطيع أن يخرج منها ، إذا قيد نفسه ساعة يصبر فيها على العمل بين حين وآخر ، فنوياً رائعة الجمال ، أو أفكاراً مثالية ، أو صوراً وشخصيات جديدة في الأدب والفن . فإذا ارتفع في هذا المجال إلى القمة قد يصبح شاعراً عبقرياً . وإذا بقي في المرتبة الدنيا كان رجلاً فكرياً intellectual - لا مفكراً thinker بل شخصاً يفكر فقط . وكلما نمت الحضارة ، وأصبحت الحياة معقدة كثيرة المتاعب ، وأضحت القدرة الجسمانية أقل حيوية للبقاء ، ازدحمت المدن بهولاء المراوغين المحترفين الذين يشبهون دون كيشوت في الخيال ، وهاملت في العمل .

ولما كان التراجع والتوقف عن العمل جوهر نفسه ، فانه يتجنب حقائق الحياة ومهامها القاسية ، ويلقى بنفسه في أحضان أحلام اليقظة التي يظفر فيها بكثير من الانتصارات . ثم يتحول خجله إلى اعتكاف بينه وبين نفسه ، وتصبح خلوته مراوغة بارعة تسرد أولئك الذين خلفتهم الطبيعة ضعافاً . وهو اجتماعي بمعنى أنه يخرج من عزلته إلى صحبة عاطفية في جماعة صغيرة يألف وإياهم . فاذا وجد من أحد أدناً صاغية فهو في نعيم الجنة . وتزدحم المقاهي بهذا الصنف من الناس . وهو اجتماعي أيضاً في تعطشه لاستحسان الجمهور ، فهو يتوافق في حياء مع العرف ، وإذا كان يفتقد الإحساس الأرستقراطي بالنبل فعنده إلى حد ما الضمير الديمقراطي الذي يعكس في أمانة أخلاق الجماعة . جماع القول أنه طيب القلب ، وعطوف ، وشكور ، ومخلص ، ومحترم . ولا يتصف بالقسوة وإن كان على شيء من الغلظة . وهو يميل إلى الشذوذ الجنسي ، ولكنه لا يرتكب إلا الذنوب الصغيرة .

وضعفه ناشئ قبل كل شيء عن أن دوافعه لا ينسحقها غرض يتحكم في حياته ويوحدها . فهو في قلق مع أنه ينشد دائماً الاستقرار . ويتنقل سائلاً من مشروع إلى مشروع ومن مكان إلى آخر ، فهو كالسفينة التي لا ترسو على أي ميناء إلى أن تفسد شحنتها . وهو عاجز عن النظام أو العمل ؛ ومع أنه يبدو في بعض الأحيان مشغولاً بحالة عصبية إلا أنه يجد نفسه عاجزاً عن الاستمرار في تحقيق غرض محدود احتجاجاً برتابة العمل ، أو بغضه ، أو صعوبة

وسائله . إنه شديد العزم إذا عقد النية ، كثير التراخي عند التنفيذ ، وتبناه موجات من الهوى تبعث القوة ، ولكنها تنهى بالإجهاد السريع والتسليم بالاضطراب . إنه يشتهي ألف رغبة ولا إرادة له لتنفيذها .

وأخيراً فهو يوتر في مسائل الحب أن يكون مطلوباً لا طالباً . وحتى إذا ظهر بمظهر من يقترب من المرأة ، ويضيق عليها الخناق ، ويتغلب عليها ، فهي التي تدبر له ذلك بكياسة السياسي الذي تخفى أساليبه . حقاً إنه ينجح بعض الشيء من ظفره ، ويحمر وجهه إذا استعاد ذكره ، ويسأل : ألم تكن متعته في الخيال أشد وأقل نفقة . ولكنه يستسلم للقدر ويصبح زوجاً أميناً ، مخلصاً لبيته ، مظهرأ حبه في كل مناسبة ، مضحياً بنفسه وهو ساخط في سبيل أولاده . ويموت قبل أوانه يلقه سواد من الإحساس بالتفاهة ، ويعجب لم خلق ، وإذا لم يكن الأولى ألا يولد .

٣ - صاحب الخلق الإيجابي

هذا الصنف إيجابي ، عنده من الصحة والبأس واللحم والدم ما يجعله ينفذ بنظرة إلى صميم العالم ، ويلبس قبعته على هواه . إذا نظر إليك واجهك وجهاً لوجه ، ولكنه لا ينظر إليك لأنه مستغرق في عمله ، سائر إلى غرضه ، فهو يوتر الاهتمام بالأغراض على الأشخاص .

وجميع دوافع الإقبال على الأمور قوية فيه ، فهو يأكل بلذة وبغير تكلف ، ويذبح الذبائح ليخمد شهوته . وتتطور النزعة الطبيعية لتسوير نباتات إقليمه وحيواناته إلى شهوة عامة للكسب والامتلاك . وشعاره : « التحصيل والتملك » . ولما كان أكثر اعتداداً بنفسه من الرجل السلبي وأعظم منه نجاحاً ، فهو يجعل كل أمة حديثة صورة من نفسه - مسرفة في الكسب والتحصيل . (أو لعل له زوجة مسرفة) .

كان يمكن في قديم الزمان أن يصبح باروناً إقطاعياً أو جندياً بدلا من أن يكون رجل أعمال ، أو تاجراً ، أو رئيساً للغرفة التجارية ، أو مهندساً . ولا يزال كثير من نزعة القتال القديمة موجوداً في نفسه ، وهي على الرغم من

تهذيبها واختفائها ، إلا أنها إيجابية كذلك التي كانت تدفعه إلى رمي النبال . هذه النزعة إلى القتال هي التي تمنحه القوة على تحقيق أغراضه . فليست الرغبة عنده طموراً على استحياء ، بل دافعاً لا يمكن تجنبه . وعنده من الشجاعة أكثر من الفضيلة ، ومن الضمير أقل من الكبرياء . وأطماعه قوية ، فهو يحترق الحدود ويتعد عن الصغار . وإذا لقي رجلاً أقوى أو أثبت منه لا يجنح إلى الانحناء أمامه في خضوع ، بل يجده ويحاول مناظرته ومناقشته ، ولا ينهزم إلا بعد كفاح يستنزف كل جهده .

وهو محب للاستطلاع ، يفتنه كل عمل ، ويبحث عقله بنشاط في كل جديد وغريب . ولكنه لا يميل إلى النظريات ، بل يتجه بفكره رأساً إلى العمل وإلى تحقيق غرضه . إنه لا يستطيع أن يفهم لم يزعج المرء نفسه بالرياضيات العالية أو الشعر أو التصوير أو الفلسفة . وإذا كان فيلسوفاً اشتغل بالأعمال كما يشتغل بالفكر . إنه أشبه بسنيكا منه بأرسطو ، وببيكون منه ببركلي ، وبفولتير منه بكانط .

إنه يؤمن بالأفعال أكثر مما يؤمن بالأفكار ، ويعتقد كقصور أن الأمر لا يتم إذا بقي منه شيء لم ينجز . يحب الحياة الصاخبة ولا تغريه بساطة الريف وما فيه من دعة ، لأنها أنسب للشيخ ولاتليق بالرجل . وهو بناء متحكم يجب أن يشعر بأن الناس حجارة تحت يده يشيد بهم ما يشاء ، ويجدون لذة خفية في الانقياد إليه ، وهو بذلك واثق ومتأكد وسعيد . ونشاطه يفيد صحته ، ولا يترك له وقتاً للتفكير أو التأمل . إنه يستمتع بالحياة على قبحها ، ولا يفكر كثيراً في الماضي أو المستقبل . إنه يشك في المثاليات ، ولو كان الأمر بيده لبادر بالقضاء على كل تطرف . إنه يمقت المثاليين - أولئك الذين يخطبون ، أو يكتبون المقالات ، ويقررون العلاقات الدولية من أبراجهم العالية .

ومع ذلك فهو في بعض أحواله رجل فكر : ليس شاعراً ، ولا مصوراً ، ولا فيلسوفاً نظرياً ، ولا عالماً يقهر نفسه مع المحايير أو المجلدات القديمة ، بل مخترعاً ، ومهندساً معمارياً يخلق التصميمات المبتكرة ، ومهندساً ميكانيكياً عنده من الشجاعة ما يجعله يذرع الأنهار العظيمة بقصائد منظومة من الصلب والحديد ،

ونحنأتا يبعث الحياة في الرخام ، وعالماً على استعداد لمواجهة العالم كله دفاعاً عن حقائقه الجديدة . وحتى في هذا الصدد فانه يعيش مائة حياة من العمل مقابل حياة واحدة من الفكر .

وهو عادة اجتماعي ، يساير جميع من يلقاهم ، اللهم إلا إذا كانت آراؤهم متطرفة في البعد عن المؤلف . يحب الاعتكاف ليلاً ، ولكنها عزلة يقضيها مع أسرته لا خلوة فكرية ينفقها وحيداً بينه وبين نفسه . وقلما يتوقف ليتأمل نفسه ، و « عقده النفسية » قليلة ، ولا يتكلم في علم النفس أبداً . إذا أثارته زوجته انصرف إلى ناديه ، وحين يضيق بناديه ينغمس في عمله ينسى نفسه فيه . إن روتين حياته النشيطة يحميه من ثورة الأعصاب .

أما ما يمتاز به قبل كل شيء فهو الإرادة . ليس عنده إرادات بل إرادة واحدة ، ولا خليط من المطامح والرغبات التي يلغى بعضها بعضها الآخر متعادية في غير توافق ، بل وحدة في الهدف ، وترتيب للأغراض ونظام شامل للغايات تنسجها فكرة مسيطرة دائمة في طبيعة خلقه . إرادته منظمة ، فهو يرسم دائرة تبين حدود المحتمل ، ويسوق بداخلها الوسائل التي تكفل إرادته القوية بتحقيقها . وإذا أنتج عملاً أخرجه كاملاً لا أجزاء من عمل أو « خواطر » . وهو إذا انطلق استغرق في العمل غير حافل بما يقال عنه . إنه هادئ ، لا يكتر من الكلام ، ولا يعنف في العمل أو الحديث فيحترق . وهو صاحب أهواء عظيمة ، ولكنها تجتمع في هوى واحد يحركه إلى هدف واحد ، لا أهواء متناثرة تنتهي إلى القوضى . إنه يعلم لذة ضبط النفس ، ويستطيع مغالبة الرغبات والدوافع المباشرة ، ثم ينظم نفسه تدريجاً إلى كل واحد . إنه ثمرة الصحة والذكاء .

وهو في الحب صاحب المبادأة ، ويقترح بابه رأساً وبسرعة تجب فيه جميع النساء . ويتزوج مبكراً لأنه سريع العزم ، ويؤثر فضول القرب على حذر التمتع . والأفضل فيما يظن أن يحتمل عبء الزوجة والأبناء من نقل العزلة وبنات الهوى . وتعيينه واجبات الأبرة المفروضة على أن يصبح قوياً ، ولكنه يعرف كيف يمزج الرقة والحنان بما عنده من بأس . ولا يحبه أولاده فقط بل يحترمونه . ويتعلم في منتصف العمر بعض فنون الفراغ ، وفي الشيخوخة يجدد مع أحفاده شباب

نفسه . وتحضره الوفاة فلا يشك أبداً في أن الحياة كانت نعمة ، ولا يأسف على شيء إلا على أنه سترك اللعبة لصغار اللاعبين .

٤ - بناء خلق جديد

لقد رسمنا صورتين مثاليتين ، وقسمنا الإنسانية قسمة تكاد تكون مانوية^(١) Manichean إلى صنف ضعيف وآخر قوى . وإذا تركنا هاتين الصورتين على حالهما ، متباعدين متطرفين ، بقيتا بغير نفع . أما إذا قاربنا بينهما فقد يسهل علينا تحليل أنفسنا وربما معرفتها . أمكن إلى حد متواضع أن نخلص أنفسنا من السلبية والضعف ، وأن نصطنع بعض الصلابة الإيجابية التي نعبدها خفية في أعماق قلوبنا ؟ أمكن بالفكر أن نضيف يداً جديدة إلى جسمنا ؟

يجيب الناس عادة عن هذا السؤال بالتشاؤم . يقولون : كلا ؛ خلق الإنسان مكتوب عليه ، وما كان عليه المرء منذ ولادته يجب أن يبقى معه إلى آخر الرواية . ويقولون إن الطبيعة البشرية لا تتغير أبداً ، وإن السجايا مغروسة في الغالب في شروط الجسم ، في الصحة والقوة وتكوين الأعضاء وأدائها وظيفتها . فكيف يمكن لهذه الصفات العميقة الجذور أن تتعدل ؟

وثمة حقائق تلتقي شكوكاً خطيرة على هذا الاعتقاد العتيق في ثبات الخلق . ذلك أن تاريخ العصر الذي نعيش فيه يعد مثالا قوياً ومدهشاً للتغير الشامل من الأخلاق السلبية إلى الإيجابية . فنذ خمسين عاماً كنا نصف المرأة بأنها مخلوق في العادة سلبى بالنسبة إلى الرجل ، ويمكن أن نسميها بمعظم الصفات التي وضعناها في صورة الصنف الضعيف . فقد كان ضعفها الجسماني أساس شعور بالنقص ، يتبين ذلك من أسفلها الكامن الذي يكاد يستقر في قلوب جميع النساء على أنهن لم يخلقن رجالا . ومن هذه « العقدة » كان ينطلق غيظ ملتهب ، كأنه صادر عن نار كامنة ، يتفجر بين حين وآخر في حرارة كلامهن . وكانت طبيعتن الرقة في العمل . وإذا كانت ألفاظهن في بعض الأحيان عنيفة ، فانما

(١) نسبة إلى ماني الحكيم الذي ذهب إلى وجود أصلين في العالم هما النور والظلمة أو الخير والشر . (المترجم) .

ذلك كان تعويضاً « وانتقاماً » من ذلك الخضوع الجسماني الذي كن يلقينه كأنه إلهة الانتقام في كل ركن من طريق الحياة . كن « الجنس الضعيف » .

على ذلك الأساس الجسماني قام حياء المرأة وخضوعها . ولم تكن تتحرق كالرجل شوقاً إلى التملك . حقاً كان يبدو أن مهمتها من جيل إلى جيل ليست إلا مغامرة الأمومة فقط ودائماً . كانت تنحني لسيدها ، وتتلقى ضرباته بحب ، وتسلم له اسمها وما لها كما تسلم له جسدها ، وتلتمس سعادتها في تحقيق إرادته . كانت الحياة شاقة وكثيرة في نظرها ، ولكنها كانت تعاض عنها ، ما استطاعت ، بالانغماس في القصص والشعر الرومانتيكي مما كان يرفعها بعض الوقت إلى عوالم أبيي .

ثم أمسكت بها الصناعة في عجالاتها ، فدخل التنويع على حياتها كالسيل الجارف ، وظهر عندها المسؤولية الشخصية والاستقلال الاقتصادي ، فهي تتناول مالها الخاص وتصوغ بنفسها أخلاقها . كانت ترتاب من قبل في نفوق الرجل ، وكانت تراه دائماً في الأمور الأولية سليم الطوية ، أليفاً ، سهل الانقياد ولكنها كشفت الآن ، كما اكتشف هو نفسه بعد زمن طويل ، ذلك العابد الحجول للملاكين والرياضيين ، أن السباق في العالم الحديث ليس للأسرع ولا المعركة للأقوى . وأن الانتخاب الآن أكثر من أى وقت مضى بالدهاء والذكاء ، وأقل بالقوة الجسدية وبمجرد العضلات . وسرها أن تجد أن الضعف الجسماني ليس عقبة كؤوداً في سبيل النجاح والسيادة ، وأن أعظم العباقة كانوا في بعض الأحيان أضال الأجسام ، وأنه حتى المرأة المختنقة بالمشدات ، والمقيدة بالقمصان ، والمثقلة بالتقاليد والمنغصات ، قد ترتفع إلى مصاف الزعامة والقوة وتصبح سيدة نفسها .

من أجل ذلك كلما تقدم « التغيير الأكبر » ، تغلبت المرأة على سلبيتها واصطنعت صفات إيجابية ، وأصبحت شخصية قادرة على الابتكار ، وعلى تولى أعمال الإدارة ، وعلى التفكير الواقعي ، وتشربت حب التملك وأصبحت من الباحثات عن الذهب . وأهملت هدوء البيت الهادىء ونزلت إلى الأسواق الصاخبة ، واتخذت من المطربات والمساحيق بديلاً بالماء ، وأرخت المشد ،

وقصرت الفستان ، وكشفت عن نحرها للشمس . أصبحت عبادتها أقل ، ولعبها أكثر . واستنشقت إلى أعماق صدرها الهواء المنعش لحرمتها الحديدية ، وأصبحت أقوى نفساً وأشجع روحاً ، حتى تكاد في جيل واحد تتفتح وتزدهر عن إيجابية لم يسبق لها مثيل .

وذعر الرجل وصدم ، وارتفعت شكواه الأخلاقية من « المرأة الحديدية » . ولكن التغيير جاء على عينه ، واستمر بغير إذنه ، فرأى نفسه وقد واجهته المرأة في الصناعة ، والتجارة ، والمهن ، والتعليم ، ورأى في جميع تلك الميادين وجه المرأة ، مع أن تلك الميادين كانت من قديم الأزل وفقاً عليه بحق الملك المقدس . وامتعض لاستقلالها في العمل والإدارة ، وتطلع إلى تلك الأيام الخوالي أيام العذارى العفيفات وإلى نعمة البيت القديم (كما تبدو لمن يتصورها بالذاكرة) الذي يمتلئ بالأطفال وكعك التفاح . لقد كافح هذا الغزو برجولة وتذمر .

ولكنه خسر المعركة . ففي أمريكا على الأقل كادت المرأة تم انتقالها المدوخ من الخضوع السلبي إلى السيطرة الإيجابية . وأخذت الصفات القديمة كوداعة العذارى وطاعة النساء تختفي ، فالرجل من بين الجنسين هو الذي يغضى الآن حياء ، ويلمح بطرف عينه في رهبة ممزوجة بالحجل قدم الفتاة العصرية وساقها وركبتها وغير ذلك من المفاتن . واختفت من وثائق الزواج هذه الألفاظ : « تحب ، وتعز ، وتطيع » ، وسوف تعود قريباً لتكون أسئلة توجه للرجل . ولكنها ستكون زائدة عن الحاجة .

فلنحكم من خلال هذا التغيير السريع على إمكان تبديل الخلق . ومن الواضح أن تلك الصفات التي سميناها إيجابية وسلبية ليست متأصلة في الجسد لا تنفك عنه . حقاً أساسها موجود في قوة الجسم وضعفه ، ولكنها يمكن أن تعدل إلى ما لا نهاية ببيئة الفرصة وسلطان البيئة . فالمرأة نفسها قد تطورت في آلاف الأحوال من الإحجام إلى الإقدام ، ومن الخنوع إلى السيادة . فمن الواضح أن الخلق قابل للتعديل — إذا شئنا .

وهنا تلقانا صعوبات دقيقة . فبعضنا لا يرغب في تبديل الخلق ، إذ يرى أن أحوالنا موافقة لأنفسنا تمام الموافقة ، وأن أخطاءنا ذاتها محبوبة جداً ، وليس

من المناسب إجراء أى تعديل فى أساس الخلق . يضاف إلى ذلك ظهور مشكلة أخلاقية هى أن إيجابية الخلق لا تتفق مع الأخلاق ، وأن الأمة التى يتألف أفرادها من مثل هؤلاء الأقوياء فقط مما رسمنا صورتهم قد تصبح مارستاناً يزخر بالمنافسة القاسية والحرب البشعة . ونحن نعرف بأن مهمتنا ليست تعليم الفضيلة ، وسوف يكون فى أدويتنا بعض الأمور المنافية للأخلاق . وإذا كنا نبدو فى هذه اللحظة حريصين على تغليب القوة على الفضيلة ، فذلك لأن قوة الخلق هى ذاتها فضيلة حسنة . ولعلنا نعلم على قسوة الظروف فى أن تمدنا بعدد كاف من الرءوس المنحنية والإرادات المحطمة .

وإذا شئنا أن نجعل أنفسنا أقوى مما نحن عليه فيجب أن نفهم أولاً الإرادة : فهى ليست شيئاً غامضاً يقف بين عناصر الخلق كما يقف قائد الأوركسترا يشير تارة إلى هذا وتارة إلى ذلك ، بل مجرد مجموع سائر الدوافع والميول وجوهر وظائفها . وليس لهذه القوة الدافعة التى تكون الخلق قائداً تطيعه خارج ذاتها ، فن بينها ينشأ دافع قوى يحكم بقية الدوافع ويوحدها . وهذه هى « قوة الإرادة » أن ترتفع رغبة عليا فوق غيرها بحيث تنجذب نحوها وتتهبأ بها إلى التحرك فى اتجاه واحد نحو هدف واحد . وإذا لم يتيسر لنا أن نجد غرضاً منسقاً ، وغاية حاكمة نضحى فى سبيلها بكل رغبة أخرى من رغبات القلب ، فالوحدة بعيدة عنا ، ويجب أن نصبح فى النهاية حجراً فى بناء رجل آخر .

من أجل ذلك لا خير فى قراءة الكتب التى تصف أمثل الطرق لتكوين الخلق . فهذا مثلاً كتاب الأستاذ ليلاند Leland (لندن ١٩١٢) بعنوان « أعندك إرادة قوية ؟ أو كيف تنمى ... أى ملكة عقلية بطريقة الإيحاء الذاتى السهلة ؟ » . وثمة مئات من هذه الروائع التى يمكن أن يشتريها البسطاء فى أى مدينة . ولكن الطريق أصعب من ذلك وأطول .

إنها طريق الحياة . فالإرادة ، التى هى الرغبات الموحدة ، هى (كما بين شوبنهور) الصورة المميزة للحياة النامية . ولا تزيد قوتها وبنيتها إلا حين تلتمس الحياة لها أعمالاً جديدة وانتصارات جديدة . فاذا شئنا أن نكون أقوياء فينبغى أن نختار أولاً هدفتنا ونرسم بعد ذلك طريقنا إليه ، ثم نستمسك بذلك الهدف

مهما يحدث . وينبغي أن نحذر في هذا الصدد ألا نضطلع من أول الأمر إلا بما يمكن أن نعتد عليه في أنفسنا ليمضى بنا إلى النهاية . ذلك أن كل فشل سيضعفنا ، وكل نجاح يجعلنا أقوى . والعمل هو الذى يخلق العمل ، ونكسب مع كل نصر بسيط قوة وثقة تدفعاننا إلى نصر أعظم . فالعمل يخلق الإرادة .

وعندئذ قد يكون المرء شديد الحذر فيولى ظهره جلائل الأعمال ، ويظل صغيراً على الدوام . ولكن تأكد أن الانتصارات المتواضعة لن ترضيك ، فتستيقظ في الصباح بعد فوزك الذى احتفلت به طول اليوم ، فتبحث عن مهمة تالية أعظم . واجه الخطر واحتمل المسؤولية ، واعلم أنهما قد يهزمانك ، وقد يحطمانك ، ولكنك لن تموت إلا موتة واحدة ليست شيئاً مذكوراً في تاريخ الفلسفة . وإذا لم يؤد الخطر والمسؤولية إلى موتك فسوف يشدان عزمك ، ويرفعانك فتكون أدنى إلى العظمة وأقرب من هدفك . فلتمض ولا تقف .

وتقدم لنا حالة من التحليل النفساني في هذا الصدد دليلاً على مرونة الخلق والمصير الإنساني . ففي نظرية أدلر المشرقة يقوم أساس العبقرية والأمراض العصبية على حد سواء في بعض العيوب العضوية - كضعف أو تشويه لبعض في الجسم - التي يؤدي وجودها المستمر إلى حث النفس على الكفاح للتغلب على النقص . أو كما قال فرانسيس بيكون : « كل من يصاب في شخصه بشيء ثابت يبعث على الاحتقار ، فعنده كذلك في نفسه حافز دائم إلى النجاة وتخليص نفسه من الزاوية » . وهكذا استطاع بيرون برجله الخشبية أن يتقن الرقص ، وأن يفسق إلى الحد الذى جعله ذنباً اجتماعياً . وأصبح ديمستين التمهات خطيباً مفوهاً . وحين أصيب بيتهوفن بالصمم شق طريقه إلى موسيقى ليس لها مثل . كذلك المرأة التي كانت تحترق باحتجاج الرجولة على الضعف والخضوع الجسدي ، أخذت تفتح طريقها بإقدام متخطية جميع التقاليد والحواجز . وفي ذلك يقول أدلر : « هذا الشعور الذى يحس به المرء عن نقصه يهيء له الدافع الباطني على التقدم » . إن أولئك الذين كانوا خلف الصفوف هم الذين يشقون طريقهم إلى الأمام ويتولون قيادة الجنس . وقد خرج من طبقة العمال أعظم المخترعين . فالأجسام العلية كانت بين حين وآخر موثلاً للنفوس العظيمة ، ومحركة لها .

٥ - علاجات

ولكن ماذا كرهناه كلام عام يبلغ من الغموض مبلغ أى نصيحة تنشد الكمال ،
فلنتقرب من البحث قريباً أشد . ماذا يعمل أحدنا بالذات ليظفر بقوة العقل
والخلق ؟

فلتنشد الصحة أولاً ، يقبل عليك كل شيء آخر ، أو على الأقل لن
نحسب لغيابها حساباً كبيراً . أو كما قال نيتشه : « أول ما يطلبه الرجل المهذب
أن يكون حيواناً كاملاً . ويجب لذلك أن نتخير أجدادنا . ولما كان هذا الأمر
عسيراً ، فيمكن على الأقل أن نختار الغذاء المناسب والعادات الصحيحة » . وكان
مولسكوت يقول : « الإنسان هو ما يأكله » . وليس ثمة دواء ساحر عام لهذه
المسألة ، فكل إنسان يجب أن يكتشف سموه الخاصة به ، وعليه أن يتجنبها .
ضع كل ما يزعجك في قائمة سordاء ولا تدعه يقترب من مائدتك مرة ثانية ،
إلى أن تصل بعملية من الحذف إلى معرفة الغذاء الذى يمنحك سلام الهضم .
وإذا لم تستطع فضلاتك أن تخرج بدون معونة العقاقير ، فسل نفسك أى مادة
شريرة تضعفك إلى هذا الحد المخجل ، أهو الدقيق الأبيض البديع ، أم الحلوى
والفطائر النسائية ، أم الوجبات التى تنقصها الخضراوات والفاكهة ؟ احتفظ
بأمعائك وفك مغلقاً ، هذه هى أنشودة الحكمة .

إذا كان لا بد أن نعيد بناء أنفسنا فينبغى أن نبدأ بالمعدة ، ثم نسمح لكل
عضو آخر من أعضاء الجسم بالازدهار . فالطبيعة لم تخلقنا لنكون رجال فكر
ولا كنية ولا صحفيين ولا فلاسفة ، بل خلقتنا لتتحرك ، ونرفع الأثقال ،
ونجربى ، ونسلق . لقد صاغتنا حياة نستعمل فيها أذرعنا وأرجلنا . وأمثلة مسلك
لذلك هو الذى يجمع بين النشاط الجسمى والعقلى معاً أو متبادلين . لا بد أن
ذلك الحاكم كان على شيء من الحكمة حين كان يحتطب الخشب كل يوم .
ولكن هذا ترف لا يقرى على عمله إلا القلة القليلة منا . فالحياة من التعقيد
والتنافس بحيث يظهر أننا يجب أن نهب جميع وقتنا وكل طاقتنا لموضوع واحد
وغرض واحد كما تبلغ ذروة النجاح . ولكن فلنجد على الأقل الحشائش فى
حدائقنا ، ولنهدب أسوارها ، ونقلم أشجارها ، ولنضح بأى شكل لتكون لنا

حديقة وسور وأشجار ، وقد يكون لنا من الوقت في المستقبل ما يسمح لنا بالعمل في البستان . وبعد فالصحة أفضل من الشهرة ، لأن العبقريه بائسة في حياتها ، ولا تشهر إلا بعد موتها .

وقد نحتاج في طلب الصحة والقوة إلى بيئة جديدة . ومما يعزينا على الدوام أننا إذا كنا لا نستطيع تغيير ما ورثناه فيمكننا تعديل موقفنا .. كانت الفلسفة الحتمية السائدة في علوم العصر الفكتوري تتصور الإنسان في تعاليمها الجديدة مخلوقاً مركباً من البيئة والوراثة . وليس هذا بالضبط صحيحاً ، ما دام الإنسان مركباً من البيئة والوراثة ، ومن هذه القوة الغريبة الدافعة إلى التقدم والإبداع التي نسميها الحياة . ومن الصحيح كذلك ، ونستطيع أن نضيف ذلك إلى علاجنا ، أننا لن نغير أنفسنا تغييراً جوهرياً إلا إذا غيرنا المؤثرات التي تؤثر في أبداننا من ساعة إلى أخرى ، وتصوغنا آخر الأمر على صورتها . أنعيش بين قوم قلدن أو أميين لا يهتمون إلا بالأموال المادية والمأكولات ؟ - فلنبرح هذه الأرض ، مهما يكلفنا ذلك ، ونشدد صحبة أفضل . أيوجد في أي مكان تحقيق نفس أصنى منا ، وعقل أعلم من عقلنا ، وخلق أمّن من خلقنا ؟ فلنفتش عنه ونشد إليه الرحال بعض الوقت ، حتى نتمكن من تلقاء أنفسنا من منافسته في هيئته ومماثلته في عمله . ثم لا نزال نتطلع إلى رجال أعظم . فاتباع العظماء خير من قيادة الأغرار . وقد كان قيصر مخطئاً ، إذ الأشرف أن يكون المرء تابعاً في روما من أن يكون سيداً بين البرابرة .

وإذا لم يكن - فيما نظن - ثمة شخص أعظم منك في الدائرة الضيقة التي ترعّمك الحياة على العيش فيها ، فالتمس صحبة العباقره في الماضي . تستطيع أخذ نصيحتهم بقرش واحد ، والاستماع في ألفة إلى كلامهم ، والاندماج في الجو الصافي الذي يحيطهم . ومن الخطأ أن يظن المرء ألا أثر للكتب ، فأثرها بطيء كالماء المتدفق الذي يحفر الوادي ، وهي تنبئنا كل عام بمجديد . ولا يتمكن أحد من إنفاق ساعة كل يوم في صحبة الحكماء والأبطال دون أن يرتفع خطوة أو خطوتين بهذه الصحبة ، فلا عذر لمن يجد نفسه صغيراً حين يستطيع أن يجلس إلى مائدة واحدة مع نابليون ، أو يمشي مع هوبن ، أو يتعشى آخر الليل مع فردريك وفولتير .

لقد تكلمنا بما فيه الكفاية عن الأمور الخارجة عنا . أما في داخلنا فالمشكلة أصعب ، إذ ما أعجبنا من برية ، ومن حديقة رغبات بغير زرع ! كيف نعرف ما الزرع الذى يجب أن نسقيه هنا ، والذى نتركه ليموت هناك ؟ وأول قاعدة عظمى لتكوين الخلق هى الوحدة ، أو بنص عبارة جوته : « أن تكون كلا أو تتصل بكل » . والثانية هى : أقدم ، ولا تراجع . فهذا هو خط النمو الذى يسمح للرجل الحكيم بشىء من الانحراف عنه ، ولكن لا إلى الحد الذى يجعل الاستثناء يطغى على القاعدة . فى المجموعة الأولى من الغرائز مثلاً يمكن أن نفسح مجالاً للنظافة مع أنها متأصلة فى الدافع السلبي وهو التفرز ، وفى ذلك يقول نيتشه : « يجب أن يبتعث الإحساس بالنظافة عند الطفل حتى يصبح عاطفة ، وسوف يرفع نفسه فيما بعد فى أحوال جديدة على الدوام إلى فضائل جديدة » . والنظافة تأتى فى المحل الثانى بعد التدبير . وكيف تكون الحال إذا لم تكن الآلهة موجودة ؟ ومع ذلك فلا نود أن نقرب زهاداً من ذوى المظهر البارد الدائم ، ولا أبولون ذا الشعر المستعار ، ولا ضحايا كفتاة الزينة . سنشعر دائماً بحسد خفى لأحد الحكام المتأخرين الذى لم يسمح لتدينه أن يتدخل فى شهيته . ويمكن أن نقف الموقف نفسه من غريزة القتال وطليعتها الكبرياء . فهاتان فضيلتان لا رذيلتان . ومع أننا سنقلمهما فأنما ذلك لدفعهما إلى النماء ، لا إلى المشاكسة ولا إلى الغرور : فالغرور توهم انتصارات تجيء ، والكبرياء تذكر انتصارات تمت ، والمشاكسة مقاتلة الضعيف . وليس من الضروري أن يكون معنى المقاتلة الصياح والضرب ، فقد تعنى الثبات فى هدوء ودأب على الهدف . ولا يحتاج المرء فى طموحه إلى أن يكون قاسياً وجشعاً ، فالرجل القوى يعطى إذا كسب ، ويجد لذة فى البناء أكثر من التملك . إنه يبني ليسكن غيره ، ويكسب المال لينفقه الآخرون . إن الخلق لا ينشأ من الاستهلاك الظاهر ، بل من البناء والخلق . .

وينشأ كذلك من العمل . عليك أن تتجنب المهن التى تجعلك تفكر وتفكر وتفكر دون أن تدع لك فرصة للعمل . ولأن يكون المرء نجاراً يقطع الخشب تحت أشعة الشمس ، ويراقب الأشياء تنمو مع كل ضربة فأس ، خير من أن

يظل يجمع حساب الدائن والمدين يوماً بعد يوم ، أو يفكر في شقته المنزلة في أدلة جديدة عن حقيقة العالم الخارجي . الأفضل أن تعزف مقطوعة موسيقية من أن تسمع مئات المقطوعات . فلنلعب ولنضحك ، وإذا كانت الحياة تبدو بين حين وآخر (كالبحر في يوم هائج) هزلاً مرأ ، فلنذكر المزاح ، ولنغتفر المראה . تزوج ، فهذا أفضل من الاحتراق ، كما جاء في الكتاب المقدس ، إذ ييسر الزواج للمرء أن يفكر في شيء آخر . قد تكون الشقيقة عند شخص شاذ مثل نيتشه أفضل من الزوجة ، ولكن الرجل السوي سيجد الأخت غير ملائمة . فإذا حلت هذه المشكلة الأولية ، استطعنا أن نتحرك في العالم دون أن تلهينا هفهة الفساتين عند كل منعطف . فنحن نعلم أن جوهر النساء واحد مهما تختلف ملابسهن ، وأن ثمة دائماً تحت الظواهر المتعددة حقيقة واحدة . وبذلك نصبح قانعين في اعتدال ونتعلم حتى إن نحب زوجاتنا بعد حين . قد يكون صحيحاً أن المتزوج يطرق أى باب للحصول على المال ، ولكن المتزوج وحده هو الذى يستطيع أن ينمى في نفسه هذه المرونة .

اتخذ أصدقاء ، وإذا لم تستطع اتخاذهم ، فانظر في نفسك واعمل على تعديلها حتى تتمكن من المصادقة . والعزلة دواء سريع الشفاء ، ولكنها ليست غذاء . والخلق كما تصور نحيته لا ينمو إلا في تيار العالم . وإذا انعطفتنا على أنفسنا جرفنا التيار ، حتى (كما يقال) إذا كان علم النفس صناعتنا . فالنظر على الدوام في داخل أنفسنا مطية إلى الكارثة التي قد تصيب لاعب التنس إذا وقف يحسب عن وعى المسافة والسرعة والزاوية والضربة ، أو لاعب البيانو الذى يفكر في أصابعه . والصديق خير معين ، لا لأنه يستمع إلينا حين نفضى إليه بذات أنفسنا ، بل لأنه يضحك منا . فنحن نتعلم بواسطة الأصدقاء قليلاً من الموضوعية ، وشيثاً من التواضع ، وبعضاً من الأدب . نتعلم قواعد الحياة فنحسن لعبتها . إذا شئت أن تكون محبوباً فكن متواضعاً . وإذا طلبت إعجاب الناس بك فكن معجباً بنفسك . وإذا نشدت الحب والإعجاب فاجمع بين التواضع الظاهر والزهو الباطن . ولكن الزهو نفسه يمكن أن نجعله حياء ، بأن ينحني فلا يرى ولا يسمع . لا تكن مسرفاً في الشطارة لأن النكات تلدغ إذا جرحت ، ويجب

أن يكون شعارنا : لا يحيا شيء ما لم يكن حسناً De vivis nil nisi bonum . لا تكشف أبداً عورة أحد ، فلن يغفرها لك إلى الأبد . لا شيء في العالم هو أفضل الأشياء جميعاً ، فافعل الخير ما استطعت ، وتكلم بالمعروف دائماً . ولا تهالك على قول الصدق . يجب أن تقبل العرف الذي يفرضه المجتمع عليك ، كما يمنحك بعض الحرية في اصطناع قوانينه . إن المجتمع يبيع لك أن تفعل ما تشاء بشرط أن تفعله بلطف ، وبغير أن تتحدث عنه . وفي أثناء ذلك فلتقدم إلى الأمام بهدوء دون إثارة عداوات لا لزوم لها . أقبل دائماً ، ورحب بالتجربة ، وجرب الحياة حتى تهيك أقصى ما تستطيع حمله ، قبل أن تبرح المحراب تاركاً أطفالك يجرسون اللهب .

ولكن أين موضع الذكاء من هذا كله ؟ هل الخلق مسألة دافع فقط ، ولا فائدة في العقل والخيال ؟ كنا نود لو كان الأمر كذلك ، فكم يكون شأن الخلق بسيطاً . فأقوى الأهواء هي التي تخلق أقوى الرجال .

ليس الأمر بالطبع كذلك ، فالخيال والعقل في النفس الكاملة كالضوء الذي يصدر عن النار . وقد نضيع في الخيالات أنفسنا ، ولكننا قد نظفر بعظيم الانتصارات بالتبصر . وفي ذلك يقول إمرسون : « كان نابليون قبل بدء المعركة يفكر قليلاً عما يفعله في حالة الظفر ، ولكنه كان يفكر كثيراً عما يفعله إذا لم يحالفه الحظ » . أو بعبارة نابليون : « عندما أصم خطة المعركة فلا أحد أكثر مني جبناً ، فأنا أجسم لنفسي جميع المخاطر والأضرار الممكنة تبعاً للظروف » . فالخيال قد يحطمنا كما حطم نابليون سنة ١٨١٢ ، وقد ينقذنا من آلاف الكوارث إذا استعرضنا شتى المسالك قبل الانغماس في العمل .

ووظيفة العقل الحسنة إعانتنا على العمل . وإذا انقلبت وظيفته صناعة في ذاتها أخرجت لنا مناطقاً أو قوماً مثل هاملت ، إذ تظل الحرب مشبوبة بيننا نبلى العضلات والخلق . أما إذا أصبحت وظيفة العقل تغليب رغبة على رغبة ، ونقد دافع بدافع آخر ، وكبح جماح شهوة بشهوة أخرى ، فهذه هي أفضل حالات المرء ، حيث تتحرك العناصر الممتزجة في نفسه هنا وهناك إلى أن تدوب في وحدة ، وتخرج في نظرة شاملة واستجابة كاملة .

فدوافعنا هي الريح التي تسير شراع سفينتنا ، ولكن «كلا منها إذا لم يكبح سخبنا وراهه كالعبيد . ألم تر إلى الرجل الذي تملكه فقط شهوة الجشع ، أو البهيمية الجنسية ، أو القتال ، أو الثروة ، أو اللهب ؟ إن الحرية الكاملة إذا أطلقت لكل دافع أفضت إلى حل الخلق كما فعلت بأبناء قورش ، الذين قامت على تربيتهم نساء سايرن فيهم كل رغبة حتى أضحروا ضعافاً منحلين . ومن ثم كانت غلبة المعرفة على الرغبة ، وهي جوهر العقل بالذات ، الأصل في أدب النفس وقوتها ، وفي تلك السلطة التي تكبح جماحنا ، وتعد المرجع الأخير للخلق والإرادة . فلما أن يؤدبنا العالم ، وإما أن نوذب أنفسنا ، ولنا أن نختار بين الأمرين . جملة القول الخلق هو ما سماه «ل» من زمن طويل : «إرادة كاملة الصياغة» .

ولما كان التركيب أصعب دائماً من التحليل ، فإن علم النفس لم يضم بعد أطراف الطبيعة البشرية التي فصل أجزاءها . ولا يزال الأسهل أن تصف الإنسان من أن تدله على ما يجب أن يكون عليه ، وكيف يمكن أن يعدل نفسه . لقد لمسنا جانباً واحداً من موضوع عظيم سيجتذب في عصرنا كثيراً من المفكرين للبحث فيه . لقد حصلنا العلم بأنفسنا ، والآن نريد أن نبحث عن الفن الذي يخلقنا خلقاً جديداً كما سيطرنا على القارات والمحيطات . ولكن المعرفة قوة ، ومصير كل علم أن يكون في آخر الأمر فناً يؤتي الثمر الذي يوسع ملك الإنسان . وسيعيش أبناؤنا ليروا الناس تصنع العقول والقلوب كما تبني السفن والطائرات ودزافع الإنسان ، التي ظلت هادئة تكاد لا تتغير على حين تبدل جميع وجه الأرض من حولها ، ستشكل من جديد كما تلائم الحياة الرفيعة والسريعة التي تصنعها الاختراعات التي لا يستقر لها قرار . لقد ازدادت الآن قدرة الإنسان العقلية وتعددت حتى يبدو أن أصحاب العقول الراقية في العصر الحاضر ينتمون إلى نوع مختلف عن نوع الفلاح البطيء الاستجابة . وحين يأتي اليوم الذي تسير فيه أذهاننا آلاتنا ، وحكمتنا معرفتنا ، وأغراضنا قوانا ، عندئذ نسلك سلوك البشر .

الجزء الخامس

—

علم الجمال

الفصل الثالث عشر ما الجمال؟

١ - حاسة الجمال عند الفلاسفة

من أقوال أناتول فرانس : « أعتقد أننا لن نعرف بالضبط أبداً لم كان الشيء جميلاً ؟ » (١) . هذا الحكم الصادر عن فنان عظيم وباحث كبير قد ينصحنا بأن نولى ظهورنا إلى المشكلة التي نبحثها . فاذا كنا سنمضي في البحث فعلى أساس أن الفلسفة تحتمل كثيراً من « المطلقات Absolutes » ، ولا يقين فيها .

ومن الغريب حقاً أن الفلسفة وعلم النفس لم يفسحا لهذه المسألة مجالاً كبيراً . فكل قلب يلبي نداء الجميل ، ولكن قل أن تجد عقلاً يسأل لم كان الجميل جميلاً . ويرى المتوحش الجمال في الشفاه الغليظة والوشم الأزرق . وكان الإغريق يلتمسونه في الشباب أو في هدوء التماثيل وتناسبها . وكان الرومان يرونه في النظام والروعة والبأس . وفي عصر النهضة كانت الألوان سر الجمال ، ويراه الناس في العصر الحاضر في الموسيقى والرقص . ففي كل مكان وفي كل عصر ، تأثر الناس بلون من ألوانه وأنفقوا أعمارهم في طلبه . الفلاسفة وحدهم هم الذين تحرقوا شوقاً لفهم طبيعته ، والكشف عن سر قوته .

الحق أن هذه المسألة تتعلق بعلم النفس ، ولكن علماء تركوا بحثها للفلسفة ، كما يفعل كل علم حين يحيل على الفلسفة المشكلات التي لا يستطيع حلها . (ولذلك اتصلت مشكلات هامة بالفلسفة ، فعذرنا عن التعطل قليل) . ثم إن نزعة العلم الحديث الطبيعية ، وغرامه بالمعامل والتجارب ، واتجاهه نحو البحث

On Life and Letters, vol. II, p. 176. (١)

عن قوانين رياضية وكمية لجميع الظواهر ، كل ذلك جعله عاجزاً عن بحث مثل هذه الحقائق الزبئية elusive (١) كالجمل (إن لم تكن دائماً غير ملموسة) . ولن توضع مشكلة الجمال في موضعها الملائم حتى يزداد تسليم علم النفس بالتفسير البيولوجي . وفي أثناء ذلك ترى الفلسفة أن لها مزية الخوض في هذه المسألة حيث يرهب العلم البحث فيها . وحتى عظام الميتافيزيقا الصلبة فإنها ترتعش وتفزع بعض الشيء حين يحل الجمال إلى حين محل الحق ويلتمس في الحكمة محراباً .

ومع ذلك فلم يسرع الفلاسفة إلى البحث في هذا الموضوع المغمى ، فبقى غامضاً إلى حد كبير . كان فيه شيء من الوثنية نفر منه رجال الدين ، وشيء من اللاعقلية جعل شكاك المفكرين يقفون بلا حراك . ولما ظهر بومبارتن Baumgarten ، أول مفكر اعترف بطبيعة الجمال ميداناً مستقلاً للبحث ، وأول من أطلق عليه الاسم الفطيع « استيتيكا esthetics » اعترف عن إدخال مثل هذا الموضوع المزرى بين قصور الفلسفة . ولا ريب أنه كان يخشى أنه على الرغم من العنوان المنفر الذي وضعه لهذا العلم ، فالمشكلة قد تصرف أذهان قرائه إلى التماثيل والحسان . وكان وجهه يحمر خجلاً لهذا الاحتمال .

وحتى حيث كان الجمال يخلق كثيراً ، ويمجد تمجيداً عظيماً - في اليونان القديمة - عجز الفلاسفة عن الكشف عن سر فنته . وبدأ فيثاغورس لعبة الجمال بأن رد الموسيقى للعلاقات الرياضية ، وكان يصف حركة الكواكب بالانسجام الدقيق . ولما كان فلاسفة الإغريق السابقون على سقراط كالعلماء قبل دارون خاضعين لسلطان الطبيعة والرياضة ، فقد التمسوا تعريف الجمال في عبارات كمية ومكانية : فالموسيقى انتظام في الأصوات ، والجمال المجسم (بلاستيك) plastic انتظام في النسب .

أما أفلاطون الذي لم يكن شيئاً مذكوراً لولا اشتغاله بالأخلاق (كان حريصاً على وقف انحلال بني وطنه) فقد ذهب إلى الطرف الآخر ، ومزج الجمال بالخير في وحدة رائعة . فالفن يجب أن يكون جزءاً من علم الأخلاق

(١) المقصود بالاصطلاح أن الشيء يراوغنا ويهرب منا، وهذه هي صفة الزئبق لا تستطيع أن تضع يدك عليه (المترجم) .

وفيها عدا الفوائد التعليمية للموسيقى (وحتى في ذلك الزمان كانوا فيما يظهر يصطنعون الشعر لتذكر التواريخ وسير الملوك) فجانب الفن ضئيل إلى أقصى حد في مدينة أفلاطون الفاضلة . ونحن نجد عند أرسطو الإجابة النموذجية عن سؤالنا ، فالجمال هو التماثل ، والتناسب ، والترتيب العضوي للأجزاء في كل مترابط . إنه تصور يسرنا أنه يتفق مع « تعارن الجزء مع الكل » ، هذه الفكرة التي تردد صداها خلال هذه الفصول . ويكاد يكون الإغراء بتنظيم هذه المسألة وبيان قواعدها لا يقاوم . ولكن لم كان التماثل والتناسب ، والترتيب والوحدة ، مصادر لابتهاج النفس ؟ هذا هو السؤال الذي يفتننا أكثر من قواعدها .

لقد أضاف ونكلمان (١) Winckelmann ، ولسنج (٢) Lessing شيئاً يسيراً إلى هذه الأجوبة ، وأسلما قيادتهما لسلطان الإغريق . وظل الجمال مسألة هيئة وصورة ، يختص بالرخام المنحوت والمنقوش ، وبالمعابد التي تشيد صامتة في التلال . كان الجمال صفة تكاد تكون محلية تقتصر على البارثينون وما فيه من حلية . أما أن يكون التماثل محاكاة لكائن حي بديع تسرى في جسمه الحرارة ، وأن يلتمس سر الجمال في الأصل أولى من التماسه في الصورة ، فلم يجد عند هذين المفكرين إلا قليلاً من الترحيب بجمود عقلمهما وأكاديميته ، فكانا أكثر كلاسيكية من الإغريق أنفسهم .

وظهرت عند كانط وشوبنهاور نعمة جديدة : فالجمال صفة للشيء الذي يبعث في أنفسنا اللذة بصرف النظر عن نفعه ، ويحرك فينا ضرباً غير إرادي من التأمل ، ويشيع لوناً من السعادة الخالصة . وفي هذا الإحساس الموضوعي البريء عن الهوى يوجد ، كما يذهب شوبنهاور ، سر تقدير الجمال العبقريّة الفنية . ويتحرر العقل بعض الوقت من الرغبة ، ويحقق تلك الصور الخالدة ، أو المثل الأفلاطونية ، التي تكون المظاهر الخارجية للإرادة الكلية . حتى إذا كنا مع هيجل عدنا مرة أخرى إلى الإغريق : فالجمال وحدة في تنوع ، وانتصار

(١) يوخنا ونكلمان (١٧١٧ - ١٧٦٨) باحث ألماني درس فن الإغريق ، وأثر في جيته . ونظريته في الفن الإغريقي تقوم على الهدوء والعظمة . (المترجم) .

(٢) لسنج (١٧٢٩ - ١٧٨١) روائي وناقد ألماني كتب عدة دراما (المترجم) .

الصورة على المادة ، والمظهر المحسوس لمثال ميتافيزيقي . فلاغرابة أن تكون أثقل الكتب في العالم ظلاً ، هي تلك التي كتبها الناس عن الجمال .

٢ - حاسة الجمال عند الحيوان

ماذا نفعل إذا كان ما سبق كله طريقاً للبحث فاشلاً ؟ من يدري لعل الجمال وظيفة للحياة لا مادة ولا صورة ؟ ومن يدري لعل علم الحياة يفيدنا ها هنا حيث لم يستطع علم الطبيعة أو الرياضة ؟

فلنذهب إلى الحيوان ولنحاول أن نتتبع حاسة الجمال إلى منبعها . إننا نحطئ حين نفترض أن الإنسان وحده هو الموهوب بالشعور الجمالي . فثمة حيوانات كثيرة أجل من هذا الذي يمشى على قدمين ، ويخلو من الريش ، ويحكم الأرض حكماً عابراً . كل ما نعرفه أنها قد تستبين الجمال أوضح منا ، وقد تنظر إلينا كما نفعل أحياناً بازدراء هادئ متهمل . إننا نظن أننا وحدنا نشعر بالجمال لأننا نربطه في النوع الإنساني بالبصر والصورة المرئية . أما عند الحيوان ، إذا حق لنا أن نتكلم بالنيابة عنهم ، تنشأ هزة الجمال في تواضع من الفهم . وفي ذلك يقول كلب مسيو برجيرييه^(١) الصغير « شم الكلب لذيد » . ولا ريب أن الناس في نظر ريكيت^(٢) Ruiquet كانت لهم روائح كريهة مختلفة .

ومع ذلك فقد يكون لحاسة السمع كذلك قيمة جمالية عند الوحوش . فبعض أجدادنا من ذوات الأربع مشهورة بالتأثر بالموسيقى . وفي ذلك يقول إليس Ellis : « لقد دلت التجارب التي أجريت على عدد متنوع من الحيوانات في حدائق الحيوان عند سماع توقيع آلات موسيقية أن جميعها باستثناء بعض سباع البحر كانت تؤذيها النغمة الناشزة ... وتهيج نمر كان يرتاح إلى صوت الكمان عندما سمع المزمار المسمى piccolo . ومعظم أنواع الحيوان تؤثر سماع الكمان والناي flute «^(٣) . ولاحظ إليس أن كلبه نبج وعوى

(١) Monsieur Bergeret هو الشخصية الرئيسية في أربع قصص كتبها أناقول فرانس ، يصور فيها أحوال فرنسا وأخلاقها . (المترجم) .

(٢) يريد المؤلف اسم الكلب سالف الذكر . (المترجم) .

(٣) Studies in the Psychology of Sex, vol. IV, p. 122.

عندما سمع ترانيم موسيقية لشوبان ، ولكنه ذهب لينام غير حافل عندما لعبت مقطوعة موسيقية بهيجة . ويضيف دين سويفت Dean Swift بلباقة : « ألم يخبرنا عليان Aelian كيف أن الأفراس اللبينة كانت تهتاج إلى الجياد بالموسيقى ؟ (وهذا يجب أن يكون نذيراً للنساء العفيفات بعدم الذهاب إلى الأوبرا) » (١) .

وليست عين الحيوان عديمة الحس بالجمال . فبعض الطيور فيما يروى دارون تزين أعشاشها بأوراق الشجر والقواقع الملونة البديعة ، وبالحجارة والريش وشرائط النسيج مما يخلفه الناس في بيوتهم (٢) . والطيور المسمى « بوير » (٣) bower-bird يبني عشاً خاصاً لأنثاه يغطيه بفروع الشجر ، ويفرشه بالحشائش . ثم يحمل حصى أبيض اللون من أقرب جدول ويرتبها بهيئة فنية على جانبيه . ويزين جدران العش بالريش الملون ، والتوت الأحمر ، وأى شيء بديع يجده . وأخيراً يجلل طريق الدخول والخروج بالحار والحجارة اللامعة . فهذا هو القصر الذى يبنيه طائر البوير لأنثاه . وفى ذلك يقول بولش : « يكفى أن تلتقى نظرة واحدة على عش الزوجية هذا لتقتنع بأن ثمة لذة فنية مباشرة بالجميل » توجد فى ذهن هذا الطائر الصغير (٤) .

وقد رؤيت بعض الطيور تحدق فى صورتها فى المرآة . ويمكن اصطباد عدد كبير من القنابر بمرآة صغيرة تعكس أشعة الشمس ، فتتجه الطيور نحو هذا الشعاع تسوقها رغبة عمياء على الرغم من توهجها القاتل . والعقوب والغراب وغيرهما من الطير تسرق الأشياء اللامعة كالفضة والحلى وتخفيها . فن يدرى أى دافع يسوقها : أهو الزهو ، أم الاستطلاع ، أم الجشع ، أم الذوق الفنى ؟ (٥) . ولكن هذه الظواهر الجمالية التى تحس فيها الحيوانات بالأشياء غير الحية نادرة ،

(١) المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(٢) Darwin, The Descent of Man, pp. 112, 469.

(٣) طائر يعيش فى أستراليا ويشتهر بعشه الذى يزينه بالريش الجميل والقواقع (المترجم) .

(٤) Bolsche, W., Love-Life in Nature, vol. II, p. 185. Gourmont R. de, The

Natural Phil. of Love pp. 193

Descent of Man, p. 469. (٥)

وتقديرها للجمال الذى تعبر عنه ضئيل وثانوى بالإضافة إلى قلق الذكر المحسوس الذى يظهره بعرض نفسه على الأنثى زمان السفاد . ويقول دارون : « ينحصر تذوق الجميل عند معظم الحيوانات ، بمقدار ما نستطيع أن نحكم ، فى جاذبية الجنس الآخر » (١) .

ولسنا نجد شيئاً أعظم غناء فى بحثنا من هذه العبارة التى دونها عالم من أزهر العلماء وأشدهم تواضعاً . فاذا كان دارون على صواب ، فن الواضح أن حاسة الجمال (كما ثبتت فى الغالب وتنكر دائماً) تنفر عن الجاذبية الجنسية وتفيض عنها . فالجميل هو ما كان أولياً مرغوباً رغبة جنسية . وإذا كانت الأمور الأخرى تبدو لنا جميلة فهى مشتقة عنها ، وعن طريق الصلة المطلقة بهذا ينبوع الأصلى للحاسة الجمالية . وحين يضع شوبنهور فى كتابه « ميتافيزيقا الجميل » مشكلة الجمال فى عباراته التى يمتاز بها قائلاً : « كيف تكون المتعة بالشىء الجميل واللذة من رؤيته ممكنة دون أن ترجع المتعة نفسها إلى إرادتنا ؟ » فالجواب هو : ليس ذلك ممكناً ، فالموضوع الجميل يتوافق سراً مع إرادتنا . والإرادة الأساسية والمطلقة عند الفرد فى فلسفة شوبنهور هى إرادة الاتصال الجنسى . فلنبحث هذا الأمر .

٣ - الجمال الأولى : الأشخاص

يكون الشىء جميلاً قبل كل شىء لأنه مرغوب ، أو بعبارة سينوزا : إننا لا نرغب فى الشىء لأنه حسن ، بل نسميه حسناً لأننا نرغب فيه . وهكذا فنحن لا نرغب فى شىء رغبة أصلية لأنه جميل ، ولكننا نعتبره جميلاً لأننا نرغب فيه .

وكل شىء يحقق فى طبائعنا حاجة أساسية يحمل فى طبيعته بعض الإمكانيات الجمالية . فطبق الطعام يجب أن يكون جميلاً فى نظر الجائع كما تبدو المرأة فى الثلاثين فى عين طالب الجامعة ، المليء المعدة بالطعام . ولكن دع طالب الجامعة sophomore يجوع وسوف نحمد حساسته بالجمال حتى لأجمل الغادات . إنه سيعتبرها مجرد شىء صالح للأكل . (ولا يزال شىء من هذه الشهوة الأولية باقياً فى جميع جنسنا) وفى نظر المؤلف الذى كافح سنين عدة ليشق طريقه

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

إلى المطبعة تبدو أول صفحة نذرنا شيئاً بارع الجمال لن يسلمها أى شعب ذكى للبلبل ، ولكن هذه الصفحة نفسها قد تكون ، فى نظر فلاح أو صانع له مطاعم أصح من تأليف الكتب ، مجرد ورقة مهملة تصلح لأن يسمح بها موسى الخلاقة . فالجميل بناء على ذلك فى أدنى درجاته هو المظهر المحسوس لما يشبع الرغبة القوية . الحق أن الجميل لا يختلف عن النافع إلا فى شدة حاجتنا .

والجميل والقبیح - كما يقول نيتشه - أمران حيويان ، فكل ما ثبت ضرره قطعاً يبدو قبيحاً . فنحن لا نأكل السكر لأنه حلو ، ولكننا نعهده حلواً لأننا تعودنا أن نرى فيه مصدرأ أساسياً للطاقة . وكل شىء نافع يصبح بعد وقت قصير ، لذيذاً مقبولاً . مثال ذلك أن سكان شرق آسيا يحبون السمك الفاسد لأنه الطعام الأزوتى الوحيد الذى يتمكنون من الحصول عليه (١) . ويقول سذرلاند Sutherland : « لم تصيح السماء زرقاء لتمتع أعيننا ، ولكن عينونا هى التى أصبحت ملائمة لأن نجد متعة فى زرقاء السماء . فجميع الهيئات وكافة الألوان تحقق لذة طبيعية متناسبة مع كثرة وقوعها فى تجارب الجنس » . إننا نرى الحشيش الأخضر والسماء الزرقاء جميلاً ، ولكن قد كان يمكن بالعادة أن نجد متعة فى سماء خضراء وحشائش زرقاء .

ومن الواضح أن الجمال المتميز عن المنفعة مرتبط بضرب قوى من الإشباع يعكس قوة الرغبة . فالمال أجمل منه أن يكون أنفع فى نظر البائس . وكل شىء يكتسب جمالاً إذا حرك الكائن وبعث فيه القوة . ومن ثم نشأ جمال الضوء والنظم واللمس الرقيق . أما القبح فيعمل على خفض حيويتنا ، واضطراب هضمنا وأعصابنا . وقد يؤدى إلى الصداق أو إثارة النفس (٢) ، أو يحرك الشعراء إلى الحث على الثورة . والجمال - كما يقول سنناتاينا - هو اللذة المتحققة فى موضوع (٣) . أو بعبارة ستاندال ، دون أن يعلم أنه يتابع هوبس (٤) : « الجمال وعد باللذة » .

(١) Sutherland, A., Origin and Growth of the Moral Instincts, vol. II, pp. 85-91 ; Fuller, Sir B., Man as He Is, p. 68.

(٢) Ellis, H. The Dance of Life, p. 328.

(٣) The Sense of Beauty, p. 52.

(٤) Cf. Encyclopaedia Britannica, eleventh edition, vol. IX, p. 827.

وكما أن الفن لا يظهر في أمة إلا بعد تجمع الثروة الفائضة عن الحاجة الاقتصادية وظهور طبقة أهل الفراغ ، كذلك الحال في الفرد ، عندما لا يقلق الجوع باله أولاً ويكون شديداً، تزداد عنده الحساسية الجنسية وتفيض إلى إحساس بالجمال . وترتفع قابليتنا للجمال وتنخفض مع القوة الجنسية وضعفها . والحب يخلق الجمال على الأقل بمقدار ما يخلق الجمال الحب . وكان دون كيشوت يرى فتاته دلكينيا Dulcinea أحلى الغادات (١) . ويقول دى جورمون (٢) De Gourmont : « سل ضفدعاً ما الجمال يجبك أنه أنثاه ، ضفدعة ذات عيين مستديرتين تبرزان من رأسها الصغير ، وذات فم واسع عريض ، وبطن أصفر ، وظهر بني » .

فن الواضح أن الجمال يرتبط بالصلة الجنسية التي تعتمد في الإنسان على تلك الأعضاء التي تكون الصفات الجنسية الثانوية ، والتي تظهر عند البلوغ بواسطة الهرمونات التي تتخلل الأنسجة الحلوية ، وهي : الأثداء ، والشعر ، والأرداف ، والسيقان ، والأذرع المستديرة ، والصوت الناعم . ولكي تجمل نساء الأجناس المنحطة أنفسها في أعين أزواجهن يعملن على تضخيم الهيئات التناسلية ، على حين يصطنع أهل القبائل الأرقى سياسة مقابلة ولكنها مماثلة : وهي إخفاء الأعضاء التناسلية ، لأن الإخفاء يجذب بنجاح كالمغلاة . والملابس (كالعفة) تزيد في قيمة الجمال لأنها ضرب من المقاومة ، والمقاومة تزيد في حدة الرغبة . يقول سانتايانا : « لا يمكن للآلهة أن تتعري لأن صفاتها هي عين ذاتها » (٣) . لعل هذه كانت طريقته التي أوحى بها بعناية من أن الزى كان في الأيام المزيفة والخيالية ضرورياً للجمال .

(١) دلكينيا هي مشقوقة دون كيشوت ، ويصفها بأن شعرها من الذهب ، وعينها شمان متوهجتان ، وخديها وردتان ، وأسنانها من اللؤلؤ ، وهكذا . (المترجم) .

(٢) دى جورمون (١٨٥٨ - ١٩١٥) ناقد فرنسي وروائي وشاعر تمتاز آثاره بالتهكم والنزعة الحسية (المترجم) .

وملاحظة المرأة في نظر الجنس البشرى أعلى صور الجمال ، ومنع جميع الصور الأخرى ومعاييرها . يقول خيال بوفنيس Paphnuce في تاييس : « أنا جمال المرأة فأين تظن أنك تهرب مني أيها الأحمق المجنون ؟ ستجد مثالي في بهاء الأزهار ورشاقة النخيل ، وفي تحريم الحمام ، ووثب الغزلان ، وفي خريز الجداول ، وفي ضوء القمر الشاحب . وإذا أغمضت عينيك فستجدني في داخل نفسك » .

وكان يمكن أن يسود جمال الرجل إحساسنا بالجمال لو سادت المعايير والنزعات الإغريقية . فالصداقة في اليونان كانت تتحكم في الحب ، وكان مثال الجمال في إسبرطة وأثينا هو الشباب الممتلئ بالرجولة ، الذي يجمع بين الجمال والشجاعة . ولذلك أضحى الفن الإغريقي تمجيداً للرجل الكامل ، ويعكس الميادين الرياضية ، على حين يعكس إحساسنا بالجمال مخدع المرأة وسلطانها في قلوبنا وحياتنا . وإذا كان جمال الرجل لا يزال يحركنا في بعض الأحيان فالعلة في ذلك العنصر من عناصر الحب الذي قد يرتفع إلى حد الشغف والإخلاص في الصداقة ، كما كانت الحال عند الإغريق .

وتصبح المرأة منبع الجمال ومعايره لأن حب الرجل إياها أقوى ولو أنه أقصر من حبها إياه ، وتخلق شدة رغبته ملاحظتها الفائقة . وتسلم المرأة بحكم الرجل عليها أنها أجهل منه ، إذ ما دامت تهوى أن تكون معشوقة أكثر من حبها التملك ، فهي تتعلم أن تقدر في نفسها تلك المفاتن التي تقوى الرغبة . وفيما عدا ذلك ، لا تنشده المرأة الجمال في الرجل ، وليست في حاجة إلى تخيله فيمن تهواه . إنها تلمس فيه القوة ، والقدرة على حمايتها هي وأطفالها ، وأن يضع تحت أقدامها ما استطاع من كنوز العالم .

ومن الدلائل الواضحة على تولد الجمال من الرغبة ، أننا حين نظفر بالشئ المطلوب نغتر فينا حاسة الجمال . وقليل من الناس عندهم من الحكمة ما يجعلهم يشتاقون إلى ما يملكون ، وأقل من هذه القلة هم الذين يرون الجمال فيما لم يعد يبعث الرغبة . وبهذا السبب تتعلق معظم الحكايات . ومع ذلك دع الموت يخطف زوجاتنا منا ، أو دع أحد لصوص القلوب يوجه سهام نظراته

اليهن ، وسوف يشتعل لهيب الرغبة من جديد ، ويضيء جذوة الجمال التي انطفأت . وما أعجب أن يصبح نفس الوجه الذي أصبح بالنسبة إلينا مجرد نثر مثال الشعر والإبداع في عين من لم يحمد التكرار فيه النظر . فلنطلب من الله أن يهبنا القوى على أن نرى زوجاتنا كما يراها الغريب .

٤ — الجمال الثانوي : الطبيعة

الحب إذن هو أبو الجمال لا ابنه ، وهو المصدر الوحيد لذلك الجمال الأولى الخاص بالأشخاص لا بالأشياء . ولكن ما الحيلة في هذا العدد العديد من الأشياء التي تبدو لنا جميلة ، ومع ذلك فليس لها صلة ظاهرة بالحب ؟ كيف نفسر جمال العالم الخارجى ذلك الجمال غير المحدود ؟

كما أن كثيراً من ألفاظ معاجمتنا لها دلالات ثانية ومنقولة ، ولها دلالات أولية وأصلية ، كذلك لكل غريزة مطلوبات وإشباعات أولية وثانوية ، فغريزة طلب الطعام تصبح غريزة عامة للتملك تشناق إلى كل ذى قيمة . وغريزة القتال في سبيل الطعام أو الزوجات تشيع فتضحى غريزة عامة للقتال من أجل لذة القتال . كذلك انفعال الجمال (وهو جزء من « انفعال الحنان » tender-emotion المصاحب للغريزة الجنسية) قد يفيض من الشخص المطلوب على الأشياء المتصلة به ، على اتجاهاته وهيئاته ، على أحوال سلوكه وأساليب حديثه ، أو على أى شىء آخر فيه أو يماثله . وعلى هذا النحو يشارك العالم كله في بهاء محاسن المرأة . تأمل الأشياء التي تبدو جميلة الملمس : الأشياء المستديرة ، الناعمة ، المنحنية ؛ لم تسرنا ؟ أذلك لأنها مستديرة أو ناعمة أو منحنية ؟ ومع ذلك قد يكون المربع جميلاً في نظر بعض الناس ، فهو عند أرسطو رمز للعدالة . أو أننا نفضل المستدير والمنحنى والناعم لأن ذكرياتنا تربطها بالاستدارات الناعمة للجنس اللطيف المطلوب ؟

تأمل جمال المشومات : لم نسرّ من نظافة الأبدان ، وأريج الأزهار ، وعبيق العطور ؟ أذلك لأن الانتخاب الجنسي كان يتم في الأصل بوساطة الشم ؟ تحتفظ الأزهار بأعضاء التوليد في النبات ، وكانت عطورنا المحبوبة حتى ظهور

التركيبات الكيميائية تستخرج من العناصر التناسلية لأنواع كثيرة من الحيوانات .
وفن العطور المثيرة من جملة ما تعرفه كل امرأة .

وتأمل جمال الأصوات . لقد نشأت في الأصل فكرتنا عما في الصوت من جمال من أغاني المرأة المطلوبة أو حديتها . « فالصوت الرقيق أبداع شيء في المرأة » .
وقد يمتعنا ويسحرنا أكثر حتى من المفاتن التي نراها بالعين . أما الصوت الأجش فقد يفسد نصف جمال أبهى الأشكال . ويقول منتجارتا Mantegazza : « بعض أصوات النساء لا تمكن مقاومتها عند سماعها » . ومن جهة أخرى تحب المرأة ما يسميه إليس : « الصوت الملتحي للرجل a bearded male voice » ، لأنها تؤثر على وجه العموم القوة على الجمال ، وتحب في الرجل ذلك الصوت الرنان الذي تطور في أكبر الظن بوساطة الانتخاب الجنسي للقوة الجنسية كدليل على الحماية والوفرة .

وقد يمكن أن يكون الصوت نفسه قد نشأ كخلفية جنسية : نستطيع الأذن أن تتخيل سماع رنات الموج في أشعار هوميروس ، وهدير خيال شكسبير في نقنقة الضفادع وزقزقة العصافير . ومن الصوت نشأ الغناء الذي يكاد لا يفصل عن الحب (ولو أن الدين والحرب قد اختلستا بعضه) ، ومن الغناء نشأ الرقص ، وهو جزء من شعائر الحب^(١) . ومن الغناء والرقص نشأت الموسيقى .

وقد ذاعت الموسيقى وابتعدت في كل جانب من هذا الأصل الجنسي ، ولكنها لا تزال مرتبطة بأماها ، فلا تجد فتاة تهوى بغير الموسيقى . والفتاة التي تعشق الموسيقى قلَّ أن تلعب البيانو بعد سنوات عدة من زواجها ، إذ لم يطلب المرء فتنة حيوان قد وقع في الأسر واستونس ؟ أما الرجل الذي كان يزأر ويموء أمام خطيبته فانه يفقد ميوله الموسيقية حين يتقل عليه الزواج بفروضه القضيعة ، ولا يسلم إلا تحت إلحاح الاحتجاجات بالضرورة الاجتماعية لاحتمال ستارفنسكى وشونبرج ، وريتشارد سترانس .

(١) الحب في اللغة الإنجليزية love ، يفيد العاطفة الروحية والاتصال الجنسي معاً . وليس في العربية ما يفيد الممتنين جيماً ، فالتكاح أو الرطاه يفيد الصلة الجنسية فقط ، والسفاد خاص بالحيوانات ، لذلك فليكن مفهوماً أن استعمالنا لفظ الحب نريد به الصلة الجنسية كذلك .
(المترجم) .

ولكن الحب وحده لا يكفي في تفسير هذه الميادين المشتقة من الجمال السمعي . إذ تتدخل لذة الوزن rhythm كعنصر مستقل . فالشهيق والزفير ، وانقباض القلب وانبساطه ، بل وتمائل البدن من جانبيه ، كل ذلك يهيئنا لارتفاع الأصوات وانخفاضها الموزون . وعندئذ لا نشعر بلذة جنسية فقط ، بل النفس كلها تنتشى بالسرور . إننا نخلق الوزن من دقائق الساعة بل من وقع الأقدام عند المشي . إننا نحب التمرجح ، والرقص ، والشعر ، والمتقالات ، والمتطرفات .

وتهدى الموسيقى أنفسنا بما فيها من وزن ، وترفعنا على وقعها إلى عوالم أقل في حيوانيتها مما يوجد على الأرض . قد تخفف الموسيقى الآلام ، وتحسن الهضم ، وتبعث على الحب ، وتعين على تهدئة المجنون النائر . وهي التي يسرت للجزويت في باراجواي أن يحمداوا نائرة عبيدهم من الهنود ، وزادت في قدرتهم على العمل . وقد تعين الجندی على الذهاب إلى برائن الموت في رضا موزون . وأدى هايدن Haydn لآل هبسبرج خدمة أعظم من أى قائد ، ولا يدري أحد أن الشيء الكثير من بسالة الجيش الروسى إنما يرجع لأغانهم الوطنية القوية . ويظن ثورو Thoreau أنه لا يوجد شيء أعظم ثورة من الموسيقى ، وتعجب كيف يمكن أن نستغنى نظمنا عنها . وإنما كان ذلك لأن ثورو كان ثورياً . فالموسيقى قد تحمدنا إلى حد السلبية كما قد ترفعنا وتحركنا إلى العمل . أو كما قال تولستوى لهوركى : « حينما تريد أن تتخذ عبيداً فلتصطع من الموسيقى بقدر ما تستطيع ، لأنها تبلى الفهم » . لقد اتفق التقي الروسى القديم مع أفلاطون الذى ذهب في مدينته الفاضلة إلى أن أحداً بعد السادسة عشرة لا يجب أن يسمع الموسيقى .

وأخيراً تأمل الجمال البصرى . عندما ظهرت القامة المنتصبة ، فقد الشم قوته وزعامته ، وأخذ البصر يسيطر على حاسة الجمال . إن جمال المرثيات ، كجمال المسموع ، يبعد كثيراً عن جمال المرأة المحبوبة . وهنا نواجه مرة أخرى لغز مشكلة الجمال : أتكون الخطوط المنحنية ، والنسب المتماثلة ، والوحدة العضوية علة الجمال الشخصى أم نتيجة له ؟ أهى أولية أم مشتقة ؟ أتحب المرأة لأن جسمها يتضمن التماثل ، والوحدة ، وكل استدارة فاتنة ، أم أن هذه الصور تسخرنا ، فى أى ميدان توجد فيه ، لأنها تذكرنا أو كانت تذكرنا بكمال المرأة ؟

نحن نصفها فنقول : « لها رقبة كالأوزة » وبذلك نتخذ من الأوزة معياراً للرشاقة . ولكن لعل الإنسان كان يشعر في الأصل بأن « الأوزة لها رقبة في جمال رقبة المرأة » . فالمليح ما كان في أول الأمر محبوباً .

ويبدو أن الفن يرجع إلى قصد الحيوان أو الإنسان إلى محاكاة الألوان التي تنميها الطبيعة في الطير والحيوان في موسم الزواج ، والتي تختر بها في عين الجنس الراغب في الانتخاب . وقد رأينا كيف يزين الطائر عشه بالأشياء البراقة ، ويزين الرجل بدنه بألوان زاهية تثير الرغبة . فلما ظهرت الملابس انتقلت الألوان من الأبدان إلى الثياب ، للغرض نفسه وهو اجتذاب العين . واحتفظ الناس باللون الأحمر على أنه أشد الألوان إثارة للدماء . والأمم كذلك في الغناء والرقص والموسيقى والشعر وكثير من صور النحت فإنها تنبت من شجرة الحب . والبناء وحده يبدو مستقلاً ، وإنما ذلك لأن سر قوته في الجلال sublime لا في الجمال .

ويتصل الجلال بالجمال صلة الذكر بالأنثى . فاللذة التي نشعر بها من الشيء الجليل لا تنشأ من الملاحظة المطلوبة في المرأة ، بل من القوة التي نعجب بها في الرجل . وأكبر الظن أن المرأة أشد انفعالا بالجليل من الرجل ، وأن الرجل أعظم تأثراً بالجمال ، فهو أحرص على استعماله ، وأعظم شوقاً إلى الرغبة فيه ، وأثبت على خلقه . والجليل كما بيّن بيرك Burke ما كان مصدرراً للقوة والخطر على الشخص الآمن . ولم يعلق هاننيال وقيصر (على الأقل للثلف) على جلال جبال الألب ، فهي في نظرهما مفاوز مخوفة لا مناظر بديعة . ثم انظر في مقابل استخفافهما الرجال إلى حساسية روسو الأنثوية ؛ وكيف كشف للنفس عن عظمة الألب حديثاً . ولكن روسو كان آمناً ، ولم يكن عليه أن يقود الجيوش في تلك المرتفعات الموحشة . ولعل الإغريق (كما ذهب إلى ذلك سرجي Sregi) قصرُوا في تصوير المناظر الطبيعية ، لأن الطبيعة كانت لا تزال على فطرتها خطراً على حياتهم ، فلا تبيح لهم الوقوف بإزائها وتأمل عظمتها .

وعند الإعجاب بالمناظر الخلوية ، يقف الجمال بعيداً عن منبعه في الحب . ذلك أن معظم السرور الذي يملأ النفس من المناظر الطبيعية راجع إلى جلال الرجولة ، وينشأ كثير من ذلك الجلال من الجمال الهادئ الشبيه بالوضع الدافئ

لكل صلد بديع . هذه صورة لكوروت (١) Corot : فيها حقول متموجة ، وظلال شجر البلوط ، وجداول ينساب ماؤها تحت الغصون المهتدة ؛ فأين يجتبيء جمال المرأة في هذه المتعة الطبيعية ؟ فقتش عن المرأة - كما يقال في المثل الفرنسي Cherchez la femme .

ولا يجب أن تتعجل في وضع قوانين تحيط بالعالم ، فالطبيعة تستنكر التعميمات التي تتجاهل تنوعها اللانهائي ، وهي على استعداد أن تلتقي في وجه مبادئنا الكلية آلفاً من الاستثناءات . فلتقنع بالقول بأن الشعور الذي كان أصله جنسياً قد يفيض على أشياء لا صلة لها بالحب على الإطلاق . فالقوة الجنسية النامية باستمرار قد تصرف ما يفيض عنها في الإعجاب بالمناظر الطبيعية ، كما تروى جذور الدين والصدقة والمثل الاجتماعية والفرن .

ومع ذلك فحتى في هذا المجال توجد روابط وثيقة . فالطفل في الغالب الأغلب لا يحس بجمال الأرض والسماء ، ولا يهنز لحماها إلا بالمحاكاة والتعليم فقط . ولكن دع الحب يفيض بجزائه وعاطفته على النفس ، تجد فجأة أن كل شيء طبيعي يبدو جميلاً : فيضع الحب همه في الأشجار والمياه الجارية ، ويجد سكينه ممتعة تشرق على فائض عاطفته وسعادته . والأزهار أبداع سائر الأشياء التي وهبتها لنا الطبيعة ، ومع ذلك فتلك الزهور أيضاً هي رمز التوالد ومعناه ، وهي آية للناس على الرقة والإخلاص . وعندما يتقلنا كرسنين ، ونحمد نار الحب ، نحمد الإعجاب بالطبيعة . فالشيخ الفاني كالطفل الرضيع لا يتأثر بفتنة الغابات وعيبرها ، أو بعظمة النجوم وبريقها ، أو بأمواج البحر المتدافعة . ففي كل عظمة في الأرض والسماء أثر لإله الحب إيروس Eros .

ه - الجمال الثالث : الفن

هذا الفيض من الحب الذي يمتد من الأشخاص إلى الأشياء ، ويحمل الأرض ذاتها التي تنمشي عليها ، يبلغ أجيراً ثورة الفن المبدعة . فتق عرف الإنسان

(١) Corot (١٧٩٦ - ١٨٧٥) مصور فرنسي مشهور بمناظره الطبيعية ، وتبرز عنده النزعة الرومانتيكية ، وضوء الشمس والفضاء . (المترجم) .

الجمال انتقشت صورته في صفحة ذاكرته ، وينسج مما رآه من البدائع جمالاً
مثالياً يربط ما في أجزائها من كمال في منظر واحد .

وينشأ الفن بيولوجياً من غناء الحيوانات المتسافدة ورقصها ، ومن سعيها
إلى أن تزيد بالصناعة ازدهار ألوان الزهور وتنوع صورها مما تميز به الطبيعة .
موسم الحب . وقد ولد الفن عندما بنى طائر البوير أول عش لأنثاه المبهجة
التياهة . ونشأ الفن تاريخياً بالنقش الزخرفي ، أو الثياب ، أو إحداث ندوب في
الجسم عند القبائل المتوحشة . ويذهب جروس Groos إلى أن أهالي أستراليا
الوطنيين يحملون على الدوام في جرابهم زاداً من الطلاء الأبيض والأحمر والأصفر .
ويقنع الرجل منهم في الأيام العادية بقليل من الوشم باللون على خديه . أما وقت
الحرب فانه يلطخ بدنه برسوم عجيبة تهدف إلى تخويف العدو . وفي الأعياد
وحفلات الحب يزين جميع بدنه بالنقوش ليجتذب عيون الفتيات . واللون الأحمر
أعز الألوان في هاتين اللعبتين ، وهما الحرب والحب . والأحمر عند بعض القبائل
له من القيمة ما يجعل أهلها يقومون برحلات كبيرة تستمر عدة أسابيع لتجديد
موثنتهم منه . ويكثر الرجال من طلاء أنفسهم أكثر من النساء . وفي بعض
الأماكن يمنع العوانس منعاً باتاً من تلوين رقابهن .

ولكن الطلاء سريع الزوال ، ولذلك بحث المتوحشون ، كالإغريق (الذين
كانوا يزدرون النقش لسرعة فساده) عن فن أكثر دواماً . ويلجأ البدائي إلى
الوشم ، فيشك جسمه في آلاف المواضع بآبرة ترسب اللون تحت الجلد . وكثيراً
ما يلجأ إلى التنديب scarification ، إذ يقطع الجلد واللحم ، ويتسع
التدب بالتراب الذي يملأ به الجرح بعض الوقت . وعلى طول جزائر تورييس
ستراتس Torres Straits يحمل الرجال على أكتافهم مثل هذه الندوب
التي تشبه الأشرطة العسكرية . ويسمى البوتوكودو Botocudo كذلك من
« البوتوك » ، أو الثقب الذي يجعلونه في الشفة السفلى أو في الأذنين منذ الشباب
الباكر ، ولا يزالون يوسعونه حتى لقد يبلغ في سعته أربع بوصات . عندما تقرأ
الفتاة المتحصرة هذه الأمور البربرية تهز قرطها في فزع .

ويظهر أن أول استعمال للثياب كان من أجل الفن لا المنفعة . ويروى .

أن دارون أخذته الشفقة على شخص من أهالي فوجيا ، كان يرتعش برداً ، فأعطاه ثوباً أحمر اللون يدثر به بدنه ، وأخذ المواطن الثوب فرحاً ومزقه شرائط وزعها على أقرانه فزينوا بها أيديهم وأرجلهم . ويتضح من هذه التضحية اللذيذة بالمنفعة في سبيل الجمال أن الفرق ليس كبيراً عند الفتاة العصرية التي تلبس الفراء صيفاً ، وتكشف عن نحرها دون خوف لرياح الشتاء .

وبعد أن زين الرجل البدائي بدنه بما فيه الكفاية انتقل إلى تزيين الأشياء ، فنقش الأسلحة ليعمى على العدو أو ليخيفه ، كما فعل أخيل بلدرعه . وكان يزين الآلات المصنوعة من الصوان أو الحجر ، ولا تزال موجودة حتى الآن من عهد ما قبل التاريخ . وكان الإنسان في العصر الحجري يزخرف جدران كهفه برسومات عجيبة تمثل الحيوانات التي كان يأمل في اصطليها ، أو تلك التي كان يعبدها كطواطم في قبيلته .

ومع أن الدين ليس منبع الجمال ، فقد كان نصيبه في نمو الفن أقل من نصيب الحب . وبمقدار ما نعرف نشأ النحت من النصب الغليظة التي كانت توضع علامة على القبر . ثم هذبتها الصناعة فأخذوا يحفرون طرف النصب على هيئة الرأس . ثم أخذوا ينحتون في عضور متأخرة النصب كله على هيئة إنسان (هرمس في فن الإغريق البدائي) ثم ازدادت العناية والصبر ، وسعى النحات إلى تهذيب تماثيله ، وإلى أن يبرز فيها ملامح الإله أو الجلد الذي يريد تخليده . ولم يعرف النحت الحب إلا في صورته الراقية ، ولذلك كان فيدياس أسبق دائماً من بركستيلس Praxiteles ، وجيوتو Giotto قبل كوريجيو Correggio .

ونشأ فن البناء من المقابر التي كان الموتي يدفنون فيها . وأقدم بناء أثرى في العالم ، وهو الأهرامات ، عبارة عن مقابر . وبدأت الكنائس كأضرحة للأموات ، وأماكن لعبادتهم ، ثم أخذوا ينقلون المقبرة بالتدرج إلى المكان المجاور ومع ذلك لا تزال قبور عظماء الأسلاف داخل كنيسة وستمنستر أبي . ومن هذه البدايات نشأت الهياكل الشاخمة التي أقامها الإغريق لبلاس أثينا وغيرها من الآلهة . ومن بدايات مماثلة نشأت تلك الآثار التي تعد أبداع ماشيده الإنسان ، وهي الكنائس القوطية التي تضم مذابحها كتلك المقابر القديمة رفات القديسين .

ويبدو أن الدراما نشأت من الشعائر الدينية واحتفالات الأعياد، وقد ظلت الدراما في أثنائها إلى زمان أوريبيدس الشاك شيئاً مقدساً. ونشأت الدراما الحديثة، وهي أبعد الفنون المعاصرة عن الدين، من القديس، ومن المواكب الدينية التي كانت تصور في العصر الوسيط حياة المسيح وصلبه. ووجد النحت رونقاً جديداً في زخرفة الكنائس، وبلغ فن النقش ذروته بوحي المسيحية.

وقد أظهر الفن صلته الخفية بالحب حتى وهو يخدم الدين. فثمة عنصر وثنى من روائع البدن يوجد في أقدم صور عصر النهضة. وأصبحت صور العذراء شبيهة بفينوس، والقديس يوحنا بأدونيس الرقيق، وأضحت صور القديس سباستيان دراسات صريحة في العري. فلما انتقلت النهضة من روما إلى البندقية انتصر العنصر الوثني، وسلم الفن المقدس للحب الدنيوى.

وكما أنه حتى الفن الدنيوى يرتوى من ينبوع الحب ليعيش، كذلك الأمر في كل عنصر آخر يتدخل في خلق الجمال. فللوزن مدخل، ولكنه يرتبط في الحال بالحب ليولد الغناء والرقص والشعر. وللمحاكاة مدخل، فتعين على نشأة النحت والتصوير؛ ولكنه الحب، البنوى أو الجنسي، الذى سرعان ما يحدد الموضوع الذى تصنعه المحاكاة. ولك أن تجمع بين الوزن والمحاكاة والدافع إلى الحب فتحصل على تسعة أعشار الأدب. وحتى أغنية دانتي الإلهية ولو أنها تهدف إلى أن تكون تمثيلاً للحياة الإنسانية، فإنها تصبح في النهاية أغنية حب.

هذا التيار الباطنى من طاقة الحب هو الذى يغذى عاطفة الفنان المبدعة، وتتخذ العلاقة بين الحب والفن عند بعض الفنانين صورة نمو سريع للجنس والفن في آن واحد، وينشأ من هذا الاتحاد الطراز الرومانتيكى للبعقرية. فسافو والإسكندر ولوكريتيوس؛ وبيرون وشلى وكيثس وسونبرج؛ وهوجو وروسو وفيرلين؛ وبتارك، وبيرونو، وجيورجيو، وشلر وهينى وبو؛ وشومان وشوبرت وشوبان وسترنبرج وأرتزباشف، وتشيكوفسكى: هؤلاء هم النموذج الذى يتغلب فيه الخيال على العقل، ويحرق الجنس والفن النابغان بأسراف من الأصل نفسه الفنان ويتركانه ميت الجسم أو الروح قبل أن ينفذ شبابه. ولما كانت الرغبة فيهم عذاباً فقد امتازوا بالحساسية، والانفعال، والتألم

الدائم ، والحيال الذى لا يعرف الحدود . ويفتنهم كل متطرف وعجيب وغريب .
هوؤلاء هم الذين يبدعون الشعر والتصوير والموسيقى والفلسفة والحب ، ويعزهم
كل محب .

ولكن الفيضان الجنسى يكبت عند غيرهم من الفنانين ويكاد يتحول تماماً
إلى الإبداع ، فيفقد الحب سلطانه ، وتقلم أظفار الانفعال ، ويزدهر العقل
ويتحكم فى كل شىء . ونشأ من هذا التسامى قدامى العباقرة : سقراط وسوفوكليس .
وأرسطو ؛ أرشميدس وقبصر وجاليليو ؛ جيوتو وليوناردو وتينيان ؛ بيكون وملتون
ونيوتن وهوبس ؛ باخ وكانط ، وجوته ، وهيجل ؛ تورجنيف ، وفلوبير ،
ورينان ، وأناطول فرانس . وهوؤلاء قوم هادئون كبجوا جماح الشهوة ورفعوا
فوضى أنفسهم إلى نجوم متألقة . إنهم يعملون فى بطاء بعزم وصبر أكثر مما
يعملون « بالإلهام » والعاطفة . ويتحدثون ويتصرفون بحساب وضبط . إنهم ينمون
ببطء ، ويكون إبداعهم بعد الثلاثين أفضل منه قبل ذلك ، ويحققون الشهرة
آخر العمر ، ويعمرون طويلاً . إنهم لا يتفوقون على الطراز الرومانتيكى فى تلك
الذخيرة من الطاقة الممتازة التى تعد الحاكم العام والأصل فى كل عبقرية . ولكنهم
لا يشغلون إلا الشىء القليل من تلك الذخيرة فى الأمور الجنسية ويدخرون
معظمها للفن . كان ميخائيل أنجلو وبيتموفن ونابليون من العظماء الممتازين ، لأن
النموذجين من العبقرية اندجبا فيهم إلى وحدة تكاد تكون أسمى من الإنسان .

ولقد قال نيتشه : « عبقرية المرء تسترف دمه » ، لأنها تحرقه فى شعلتها .
ولكن هكذا يفعل الحب . فاذا اجتمعا على حرق الإنسان فى وقت واحد تكلم
فى حماسة وإشراق ، ولكن صوته سرعان ما يخفت . كل عبقرية ، ككل جمال
وكل فن ، تستمد قوتها فى النهاية من ذلك المستودع نفسه للطاقة المبدعة التى
تجدد الجنس البشرى باستمرار ، وتحقق للحياة الخلود .

٦ - الجمال الموضوعى

والآن لا يزال أماننا سؤال من بين ما خلفناه من أسئلة يلح علينا طالباً
الجواب . أيجكون الجمال شيئاً موضوعياً أم شخصياً فقط ، وهوى ذاتياً ؟

يعتقد إليس الذي تفرض حكأامه الاحترام لأنها مؤسسة على أكثر معارف عصرنا عموماً ، أن الجمال مستقل عن شخص الملاحظ ، وهو يقيم حكمه على ما يبدو له من إجماع جوهرى في إثبات الجميل بين معظم أجناس العالم ، ولو أننا لا نستطيع إصدار مثل هذا الحكم بناء على موسيقى الصينيين وتشويه أجسام الزولو . فالجمال كالأخلاق يميل إلى التنوع مع اختلاف البيئة الجغرافية . ويروى دارون أن الوطنيين في تاهيتي يعجبون بالأنف المفرطحة ، وكانوا يضغطون على أنوف أطفالهم وجباههم لتجميلهم ، كما يقولون^(١) . ويتقرب شعب المايا الأنوف والآذان لتزيينها بالأقراط ، ويقلعون أسنانهم ويرصعونها ، ويبطون رعوس أطفالهم حتى تصبح كقمع السكر ، ويجعلون العين حولاة لأنهم كانوا يظنون أن هذا هو الجمال^(٢) . ولقد دهش منجو بارك حين سمع سود أفريقية يسخرون من بشرته البيضاء . ولما رأى الأولاد السود في ساحل شرق أفريقية ريتشارد برتون صاحوا : « انظروا الرجل الأبيض ، ألا يبدو كالقرد الأبيض ؟ » ونحن نظن كذلك أن الزولو يشبه الغوريلا السوداء . أكبر الظن كما قال فولتير أننا جميعاً على صواب .

أو تأمل ما نسميه ثقل أرداف steatopygy بعض الحسانوات في أفريقية . وفي ذلك يقول دارون : « من المعروف أنه عند كثير من نساء الهوتنتوت يبرز الجزء الخلقى من الجسم بشكل عجيب ... ؛ ويؤكد السير أندرو سميث أن هذه الخاصية تعجب الرجال إعجاباً شديداً . فقد رأى ذات مرة امرأة تعد مثالا للجمال ، وكانت أردافها متضخمة إلى حد أنها إذا جلست على الأرض لم تستطع أن تنهض ، وكان عليها أن تدفع نفسها إلى الأمام حتى تأتي عند منحدر . وتوجد هذه الصفة الغريبة نفسها عند بعض النساء في كثير من قبائل الزنوج . ويروى برتون أن رجال الصومال ينتقون زوجاتهم بأن يضعوهن في صف واحد ، ثم يختارون من كانت أردافها أكثر بروزاً : وليس أبغض عند الزنجي من الهيئة المضادة لها^(٣) . ولا مشاحة في الأذواق .

Descent of Man, p. 665. (١)

Thorndike, L., Short History of Civilisation, p. 395. (٢)

Descent of Man, p. 660. (٣)

وحتى عند الأوربيين يختلف مثال الجمال من شعب إلى آخر ومن عصر إلى عصر . فقد كانت البدانة بدعة في بعض الأوقات . تأمل السيدات اللاتي صورها روبنز ، والصبايا الممتلئات في صور مبراندت . حتى العذراء في رسوم رفائيل مزدهرات الجسم . ولكن حسناوات رينولدز وجنزابورو ورومى أكثر من ذلك رشاقة . أما نساء هويسلر فمشوقات القد وبغير أرداف . وفي خلال الجيل الذي نعيش فيه تغير ذوق المرأة في جسمها من الامتلاء الدورى (١) خلال doris إلى الرشاقة الكورنثية . فهينات الجسم تتخذ كأزياء الثياب شيئاً من التنوع والقداسة .

فن الواضح إذن أن ثمة في تقدير الجمال عنصراً كبيراً شخصياً وجنسياً وذاتياً . ويبقى بعد ذلك عنصر موضوعي واحد ، ذلك هو الإيثار العام للرجال السويين للنساء اللاتي تبشر هيئتهن بأمومة قوية . والأصل أن كمال الوظيفة الطبيعية هو الذي يبعث اللذة لصاحب الذوق السليم ، ويكون ذلك في المرأة أولاً ثم في كل شيء . فكل عمل يؤدي على أحسن وجه ، وكل حياة يحسن المرء معيشتها ، وكل أسرة حسنة التربية ، وكل آلة تحسن أداء العمل المهيأة له ، كل ذلك يرغمننا أن نقول : « هذا شيء جميل » . ولو كنا أصحاء بمعنى الكلمة لاعتبرنا المرأة الصحيحة التي ترضع طفلها الصحيح أعلى صورة من صور الجمال في هذا العالم . وهنا نجد أن فن العصر الوسيط والنهضة وما يمتازان به من صور العذراء والطفل كان أرق وأصح في ذوقه من فنوننا . فنحن وقد انحرفنا بالفن إلى الانحلال أصبحنا نشتاق إلى التحاف من النساء اللاتي يشبهن الزنابير لا يلدن بمقدار ما يلبسن . لو أن غراثرنا لم تفسدها أدوات الزينة ، ولم تنحرف بالمال ، لبقيت حاسة الجمال فينا سليمة بيولوجيا ، ولكان الحب أفضل السبل لتحسين النسل . ولعاد الجمال كما لزدت له الطبيعة أن يكون فأصبح زهرة الصحة وبشيرها ، والضامن للأطفال الكاملين ؛ وعمل مرة أخرى لخير الإنسانية لا لإضعافها . وهنا يلتقي الخير بالجمال ؛ فنصل إلى النتيجة التي انتهى إليها أفلاطون من أن : « مبدأ الخير يرتد إلى قانون الجمال » (٢) .

(١) نسبة إلى العصر الدورى في الحضارة اليونانية القديمة (المترجم) .

(٢) Philebus, S 64 ; in Bosanquet, History of Aesthetics, p. 33.

لقد تردد أفلاطون في هذه المسألة ولم يعرف بالضبط لمن يرجع ، الحكمة
أثينا القوية ، أم للملاحة أفروديت المشرقة . لعله كان على حق في تروده ، فالجمال
كما رأينا من العسير أن نجعله دعامة الدولة الكاملة وأساسها . ولكن ما فائدة
الحكمة إذا لم تجعلنا نحب الجميل ونخلق جمالا جديداً أبهى مما تقدمه الطبيعة ؟
الحكمة وسيلة ، والجمال ، في الجسم والنفس ، غاية . والفن بغير علم فقر ،
ولكن علم العلم بغير فن بربرية . بل إن الفلسفة الإلهية وسيلة إلا إذا وسعنا آفاقها
لتشمل سائر مهام الحياة المتناسقة وآلاتها وقيمتها . إن الفلسفة إذا لم تحركها
ملاحة الجمال فهي غير جديرة بالإنسان .

لقد زال شيء عن مصر ما عدا العظمة الهائلة التي رفعتها من الرمال .
وفى كل شيء عند الإغريق وبقيت حكمها وفنونها . إن الجمال الحى أعظم
أنواع الجمال ، ولكنه يذبل مع تقدم العمر ويفسده الزمان . والفنان وحده هو
الذى يستطيع أن يضع يده على الصورة العابرة ويطبعها في قالب يغالب الفناء .
أو كما قال جوتييه (١) :

كل شيء إلى فناء
سوى الفن فالى بقاء
ويبقى تمثال الرخام
وتمضى الدول إلى هباء
الدينار يكشفه العامل
من الأرض فى شقاء
عليه وجه السلطان
روحه مستقرة فى السماء
تموت الآلهة ويبقى
رصين الشعر إذا يشاء

(١) جوتييه Gautier (١٨١١ - ١٨٧٢) شاعر فرنسى وتصوى مشهور بحسن نظمه ،
كان من أعظم أنصار مذهب الفن للفن (المترجم) .

الإشراف الفنى: حسن كامل

التصميم الأساسى للغلاف: أسامة العبد

كانت الفلسفة لغة الخاصة وشُغل فريق من الناس، وُعدت زمنًا بين
التعاليم السرية والمضنون بها على غير أهلها... ويراد بها اليوم أن
تنزل من سمائها وتعيش مع عامة الناس على أرضهم، وتنتقل من
أرستقراطية الفكر إلى ديمقراطية البحث السهل الطليق... وقد اضطلع
ديورانت بهذا العبء وشاء أن يقيم فلسفة متماسكة للحياة... فجاء
عرضه شيقًا جذابًا، يؤذن باطلاع واسع، وإلمام تام بالفلسفة والتاريخ
والعلم والأدب...

من مقدمة الدكتور إبراهيم مدكور